

تأليف

الدكتور محمد فوزي فيض الله

أستاذ ورئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق (سابقاً)

ورئيس قسم الفقه والأصول في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة الكويت





الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٢٩١٧٧

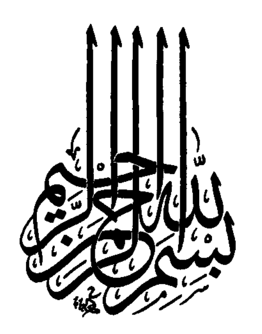
الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب: ١١٣/٦٥٠١ - هاتف: ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية

من دار البشير بجدة

جدة: ٢١٤٦٣ - ص.ب: ٢٨٩٥ - هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١


صور وعبر
من الجهاد النبوي في المدينة


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

من أضعف الخلق . .

إلى صفوة البشر ، وأعظم الخلق . .

الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة . .

علمِ الهدى ، وخاتمِ النبيين . .

وإمامِ المتقين ، وقائد المجاهدين . .

سيدِنا ومولانا ، وحبيبنا وشفيعنا ، وقرَّةِ أعيننا :

محمد رسول الله . . .

صلَّى الله تعالى وسلَّم عليه وعلى أصحابه وأتباعه

كلما ذكره الذاكرون ، وغفل عن ذكره الغافلون .

محمّد فوزي فيض الله

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

* ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

* ﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

صدق الله العظيم

[سورة التوبة: الآيتان ٣٨ و ٣٩]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضلُ الصلاة، وأتم التسليم، على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المجاهدين، وعلى آله وأصحابه الغُرِّ الميامين، الذين جاهدوا معه في الله حق الجهاد، ونشروا شرعه في البلاد؛ وعلى كل مَنْ تأسّى بهم في جهادهم، وسَلَك مسلكهم في الدعوة إلى الحق المبين، ونصرة هذا الدين.

قال الله ــ جَلَّ وعزَّ ــ :

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

صدق الله العظيم، وتمَّت كلمته؛ فبمشيئةِ الله كتبت هذه الفصول من السيرة النبوية المطهرة، وبمشيئته ــ سبحانه ــ أُسند إليَّ تدريس مقرر القسم الثاني من (فقه السيرة) في شريعة دمشق؛ وبمشيئته وإرادته ــ جلَّ وعلا ــ نُحيت عن أصول الفقه؛ الذي درسته بضعة عشر عاماً، وكتبتُ فيه (مباحث الكتاب والسنَّة من علم الأصول) لأشتغل بتدريس هذا الجانب العظيم، من حياة نبيِّنا الأعظم صلوات الله وسلامه عليه، وهو حياته الحربية في المدينة المنورة، واستخلاص الدروس النافعة، والعبر منها.

نعم، كان انصرافي عن علم الأصول، إلى سيرة الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ من مشيئة الله، ومن قَدَرِ الله، كما كان من عظيم رحمته، وبالغ حكمته.

فقد أتاحت لي هذه النقلة فرصة الاتصال بكتب السيرة، ودراسة ما كتب فيها

---

(١) سورة المرسلات: آية ٣٠.

القُدامى والمُحْدَثون، والتعمّق في الجانب الجهادي منها، على التخصيص، والتركيز على مواطن العبر والدروس منها، وتجليتها لأبنائي الطلاب، في المذكرات والمحاضرات.

لقد أفدت بذلك ثقافة روحية، وحظاً من العلم بالسيرة النبوية، والسنَّة الشريفة، ومواقفِ السلفِ الصالح، الممثّل في خير القرون، في الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، والتضحية بالمال والنفس ابتغاء مرضاته؛ ووقفت على صور أخّاذةٍ من البطولات الفذَّة، والمُثُلِ الإنسانية الفريدة، والإيثارِ العجيب، والصبرِ المصابرِ، والصلةِ الوثيقة بعلاَّم الغيوب، والإيمانِ الراسخ بالدار الآخرة.

وكانت بؤرة ذلك كله، متمثلةً في شخصيةِ الرسول الأعظم ــ صلوات الله تعالى وسلامه عليه ــ وصحابته من حوله، أولئك الذين بايعوه على الموت، ووفوا بعهدهم، فآمنوا بدعوته، ونصروه حين خذله قومه، وتصدّوا لدينه، فهاجروا معه، وآووه في ديارهم، وآثروه على أنفسهم وذويهم، وجاهدوا معه في كل معركة، وما تخلفوا عنه في غزوة؛ وتحملوا في ذلك الشيء الكثير من شظف العيش، ووعثاء الأسفار، وطيِّ القِفَار، وخوض الوديان، وصعود الجبال، ومعاناة العطش الخانق، والجوع القاتل، وفرقة الوطن والأهل الولد، ومقارعة الكفار، وجلاد المشركين العتاة.

كانت حياة النبيّ ﷺ وحياة صحابته معه، كلها بطولات، وكلها تضحيات، وكلها جهاد، وكلها لله، وفي سبيل الله، ولهذا استطاع ــ بتوفيق الله ــ أن يستأصل جذور الشرك في مكة، وأن يكسر جذوعه في الجزيرة العربية، وأن يطلّ بغزواته على مشارف الشام، ويهدِّد حكامها القياصرة؛ كما استطاع أن يؤسِّسَ في مدينته الخالدة، أول دولة مسلمة، في دنيا الناس، تقوم علماً وعملاً على التوحيد، والحرية، والمساواة، والعدل المطلق بين الناس في ظلها: فلا مقام فيها للعنصريات، ولا للجنسيات، ولا للأحساب، ولا للأعراق، ولا للّغات وللألسن المختلفات: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ».

وسنرى أن أول ما أرساه النبيّ ﷺ في المدينة بعد الهجرة إليها المسجد، وأول ما وطَّده في مجتمعها النموذجي هو الأخوة الدينية، وأول ما اتخذه حيال المخالفين له في الدين هو إبرامه الوثيقة التاريخية.

وأن القتال لم يشرع إلا في العهد المدني، بعد الهجرة، وأنه شرع لا للإكراه على الإيمان، كما يزعم بعض الناس، إذ: «لا إكراه في الدين»؛ ولا للدفاع، ولا كان مرحلة دفاعية ـ كما يرى بعض الكاتبين ـ؟ بل شرع لضرورة حماية الدعوة من كل ما يصدُّ عنها، أو يقف في سبيل انتشارها. ولهذا كان أول من قاتلهم قريشاً، وهي عائدة من الشام بقافلتها، وتلك أول غزاة غزاها، وهي غزوة بدر الكبرى. ثم تتالت غزواته، ومواجهاته المشركين، في بضع عشرة غزوة، حاشا السرايا، التي بعثها بقيادة بعض أصحابه.

وقد عنيت بإبراز مبادىء الفكر الإسلامي في هذه الغزوات؛ في السِّلم والحرب، في القيادة والطاعة؛ وفي فنون الحرب ورباطة الجأش؛ وفي التركيز على أخلاق اليهود، وخصال المنافقين، وأبعاد الدعوة وصفات الدعاة، ومواقف الرجال والنساء من الصحابة في البطولات والتضحيات في حب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ؛ وفي الإشادة بالخلق الإسلامي وسلوك المسلمين في أحوال الانتصار وعواقب الانكسار، وفي الإشارة إلى المعجزات النبويَّة، وكرامات أولياء الصحابة؛ وفي الإعلان عن أركان العقيدة، وشعائر الإسلام، كلما انقدحت الغزوة؛ وفي التنويه بمهارة الرسول ـ صلوات الله تعالى وسلامه عليه ـ الحربية؛ وخبراته بفنون القتال، وفي تحليه بالأخلاق الكريمة في أسفاره وحروبه، وامتزاجه بأصحابه وحدبه عليهم وترفُّقه بهم في سائر الأحوال؛ وفي الإبانة عن مكانة الشورى في نظام الحكم والبيئة، في الإسلام، وفي إعلان الحرب وعقد الصلح وما يَسْتَتْبعانه؛ ثمَّ في تعميق الصلةِ برب العالمين، وإخلاص الدعاء له، واستنزال النصر من عنده بالطاعة المطلقة، والإعداد التام للقتال؛ ثم في مناقشة بعض

الكاتبين فيـما انزلقوا فيه من أوهام لا تقف أمام الحقيقة الواضحة، والنقد الهادىء.

ثمَّ في الإشارة ــ في كل مناسبة ــ بمكانة الجهاد في شرعة الإسلام، وأنه ليس كمثله شيء في نجاح الدعوة إلى الله، ونشر الدين، وتبليغ الدعوة، ورد الحق المغتصب، وإعادة الحق إلى نصابه؛ وأنَّ الدعوة إلى الله تبدأ بالحكمةِ والإقناع، والجدال الحسن، ثم بفرض الجِزىٰ التي تضمن الهدوء وعدم مقاومة نشر الإسلام، وتنتهي بالحرب الفاصلة بين الحق ودعاته وبين الباطل وأنصاره. . .

هذه وغيرها من الخِلاَل والمبادىء التي عنيت بتسجيلها في دراسة غزوات الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ وجهاده السامي. فما يَكُ من صحةٍ وصواب فبتوفيقٍ من الله وهداية من لَدُنْه؛ وما يكُ منها من عَثار أو خطأ، فمن سهوِ القلم، وكبوةِ الفكر؛ والخير أردت، وما استهدفت إلاَّ توضيح هذا الجانب الهام من حياة سيدنا رسول الله ــ صلَّى الله تعالى وسلَّم عليه ــ وأن تكون لي ذَرَّة من الخدمة المخلصة في رحابه الواسعة الطاهرة الشريفة؛ فيمسَّني بطرف من شفاعته العظمى، تغفر الذنب وتستر العورة، وتؤمِّن من الروعة الكبرى، ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

الكويت ــ الشويخ

الخميس: ٥ من ذي القعدة الحرام ١٤٠٤هـ.

٢ / ٨ / ١٩٨٤م.

محمد فوزي فيض الله

(١) سورة الدخان: الايتان ٤١ و ٤٢.

تَمْهيد

لم أفهم من هذه المقالة (فقه السيرة)، التي اتخذت مقرراً دراسياً في منهاج كلية الشريعة في دمشق، أن المقصود هو إعادة كتابة الفقه الإسلامي، من خلال ما توحي به السيرة النبويَّة الشريفة؛ فلو صح هذا لكان أول من كتب تحت هذا العنوان أحرى بأن يسرد لنا الأحكام الفقهية، التي يصح أن تؤخذ مما تناوله من أحداث حياة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وعلى التخصيص هذه التي نحن الآن بصددها، وهي حياته الحربية في المدينة؛ لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، ولعله لم يفكر فيه، ولا طرأ على ذهنه.

ولو استقام هذا الفهم لكنا متَّجهين إلى إعادة كتابة أحكام الفقه الإسلامي من جديد، مستقاة من السيرة النبويَّة. وما يكون في هذا التكرار من فائدة، بل ربما جَفَّف من غضارة الفقه، وأثقل وقعه في نفوس الدارسين من أبنائنا الطلاب، وأورث الزهد فيه، والملل منه، شأن الأحاديث والقصص المتكررة.

إنَّ محل الأحكام الفقهية الطبعي هو كتب الفقه، ومذكراته الخاصة التي يطرحها الأساتذة على طلابهم من وقت لآخر، وفي ذلك الغناء كله؛ إنما نفهم من: (فقه السيرة) التعمق في دراسة السيرة، واستخراج مكنون العبرة، ومعطيات البحث الدقيق المجرّد: من مبادىء حياة، وقواعد في الجهاد، ودروس في الدعوة، وأصول في التحرك الإسلامي. . .

نفهم من : (فقه السيرة) مثل الذي يفهمه العربـي من (فقه اللغة) ـ مثلاً ـ وليس هو إلا الدرس المتعمِّق المنقِّب الباحث.

ومع ذلك فقد رجعنا إلى منهاج هذه المادة: (فقه السيرة) في تقويم كلية الشريعة (ص ٤١ و٤٢)، فلم نجد فيه ما يقرب هذه المادة من الفقه، ولا ما يلوح بصلتها به. . . كل ما وجدناه: الإشادة بالتربية الحربية، والسموّ بالنفس المؤمنة إلى عالم الأشواق، بابتغاء الشهادة في سبيل الله، وتوجيه العناية إلى الآيات القرآنية في دراسة الغزوات. وهذا من فيض السيرة النبويَّة العطرة، التي تمثل الجهاد النبويّ في العهد المدني، الذي اكتمل فيه المجتمع الإسلامي، وقامت دولته الدينية المدنية الفتية، تشرق بنورها على العالم المتخوِّض في شيء كثيف من الشرك والكفر والتخلّف والجهل والعناد.

وهذا هو الجديد الذي ينبغي التركيز عليه في دراسة السيرة النبويَّة، مما تمسّ الحاجة الواعية إليه، وليس هو الأحكام التي غُصَّت بها قبلاً كتب الفقه.

وعلى هذا الأساس سنكتب هذه الفصول من السيرة، في الأحداث البارزة، والغزوات الهامة الغنية بالدروس والعبر.

ولو استطعنا لاعتذرنا عن الكتابة فيها، وتركناها لذوي الاختصاص الدقيق من أهل التاريخ، لولا أن عمادة الكلية ذكَّرتنا بهذا الذي رغبت به مجالس الجامعة، من أن: على كل أستاذ أن يقدِّم إلى طلابه كتاباً في المادة التي يدرسها، أو يكتب فيها أمالي أو مذكرات.

ولو أن عمادة كلية الشريعة أسندت إلينا ــ مع عدم اختصاصنا ــ هذه المادة في أوائل الصيف، عند انتهاء العام الدراسي المنصرم، كما تفعل سائر الكليات الجامعية، من التبكير في إطلاع الهيئة التدريسية على مقرراتهم التي سيحاضرون فيها في العام المقبل، لكي يقوموا بمسؤولياتهم حيالها، بحثاً وتقييداً وتأليفاً ــ

لأحسنت بذلك إلى العلم وطلابه، وأفسحت المجال للبحث العلمي الهادىء المثمر؛ لكنها أرجأت ذلك ــ كعادتها ــ حتى بدأت الدراسة في الكلية فعلاً في عامها الجديد هذا، فتزاحمت المواد، وتلاحقت الواجبات، وتتابعت المحاضرات.

فأضفنا بهذه السطور فصولاً وغزوات ودروساً إلى ما كتبناه قبلاً، في مقرر السيرة النبويَّة، على طلاب السنة الثانية من الكلية، في زحمة من الأعباء والمسؤوليات الجامعية، آملين أن تتصل كتابتنا فيها حتى نهاية العهد النبويّ الكادح المكافح البناء، سائلين المولى ــ جلَّ وعلا ــ أن يمنَّ علينا بنعمةِ الإخلاص في البحث وإظهار الحق، وتأييده، وأن يجزل حظّنا من الأسوة النبويَّة الحسنى فيما نكتب، علماً واعتقاداً وتطبيقاً، إنه سميع مجيب.

٢١ من المحرم ١٣٩٧هـ
١١ من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٧م

محمّد فوزي فيض الله

المسجد

مما يروى أن رسول الله ﷺ قَدِم المدينة يوم الاثنين، لاثنتي عشرة ليلة خَلَت من شهر ربيع الأول وأنه خرج من الغار يوم الاثنين مطلع الشهر.

وكان أولَ ما عمله أن أسس مسجداً في قُباء، تلك القرية الهادئة النائمة على مقربة من يَثْرب، يَجُوز بها كل من دخلها؛ وشارك في بنائه، فحمل الحجارة على بطنه، ووضع يده الشريفة حجراً في قبلته، ثم وضع الصِّدِّيق بجانبه حجراً، ووضع عمر بجانبه، حجراً ثالثاً، وأخذ الناس بعدهم في البناء.

وهذا المسجد أول مسجد بني في الإسلام، وهو المؤسَّس على التقوى، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾(١).

وبعد أن لبث أربعة أيام في قُباء غادرها يوم الجمعة، ميمِّماً وجهَه شَطْر يَثْرب، وأدركته أول جمعة، فصلاّها بالناس في الطريق، ودخل يَثْرب في السادس عشر من الشهر المذكور.

وبركت الناقة التي استقلّت النبيّ ﷺ في مِرْبد أمام محلة بني النجار، وكان لغلامين يتيمين في المدينة، يكفلهما سعد بن زرارة، فيه شجر نخيل وغَرْقد، وخِرَبٌ وقبور للمشركين، فساومهما فيه، ولم يرضه هبة منهما، وأمر الصِّديق بنقد ثمنه، فأعطاهما عشرة دنانير، وأمر بالقبور فنبشت، وبالخرب فسوِّيت، وبالنخل فقطعت.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٨.

اتُخِذَت قبلة المسجد إلى الشمال، تجاه بيت المقدس، وجُعلت عضادتا الباب من الحجر، والأعمدة من جذوع الشجر، والجدُر من اللبِن، والسُّقف من الجريد، وكان لا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً؛ وكانت الأرض من التراب، فحصبت بعد أن وحلها المطر. ولم تفرش أرضه بالحصر، ولم تنقش جدرانه، بل كان في غاية البساطة، إذ كان الاتجاه إلى صنع الرجال، وعمالقة الأبطال، والسابقين الأولين إلى الإسلام، ليقوموا به، لا ليشغلوا عن رسالته بالنحت والزينة، ومظاهر الحضارة المزيّفة المعقدة.

لقد بلغ من اهتمام النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالمسجد، أنه بنى مسجدين للمسلمين، في بضعة أيام، وساهم في بناء كلا المسجدين، وارتجز بعض الصحابة هذا البيت، وهو يحمل الحجارة، أو يرسي القواعد، أو يرفع الجدر:

لَئِنْ قعدنا والرسولُ يعمل فذاك منا العمل المُضَلَّل

وربما أنشدوا مغنّين يروّحون عن أنفسهم:

لا هُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وهذا يشير إلى مبلغ عناية الإسلام بالمسجد، وبالغ مكانته فيه، حتى كان أولَ أعمال النبيّ ﷺ في المدينة. فالمسجد بُؤْرة التوحيد، ومركز الإشعاع الروحي، ومنطلق التوجيه الديني: فهو المجتمع لأداء فريضة الإسلام الكبرى، وشعيرته الأولى؛ وهو المدرسة التي تتلقى فيها التعاليم المحمدية، وهو المصنع الذي تصاغ فيه الأمثلة التطبيقية الصحيحة النموذجية للإسلام، وهو المصفاة تجلو صدأ القلوب، وتنفي عنها أدران الدنيا، وخبث المادة؛ وهو مراح الأرواح، فيه غذاء العقول، وجلاء الأفهام، ومنار الحق والحقيقة؛ ثم هو بعد ذلك المعراج لمن يشاء الصلة بعلام الغيوب.

إن المسجد مهوى أفئدة المؤمنين، ومُتَرَدَّدُ المصلين، ومَعْلَمَة هذا الدين، يتلقى فيه المسلمون كل يوم خمس مرات دروساً عملية، في المساواة الرفيعة، والطاعة المثلى، والانقياد الخاضع الخاشع لرب العالمين؛ وفيه تشيع المحبة المخلصة المترفعة عن الأغراض والحطام، وتنعقد أواصر الأخوة الدينية التي تفجّر في المصلين التراحم، وتدفّق فيهم معاني الإيثار، وتوطّد عرى التناصر والتآلف، فيعرف المسلم لأخيه حقَّه، ويهتم بأمره، ويواسيه في محنته، ويمنحه بِرّه، ويبذل له الكثير من ماله وولائه ومودته.

من أجل هذه المقاصد الإنسانية الحيوية النبيلة، حرص الإسلام على إقامة المساجد، وبثّها الخلفاء والحكّام في كل مصر إسلامي، حتى كانت رمز الإسلام، وعلامة التوحيد في كل بلد إسلامي، في الماضي والحاضر.

وإليكم أول خطبة في الإسلام، بما تبثُّه في النفس من بذل وتودد، وخشية لله، وتبصرة بمواقف القيامة:

في سنن البيهقي عن عبد الرحمن بن عوف قال: كانت أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ في المدينة أن قام فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد أيها الناس! فقدموا لأنفسكم! تعلمنَّ والله ليُصعقنَّ أحدكم، ثم ليدعنَّ غنمه ليس لها راع، ثم ليقولن له ربه ــ ليس له ترجمان، ولا حاجب يحجبه دونه ــ : ألم يأتك رسولي فبلّغك، وآتيتك مالاً، وأفضلت عليك؟ فما قدّمت لنفسك؟ فينظر يميناً وشمالاً، فلا يرى شيئاً، ثم ينظر قدّامه فلا يرى غير جهنم؛ فمن استطاع أن يقي نفسه من النار ولو بشق تمرة فليفعل. ومن لم يجد فبكلمة طيبة، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. . .».

ارتاد الصحابة مسجد رسول الله ﷺ واطمأنوا إليه، وترددوا عليه، في الأسحار والآصال، وفي البكور والعتمات، تفهّموا فيه دينهم، ولُقِّنوا رسالتهم في

هذه الدنيا، وتأدبوا بأدب السماء؛ نقلتهم تعاليم المسجد من الخوف إلى الأمن، ومن الضعف إلى القوة، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن عزلتهم في جاهليتهم إلى سيادة الدنيا وقيادة العالم.

وإذا كانت للمسجد هذه المكانة التي لا تُغالَبُ، لا جرم كان ما أرساه النبيّ ﷺ في مدينته، من أسس حضارته الإنسانية الخالدة. وكان رواده دائماً هم أهل الإيمان: ﴿ٱلْآمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾[1]. فهذا قول النبيّ ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد، فاشهدوا له بالإيمان»[2]. ومن السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، «رجل قلبه معلق في المساجد»[3].

* * *

الأخوّة الدينيّة

كان لا بد لرسول الله ﷺ بعد أن أرسى المسجد، مجمع المسلمين الروحي، أن يطلَّ على المجتمع الجديد، الذي تكوَّن في المدينة بفضل هجرته إليها، فيقيمه على قاعدة صلبة راسخة، لا تعصف بها الأهواء والمنازعات، ولا تؤثِّر فيها العصبيات والمنافسات القبلية، لأن المجتمع هو دعامة الدولة المسلمة، التي كان بصدد تكوينها.

كان بين الأوس والخزرج من الأنصار في المدينة، خلافات واصطدامات مسلحة، أرهقتهم قديماً، وكان آخرها يوم بُعاث المشهور، الذي التهم كثيراً من ساداتهم ونبلائهم، وألحق بالطرفين المتنازعين خسائر مادية لا تقدَّر.

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢.

(٢) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه البيهقي في الأسماء.

وكان المهاجرون في فاقة ظاهرة، إذ تركوا دورهم وأموالهم في مكة، وحال كفار قريش بينهم وبين ثرواتهم، وجرّدوهم من كل ما يملكون، على ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ . . .﴾[1] وكان في الأنصار فضل ثراء من زرع وضرع، وصامت وناطق، يمكن أن يسد من عوز المهاجرين، ويقيم في أودهم.

فرأى النبيّ ﷺ انطلاقاً من روح التراحم والتعاون والتضامن في الإسلام، وليضع الذين رحبوا بمقدمه، واحتفوا بهجرته، أمام مسؤولياتهم الدينية والاجتماعية؛ أن يستأصل شأفة الأحقاد الموروثة فيهم، ويقطع دابر الفقر المهاجم الجاثم على صدور أكثر المهاجرين، وذلك بأن يعقد الأخوة الدينية بين المهاجرين والأنصار، فأمرهم بأن يتآخوا في الله أَخَوين أَخَوين، أخوة عملية جامعة موحدة، تمسح الأنانية المستأثرة البغيضة، وتبذل المال والدم، وتقبر العصبيات الذميمة الفارغة، وتحيا بالإسلام وللإسلام. فتآخى أبو بكر وخارجة بن زيد، وعمر وعتبان بن مالك، وعثمان وابن النجار، وأبو عبيدة وسعد بن معاذ، فتقول الروايات: إنه ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

ونذكر هذه الصورة المعبرة عن مبلغ الإيثار الذي تحلّى به الأنصار، وعلو الهمة والنبل اللذين كان يتخلق بهما المهاجرون. فقد روي أنه لما آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف المهاجر، وبين سعد بن الربيع الأنصاري، قال سعد هذا لأخيه عبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالي نصفين: ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فسمِّها لي أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها؛ فقال عبد الرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك! أين سوقكم؟ فدلُّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقِط وسمن؛ ثم تابع الغدو، ثم جاء يوماً وبه أثر صُفرة ــ زينة ــ فقال له النبيّ ﷺ: مَهيمَ؟ ــ يسأله عن

---

(١) سورة الحشر: الآية ٨.

حاله ــ قال: تزوجت. قال: كم سقت إليها ــ يعني من المهر ــ؟ قال: نواة من ذهب.

وعمل غير عبد الرحمن بن عوف من أهل مكة الماهرين في التجارة، وعمل آخرون منهم في الحقول والزروع.

وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار عطاءً وتكافلاً، ولم تكن تواكلاً وقعوداً عن الرزق، كما تمثّله قصة سعد هذه؛ وكانت درساً عملياً خلقياً في الحياة الاجتماعية النظيفة الشريفة الهادئة، لم يتخلله استغلال واستنزاف، ولم يتسرّب إليه طمع أو جشع فيفسد.

ولا يبلغ القلم وصف الشأو الذي بلغته هذه الأخوة، وسجلته فريداً في سمع التاريخ وبصره، ذلك أنها كانت فيضاً من النبوة، ونبعاً من خير الهدي المحمدي، كانت قوة ووحدة أحكمها دين التوحيد.

وهكذا استطاع النبيّ ﷺ أن يقلب العداء إخاءً، والحقد حباً؛ ويحوّل الأثرة إلى إيثار جميل حميد فريد، فأشاع في مدينته المثلى ــ وربما لأول مرة في دنيا الناس ــ التكافل الاجتماعي التلقائي، بين الأغنياء الواجدين، والفقراء الفاقدين.

وبذلك أثبت أمام العالم كله أول تجربة متكافلة متضامنة متحابّة في المجتمع المسلم، وأرسى بها القاعدة الكبرى في بناء الدولة الإسلامية... لم تنبعث من الفلسفات الاقتصادية، ولا الأفكار والمذاهب المادية، بل انبثقت من صميم الإسلام، ومن شعب الإيمان، كما نطقت بذلك نصوصه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. و: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[2]. (لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه)[3].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢.

(٣) متفق عليه.

ومع ذلك، فقد ظلت هذه الأخوة ـ كما تقول الروايات ـ مقدمة في التوارث على القرابة الرحمية حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[1]. فأُلغي التوارث بالأخوة، وأصبح التوارث بالقرابة، بعد أن انسدت الحاجة، واستغنى الناس.

فهل يعني ذلك أنَّ في هذه الأخوة ومسؤولياتها ومعطياتها، من المرونة ما يسمح بتطبيقها كلما دعت الحاجة إليها، وتشابهت الظروف، وتماثلت الأوضاع؟ أو أنها نسخت بالآية المذكورة؟ ألا إن النسخ إنما انصبَّ على التوارث بالأخوة فقط، فقرر التوارث الرحمي، وألغى التوارث الأخوي؛ أما ما يتصل بعقد الأخوة من حيث هو تعاون وإيثار، وتضحية وبذل، وسدُّ جوعة، وحفظ ضَيْعة، فهذا واجب ديني اجتماعي، وهو من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب والسلوك في الإسلام، بل هو من الأحكام المُحْكمة التي لا يعروها نسخ، ولا ينالها تغيير أبداً.

وفي هذا الحديث الشريف:

(مَنْ كان له فَضْل زاد، فَلْيَعُد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ثوبٍ فَلْيَعُدْ به على من لا ثوب له، ومَنْ كان له فضل ظهر فَلْيَعُدْ به على من لا ظهر له).

قال راوي الحديث: (فعدَّد أصنافاً من الفضل، حتى ظننا أن لا حق لأحدٍ منا على أحد)[2].

وجاء أيضاً: (مـا آمن بـي من بات شبعان، وجاره جائـع إلى جنبه، وهو يعلم به)[3].

* * *

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٥.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود.

(٣) رواه البزار والطبراني.

الـوثـيقـة

وثّق النبـيّ ﷺ صلة أتباعه بربهم، بهذا المسجد الذي أقامه لهم، كما وثّق صلتهم ببعضهم بهذه المؤاخاة التي وحّدت صفّهم، وسوّت بينهم، وقوّت مركزهم، ولفتت أنظار الناس الآخرين من غير المؤمنين، ممن كانوا يعيشون في المدينة من المشركين واليهود.

فاتجهت الحكمة النبويّة إلى رسم سياسة المسالمة المعايشة لكلا الفريقين، عزلاً لشرهم عن المؤمنين، ولينصرف هو في اطمئنان إلى بثّ دعوته خارج المدينة، وتعاليمِ دينه، وشؤونِ دولته الفتيّة الجديدة؛ فعقد بينه وبينهم معاهدة تعتبر من أهم الوثائق الدينية والسياسية التي حفظها لنا التاريخ، جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم... هذا كتابٌ من النبـيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم (حالهم السابقة في الدّيات والدماء) يتعاقلون بينهم؛ وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين... وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وأن المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (محض) ظلمٍ أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين؛ وأن أيديهم عليهم جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم.

وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض من الناس.

وأنه من تبعنا من يهود، فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

وأنه لا يحل لمؤمن ممن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر مُحْدِثاً (جانياً) ولا يؤويه، وأنه من نصره وآواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يؤخذ منه صرف ولاعدل.

وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين، ما داموا محاربين.

وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين.

لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته.

إن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر، دون الإثم.

وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن الجار كالنفس، غير مضار ولا آثم.

وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

كل ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ــ عزّ وجلّ ــ وإلى محمد رسول الله ﷺ.

وإن من خرج من المدينة أمن، ومن قعد أمن، إلا من ظلم وأثم.

وإن الله جار لمن بَرَّ واتقى».

* * *

هذه معظم الأفكار التي اشتملت عليها هذه الوثيقة الهامة المفصّلة، التي

رواها ابن إسحق من المؤرخين، كما رواها الإمام أحمد بن حنبل وغيره من المحدثين، فليس صحيحاً ما قيل: إنه لم يرد لها ذكر إلا في سيرة ابن هشام.

نحن هنا إزاء هدنة قوية دقيقة منقحة، بين أطراف ثلاثة متعايشة في يثرب: المسلمين، واليهود، والمشركين، ترسم حقوق كل طرف، وتحدد له تبعاته، كما تحدد علاقات الأطراف ببعضها، ومسؤولياتها إزاء أي اعتداء يقع على هذا البلد من الخارج.

ولا بد من الإشارة إلى مبلغ الشعور الأخَّاذ، الذي يغمرنا ونحن نقرأ هذه المعاهدة، بأننا حيال دولة ذات شخصية دينية سياسية، ترعى حقوق الأفراد، وتسهر على الأمن، وتضرب على أيدي المعتدين، وتفرض نظامها الحق، وسلطانها العادل على العائشين في ظلها. وهذا يقرر حقيقة كبرى في الإسلام، وهي أنه: نظام إلهي ديني ودنيوي متكامل، وأنه ليس منعزلاً في المسجد عن دنيا الخلق، وأنه ــ فعلاً ــ انطلق من المسجد ليبني في الأرض دولة الحق والعدل والحرية والمساواة. فهو يلمُّ بالمسجد يتزود منه لإصلاح الدنيا، ولا تشغله شؤون الدنيا عن التردد إلى المسجد، لذكر الله، وإقام الصلاة، وتلاوة القرآن وتمثله، لأنه دستور دولته، ومجمع نظمها العادلة، ومبادئها القويمة، وعقيدتها الحقة، يشرعها لها، فتتولى هي تنفيذها.

وندرس هنا ــ باختصار ــ أبرز الأفكار التي تناولتها هذه المعاهدة:

أولاً ــ يبدو بوضوح من المعاهدة رغبة الإسلام الصادقة العملية ــ ممثلة في دولته الأولى ــ في معايشة مخالفيه في العقيدة، والتعاون معهم في بثّ الأمن، ورعاية حقوق الجماعة والأفراد، وعلى التخصيص المستضعفين والمظلومين.

ثانياً ــ (أ) أعلنت الوثيقة في فقرتها الأولى عن تكوين الأمة المسلمة المنبثقة من الدين، والتي يرتبط أفرادها فيما بينهم برابطة الإسلام فحسب؛ تلك

الرابطة التي عفت على ما دونها من وشائج الدم والقبيلة والأسرة واللسان؛ وذلك أمر لا بد منه لإقامة الدولة المسلمة النامية، التي ضمّت عناصر شتى، من قريش ويثرب، كان بعضها يتناحر إلى عهد قريب. ومع ذلك فلم تكن أمة مغلقة متقوقعة، إذ رحّبت بكل من ينتسب إلى هذه الأمة ــ من اليهود ومن المشركين ــ ويعتنق دينها، وتعهّدت بأن تنتصر له، وتسويه بأفرادها، وجعلت رسم الدخول في الإسلام هو المجاهدة جنباً إلى جنب في الصف الإسلامي، مع المسلمين.

(ب) وكما أعلنت الوثيقة تكوين الأمة المسلمة، أقرّت تكوين اليهود أمة أيضاً، لها عقيدتها وشعائرها الدينية، وتعيش مع الأمة المسلمة في يثرب.

(ج) ويلاحظ أن الوثيقة لم تنص على تكوين أمة للمشركين، لكنها أمَّنتهم على أنفسهم، ولم تستجز لها إيواء المشركين، ولا الحيلولة دون المسلمين، ودون أموالهم، وهذا وضع يتفق تماماً مع نظرة الإسلام إلى الشرك، واستهدافه تطهير الجزيرة العربية منه، والتمكين لدين الله وحده في أرضها.

(د) بل إن الوثيقة أعلنت بوضوح وصراحة، عن العداء القائم المستحكم بين المسلمين وبين المشركين.

ثالثاً ــ أوضحت الوثيقة الأسلوب المتبع في مكافحتها للجريمة:

(أ) ففيما يتصل بتفادي الجريمة والفساد قبل الوقوع، أوجبت على المسلمين أن يتكتلوا لمنع الاعتداء، وقمع الإجرام، والحيلولة دون وقوع الظلم من أي إنسان.

(ب) فإذا وقع الظلم أو الفساد اشترك المسلمون جميعاً في درئه، وإنصاف المظلوم من الظالم، ولو كان هذا ابناً لأحد المؤمنين، وهذا غاية في القوة والقمع.

(ج) اسْتبقت الوثيقة الوسائل السلمية للتخفيف من الجريمة بعد الوقوع،

فأقرت أحكام الدّيات والدماء المعروفة قبل الإسلام، كما أقرّت نظام قضاء الأسرى، على أن يكون بالعدل والمعروف، الذي يقره شرع أهل الإيمان.

رابعاً ــ فيما يتصل بحقوق الجوار، وإجارة المشركين، فصّلت الوثيقة أحكامه تفصيلاً يتناسب مع أهميته وعلاقته بأمن الدولة واستقرارها:

(أ) فقد منعت الوثيقة اليهود والمشركين من أن يجيروا المشركين من أهل مكة وغيرها، فليس لهم أن يؤمنوهم على أنفسهم ولا على أموالهم، ولا أن يحولوا بين المؤمنين وبينهم. فإنهم الأعداء الأولون التقليديون الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم.

(ب) كما منعت المسلمين من إيواء الجناة العابثين بالأمن، والكاسرين للنظام العام، المعتدين على الأموال والدماء، ومنعتهم من الانتصار لهم، وحمايتهم من العدالة ومن الضرب على أيديهم، بل استنزلت عليهم لعنة الله، وغضبه، وإحباط عملهم كله.

(ج) لكنها مع ذلك أجازت للمسلمين أن يجيروا من يشاؤون من المشركين، من ذوي قرابتهم، فعهد الله واحد، وحرمة المسلم موفورة، شريطة أن لا يضر الجوار بالمسلمين، ــ كما تقرر في الفقه ــ واعتبرت المسلمين في ذلك سواء، النساء كالرجال، والأدنون كالأفضلين. وما أَحكم قولة الوثيقة في هذا: «يُجير عليهم أدناهم». إن أقل رجل في المسلمين إذا أعطى عهداً لمشرك ــ لا ضرر على المسلمين من إيوائه ــ يلزمهم جميعاً، وتلتزم الدولة نفسها بعهده، فترعاه له ولا تنقضه عليه، فلا تؤثمه في جواره، ولا تؤذيه في جاره، وتحترم ذات الجار، كما تحترم نفس المجير.

وهذا أمر بالغ الدلالة على المساواة العملية في الإسلام، ووحدة الصف المسلم، وتناصره وتآزره، وهو في الوقت نفسه دليل ظاهر على أن المجتمع المسلم كل لا يتجزأ.

(د) جعلت هذه الوثيقة الجوار من قبيل الولاية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصرة والمؤازرة، وهي ثابتة بين المؤمنين، ومقررة لبعضهم على بعض؛ فلا ولاية لغيرهم عليهم، ولا تلزم التزامات الآخرين الذين لا يلتزمون أمر الله ودينه، فالولاية من أمر الله ودينه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾[1].

خامساً ــ أعلنت الوثيقة أن الحريات مصونة:

(أ) فحرية الدين مكفولة: للمسلمين دينهم ولليهود دينهم: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾[2] وقد أنذرت الوثيقة بإنزال الوعيد، وإهلاكِ من يخالف عن هذا المبدأ، أو يكسر هذه القاعدة الصلبة.

(ب) كما أنَّ حرية التنقل داخل يثرب بسلام، وحرية المغادرة في سلام، مكفولتين كذلك، إلا أن تكونا بباعثِ فتنة أو ظلم، أو سوء مقصد، بحرمة يثرب وأهلها.

(ج) يستثنى من حرية التنقل مغادرة المؤمنين يثرب، فإنه لا يسمح بها إلا بإذن خاص من النبيّ ﷺ؛ وهذا التدبير من إجراءات الأمن الاحتياطية، تعمل به الدول في الظروف الاستثنائية الخاصة، وقد سبق إليه الإسلام قبل قرون، وشرعته دولته الأولى الناشئة، وهي تباشر مسؤولياتها الإدارية والسياسية. وهي برهان قوي على دقة الدولة الإسلامية في رقابة رعيتها، وتتبع تحركاتهم، وسهرها على أمن الأمة وسلامتها؛ وهي أيضاً دليل ظاهر على مبلغ اضطلاعها بأعبائها حيال المحكومين.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

سادساً ــ راعت الوثيقة مبدأ التكافل والتناصر والتناصح بين الأمتين:

(أ) فقررت مبدأ التكافل بين المسلمين، فيعول غنيهم فقيرهم، ويكسب واجدهم معدومهم، حتى لا تكون فاقة بينهم.

(ب) وقررته أيضاً بين اليهود، فإنَّ عليهم أن يقوموا بفقرائهم، ويسدوا خلّاتهم؛ ولعله لم يوجبه الإسلام عليهم للمسلمين، لكيلا يحرجهم بفرض ما لا تلزمهم به شريعتهم.

(ج) وأوجبت على كل فريق أن يبذل ماله ودمه وما يملك من مكنات مادية، كلما داهم البلد يثرب، عدو، أو فرضت عليهم حرب.

(د) وأوجبت على كل فريق أن يتقدم بما لديه من نصح أو رأي فيما يتصل بسلامة الدولة، ومقاومة البغي، ودرء الخطر المتوقع من العدو.

سابعاً ــ اتخذت الوثيقة المولى ــ جلّ وعلا ــ بعد ذلك الوكيل الرقيب على كل ما ورد فيها، وهو الذي يؤمن به كلا الطرفين:

(أ) فهو الشهيد على ما سجلته من مبادىء وعهود وأحكام.

(ب) وهو النصير لمن وفَّى بها وبرّ واتّقى.

(ج) وكلُّ نزاع يطرأ بعد هذه الوثيقة، فيما يتصل بتفسير مُغْمَضٍ، أو تبيان حكم أغفل فيها، فإنَّ الفصل فيه لكتاب الله، وحكم رسوله ﷺ.

هذه الخطوط العريضة والأفكار الرئيسية التي تناولتها هذه الوثيقة.

ونشير هنا إلى بعض تعليقات الكاتبين المُحْدَثين عليها:

فقد رأى قوم أنها تقرر حرية العقيدة، وحرية الرأي، وحرمة المدينة، وحرمة الحياة، وحرمة المال، وتحريم الجريمة؛ وهي فتح جديد في الحياة السياسية والحياة المدنية في عالم يومئذ.

وصرّح آخرون بأنها «رسمت صلة الأمة بالأجانب عنها، الذين لا يدينون بدينها؛ فإنَّ الرسول ﷺ قد سنَّ في ذلك قوانين السماح والتجاوز، التي لم تعهد في عالم مليء بالتعصب والتغالي».

وكتب آخرون يقولون: «إنها حققت تكافلاً اجتماعياً رائعاً بين جميع سكان المدينة، وجعلت منهم وحدة تتكافل في سبيل حياة أفضل».

وهذا كله حق، والوثيقة كذلك وأكثر منه. لكنها ـ مع ذلك ـ ليست (دستوراً) كما يرى بعض الذين كتبوا أخيراً في فقه السيرة وقالوا: «إن كلمة (دستور) هي أقرب إطلاق مناسب في اصطلاح العصر الحديث على هذه الوثيقة؛ وهي إذا كانت بمثابة إعلان دستور، فإنه يشمل جميع ما يمكن أن يعالجه أي دستور حديث، يعنى بوضع الخطوط الكلية الواضحة، لنظام الدولة في الداخل والخارج، أي فيما يتعلق بعلاقة أفراد الدولة مع بعض، وفيما يتعلق بعلاقة الدولة مع الآخرين».

الحق، أن هذا كلام مشحون بالعواطف المشبوبة، والعمومات الأخّاذة البرّاقة، الآخذ بعضها برقاب بعض؛ وهي لا تصلح لتحديد وثيقة، ولا لتصوير مفهوم، ولا لتعريف حقيقة. وهي إن صلحت لاستقطاب العامة والجماهير، وإثارة إعجابهم، وتحريك مشاعرهم، فإنها لا تصلح في مجالات العلم، والمفاهيم الدقيقة، ولا محل لها من الإعراب فيها.

ولئن اشتملت هذه الوثيقة على أتمِّ ما قد تحتاجه الدولة من المقومات الدستورية والإدارية وعلاقة الأفراد بالدولة... فما للقرآن يتنزل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين، خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادىء الحكم، وأصول السياسة، وشؤون المجتمع، وأحكام الحرام والحلال، وأسس التقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج! والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده، وتفصّله في تنوير وتبصرة؛ أفلم تُغْنِ هذه الوثيقة عن ذلك كله؟

أكبر الظن أن هذا الغلوّ المبالغ، والسَّرَف الظاهر في وصف الوثيقة، وقع في معزل عن معنى الدستور في العصر الحديث؛ وما هو إلا مجموعة القواعد التي تبحث في التنظيم السياسي في الدولة ووظيفتها، وتعيين طبيعتها، وشكل الحكم فيها، وتحدّد صلاحيات السلطات العامة الكبرى فيها، التشريعية والتنفيذية والقضائية، وتبيِّن سير أعمالها وعلاقاتها بعضها ببعض، وعلاقاتها بالأفراد، وما إلى ذلك، مما لا نجد في هذه الوثيقة ما يشير إليه من قريب أو بعيد.

لا جرم ينهار لذلك وصفها بالدستورية؛ وإنها بعد ذلك، ليست إلا وثيقة تعتبر في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، وعلى التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية، تسجل وتنفذ في أقوامٍ كانوا ـ منذ قريب وقبل الإسلام ـ أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة والتسلط، وبالتخوّض في حقوق الآخرين وأشيائهم.

شرعية القتال

ليس القتال في ذاته أمراً حميداً في الإسلام، وليست الحرب في ذاتها غرضاً مقصوداً في شرعته، ولا تصلح إراقة الدماء لأن تكون مطمحاً تسمو إليه النفوس المؤمنة؛ إنما هي ضرورة تفرضها الظروف الخاصة، وطبائع النفوس الضالة المضللة عن سبيل الله، «ومن السموم الناقعات دواء».

وربما لا تكون هناك حاجة إلى التدليل على هذه الحقيقة، ومع ذلك، فدرءاً للشبهة، وقطعاً للظنَّة، نشير إلى ما روي أن رسول الله ﷺ نهى عن تشهي القتال، وتلمّس أسباب المواجهات المسلحة، وقد يعلل ذلك:

١ ـ بأنه قد يجرُّ إلى البغي والتجاوز، والفساد في الأرض، وكل ذلك منهيٌّ عنه.

٢ ـ أو بأنه قد يورث الغرور، وفرط الثقة بالنفس والتقوّي بغير الله.

٣ ـ أو بالإشفاق من غلبة العدو، وهو احتمال مقدر.

٤ ـ أو بجهالة نتائج الحرب على أية حال، سواء أكانت مادية أو معنوية.

وأياً كان سببُ النهي عن تشهّي اللقاءات المسلحة، فليست مما يتوق إليها المؤمنون المخلصون. ولهذا جاء في الصحيح قول رسول الله ﷺ: (لا تتمنّوا لقاء العدو، فتضربوا رقابَهم ويضربوا رقابكم، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)[1].

إن الإسلام دين الإنسانية المُكَرَّمة عند الله، فلا تكون الحرب من غاياته، وهو دين السلام، كما يوحي به قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2]، ولهذا انتقل النبـيّ الكريم ﷺ في الحديث المشار إليه، من النهي عن تشهّي القتال، إلى سؤالِ العافية التامّة العامّة، وطلبها من الله تعالى، تأميناً من الفساد، وحقناً للدماء.

لكن ظروف الحياة لا تمرُّ بسلام مُطَّرِد، فقد تُفرض الحرب على المسلمين فرضاً: فيعلن الكفار الحرب على المسلمين، أو يعرقلون مسيرةَ الدعاة إلى رب العالمين، وقد يغدرون بالمسلمين، أو يمالئون عليهم أعداءهم، أو يتجسسون لحسابهم على المسلمين؛ فيجب على المسلمين أن يقاوموا الشر، ويقاتلوا قوى البغي والعدوان بكل ما أوتوا من قوة، طلباً لمرضاة الله، واستئصالاً لجذور الشر، وتمكيناً لدين الله في الأرض.

إنَّ الإسلام هو الدين الذي اختارهُ الله تعالى لخليفته في الأرض، ونظام البشرية كافة، وليس دين طائفة من البشر، ولا قوم من دون قوم. ثم ليس هو

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦١.

رسالة مخصوصة بالعرب، ولا هو محصور في جزيرتهم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1].

والإسلام أيضاً، شرع واقعي متحرّك حي، يواجه الواقع البشري، وينطلق ليحرر البشرية من عبودية الإنسان للإنسان، ويخلّصها من العقبات المادية التي ترسيها في دربه التحريرية الأفكارُ الفلسفية، والعوامل الاقتصادية المعقدة المختلفة.

هو يهدف إلى إخلاص العبودية لله وحده، وإعلاء كلمته، وإقرار نظامه، والتمكين لسلطانه في الأرض، ولشرعه فيها، حتى يكون الحكم فيها لله وحده، والأمر كله لله وحده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[2]. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾[3].

وتحقيق هذه الغاية العليا ليس بالأمر اليسير، وليس التبليغ والدعوة والتبيين، كافياً في إقرار العبودية لله وحده، ولو صحَّ الوقوفُ عند هذا القَدْرِ في دعوات الرسل، لما كان في الرسالات مصاعب ومتاعب، ولا بذلٌ لأقصى الجهد، ولاستيسر لأهل البغي والتسلط أن يخمدوا دعوات الرسل في مهدها، ويخرسوا الدعاة من بعدهم.

فالدعوة حقيقة قائمة، ولا بد لها من قوة تدعمها، وتمهِّد لها الطريق إلى الضمير الإنساني، وقلب الإنسانية، وهنا يكون تشريع الجهاد الماضي في الإسلام.

ففي سبيل شرعة الله الموحدة في الأرض دون سواها، وفي سبيل الإنسانية جمعاء، ومن أجل المواجهة الواقعية الحتمية، يصبح القتال في الإسلام ضرورة،

---

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٣) سورة يوسف: الآية ٤٠.

تفرضها الارتكاسات الإنسانية المتدهورة، والتسلط المسعور لاسترقاق الشعوب، وفرض عبودية الإنسان للإنسان والمادة.

ولا بد من تسجيل أنه لم يكن في مقدور الإسلام، خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة، اتخاذ السبل الإيجابية الفعَّالة لتحقيق أهدافه هذه التي أعلنها بصراحة، ودعا إليها بالحكمة، ولتحرير الإنسان من العبودية لغير الله، والتمكين لدينه في الأرض، واكتساح كل مقاومة في سبيله...

وربما كانت ظروف البيئة المكية الخاصة وقتئذ، تفرض على المسلمين أسلوب الهدوء والسلبية الوادعة، وكفّ أيديهم عن أهل المقاومة والشغب والكفر والعناد، وذلك للأسباب الآتية:

١ ــ أن الإسلام في مكة كان بسبيل تكوينِ القاعدة الإسلامية الأولى، ونواة الدعاة إلى الله، لتكون طليعة المد الإسلامي، للتحرير الإسلامي، وهذا التكوين لا صلة له بالقتال والمواجهة.

٢ ــ لم تكن هناك ضرورة ولا حاجة داعية إلى اتخاذ أسلوب العنف حيال المقاومين: فالرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان يتمتع بقدر من الحرية، يشبه أن يكون كافياً لتبليغ رسالته، وتبيان دعوته؛ بل كان في العرب بقية من صفات النبل، كنصرة المظلوم، ولو أحياناً، وإكساب المعدوم ــ على أية حال ــ وكان للنبيّ ﷺ في بني هاشم من يحميه ويمنعه ويذود عنه، بل إن ابن الدَّغنة استكثر مهاجرة الصِّديق من مكة، وأعلن سخطه على قومه، ونقضت قريش صحيفة الحصار الذي ضرب على بني هاشم في شعب أبي طالب، بعد أن مسَّهم العذاب وعضَّهم الجوع بنابه، وساءت حالهم.

٣ ــ كان من خلق الرسول ﷺ الرأفة والرحمة، وكان يهدف إلى تربية صحابته السابقين على نموذجية صفاته، وعلى الصبر والمصابرة، ليضطلعوا بأعباء

الدعوة معه ومن بعده، في هدى رسالته وقيادته وحكمته؛ وكان يلتزم دائماً جانب الرفق واللطف، ويبتعد عن أساليب القسر والعنف والقهر والمواجهة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

٤ ــ إتُّهِم النبيّ ﷺ مع التزامه سياسة الرفق والمسالمة، بأنه ساحر يفرق بين المرء وأخيه، والولد وأبيه، فماذا عسى أن يقال: لو شهر السلاح، وواجه الكفرة المناوئين؟ لقد كان يحسب لهذا حسابه كله، ويقول مرة لعمر، وقد همَّ أن يقتل رأس المنافقين، لو أذن له النبيّ ﷺ في موقف فضحهم فيه القرآن الكريم: (دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)[2]. كان هذا والأمر يومئذ للمسلمين، فكيف وليس لهم في مكة شيء من أمرهم؟.

٥ ــ وكان المسلمون قلة قليلة في مكة. فالتفكير في الحرب والمقاتلة سيؤدي ــ بطبيعة الحال ــ إلى استئصال هذه الحفنة المخلصة من المسلمين، وبذلك يُقْضى على الإسلام، قبل أن يطلَّ على العالم خارج جزيرة العرب، وليس في هذا حكمة ولا مصلحة، بل يوشك أن يكون تشريع القتال في هذه الظروف من قبيل التكليف بما لا يطاق.

٦ ــ وكانت قريش قبيلة ذات عزّ ومكانة، ولها السيادة والشرف، بالإشراف على شؤون البيت العتيق، وفيها أَنَفَة وحميَّة، فربَّما تأثَّرت بالمسالمة أكثر من تأثّرها بالمجابهة؛ بل ربَّما حملتها المجابهة بالسلاح على العناد والشر الدامي، فترتبط نشأة الإسلام في الأذهان بالتحرُّش بالسِّلم، وإشعال نار الحرب، وليس هذا في صالح الإسلام، ومبادئه وغاياته الإنسانية البعيدة الرفيعة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) متفق عليه، ورواه الإمام أحمد والترمذي.

هذه الظروف وغيرها استبعدت فكرة المواجهة وشرعية الحرب في أول ظهور الإسلام، في بيئة مكة؛ فلم يكن من الحكمة ولا من المصلحة تشريع القتال وقتئذ، بل الحكمة أن يقال للموحدين: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].

وقد انتهت هذه المرحلة الوادعة المسالمة من الدعوة بهجرة المسلمين إلى المدينة، فهناك تغيَّر وضع المسلمين، وتغيَّرت حركة الإسلام بتغيُّرِ البيئة، وتغيَّرت نظرة الإسلام الواقعية الحركية في معالجة الأمور.

فالمسلمون في المدينة كَوَّنوا دولةً جديدة، وقاعدة إسلامية جديدة، يمثلها المجتمع المسلم الجديد. ولهذه الدولة الفتية سيادة وسياسة واسعة النطاق؛ والدعوة إلى الإسلام لا تجد لها في هذه البيئة الجديدة مقاوماً ولا معانداً ولا مواجهاً؛ بل إن أهل المدينة من الأنصار درء جديد للإسلام، حتى اليهود والعرب المشركون الذين لم يسلموا، عقد معهم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ معاهدةً ألزمتهم بمسالمة الإسلام واستبعدت مقاومتهم إياه، وأبقت لهم الباب مفتوحاً للدخول فيه كلَّما شاؤوا، كما أمنت محالفتهم أعداء المسلمين من كفار قريش المناوئين للإسلام، أولئك الذين ركَّز عليهم في هذه الآونة وتفرّغ لهم، وأعلنها عليهم حرباً دامية، حتى يطهِّرَ بيت الله من وثنيتهم، ويمكِّن في الأرض لدين الله.

ولهذا نصَّت المعاهدة المذكورة في مطلعها على أن (المسلمين من قريش ويثرب ومَنْ تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس). فالأمة في المدينة أمة الإسلام فحسب، وقد حلَّت الوحدة الدينية فيها محل الوحدة القومية، ولا رباط بين أفراد هذه الأمة سوى الإسلام.

وهذه المادة من هذه المعاهدة المبكِّر عقدها في المدينة، تشير إلى علامة الدخول في الإسلام، فإذا كان الدخول في الإسلام بإعلان الشهادتين نطقاً، فإنه

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.

يشترط أن تتلوه مجاهدة قريش مع المسلمين فعلاً، فهذا مبدأ شرعية القتال في الإسلام ومكافحة المشركين.

ومن يقرأ قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ . . .﴾[1] تلك الآية التي أجمع أهلُ العلم على أنها أول آية في تشريع القتال، لا بد أن يستشعر بالضرورة ـ وفق الإنباء اللغوي ـ سابقية المنع من القتال، وذلك الذي كان مقرراً قبلاً في مثل قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾[2].

وآية القتال تنطق بأنه شُرِعَ بسبب الظلم الفادح الذي أنزلته قريش بالمسلمين، فأخرجتهم من ديارهم بغير حق، سوى أنهم قالوا: ربُّنا الله، شُرِع لكي يقمع الكفر ويقهر الجبابرة، ويأخذ على أيدي الظالمين، ويحمي مملكة الله في الأرض، وفيها المساجد ومواطن العبادة، وذكر اسم الله، ولكي يفرد العبادة لله وحده، ويمكِّن لشريعته في الأرض، فهو إذاً قتال لأهدافٍ إنسانية سامية، بعيدة عن الاقتصاد والخامات والمكاسب والمغانم، ومناطق النفوذ، وأسواق تصريف المنتجات.

وَوَلِيَ هذه الآية الأمر الإيجابي الملزم بالجهاد صراحة في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾[3].

القتال في الإسلام قتال راحم شريف، لا عدوان فيه ولا تجاوز، قتال المقاتلين، لا يقاتل إلا المعتدين المواجهين، ولا يقاتل النساء ولا الصبيان ولا الشيوخ الذين لا يقاتلون، قتال يجتنب فيه كل عدوان من التمثيل والتحريق والقتل صبراً. . .

---

(١) سورة الحج: الآية ٣٩.

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

(٣) سورة البقرة: الآيتان ١٩٠ و١٩١.

وهذا تنصيص على أن القتال الذي أُذن به للمسلمين وأُلزموا به، كان خاصاً بالمشركين من أهل مكة، الذين آذوا المؤمنين، وهموا بهم، كما هموا برسولهم أن يقتلوه، وأخرجوهم من ديارهم، وبدأوهم بالقتال، ولهذا لم يقاتل المسلمون في المدينة بعد الهجرة إليها سوى كفار مكة؛ فلما انضم إلى مشركي مكة غيرهم من مشركي العرب أمر الله ــ عزَّ وجلّ ــ بقتال المشركين جميعاً، وذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾[1].

وهذا كالإعلان بأنه لن يقبل من العرب الذين نزل فيهم القرآن، وحملوا رسالة الإسلام، إلا الإسلام أو السيف، فرشح هذا الأصل قول النبيّ ﷺ: «أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[2]. وجمهور الشُرَّاح على أن المراد من الناس في هذا الحديث مشركو العرب وعبدة الأوثان.

وقد ورد في القرآن الكريم النهي عن قتال المشركين في أحوال خاصة، كما في الشهر الحرام، والمسجد الحرام، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾[3]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[4].

نخلص من هذا إلى أن تشريع القتال في بادىء الأمر لم يكن إلا لمواجهة كفار قريش خاصة، فلمَّا تمالأ معها غيرها من مشركي العرب ورد الأمر بقتال المشركين كافة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٦.

(٢) متفق عليه، بل عد من المتواترات.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٩١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٥.

أما بالنسبة إلى من كان في المدينة فقد فصلت سورة براءة أحوالهم وأحكامهم، فيمكن تقسيمهم إلى ما يأتي:

١ ـ **المنافقون**: وقد جاء الأمر بأن تقبل علانيتهم، وتوكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدوا بالحجة ويغلظ لهم بالقول البليغ في أنفسهم؛ كما ورد النهي عن الصلاة عليهم إذا ماتوا، والوقوف على قبورهم بعد دفنهم، وعن الاستغفار لهم: ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾[١].

٢ ـ **المعاهدون**: وكانوا ثلاثة أقسام:

(أ) قسم نقض عهده، وساعد المشركين في حروبهم، وألّبهم على المسلمين؛ وقد أمر النبيّ ﷺ بنقض عهدهم: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾[٢]. فحاربهم، وأظهره الله عليهم.

(ب) وقسم حافظ على العهد، فأمر بوفاء عهدهم: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾[٣].

(ج) قسم لم يكن لهم عهد، ولم يحاربوه، فأمر بإمهالهم عهداً لأربعة أشهر، فإذا مضت قاتلهم؛ والذي حدث أنّهم لم يقيموا على كفرهم، بل أسلموا.

٣ ـ **أهل الكتاب من النصارى**: الذين يعادون الإسلام، ولا عهد لهم، أمر بقتالهم حتىٰ يسلموا أو: ﴿يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾[٤].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٨٠.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

(٣) سورة التوبة: الآية ٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ٢٩.

وقد ضربت الجزية فعلاً على أهل الذمة من هؤلاء.

هذا تشريع القتال في الإسلام، وتصنيف جهاته، وتفصيل غاياته، كما تفصح عنها القطعيات النصية التي تلوناها، وكما فهمها سلف هذه الأمة الأمين الصالح.

وقد رأينا من أهل العلم والقلم والجهاد، في أيامنا، من ترجم للمواجهات المسلحة التي وليت تشريع القتال في عصر النبوة، بقوله: (الكفاح الدامي)، وهو تعبير ينسجم تماماً مع واقع الغزوات التي خاضها النبـيّ ﷺ وصحابته بعد تشريع القتال، ويصور القوة الحركية في أسلوب الدعوة في المدينة، أصدق تصوير وأبلغه.

لكن بعض من كتب في فقه السيرة من بعده ترجم لها، بقوله: (مرحلة الحرب الدفاعية) ورأى أنَّ «الغزوات التي تلت تشريع القتال غزوات دفاعية فعلاً، تمثل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية، وليست تعبيراً عن الحكم الذي استقر على أساسه الجهاد في الإسلام؛ واستدل لذلك بقول النبـيّ ﷺ في منصرفه من غزوة بني قريظة: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا)[1] وبذلك انتهت الحرب الدفاعية، وجاءت مرحلة دعوة الناس كلهم إلى الإسلام».

ومحصل هذا القول:

١ ـــ أن القتال في الإسلام شرع متدرجاً.

٢ ـــ وأن القتال شرع أولاً في المدينة دفاعاً فقط.

٣ ـــ وأن الجهاد في الإسلام بمعنى دعوة الناس كلها لم يستقر حكمه إلا بعد غزوة بني قريظة.

ومعنى هذا الكلام، أن المرحلة الأولى في القتال، كانت من شرعية القتال، حتى غزوة الأحزاب، وفيها كان الكفار يبادرون المسلمين، ويتآمرون عليهم،

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري.

فيدافع المسلمون عن أنفسهم برد العدوان؛ أما في المرحلة التالية فإن المسلمين أصبحت لهم مبادرة الكفار بالحرب، وليس للكفار إلا الدخول في الإسلام أو الخضوع لحكمه.

ولم نسمع أحداً من أهل العلم، ولا من السلف ولا من الخلف ـ في حدود اطلاعنا ـ يقول: إن الدعوة الإسلامية لم تكن عامة إلا بعد غزوة الأحزاب. فقد دعا النبيّ ﷺ المشركين، كما دعا الكتابيِّين، قبل غزوة الأحزاب، بل قبل الهجرة فآمن به من آمن من المشركين، كما آمن به بعض أهل الكتاب.

ويمكن أن نناقش وصف الحرب الإسلامية بأنها دفاعية، ـ كما يزعم أيضاً الكثيرون ـ ووصف أول تشريع القتال في الإسلام بالمرحلة الدفاعية التي جاءت من بعدها مرحلة دعوى الناس كلهم إلى الإسلام، بما يفهم من آية القتال، ومن نصوص الشرع، ومن واقع الغزوات في العهد النبوي، ومن واقع الجهاد وشؤون الحرب بوجه عام:

أولاً ـ فمن آية القتال نفهم ما يأتي:

١ ـ أنها نزلت في أوائل العهد النبويّ في المدينة، وجاء تشريع القتال فيها لذلك مُعَلَّلًا بأنه أُذن به بسبب الظلم الذي وقع بالمسلمين، وفسر الظلم الذي وقع بهم في الآية نفسها، بأنهم: ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾(١). وهو سبب عام كاف في تشريع القتال، وليس من لوازمه قطعاً اشتراط اعتداءات جديدة خاصة تليه، لجواز تطبيقه، إذ لا دليل عليه، بل الدليل قائم على خلافه، فلا ظلم أشد من إخراج المؤمنين من ديارهم بغير حق، وتشتيتهم، واستلاب ديارهم وأموالهم. وهل يليق بهم بعد هذا الظلم الصارخ أن ينتظروا اعتداءات أخرى لن تكون إلا أقل منه بأساً وشأناً؟ كلا! إن اللائق بهم المبادرة والمبادأة والتحدي.

(١) سورة الحج: الآية ٤٠.

٢ ــ بل نقول: إن النبيّ ﷺ كان مأموراً أولاً بالصبر والأناة، منهيّاً عن التعجّل؛ فنزلت آية القتال لتشرعه، مبررة سببه الباعث على تشريعه، لا معتبرة الاعتداء في كل غزوة من الغزوات، وفي كل تحرك أو سرية.

٣ ــ إن آية القتال لا تدل على أن القتال كان ممنوعاً في مكة، للأسباب التي ذكرناها قبلاً، فما زالت تلك الأسباب، أُذن به لهؤلاء المضطهدين المظلومين.

٤ ــ ربما يكون تشريع الجهاد في سبيل الله، والإذن بالقتال، من أعظم أحكام الإسلام، كما ورد: «وذروة سنامه الجهاد»[1]، فكيف يجمد هذا الحكم سنين، ويتوقف على مبادرة الكافرين؟ إنما هو بمثابة إذن أو بطاقة مفتوحة، يتصرف فيها الداعي بمقتضى مصلحة الدعوة إلى الله؛ ولعله ليس من مصلحة الدعوة انتظار اعتداء الكافرين، حتى تتحرك القوى المسلمة.

ثانياً ــ ومن نصوص الشرع نفهم:

١ ــ أن قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ في آخر سورة القلم، وهي من أوائل ما نزل من القرآن في العهد المكي، كما يشير إليه مطلع السورة، ينقض القول بأن الإسلام والدعوة إلى الله، لم يصطبغا بالصبغة العالمية إلا في عهد متأخر، وقبل الفتح، في آخر السنة السادسة من الهجرة، في صلح الحديبية.

٢ ــ كما أن الوثيقة التي درسناها قبلاً، والتي عقدها رسول الله ﷺ لغير المسلمين، نصت في البند الأول منها على أن «المسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أمة واحدة من دون الناس». ونصت بعد ذلك على أن «من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين، ولا متناصر عليهم».

---

(١) رواه الترمذي.

وإذاً فالإسلام له دعوة عامة، من قبل تشريع القتال، لا بعد المرحلة الدفاعية التي تلت تشريعه.

٣ ــ إن قوله تعالى: ﴿وقاتلوا في سبيلِ اللَّهِ الَّذينَ يُقَاتِلُونَكُم﴾ صفة كاشفة لبيان الواقع ــ كما يقول العلماء ــ وليست قيداً ذا مفهوم، وهو الاحتراز عن غير المقاتلين.

٤ ــ إن حديث: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...»[١] ورد مطلقاً مُغَيّاً بغاية، هي الإسلام، وليس فيه اشتراط اعتداء الناس على المسلمين؛ وما نعلم أن أحداً من أهل العلم قيده بذلك؛ وكل الذي قاله أهل الحديث وشراحه الموثوقون: إن المراد بالناس فيه مشركو العرب، عبدة الأوثان.

ثالثاً: ومن واقع الغزوات في العهد النبويّ، نفهم أيضاً:

١ ــ فكرة إرسال السرايا، لاعتراض القوافل، والتحرّش بالكفار، والاطلاع على أحوالهم ومواقفهم من الإسلام ومن المسلمين، لم تكن إلا تحركاً مبادراً مباغتاً، غير مدافع، وبلا مدافع في هذا؛ وعلى سبيل التمثيل، لم تكن سرية عبد الله بن جحش المبكرة إلا لقطع الطريق بادىء ذي بدء على المشركين، فأين الدفاع هنا؟

٢ ــ بل إن المبادرة الأولى، التي انبرى لها رسول الله ﷺ وصحابته بعد تشريع القتال، لم تكن إلا هجوماً إيجابياً مباشراً مباغتاً، لم يسبقه تدبير ولا تآمر من قريش، ولا قتال ولا شهر سلاح، وكان ذلك متمثلاً في غزوة بدر الكبرى، أعظم الغزوات، على الإطلاق: ولم يكن الدافع الأصلي إليها إلا قصد الاستيلاء على عير قريش القادمة من الشام، فلما سمع بها النبيّ ﷺ

---

(١) متفق عليه.

قال: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها، لعل الله ينفلكموها»[1].

فأين الاعتداء والتجاوز هنا؟ وأين الحرب الدفاعية، وهذه أول غارة يشنُّها المسلمون على أموال المشركين؟ ولقد فاتتهم العير وما تحمله من مال، فلماذا تابعوا المسيرة للقتال، وصمموا على الحرب وجهاد قريش؟ ألا إنها مبادرة القوي المؤمن المصمِّم، إنها الهجوم الذي لم يكن لينتظر بعد الذي قامت به قريش من غدر وإجرام، عدواناً جديداً، ولا تآمراً جديداً، إنْ هو إلا إحقاق الحق، وقطع دابر الكافرين، كما نطق بذلك النص الكريم.

٣ ـ على أن كون بعض الغزوات وقع دفاعاً، لا يعني أن شرط جواز القتال أن يكون دفاعاً، ولا أن شرعية الجهاد بتوفر وصف الدفاعية، التي تلي الاعتداء، فالشرط قيد، ولا بد فيه من سوقٍ خاص، وعلى التخصيص في أمر بالغ الأهمية، كالذي نواجهه، وهو القتال.

٤ ـ وفي الأسباب التمهيدية لغزوة بدر، ما قال أبو جهل: سنحارب المسلمين، وإنما قال: «لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً، ننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا» فأين الاعتداء؟.

٥ ـ أثر عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه في إثر أحد، جرت مناورة بينه وبين أبي سفيان، فقال له عمر: موعدنا العام المقبل، فلو كانت حروب الإسلام قبل الفتح دفاعية، ما وقع هذا الرد صحيحاً ولا شرعياً.

٦ ـ وفي غزوة حمراء الأسد، بعد أحد، كيف يصر الرسول ﷺ على الخروج إليها في اليوم الثاني من أحد، ولا اعتداء من الكفار، ولا رد عدوان؟ وإنما هو جبر كسر، واسترجاع كرامة، ورد شماتة.

---

(١) رواه محمد بن إسحاق. انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦٠٧).

رابعاً ــ ومن واقع الجهاد في الإسلام، وشؤون الحرب بوجه عام، نفهم ما يلي:

١ ــ كان من مقتضيات الدخول في الإسلام ــ كما جاء في نص الوثيقة ــ المجاهدة مع المسلمين، وذلك بإعلان الاستعداد المطلق، والتنفيذ المطلق كذلك، غير المقيّد بأحوال الدفاع، ورد الاعتداء.

٢ ــ إن نظام الإسلام، ودينه الذي أنزله الله للناس أجمعين، شرع له الجهاد قوة تحميه، وتبشر به الناس، وتنذرهم، والدعوة الحقة لا بد لها من قوة تمكِّن لها في الأرض؛ فاشتراط الدفاعية في القتال، وفي بدء تشريعه، إطفاء شعلته، وتجميد قوته، وحكم على الجهاد في أيامه الأولى ــ أيام قوة الإسلام، وعزة المسلمين ــ بالموت البارد.

٣ ــ إن الدفاعية عن النفس والكيان بالقتال، مما لا يحتاج إلى تشريع، لأنها طبعية في النفوس، أما الذي يحتاج إلى تشريع، فهو القتال في سبيل نشر الدعوة والإسلام، وتعميم نظام الله في الأرض؛ وبسببٍ من هذا نزلت آية القتال؛ ووصف القتال بالدفاعية رجعة بالتشريع لا تدرج مرحلي فيه، لأنه يصرف القتال من منطلق القوة المشروع، إلى المركز الطبيعي الفردي في رد الاعتداء.

٤ ــ وفي عرف الحرب والمحاربين، أن المبادر المباغت هو الكاسب المنتصر، ومن كلام علي ــ رضي الله عنه ــ في بعض خطبه: «وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فما غُزِيَ قومٌ في عقر دارهم إلا ذلوا». فكيف يشرع القتال في خير القرون، وهم مع الرسول الأعظم ﷺ دفاعاً فحسب، بضع سنين.

٥ ــ إن تشريع القتال يتنافى مع الدفاعية، لأنه إذا كان لنشر الدين، فإن انتظار الهجمات يشل حركة الدعوة، وعلى التخصيص في أول عهد القوة، في عهد النبوة، حيث شرع القتال.

٦ ــ أنفق النبيّ ﷺ ثلاث عشرة سنة في مكة، قبل تشريع القتال، وأنفق في المدينة نحو خمس سنين، بعد أن استقر الإسلام، واستتب الأمر لدعوته، بدون قتال ولا جهاد مبادرين ــ بل مدافعين على حد تعبير المرحليين ــ ، وهذا يستلزم أنه كان، وهو في مركز القوة والسيادة في المدينة سلبياً، كما كان في مكة، ولم يكن إيجابياً في دعوته يذود عنها بالجهاد، إلاّ خلال ثلاث سنين، ولا شك أن هذا كثير بالنسبة إلى رسول الله ﷺ، وحاكم الدولة المسلمة الأولى، ورأس الدعوة ورئيسها، والجهاد في الذروة من شرعته.

٧ ــ أو يقال للمتعطشين إلى الجهاد، التوّاقين إلى لقاء الله شهداء في سبيل دينه الذين وجدوا حلاوة الإيمان في قلوبهم، واسترخصوا الدنيا والمادة في جنب الله، ونصرة دينه، حتى قال زعيمهم مرة لرسولهم ــ عليه الصلاة والسلام ــ : «لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا أحد»، وبكى الآخر لأنه لم يفرز ــ لصغر سنه ــ للموت في سبيل الله، وألقى الثالث تمراتٍ من يده كان يحملهنّ، ليتعجل الشهادة في مرضاة الله، أو يقال لهؤلاء الآن، وقد قامت دولة الإسلام الأولى، وعزَّ المسلمون، ومكَّن لهم ربهم في الأرض: انتظروا اعتداء الكفار، فردوا العدوان بمثله؟.

ولئن كان هذا لون الجهاد وطابعه في فجر الإسلام وقوته، فماذا عسى أن تكون حاله بعد ذلك؟ وكيف بلغت الدعوة، وانتشر دين الله، مع هذا الكبت والإحصار، في الشطر الأهم من العهد المدني المشرق المنطلق، الوضّاء الوضّاح؟

ولم نسمع أيضاً أحداً من أهل العلم، يصرح بأن القتال شرع دفاعاً في مرحلته الأولى، وصّداً لتآمر، أو رداً لعدوان، أو إحباطاً لخطة مجرمة؛ وهل بعد التآمر على حياة محمد ﷺ وإخراجه وصحبه من ديارهم وأموالهم من اعتداء؟ وهل بعده من إجرام، أو تآمر؟ وماذا ينتظر المسلمون بعده من ضروب العدوان والمكر؟ وهل من الشرع أن يقال لهم ــ بعد ذلك كله ــ لا تقاتلوهم حتى يبادروكم

أو يفرضوا عليكم الحرب؟ وهل يركن إلى هذا بعد أن أسفر العداء، وأذن رب السماء بالمواجهة؟.

إن هذا ليتصور يومئذٍ لو صحّ أن يقال اليوم لرجال المقاومة الفلسطينية، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق، كما أخرج المسلمون من مكة: لا تقاتلوا إلا رداً على مؤامرة أو عدوان، على حد تعبير المترجم بمرحلة الحرب الدفاعية.

إن هذا لهو البيان الحق للإذن بالقتال، والتفسير العلمي التاريخي التطبيقي، الذي لا يقبل التأويل، ولا يتريث حتى تكون الصفعة تتلوها الضربة تتلوها الغزوة، وعندئذ يتحرك للمقاومة، فذلك شأن الجبان الرعديد، الذي لا يحدث نفسه بالحرب، ولا يلبس لها لبوسها؛ أما المسلم فإنه ثَبِتٌ يَقِظ مبادِر، فكيف بالرسول الأعظم ﷺ وصحابته في خير القرون؟.

إنَّ إطلاق وصف الدفاعية ــ من حيث هو، بدون مرحلية ــ على الحرب الإسلامية والجهاد الإسلامي، سهم رائش مسموم، استعمله أعداء المسلمين ليطفئوا جذوة الجهاد في الإسلام، وليصرفوا المسلمين عن الجهاد وإيجابيته وحركيته وفعاليته، إنه تجميد وتثليج لقوة الإيمان الغلاَّبة المتأججة، وحكمٌ عليها بالدمار المؤبد.

وقد رأينا وسمعنا بحركات مشبوهة، وأفكار مستوردة، اندست بين المسلمين كما يندس الزوان في القمح، لتزهدهم في الجهاد، وتقنعهم بأنه ليس بفرض على المسلمين، لأنه فُرِضَ رداً على مؤامرات واعتداءات فقط.

فهل أراد المؤلف صاحب فكرة المرحلية، أن يقف موقفاً وسطاً، بين هؤلاء الدعاة المغرضين الخائفين من ظهور الإسلام وعودة الجهاد، الذي يمثّل وجه القوة إلى الإسلام وانتشار روحه في مجتمعه المسلم الميت، وبين السلف الصالح من علماء هذه الأمة، الذي صنع بجهاده المعجزات في التحرير وتكريم الإنسانية.

فأما قبل: فإن سلف هذه الأمة الصالح، وخلفها الصادق، ما فهم من تشريع الجهاد مرحلية ولا دفاعية، ما فَهِمَ إلا القتال لإعلاء كلمة الله، والتمكين لمنهاجه في الأرض، وإقرار شرعه في هذه الحياة، كما نطقت آية الجهاد الأولى، لكن لا لكي تكره الناس على الإسلام، ولا لتحملهم عليه، بل لكي تدلهم عليه، ولكي تكتسح كل محاولة أو عقبة في سبيل هذه الغاية الإنسانية المثلى؛ فدعوى أن القتال شُرع أولا دفاعاً، ثم اكتمل بعد غزوة الأحزاب، لا تجد سندها المقنع الكافي، بل تشبه أن تكون اجتهاداً ضائعاً، وذلك للأمور الآتية:

١ ـ إنها بدعة خالفت عما قاله سلف هذه الأمة المؤتمن على دينها.

٢ ـ إن الاستدلال بحديث (الآن نغزوهم ولا يغزوننا)(١) لا يعني أنهم كانوا يغزوننا فنغزوهم، أما الآن فنحن نغزوهم ولا يغزوننا؛ فهذا استدلال بالمفهوم في نصوص الشرع، وهو ساقط الاعتبار عند كثير من أهل الأصول، كيلا يؤدي إلى أمثال هذه النتائج الخطيرة.

٣ ـ إنَّ الحديث المذكور لا يدل على أكثر من أن الكفر انكسرت شوكته بعد غزوة الأحزاب، فلا طاقة له بمقاومة المد الإسلامي. وهذا المعنى لا صلة له بمرحلية الجهاد، ولا بتدرج القتال من الدفاعية إلى المهاجمة الكلية في الإسلام.

٤ ـ إنَّ هذه المرحلية الدفاعية في الجهاد لا تفيد ولا تقنع أعداء الإسلام بالعزوف عما يهدفون من ورائها، بمقدار ما قد تؤذي الإسلام والمسلمين، وتشوه الجهاد بمجرد إلصاقها به.

وأما بعد، فإن التوسط في الحلول، يوشك أن يكون ابتساراً وتمييعاً للمبادىء المستقرة المستيقنة، ولا ينهض غالباً إلا على حساب الحق الظاهر، وقاعدته الراسخة التي يقوم عليها.

● ● ●

---

(١) تقدم أنه رواه الإمام أحمد والبخاري.

غــزوة بـــدر

لن ندرس هنا إلا الغزوات التي أرست أصولاً، أو قدمت دروساً، أو قررت عبراً وعظات لرواد الهداية والتقوى.

ونبادر فنفرق بين اصطلاحي المؤرخين، في الغزوة والسرية:

فالأولى: هي التي كان يقودها الرسول ﷺ نفسه.

والأخرى: هي التي كان يعهد بقيادتها إلى أحد أصحابه.

* * *

وبدر ــ في الأصل ــ اسم لبئر احتفرها رجل اسمه بدر، فسميت به، وغزوة بدر هذه هي غزوة النصر والفرقان، حَرَّكَتْها وَوَجَّهتها العناية الإلهية، وصنعتها يد الله، وحققت لها نتائجها الرائعة البالغة قدرتُه القادرة الغلاَّبة.

فيقول الرواة: إن رسول الله ﷺ لما سمع بأبـي سفيان مقبلاً من الشام في عِيرٍ عظيمة لقريش، تحمل لهم تجارة عريضة وأموالا ضخمة، ندب المسلمين إليها مبادراً مبادئاً قائلاً: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلهم ينفلكموها»[١].

وما كان أسرع تلبية المسلمين هذا الندب، فقريش العدو الأول للمسلمين،

---

(١) رواه محمد بن إسحاق بسنده إلى ابن عباس، انظر السيرة النبوية لابن هشام (١/٦٠٧).

يتمثل فيها الكفر والشرك كما يتمثل فيها الفتك والغدر والقهر والتمالؤ على الإسلام والمسلمين، وسلب الديار وغصب الأموال، وإنها الفرصة المتاحة الآن.

وكان في القافلة ـ كما تقول الروايات ـ بضاعة قدرت قيمتها بخمسين ألف دينار وقتئذ، بحيث إن قريشاً كلها ساهمت في تمويلها.

خرج المسلمون وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وجاء على رأسهم رسول الله ﷺ كان منهم مائتان وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين معهم سبعون بعيراً تحمل لهم الزاد والماء، وفَرَسان أو أربعة أفرس فقط. وبقي في المدينة ابن أم مكتوم يؤم الناس.

ومع المبادرة واتخاذ الخطوات السريعة الجريئة، استطاع بعض المنافقين أن يطير الخبر إلى أبـي سفيان، ويخطره بالخطر المحدق بقافلته، فاستأجر لِتَوِّه من يستنفر له أهل مكة، لإنقاذ أموالهم.

وخَفَّت قريش بصناديدها، وتخلف أبو لهب فأرسل مكانه العاصي بن هشام في أربعة آلاف كانت له عليه، أَفْلَسَ بها.

وهَمَّ أبو صفوان أمية بن خلف أن يقعد، لولا أن عقبة بن أبـي معيط تَلَوَّمه وهو في المسجد الحرام قائلاً: «يا أبا صفوان استجمر، فإنما أنت من النساء»؛ وهمَّ غيره أن يتخلف لولا العار.

خرجت قريش في جيش قوي في تسعمائة وخمسين رجلاً، معهم مائة فرس وسبعمائة بعير، أمامهم الفتيات الجميلات يغنين بهجاء المسلمين، وشعرِ البطولة والحماسة، توحي إليهم شياطينهم بالنصر المؤزر.

وصور القرآن الكريم هذه الانتفاضة بقوله تعالى: : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[1] وحذَّر المسلمين

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٨.

من هذا المسلك الأشِر المسرف المغرور وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

وأرسل الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ اثنين من جنده، يتحسَّسان له خبر العير، كما كان له في مكة من يتحسّس له خبر قريش، فوافته الأنباء بأنَّ عير قريش وافدة غداً أو بعد غد، وبأن قريشاً سارت لمنع العير.

وهنا جدّ الجِد، وانقلب الأمر: إذ كان الخروج لمواجهة القافلة، واحتياز مغانمها المهيأة، فماذا يكون المصير إذا فوجئوا بالقتال، وهم على غير استعداد؟ ولا معنى للتراجع هنا، سوى تسجيل الخزي والهزيمة. فذهبت الظنون ببعضهم إلى أنهم يقادون إلى مجزرة أو فادحة.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾[2].

فجمع النبيّ ﷺ كبراء الصحابة، وقال لهم: أشيروا عليَّ أيّها الناس، فتكلم الصديق فأحسن، وتلاه الفاروق فأحسن، ثم تلاهما المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله! امضِ لِما أمرك الله، فنحن معك؛ واللّهِ لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنَّا ههنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون؛ واللّهِ لو سِرت بنا إلى بَرْك الغماد ــ موضع في اليمن ــ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فدعا له بخير.

ولكنه عاد فقال: أشيروا عليَّ أيها الناس! ولعله كان يريد أن يسمع من الأنصار ما يجلي موقفهم، فربما كانت بيعة العقبة لا تلزمهم إلا بحمايته ما دام فيهم، لا بأن يسير بهم إلى عدوه.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٧.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٧ ــ ٨.

فقام إليه سعد بن معاذ، سيد الأوس من الأنصار، فقال: كأنك تريدنا يا رسول الله! قال: أجل. فقال سعد: آمنَّا بك وصدقناك، وشهدنا بأن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجلٌ واحد، وما نكره أن تَلْقى بنا عدوَّنا غداً، وإنَّا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله.

سُرَّ رسول الله ﷺ لقوله واستبشر، فقال: سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، واللَّهِ لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم.

أما أبو سفيان فقد علم بخروج المسلمين إلى قافلته، فكسر طريقه ونجا بها جهة الساحل، واتخذ طريقه مسرعاً حتى نجا بقافلته، فأرسل إلى قريش يقول: «إنكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجت فارجعوا».

لكنَّ كبش المشركين أبا جهل، أخذته العزة بالإثم فقال لهم: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القينات، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

واتفقت الكلمة على رأي أبي جهل، فانطلقوا إلى بدر، أنوفهم في السماء، تتملكهم الخيلاء، يمنّون أنفسهم بالخمر والقصف والنصر وجميل الذكر. فنزلوا في أرض ليّنةٍ سبخة، في عُدوة الوادي وشاطئه الأقصى من المدينة.

وأرسل الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ علياً والزبير يتعرفان الخبر، وانطلق هو يصلي؛ فوقعا على شابين اصطحباهما، وتوقعا أن يخبراهما عن عير

أبـي سفيان، لكنهما قالا: إنهما سقاة قريش، فلما ضرباهما قالا: إنهما لأبـي سفيان.

وأتمَّ النبـيّ ﷺ صلاته وهو يسمع، فقال: إذا صدقاكما ضربتماهما، وإذا كذباكما تركتماهما؟ والله إنهما لقريش. فسألهما هو وقال: أخبراني عن قريش! قالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى. قال: كم هم؟ قالا: لا ندري. وسألهما عَمَّن فيهم من أشراف قريش. فذكرا له: عتبة بن ربيعة، وشيبةَ بن ربيعة، وحكيمَ بن حزام، وأبا البختري بن هشام، وأبا جهل بن هشام، وأميةَ بن خلف، ونوفل بن خويلد، والحارثَ بن عامر، والنضرَ بن الحارث، وزمعةَ بن الأسود؛ فقال رسول الله ﷺ: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها».

وسار المسلمون حتى وصلوا إلى عدوة الوادي الدنيا من المدينة، بعيدين عن الماء، في أرض سبخة جدبة. فلما نفد ماؤهم، وأحرقهم العطش، ووسوس لهم الشيطان، تغمدهم الله برحمته، فأرسل الرياح، فأثارت السحاب، فهطل المطر، فسقى القوم، وملأوا أوعيتهم، وتلبّدت الأرض تحت أقدامهم: فسجّل القرآن الكريم هذه النفحة بقوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾[1].

لكن هذا المطر كان شرّاً على المشركين، إذ وحل أرضهم، فغاصت فيها أقدام المشاة وقوائم الخيل، وساءت حالهم.

كان ذلك يوم الجمعة السابع عشر من رمضان.

فذكر ابن إسحاق أن الحُبَاب بن المنذر ــ وكان جيدَ الرأي، عارفاً بالأمكنة، ممعناً في الحرب والكيد ــ نهض فقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١١.

قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله! فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءَه من القُلُب، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون فقال: أشرت بالرأي. فنهض ومن معه من الناس وسار إلى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه؛ ثم أمر بالقُلُب فغُوِّرت، وبنَى حوضاً على القليب، فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية.

وذكر ابن إسحاق أيضاً: أن سعد بن معاذ ــ زعيم الأوس ــ اقترح فقال: «يا رسول الله! ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقَى عدونا، فإن أعزَّنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا؛ فقد تخلّف عنك أقوام ــ يا نبيَّ الله ــ ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك». فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير؛ ثم بُني له عريش فكان فيه.

ثم اتجه ــ عليه الصلاة والسلام ــ إلى الصفوف يُعَدِّلُها بسهم كانت في يمينه؛ ومر بِسَواد بن غزية من أصحابه ــ وكان متقدماً في صفه ــ فطعن في بطنه بالسهم قائلاً: استو يا سواد! فقال: يا رسول الله! أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني؛ فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد. فاعتنقه فقبّل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

فلما أتمَّ تعديل الصفوف على ما ينبغي، رَجَعَ إلى عريشه، ومعه الصدّيق فقط، فجعل يناشد ربَّه ما وعده من النصر، ويقول: «اللهم هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني به؛ اللهم

إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد»؛ وأبو بكر الصدّيق يقول: «يا نبيّ الله! بعض مناشدتك ربك، فإنّ الله منجز لك ما وعدك».

ونزل في الاستجابة المنزلة قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[١].

وأخذت النبيّ ﷺ سِنَةٌ من النوم، وهو في عريشه، فلما انتبه قال: أبشر يا أبا بكر! أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه، يقوده، على ثناياه النقع.

وخرج النبيّ ﷺ يحرّض الناس على القتال، ويشجعهم ويبشرهم بالجنة، وينبئهم بنزول الملائكة لتحارب معهم، يتلو: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[٢].

ويقول ــ وهو يستثير حماسهم ــ: «والذي نفسُ محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً، محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»، فسمعه عمير بن الحمام، وفي يده تمرات يأكلهن، فقال: بَخٍ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟ ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه، فقاتل القوم، وهو يقول:

ركضاً إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

وأخذ النبيّ ﷺ حفنة من الحصباء، فقذف بها قريشاً، وقال: شاهت الوجوه؛ ثم قال لأصحابه: شدّوا.

وانقضّ المسلمون على أعدائهم كالنسور، والتحم الجيشان، وتهاوت السيوف، وعلا صوت المؤمنين المنتصرين، واشتدّ صراخ الكفرة المنكسرين.

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٩ ــ ١٠.

(٢) سورة القمر: الآية ٤٥.

وقاتلت الملائكة مع المؤمنين، وهم يضعون العمائم البيضاء، وقد أرسلوها على ظهورهم، إلا جبريل فقد كانت عليه عمامة صفراء. وسجل القرآن الكريم هذا المدد الإلهي، فقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢ . . .﴾[1].

وفي كتب السيرة أخبار كثيرة عمَّن شهدوا الملائكة، وهي تقاتل مع المسلمين.

وقتل في هذه الغزوة سبعون من المشركين، كان فيهم الذين تآمروا على قتل الرسول ﷺ في مكة، ونزل في ذلك النصر الإلهي قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٧﴾[2].

وقتل فيها رؤوس الكفر، من مشركي قريش، أمثال: عتبة، والوليد، وشيبة، وأمية بن خلف، وحنظلة بن أبي سفيان، وأبي جهل، الذي طعنه ولدا عفراء من الأنصار.

ولما أمر رسول الله ﷺ أن يلتمس أبو جهل في القتلى، وجده عبد الله بن مسعود، في رمقه الأخير، فجثم على صدره، ووضع رجله على عنقه، فقال له أبو جهل: لقد ارتقيتَ مرتقى صعباً يا رويعي الغنم! فقال ابن مسعود: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعمد من رجل قتلتموه؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله. . . ثم احتزَّ رأسه، وجاء به إلى النبيّ ﷺ فقال: الله الذي لا إلّه غيره، وحمد الله، ثم قال: هذا فرعون هذه الأمة.

وتفقد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ جثث القتلى، وقد اسوّدت واربدت تحت أشعة الشمس، فأمر أن تطرح في قلب بئر في بدر، فطرحوا، إلا ما كان من أمية بن خلف، فإنه ـ كما قال ابن إسحق ـ انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا

---

(١) سورة الأنفال: الآية ١٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٧.

ليحركوه، فزايل لحمه، فأقروه وألقوا عليه ما غَيَّبه من التراب والحجارة.

وأطلَّ النبـيّ ﷺ على القليب، فقال لأهله: «يا أهل القليب. يا عتبة ابنَ ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أبا جهل بن هشام... هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنِّي وجدت ما وعدني ربـي حقاً؟ فقال المسلمون: يا رسول الله! أتنادي قوماً قد جُيِّفوا؟ فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني»[1].

وقتل من المسلمين، أربعة عشر صحابياً: ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار.

وقفل الجيش المسلم راجعاً إلى المدينة وفي جعباته غنائم كثيرة، وكان يتبعهم سبعون من الأسرى، وتلقاهم أهل المدينة، يهنئونهم بالنصر، مستبشرين يغنون: طلع البدر علينا...

وأسِف من أسِف منهم، لأنه حُرِمَ من شرف خوض المعركة الحاسمة؛ فيقول أسيد بن حضير: يا رسول الله! الحمد لله الذي أظفرك، وأقرَّ عينك، والله يا رسول الله! ما كان تخلّفي عن بدر وأنا أظن أنك تلقى حرباً، ولكن ظننت أنَّها قافلة، ولو ظننت أنه عدوٌ ما تخلّفت. فقال: صدقت.

واستشارَ النبـيّ ﷺ صحابته فيما يصنعه بهؤلاء الأسرى، والإجراءِ الذي ينبغي أن يتخذه حِيالَهم، فوقفوا في اتجاهين مختلفين: فأما أبو بكر فرأى أخذ الفداء، وأما عمر فرأى تقتيلهم جميعاً، فأخذ برأي الصِّديق.

ونزل في ذلك القرآن الكريم معاتباً: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ الآيات[2].

● ● ●

---

(١) رواه ابن إسحاق والبخاري ومسلم.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

الـدروس والمبـادىء

تجلَّت في غزوة بدر، مبادىء عالية، ودروس غالية، وإن لم يخل بعضها من شيء من العتب غير قليل. ونشير إلى أهمها فيما يلي:

١ ــ مبـدأ الشورى:

ربما يكون مبدأ الشورى أظهر ما في بدر من دروس وتربية. والشورى أصل عظيم من أصول الحكم، وأسس السياسة والحرب في الإسلام. وبلغ من أهميتها في الإسلام أنه سميت بها سورة مكية بأكملها في القرآن. وهذا التبكير في التنويه بها في العهد المكي، قبل أن يستكمل الدين حكمه، وقبل أن تتخذ له دولة ذات كيان مستقل وسياسة مرسومة، قاطع بأهميتها في نظام الإسلام العام، وحياة المسلمين العامة، ومجتمعهم الذي ينظمه لهم الدين.

لا جرم لذلك كانت من صفات المؤمنين المتوكلين، المتعلقين بدار البقاء: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾[1]. وجاء النص الآمر القاطع بالتزامها في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[2].

وقد طبَّق النبـيّ ﷺ مبدأ الشورى، في هذه الغزوة، فضلاً عمَّا سواها من الغزوات والمناسبات، ثلاث مرات:

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

أولها ــ في أصل خوض المعركة، وذلك بقوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس».

لكيلا يفرض عليهم حرباً، ربما كانوا لا يرونها، أو لا يرون وجوبها عليهم، فيحرجهم، مع ما في أصل القتال من كره.

ثانيها ــ في تحديد مكان المعركة؛ وقد أقرَّ به رأي الحُباب بن المنذر، لما قدم بين يديه من مؤيدٍ ومبررٍ، ورشحه من رأي ومكيدة.

ثالثها ــ فيما يتخذ حيال الأسرى من إجراء، وقد كانوا كثيرين، فربما ضاق المسلمون بالإنفاق عليهم، فلما تعارض في الشورى رأيان: أحدهما طرح فكرة الفداء، والآخر اقترح الإثخان، جنح إلى الأيسر الأرفق، كما هو دأبه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، وأوضح أن وجهات الشورى المطبقة في هذه الغزوة، تتصل كلها بالحرب، وهي مهد الشورى الأول في الإسلام، فجيء التطبيق وفقاً للمبدأ، منسجماً معه، قاعدة ومجالاً.

والسؤال المطروح في هذا المقام: لماذا يشاور النبـيّ ﷺ صحابته؟ وما هو مغزى الاستشارة، والمعنى الملحوظ فيها؟.

وفي الجواب نستعرض الأوجه الآتية:

١ ــ تطييب قلوب الصحابة: ورفع قدرهم، وجمعهم على الدين، وتثبيتهم على الحق، الذي يراه ويرونه، وإشاعة روح المساواة بينهم، فلا يجدون استبداداً، ولا استقلالاً بالحكم، بل استعانةً بهم، وسماعاً منهم.

٢ ــ إعلامهم بالتربية العملية، أن الشورى ضرورية في شرع الله، لا يستغني عنها أفضل الخلق، فضلاً عمّا سواه، فليتأسّوا به، وليسلكوا مسلكه في التمسك بها.

٣ ــ الجري على عادة العرب، إذ كان ساداتهم يجدون في أنفسهم، ويشق عليهم إن لم يشاوروا؛ فالأمر بذلك وتطبيقه أعطف لهم، وأذهب لأضغانهم.

٤ ـ إعلان فرط لطف سلوك النبيّ ﷺ مع أصحابه، ولين عشرته لهم، وعدم ترفعه عليهم، بل هو يتألفهم حتى في أعظم الأمور؛ وهذا ما تشير إليه آية الشورى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾(1).

وقد آمن الصحابة بهذا المسلك، وانتفعوا به فطبقوه في الحروب وما يتصل بها من شأن: وفي الحوادث التي لا نص فيها، وفي مهامّ الأمور: فطبّقه الصِّديق في كل ما كان يَرِد عليه من الحوادث، ممَّا لا يعرف فيه قضاءً ولا حكماً؛ وكذلك كان يفعل الفاروق من بعده، فكانت الشورى في عهد الراشدين أصلاً من أصولِ الأحكام الشرعية؛ بل إنَّ عمر منع خروج كبار الصحابة من المدينة، حاضرة الخلافة الإسلامية، وذلك ليتمكن من الرجوع إليهم، واستشارتهم في شؤون دولة الإسلام، وإقامة العدل في عهده، وتبيان القضاء والأحكام.

ويبدو من مراجعة النصوص والوقائع أن الشورى ليست مندوبة، بل هي واجبة في نظام الإسلام:

١ ـ فقد ورد الأمر الصريح بها، في الآية المذكورة آنفاً، والأمر عند الإطلاق، وحيث لا صارف، هو للوجوب.

٢ ـ والتزمها الرسول ﷺ وصحابته من بعده، وهم في خير القرون، وفي عصر الاحتجاج؛ وذلك يدل على الوجوب، فالقصد من الاستشارة هو الاسترشاد والاستنارة بما عند الآخرين، ولا يتحقق وجود هذا إلا بوجوبها.

لكن مع ذلك يبدو من التأمل في سياق آية الشورى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾(2) أنه ينبغي أن يستشير الحاكم من

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

حوله، من أهل الرأي والخبرة، ثم له بعد استشارتهم أن يجتهد في أمره، أو ينظر فيه بنور الله، ويتحرى الحق، فإذا انتهى إلى وجهه أنفذه وأمضاه، متكلاً على الله.

وإذاً فلا تدل الآية على وجوب الالتزام برأيهم.

٢ ـ الترفع عن المادة، وصرف القلب عن التعلق بها:

فقد أخذ القرآن على بعض المسلمين تعلقه بالعير، وما تحمل من ذخيرة ومال ونفائس، مع أنهم كانوا فقراء، وفي حاجة إلى المال، والغذاء والكساء، كما يفهم هذا من دعائه الآتي لهم، وهم خارجون إلى بدر؛ لكنهم أحرجوا لما نجا أبو سفيان بقافلته، وتحوّل بهم الأمر من العير إلى النفير، وفوجئوا في هذه الحال التي صوّرها الدعاء، بالابتلاء بالقتال، وفوتِ المال الذي خرجوا من المدينة وهم يُمَنُّون أنفسهم به؛ فعاتبهم الله تعالى على ذلك الاتجاه، ولقَّنهم درساً بليغاً، وهو أنَّ إحقاق الحق، وإظهار دين الله، واستئصال الشرك، ينبغي أن تكون له السيطرة الكلية على الرغبات القريبة الخاصة في الحطام، والأفضلية المطلقة على كل حظ واعتبار مهما يكن من أمر، وعندما يتحقق المسلمون بذلك المعنى، ويترسخ إيمانهم به، فإنه سيتم لهم النصر، ويكون لهم المال الذي يؤدونه ويريدونه: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨﴾[١].

وربما أعقب هذا العتب صرف المسلمين بالكلية عن التشاغل بالغنائم، والاختلاف فيما بينهم بشأنها بعد المعركة؛ ففي الوقت الذي كان فيه بعض الصحابة محيطين بنبيِّهم، يخشون من غدر الكفار به، وآخرون يتعقبون العدو، ليطهِّروا الأرض منه ويثخنوه؛ شغل آخرون بحيازة الغنائم وتنازعوا في أمرها،

---

(١) سورة الأنفال: الآيتان ٧ ـ ٨.

فاختصموا فيها إلى رسول الله ﷺ فنزل القرآن الكريم مؤدِّباً ومربياً، يصرفهم عن التخوّض فيها، والخلاف بسببها، ويقرر لهم أنَّ أمرها إلى الله ورسوله، وليس إليهم، ويوجِّههم إلى التمسك بتقوى الله وطاعته، واسمه الذي ينبغي أن يملك عليهم قلوبهم، وتخفق فَرَقاً لدى ذكره، من دون المال؛ ويلفتهم إلى إصلاح ما بينهم من خُلْف، وتعميق الإيمان في قلوبهم بتلاوة آي القرآن، وتمثّلها كلما استمعوا إليها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾[1].

حتى إذا طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علاّم الغيوب في الطاعة، وتمثّلت النداءات والآي، فتحققت بمعنى العبوديةِ الخالص، نزل قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ. . .﴾[2].

وهذا صريح في أن أربعةَ أخماسِ ما غنموه مقسومٌ بينهم، والخُمُس لله ورسوله، وهذا الخُمُس نفسه مردود فيهم أيضاً، وموزَّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسنَّة ـ .

وذلك التوجيه التربوي، في إرجاء إنزال جواب السؤال عن الغنائم، مشير إلى أن الأحكام الشرعية ينبغي أن يهيأ لها الجوّ النفسي الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق، في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول.

(١) سورة الأنفال: الآيتان ١ و ٢.
(٢) سورة الأنفال: الآية ٤١.

هكذا صرف المولى ــ جلَّ شأنه ــ عبادَه المسلمين عن التعلق بالعير، أولاً، وبالغنائم ثانياً، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق، وأخلصوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله، بأكثر مما كانوا يودون.

فعن عبد الله بن عمرو قال: «خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه. فلما انتهى إليها قال: اللهم إنَّهم جياع فأشبعهم، اللهم إنَّهم حفاة فاحملهم، اللهم إنَّهم عراة فاكسهم. ففتح الله له يوم بدر، فانقلبوا حين انقلبوا، وما منهم رجل إلا وقد رجع بحمل أو حملين، واكتسوا وشبعوا»[١].

٣ ــ النصر من عند الله:

لم نجد في استعداد المسلمين، ما يشير من قريب أو بعيد، إلى أن النصر سيكون في جانبهم: فقوتهم ليست مناظرةً لقوة قريش، وعددهم ليس بمتكافىءٍ مع عدد قريش، بل كانت قريش في مركز الثقل كذلك، وزيّن لها النصر غرورها وخيلاؤها، وما تتمتع به من استعداد وطول.

أما المسلمون فقد هُدوا ــ كما رأينا ــ إلى الترفُّع عن المادة، وتفريغ القلب من الحطام، ووُجِّهوا إلى الثقة بالله، والتعلقِ به في إخلاص وتجرد.

ورأينا النبيّ ﷺ يخرج من العريش الذي نصب له، يتفقد جيشه بنفسه، وينظم صفه، ويقوّي من رباطة جأشه، ويشد بروحه من عزمه، ويسدي إليه النصح؛ ثم هو يخطب فيهم محرضاً على القتال، والاستشهاد في سبيل الله، ويبشِّرهم بالجنة؛ فيقول: «لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة».

وتقع الكلمات النبوية في النفوس موقعها الملائم، فيتعجل بعض الصحابة

---

(١) رواه أبو داود.

الموت، حتى ما ينتظر تناول تمرات وهي في يده، فيهرع إلى الموت يقاتل بغير زاد، حتى يقتل.

ويدلف النبيّ ﷺ إلى عريشه، يدعو الله، ويلح في الطلب، ويبالغ في الابتهال والتضرع، حتى يسقط رداؤه عن منكبيه، وأبو بكر يشفق عليه ويطمئنه.

لقد صدق المؤمنون ربهم في الجهاد، وأخلصوا له بقلوبهم، فهيّأ لهم أسباب النصر، المادية والمعنوية:

١ ـ وعدهم إحدى الطائفتين: العير الذي أرادوه، أو النصر الذي أراده الله لهم.

٢ ـ غشّاهم النعاس، حتى أمنوا واطمأنوا، وشاعت الثقة في جوانب أنفسهم.

٣ ـ أرى الله نبيه في نومه قلة عدوه عدداً، ليشدّ من عزمه، ويقوي قلبه.

٤ ـ أنزل الله عليهم الماء من السماء، فتلبّد الرمل تحت أقدامهم، وصلح تنقلهم فوقه في رفق ويسر، وثبتوا في مواقعهم، ولكن توحل موقع المشركين، فتخوضوا بالوحل، وساءت حالتهم.

٥ ـ أراهم العدو قليلاً حين المواجهة، لكيلا يفزعوا، وأرى عدوهم المسلمين قلة، وكانوا كذلك، لكي يسترسل في صلفه وطغيانه وعتوه: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا. . . ﴾[1].

٦ ـ أرسل جنداً من عنده، تحارب مع المؤمنين، تنفث في قلوبهم حرارة اليقين، وتغريهم بالهجوم والتقتيل: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٤.

﴿... ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾[1].

وهكذا، وثق المسلمون بربهم، وقاتلوا بالإيمان مستبسلين، واستماتوا في طلب الشهادة، وركنت قريش إلى صلفها وغرورها، واستنصرت بكبريائها وعزتها، وقاتلت في سبيل الشيطان، بين الكؤوس والثغور والمعازف فانهزمت مخلِّفة وراءها قتلى وأسرى فيهم رؤوسها، وكتب النصر الحاسم للمسلمين، وتمَّت كلمة ربك: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[2].

٤ ــ تبدأ الحياة بعد الموت:

أفصحت مناداة الرسول ﷺ قتلى قريش، بعد أن طرحوا في القليب، عن أمرٍ عظيم، وهو أنهم بدأوا حياة جديدة، هي حياة البرزخ الخاصة، وهم فيها يسمعون كلام الأحياء، لولا أنهم لا يجيبون ولا يتكلمون.

والإيمان بهذه الحياة، من خصال العقيدة الإسلامية؛ ونعيم القبر وعذابه ثابتان في صحاح الأحاديث، حتى إنه ﷺ مرَّ بقبرين، وقال: «إنَّهما يُعَذَّبان، وما يُعَذَّبان في كبير»[3]، وذكر أن سبب تعذيبهما النمُّ بين الناس، وعدم الاستنزاه من البول، وأخبرنا بأنَّ الحيونات تسمع تعذيبَ العصاة في قبورهم.

ونحن لا نملك الحواس الخاصة القوية، التي تنقل إلينا أمر هذه الحياة، لحكمة عظيمة، وهي تعميق الإيمان بالغيب، وترسيخ اليقين بما وراء الموت، ابتلاءً وتبشيراً وتحذيراً، ولا نجد للماء رائحة ونحن نشربه، ويشم الجمل ــ مثلاً ــ رائحة الماء، وهو على بعد شاسع منه.

ولا بد من التسليم بهذه الحقائق الغيبية، بعد أن تحدث عنها الصادق

---

(١) سورة الأنفال: الآيات ١٢ ــ ١٤.

(٢) سورة محمد: الآية ٧.

(٣) رواه البخاري.

المصدوق، وقطع بها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1].

وربما استؤنس لثبوت هذه الحياة البرزخية التي يحياها الأموات، وما تستتبعه من نعيم أو تعذيب، بقوله تعالى في تعذيب آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[2].

٥ ــ موقف سواد بن غَزِيَّة:

إنه لممّا يستوجب الوقوف والتأمل، ما فعله سواد بن غَزِيَّة بالنبيّ ﷺ إذ طلب القود منه لما أوجعه وهو يسويه بالصف، فلما مكنه من القود، لم يزد على تقبيل بطنه الشريف: ولما سأله عما فعل، قال: حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك، أن يمسَّ جلدي جلدك.

فإن دلت هذه المحاورة على شيء، فإنها تدل على المساواة والآنية والتلقائية في التقاص في نظام الإسلام، دونما تفرقة بين الرئيس والمرؤوس، والقائد والمجند، حتى في أحلك الظروف، إذا لم يؤد القصاص إلى فتنة بين المسلمين. فأين هذا مما كانت تنص عليه بعض الدساتير في موادها الأولى، وتقول: «الملك ذاتٌ مقدسة لا تمس بسوء».

كما صوَّرت مبلغَ تعلقِ الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ بالنبيّ ﷺ في أعظم مشهد، فحينما تقع الحرب، وتلتقي الأسنَّة، وتلتمع الأسياف، وتظهر أشباح الموت، تُوَدِّعُ الدنيا في شخص كبار المحبِّين، تذكّراً أو قرباً أو دفاعاً؛ وكان صنيع سواد قمةً في التعلق الشريف، والحب الخالد.

ما كان أجدره ــ عليه الصلاة والسلام ــ بهذا التعلّق الفريد، أو ما كان أجدر صحابته بهذا المستوى الرفيع من الحب المثالي!.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٤٦.

٦ ـ لم يجتهد النبيّ ﷺ في أسرى بدر، ولم يخطىء، ولم يعاتب:

تشبث بعض الذين كتبوا في فقه السيرة وغيرها، بقصة أسرى بدر، ورأى فيها مثالاً ودليلاً على اجتهاد النبيّ ﷺ، ثم انتهى من ذلك إلى تقرير أنه: «إذا صحّ للرسول ﷺ أن يجتهد، صح منه بناء على ذلك أن يخطىء في الاجتهاد ويصيب؛ غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده».

ولم نشته هذا المسّ بمقام النبوة، وتسوية اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الأصل، باجتهاد غيره، بحيث يخطىء ويصيب، كما يخطىء غيره ويصيب؛ فمثل هذا القول لا يصح أن يطلق على سيد أهل الدنيا والآخرة، وسيد ولد آدم، وسرِّ هذا الكون ومعناه.

وكنَّا نودُّ أن يفرِّق في اجتهاده ﷺ بين ما يتصل بشؤون الدنيا، وهذا لا نزاع فيه، وبين ما يتصل بأحكام الشرع، وهذا محل نزاع قديم معروف ـ مع ذلك ـ في علم الأصول: فمنعه ابن حزم، وأقرّه آخرون، وتوقف فيه حجة الإسلام الإمام الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ .

ومع ذلك فلن نخوض في هذا المبحث الأصولي الآن، وهو يستحق أن يفرد بالبحث، لكننا سنناقش فكرتين:

الأولى: تشبيه اجتهاده ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتسويته باجتهاد غيره، كما يفهم من النص الذي أشرنا إليه، إذ قضية الخطأ والصواب في الاجتهاد، هي شأن المجتهدين والحكام.

والأُخرى: إطلاق الاجتهاد على تصرفه في أسرى بدر، فهل كان قبوله الفداء منهم اجتهاداً، وهل كان مخطئاً في هذا الاجتهاد، حتى ترتب عليه نزول الوحي بالقرآن مصححاً خطأه، معاتباً له فيما وصل إليه من حكم؟

ونقول فيما يتعلق بتشبيه اجتهاده بغيره، وفي تسوية اجتهاده ﷺ باجتهاد غيره: إن اجتهاد غيره ألوان وضروب: فقد يكون في تفهم النصوص التي بين يديه، أو في دفع التعارض الذي قد يبدو فيما بينها، بالتوفيق أو الترجيح أو النسخ أو ما إلى ذلك، أو في القياس على المنصوصات الثابتة.

أما اجتهاد النبيّ ﷺ فلا يكون ــ عند القائلين به ــ إلا في جهةٍ واحدة، وهي حكم الحوادث التي تجدّ ولا نص فيها على نظائرها مما نزل عليه فيه الوحي. ومن هنا افترق اجتهاده عن اجتهاد غيره، لأنه آيل إلى الوحي، وهو بمنزلة الوحي، ولهذا يجب الوقوف عند اجتهاده، والتزامه والإيمان به على أنه وحي، وحكم منزل، لا خيرة لأحد فيه، ولا تعقيب عليه... فلا يمكن أن يحتمل الخطأ.

أما اجتهاد غيره، فيعروه الخطأ، من حيث إنه قد ينحرف به فهم النص؛ وقد يبدو له التعارض، وهو غير واقع؛ وقد يذهب إلى النسخ، وهو غير ثابت؛ فلهذا يقع في الخطأ، ويخالفه غيره من المجتهدين، وهذه الأمور والملابسات لا تنزل بساحة النبوة، التي تبيَّنت معاني التنزيل، وبيَّنته للناس، وعيَّنت موضع كل دليل، وميَّزت الناسخ والمنسوخ، لا جَرَم ترفع اجتهاد النبيّ ﷺ لهذا عن الخطأ، وتعرض اجتهاد غيره لبعض الخطأ.

إن الذي يرتد اجتهاده إلى الوحي، فاجتهاده وحي، فيكون بمعزل عن الخطأ. فهذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[1].

وإن الذي يقلّب نظره في معاني النصوص والتنزيل، وتتعارض بين يديه الأدلة، ويحاول التوفيق بينها، قد يخطئه العمل والتوفيق، لا جرم كان هو الذي قد يخطىء في اجتهاده ويصيب، وقضية هذا الخطأ ومبعثه أنه لا يعتمد على الوحي مباشرة. أما اجتهاده ــ عليه الصلاة والسلام ــ فلا مصدر له إلا الوحي، نصاً أو قياساً؛ والوحي منزَّهٌ عن الخطأ، فكذا الاجتهاد الذي يبتنى عليه.

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣ ــ ٤.

وليس من الحق بعد هذا البيان ــ وهو الحق ــ أن يقال: «إذا صح له ــ عليه الصلاة والسلام ــ أن يجتهد، صحَّ منه بناء على ذلك أن يخطىء في الاجتهاد ويصيب». فسقطت فكرة الخطأ في اجتهاده، وسقطت تبعاً لها فكرة التسوية بين اجتهاد النبـيّ ﷺ واجتهاد غيره. وثبت أن اجتهاده لا يتأتى عليه خطأ، ولا يوصف إلا بالصحة والعصمة: ولا يختلف في هذا المسلمون. وأهل العلم متفقون على أنه ﷺ كان أرجح الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً، وأبعدهم نظراً، وأكثرهم عبراً، في سائر أحواله، ولا ينافى في ذلك ولا يجارى. وهم متفقون على أنه ﷺ معصوم بعصمة الله تعالى إياه، ولا نصّ في الكتاب ولا في السنَّة، ولا في كلام الصحابة، ولا السلف في خير القرون، ولا في كلام الأئمة المقتدى بهم، ما يصحح نسبة الخطأ إليه، من قريب أو بعيد.

ولعل في هذا ما يشير إلى وجه توقف من توقف من أهل العلم في اجتهاد النبـيّ ﷺ. هذا ما يتعلق بفكرة اجتهاده، ونسبة الخطأ إليه.

أما ما يتعلق بإطلاق الاجتهاد على قبول الفداء من أسرى بدر، فقد تعلَّق به أيضاً بعض الكاتبين وانتهوا إلى أنه ﷺ أخطأ في قبول الفداء منهم، وأنه نزلت فيه الآيات معاتبات.

والثابت من الروايات في هذه الواقعة، هو: أن النبـيّ ﷺ استشار أبو بكر وعمر وعلياً، واستشار الناس في الأسرى يوم بدر:

«فقال أبو بكر: يا نبـيّ الله! هؤلاء هم بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفداء، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً.

وقال عمر: والله ما أرى رأي أبـي بكر، ولكن أرى أن تمكنني من فلان، قريب لعمر، فأضرب عنقه، وتمكّن علياً من عقيل، فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة

من فلان فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

قال عمر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء.

فلما كان من الغد، قال عمر: فغدوت إلى النبيّ ﷺ وإلى أبي بكر، وهما يبكيان، فقلت: ما يبكيك أنت وصاحبك؟ قولا، فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما.

فقال النبيّ ﷺ: «أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء. لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة ــ لشجرة قريبة منه ــ»[1]. وأنزل الله ــ عزّ وجلّ ــ : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾[2].

ونحن نتساءل فنقول: هل في هذه القصة ما يدل على خطأ النبي ﷺ في الاجتهاد؟ وهل فيها ما يدل على عتابه في اجتهاده هذا؟

ويبدو أنه ليس في هذه القصة المذكورة، ما يدل على اجتهاده مطلقاً، فلا تدل على أنه أخطأ بالضرورة، كما لا تدل على عتابه في اجتهاده لزوماً، وذلك للأمور التالية:

١ ــ أن حكم الأسرى معروف في الإسلام، وهو تخيير الإمام بين الفداء والقتل. فاطّراح المسألة على الصحابة كان للاستشارة، في ترجيح أحد الأمرين؛ ورواية الإمام أحمد: «استشار النبيّ ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر».

(١) رواه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي.

(٢) سورة الأنفال: الآيات ٦٧ ــ ٦٩.

فالاستشارة لبيان أي الوجهين أنسب في هذا المقام، وأقرب إلى مصلحة الأمة حينئذ؛ فقدم رأيان مدعمان بالدليل، فأخذ ﷺ برأي الصِّديق ومن كانوا معه في الشورى. فليس في القضية اجتهاد وتحري حكم في حادث جديد، بل هي الاستشارة، واختيار أحد حكمين معروفين من قبل، وللحاكم ـ من قبل ومن بعد ـ حق الخيرة فيهما، فأين هذا من الاجتهاد؟.

٢ ـ إن اختياره ﷺ قبول الفداء، جاء موافقاً لما في أم الكتاب بتفسير ابن عباس قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾[١]، فقد روي عنه أن المراد: «لولا ما ثبت في أُمِّ الكتاب من أنَّ المغانم والأسارى حلال لكم، لمسَّكم فيما أخذتم من الأسرى عذاب عظيم». والفداء في معنى الغنائم، من حيث إنه مال مأخوذ من الكفار.

فكيف ينكر عليه، أو يخطأ، فيما وافق ما كتب في أم الكتاب؟.

٣ ـ أنه ما يكون لرسول الله ﷺ بمقتضى كمال فطرته، وعظيم خلقه، وبالغ رأفته ورحمته بأمته، وقد خيِّر بين القتل والفداء، أن يختار إلا الفداء. فهذا من تطبيقات ما صح في الحديث: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً»[٢]، فكيف يوصف اختياره أمراً ينسجم مع فطرته التي فطره الله عليها، ومع سلوكه المرضي عند رب العالمين، بأنه مخطىء فيه؟.

٤ ـ أن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلاَلاً طَيِّباً...﴾ إقرار له ـ عليه الصلاة والسلام ـ على ما فعله، وهو قبول الفداء، وهل يمكن أن يقر على ما أخطأ فيه، أو أن يقر على نتائج الخطأ وآثاره؟.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٨.

(٢) رواه البخاري.

٥ ــ إن قضية الخطأ ولازمه أن يؤمر ــ لو حدث ــ برد الفداء على الأسرى، لا أن يقال له: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم حَلَالاً طَيِّباً﴾ إذ كيف يعتبر لازم الخطأ وأثره حلالاً طيباً، ويباح تناوله بعد العلم به؟.

٦ ــ لو كان اختياره هنا خطأ نبه عليه، لما امتدح بإحلال الغنائم له، بقوله في الصحيح: «وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي». والفداء بدل عن الأسرى، وهم غنائم، وسمي بها كذلك في النص: ﴿فكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُم...﴾.

٧ ــ قد كان فعله احتياطاً وحكمةً، وتوقفاً وانتظاراً ــ كما يقول الإمام ابن العربي ــ وليس معصية غير معنية، كما رأى بعض الناس ــ وحاشاه من ذلك ــ فالقتل لا يفوت بأخذ الفداء، إذ يمكن رده وتنفيذ الإثخان، بخلاف ما لو وقع الإثخان أولاً، فإنه يفوت قبول الفداء. ورشح هذا الانتظار قتل سبعين من المشركين، فيهم الصناديد والأكباش، فهل كان ذلك كافياً في الإثخان؟.

٨ ــ أن قبول الفداء حكم شرعي ثابت قبل غزوة بدر، فقد نصَّت عليه الفقرة الثانية من الوثيقة التي عقدها رسول الله ﷺ بين المسلمين وغيرهم من اليهود، ودرسناها فيما سبق، وجاء فيها: «... وهم يفدون عانيهم (أسيرهم) بالمعروف والقسط بين المؤمنين...»، كما فدى رسول الله ﷺ عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، حين أسرا في سرية عبد الله بن جحش، التي خرجت تعترض عيراً لقريش، كل واحد بأربعين أوقية، ولم يُخطَّأ وقتئذ، ولم يعاتب، فكيف يخطأ هنا ويعاتب؟.

٩ ــ صحَّ في الحديث: «عن علي قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ يوم بدر، فقال له: خَيِّر أصحابك في الأسارى: إن شاؤوا القتل، وإن شاؤوا الفداء، على أن يقتل منهم ــ يعني من الصحابة ــ في العام المقبل مثلهم. فقالوا:

نختار الفداء، ويقتل منا»[1]. وذلك رغبة منهم في الشهادة في سبيل الله ــ تعالى ــ .

فيقول الحافظ ابن حجر العسقلاني معلِّقاً على هذا الحديث: وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه؛ وعلى هذا يكون العتب موجهاً إليهم، لاختيارهم غير الأولى.

١٠ ــ يبدو من مراجعة كتب السيرة والروايات في هذه القصة ــ كما أشرنا من قبل ــ ، أن النبـيّ ﷺ استشار عامة الناس بشأن الأسرى، واستشار أيضاً الشيخين وعلياً أيضاً في كبار القوم، فكان الاتجاه إلى الفداء، فالعتاب النازل لم يكن موجَّهاً إلى النبـيّ ﷺ وإنما كان موجهاً إلى الذين، مالوا إلى قبول الفداء بالمال، واقترحوه عليه في الشورى.

١١ ــ ويستحيل أن يظن بالنبـيّ ﷺ أنه يريد الدنيا، وهو الذي أبـى أن تكون له جبال تهامة ذهباً، وقال: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»[2]. كما يستحيل أن يظن ذلك بالصديق، وهو الذي وهب نفسه وماله، في سبيل الله، ورسوله، ودعوة الإِسلام.

١٢ ــ بل إن سياق قصة الأسرى والفداء، في الحديث الشريف الذي رويناه، وقول النبـيّ ﷺ فيها مجيباً عمر ــ رضي الله عنه ــ : «للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة» ــ يدل على أن البكاء كان من أجل العتاب، لا من أجل أنه هو المُعَاتَب: هو للذي عرض علي أصحابك، هو أخذهم الفداء لا أخذه هو ــ .

---

(١) رواه النسائي والترمذي وابن حبان والحاكم.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه.

وكذلك قوله: «لقد عرض عليّ عذابهم» فهو يبكي للعتاب اللاذع، والعذاب الواقع، الذي كان يتهددهم، وكاد يحيق بهم.

والخطاب في الآية: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ موجَّه إلى الجماعة، لا إلى النبيّ ﷺ.

وإذاً، فالمُخاطب والمُعَاتَب، والذي تعرَّض للعذاب، هو ذلك الفريق من الصحابة، الذي اقترح في المشورة أخذَ الفداء، وهذا هو الحق الظاهر.

ولا ندري بماذا يجيب الذين يرون في الحادثة ضرباً من الاجتهاد، عما ثبت في الحديث من أن المجتهد إذا أصابَ فله أجران، وإن أخطأ فله أجر... فهل يرون أن العتاب من الأجر أيضاً؟

ويتلخص من هذا العرض السريع، لقصة الفداء في أسرى بدر: أنا لم نكن حيال اجتهاد صادر من قِبَل النبيّ ﷺ ولا في نزول الوحي بخلاف اجتهاده، بل كنا بصدد حكم شرعي، يخيّر فيه حاكم المسلمين بين أمرين: الفداء أو القتل؛ فاستشار الصحابة في الأخذ بأحدهما، وترجيحه على الآخر، بحسب الحكمة والمصلحة. فلم يجتهد، ولم يجتهدوا... لأن الاجتهاد ـ كما هو معروف في الأصول ـ «استفراغ الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي مجهول». والحكم هنا معروف، وإنما وقعت الشورى لاختيار الأولى من جهتي الحكم، والأنسب لظروف المسلمين وقتئذ[1].

• • •

(١) ومن أراد التوسع في هذه المسألة وغيرها، مما يتعلق باجتهاد النبيّ ﷺ فليرجع إلى ما كتبه شيخنا الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: (محمد رسول الله وخاتم النبيين)؛ وما كتبه أيضاً أخونا العلامة الكبير المحدث الفقيه الأستاذ الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه: (سيدنا محمد رسول الله) فقد أجادا وأفادا؛ جزاهما المولى خيراً عن العلم والدين وأهليهما.

غـزوة بـني قينقـاع

أثبتت الوقائع والأحداث التي تلت الوثيقة، التي وقعها اليهود مع النبـيّ ﷺ أنهم لم يكونوا جادّين فيما أخذوه على أنفسهم من عهود، ولا قاصدين إلى معايشة المسلمين في المدينة، في جوٍّ من الود والهدوء والاستقرار، كالذي كان عليه المسلمون، وأخذوا به أنفسهم.

فقد أخذت بعضهم روعة الإسلام فآمن، كعبد الله بن سلام، ومخيريق، وأورث إيمانهما هزةً في الصف اليهودي؛ ثم تحول النبـيّ ﷺ في صلاته عن قِبلتهم، وعاد إلى قِبْلة آبائه، فثارت بذلك النعرة اليهودية، وتحركت القلوب التي كانت قد هادنت الإسلام فترة من الزمن للتألُّب عليه. وكان اليهود يفيدون من النزاع المستحكم بين الأوس والخزرج، فلما آخى الإسلام بينهم ضاعت عليهم فرصة السيادة المادية والمعنوية على كلا الفريقين، وفقدوا كل أمل في استنزاف أموال الفريقين، وإضعافهما، وشعروا بضعف مركزهم بعد ظهور الإسلام، وقدّروا أنهم سيعيشون مع المسلمين على هامش الحياة، وفي مؤخرة الرَّحل.

من أجل ذلك عمدوا إلى إثارة الفتن من جديد بين الأوس والخورج، وبثّ بذور الشك في الإسلام، وتجريح مبادئه، ثم إلى إحراج محمد ﷺ بأسئلتهم المتعنتة، ولم يكتفوا بذلك، بل تورطوا أخيراً في تحريض قريش على المسلمين، ليثأر المشركون لأنفسهم من وصمة بدر، كما أسفُّوا في التحرش بالمسلمين، وإليك من شواهد ذلك:

١ ــ هذا شاس بن قيس، وهو شيخ من شيوخ اليهود، يغيظه ما يرى من الإلفة المنعقدة بين المسلمين المهاجرين وبين الأوس والخزرج، ويقول: «قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار».

ويضمر السوء والوقيعة في نفسه، فيتخيّر شاباً من اليهود، للتحريش بين الأوس والخزرج، فينفذ الشاب هذه المؤامرة بأسلوب دنيء من المكر والخبث، ويشعل نار الفتنة بين أوسي وخزرجي، حتى يقولِ أحدهما لصاحبه: «إن شئتم عدنا إلى ما كنا عليه».

ويبلغ النبيّ ﷺ نبأ هذه الخصومة المبكرة المدبرة، فيقول: «الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم؟».

فخجل الأنصار حينئذ، وقاموا يتعانقون، وهم يبكون.

وسجل القرآن الكريم هذه المؤامرة بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾[1].

٢ ــ وهذا أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ يدخل مكتباً من مكاتب اليهود، كانوا يتدارسون فيه التوراة، فيجادله يهودي من البارزين المتعصبين، اسمه (فنحاص)، ويعلق على قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾[2]، فيقول: «والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا؛ وإنا عنه لأغنياء، وما هو عنا بغني؛ ولو كان غنياً ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ

(١) سورة آل عمران: الآيتان ٩٨ ــ ٩٩.

(٢) سورة الحديد: الآية ١٨.

﴿ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1] ينهاكم عن الربا، ويعطينا إياه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا».

فقام إليه الصِّديق، فضربه ضرباً شديداً، وقال: لولا العهد الذي بيننا وبينكم، لضربت رأسك يا عدو الله. ويسرع (فنحاص) إلى النبـيّ ﷺ لينكر أمامه أنه قال شيئاً. وفي هذا ينزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[2].

ذلك ضرب من مواقف اليهود الهادفة إلى إثارة الفتنة بين المسلمين، وتشكيكهم في دينهم، والطعن في كتابهم.

٣ ــ ولم يقتصر الأمر على ذلك: فقد عمدوا إلى إحراج النبـيّ ﷺ بأسئلتهم، وكان يبدو فيها التعنُّت والتنطُّع، وشيء من التحدي: كسؤالهم عن الساعة ــ كما كان يفعل كفار مكة ــ، وسؤالهم عن الروح، وسؤالهم عن هذا القرآن، أما يعلّمه محمداً أحدٌ من الإنس والجن؟ فيتنزل القرآن الكريم مسجِّلاً هذه الوقائع مجيباً عنها، في آيات معروفة مقروءة.

٤ ــ وربما اندفعوا إلى الاستهزاء المشكِّك في شخص الرسول ﷺ والوحي الذي يتنزل عليه؛ فيقول زيد بن الصليت: يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته.

وحدث أنهم زاحموا المسلمين في المسجد، فحضروا الصلاة، وسخروا من المسلمين، واستهزأوا بهم، ورآهم النبـيّ ﷺ متكتلين في المسجد يهمسون ويلمزون، فأمر بهم، فأخرجوا بعنف، وطردوا من المسجد.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٥.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٨١ ــ ١٨٢.

وهذا يعني أنهم سلكوا مسلك المنافقين أحياناً، وتآمروا معهم على المسلمين، يرجفون، ويشككون، ويفسدون؛ يجبنون عن المواجهة، فيعمدون إلى أساليب الخسة والضعف، والمكر السيِّيء، وكان المنافقون المتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين، يرجعون إلى هؤلاء اليهود الشياطين، الذين كانوا يستعينون بهم لضرب الصف المسلم وتمزيقه، يطمئنونهم عن وقوفهم بجانبهم، وتمالئهم معهم على المسلمين واستهزائهم بهم. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

٥ ــ على أن انتصار المسلمين في بدر، كشف عن الأحقاد الدفينة المكبوتة، فانتهى بهم الأمر إلى الاتصال بالمشركين في مكة، وتحريضِهم على قتال المسلمين.

فهذا كعب بن الأشرف، ثار ثائره لما استبشر أهل المدينة بانتصار المسلمين يوم بدر، فأفصح عمَّا في نفسه من حقد محرق قائلاً: «لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم، لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها»، فخرج إلى مكة، وجعل يُحَرِّض أهلها على قتال محمد، ويندب من قتل من المشركين ببدر، ويقول في ذلك الشعر، ومنه قصيدة مطلعها:

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثـل بـدر تستهـل وتـدفـع

وكانت له مواقف سيئة ومريبة ومجالس شر مع أبـي سفيان، عدو المسلمين الأكبر ــ وقتئذ ــ .

فيقول الرواة: إن أبا سفيان قال له: أناشدك الله أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيُّنا أهدى في رأيك، وأقرب إلى الحق؟ إنا نطعم الجزور

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤.

الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبت الشمال؛ فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

ثمَّ رجع إلى المدينة، يُشَبِّب بالنساء المسلمات، ويهجو النبيّ ﷺ فأهدر دمه، وقال: مَنْ لابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله! قال: «فافعل إن قدرت على ذلك». واشترك معه في قتله خدعة أبو نائلة في قصة طريفة تذكرها كتب السيرة، وابن إسحاق منهم ـ على التخصيص ـ.

ولما علم النبيّ ﷺ بمقتل كعب هذا، قال: «من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه». فأهدر بذلك دماءَهم ودبَّ الرب في قلوبهم.

كانت هذه الحوادث بمثابة مرجل يغلي بما فيه، ينتظر ساعة الانفجار، كانت مقدمات لمواجهة دامية،.. لكن حادثة واحدة فجرت النار، وقارعت السلاح، وأراقت الدماء فعلاً، بين أفراد من المسلمين واليهود... ولولا تدخل النبيّ ﷺ لتفاقم الأمر، وعظم الهول.

فقد روى أهل السِّيَر، أن امرأة من العرب المسلمين، دخلت سوق بني قينقاع في بضاعة لها، فباعتها، وانطلقت إلى صائغ منهم تساومه في حلي تشتريه لنفسها؛ فألحّ عليها بعض اليهود الذين كانوا عنده، أن تكشف النقاب عن وجهها، فرفضت في إباء وتصميم.

وعمد الصائغ إلى طرف ثوبها الطويل، فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، وتضاحك اليهود منها؛ فصاحت، وهبَّ لنجدتها رجل من

(١) سورة النساء: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

المسلمين، وهجم على الصائغ، وطعنه فأرداه قتيلاً؛ وتجمّع اليهود على المسلم فقتلوه، واستعدّ المسلمون للثأر... فوقع الشر، واستفحل الأمر، ونقض اليهود العهد.

ونُقل النبأ إلى النبـيّ ﷺ فأسرع إلى سوق اليهود، وكان فيما قال لهم ــ في رواية ابن إسحاق ــ: «يا معشر يهود! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبـي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم. قالوا: يا محمد! إنك ترى أنا قومك، لا يغرنَّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، وإنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس».

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا (أي يوم بدر) فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾[1].

وحيال هذه المصارحة التي كشفت عن الحقد اليهودي الدفين؛ والعداء المتأصل، لم يجد النبـيّ ﷺ بداً من المقارعة المواجهة، وتطهير المدينة منهم، فمشى إليهم في جيش من صحابته، وحاصرهم حصاراً شديداً، استمر خمسة عشر يوماً، واليهود في محابس بيوتهم، لا يدخل عليهم بطعام أو شراب، فمسَّهم الضر، وعضَّهم القهر، واستذلَّهم الحصار المطبق، وأيقنوا أنهم لا طاقة لهم بمقاومة المسلمين؛ فاستسلموا لأمر رسول الله ﷺ وحكمه فيهم. ولما استشار صحابته في أمرهم استقر الرأي على استئصالهم، وتطهير المدينة من كيدهم ومكرهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٢ ــ ١٣.

كان بنو قينقاع متحالفين مع الخزرج من الأنصار؛ ولما انكشف أمرهم، تبرأ أحد زعماء الأنصار، وهو عبادة بن الصامت، من حلفهم وتولَّى اللَّهَ ورسولَه. أما ابن أبـي بن سلول فقد تشبَّث بحلفهم، ولم يرض بتقتيلهم؛ فسار إلى النبـيّ ﷺ وقال له: يا محمد! أحسن في حلفائي... أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؛ إني امرؤ أخشى الدوائر. فقال: هم لك، على أن يخرجوا من المدينة ولا يجاورونا فيها.

ولعل استجابة النبـيّ ﷺ لإلحاح ابن أبـي بن سلول كانت للمحافظة على وحدة الصف المسلم؛ لهذا وكل بجلائهم عبادة بن الصامت، فأجلاهم عن المدينة معهم الذراري والنساء، فاتجهوا إلى (أذرعات) من بلاد الشام، فأقاموا فيها فترة لم تطل، وضمتهم قبورها بعد قليل.

أما أموالهم فقد بقيت للمسلمين، فوزعها فيهم النبـيّ ﷺ، بعد أن خمَّسها.

ونزل القرآن يحذر المسلمين من موالاة غيرهم، من اليهود والنصارى، ويندِّد بموقف ابن أبـي بن سلول، ويشيد بموقف عبادة بن الصامت، ويقول:

﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾. إلى أن يقول: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

● ● ●

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٥١ ــ ٥٢، و ٥٥ ــ ٥٦.

الـدروس والمبـادىء

أسفرت هذه الغزوة عن دروس ومبادىء قيمة، نعرض هنا لأهمها:

١ ــ لا عهود لليهود:

قد ذكرنا أن من أول ما فعله النبـيّ ﷺ، أنه عقد معاهدة لليهود، أمَّنهم فيها على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم، وترك لهم حرية الدخول في الإسلام كلما أرادوا. لكنهم لم يكونوا ــ كما أشرنا من قبل ــ جادّين ولا صادقين في معايشة المسلمين؛ كانوا ذوي خبث ومكر، وحقد دفين موروث، حقد على كل من لا يدين بدينهم، أو لا يسلك مسلكهم: إنهم أنانيون ماديون، وما كانت المعاهدة إلا شبه مهادنة ليتبيَّنوا خلالها مصير المسلمين في المدينة، ومركزهم السياسي والاجتماعي إلى حين. فلما كان تحويل القِبلة، وكان يوم النصر والفرقان في بدر، أسفروا عن حقدهم، وأعلنوا العداء المخبوء: بأساليب شتى.

وفي هذه المرة، في هذه الغزوة، مدوا أيديهم إلى حجاب المرأة المسلمة، وزيّنوا لها السفور بإلحاح، وولي ذلك في ثنايا القصة استصغارهم من شأن يوم بدر، وأنه كانت انتصاراً على أناس ضعاف، لم يتمرسوا بالحرب، وأنه لا قِبَل للمسلمين بحربهم لو بارزوهم، فهم الناس دون من سواهم.

إنهم لم يحترموا العهود والمواثيق، ولا حقوق الجوار، ولا مشاعر المسلمين، ولا مقام رسولهم، فكانت النتيجة ترحيلهم من المدينة، وتنظيفهم من شرهم ومكرهم.

وسنرى عمَّا قريب ــ كما رأينا من قبل ــ صوراً أخرى من خياناتهم، كانت عواقبهم حائقة بهم. ومن أبرزها تمالؤهم مع أهل الشرك والنفاق ضد المسلمين، الذين عاهدوهم وعايشوهم، مع أنهم لا يلتقون بالوثنيين في شيء، وإنما لقاؤهم مع أهل الإيمان بالكتب السماوية والمغيَّبات من المسلمين.

فربما شعروا بأنه لا مقام لهم في المدينة، بعد أن أصبح الأمر فيها كله للمسلمين، وليس لهم من الأمر من شيء، ولم تفلح مشاغباتهم للإيقاع بين المهاجرين والأنصار. وكما تهددت تجارة المشركين بقيام دولة الإسلام في المدينة، تهددت مصالح اليهود المادية ووجودهم المالي فيها بالسبب نفسه، فاصطلحوا مع المشركين لمناوأة هذه الدولة الجديدة التي هزت كيانهم؛ وجمعهم مع المشركين ضعف المركز الاجتماعي والمالي بظهور الإسلام، فلم يستنكفوا عن الغدر بالمسلمين، ونقض عهدهم في معاهدتهم، ولا عن المقاومة الخفية، ثم المواجهة الخبيثة، متفقين فيها مع عبدة الأوثان أعداء المسلمين الأولين.

وهذا يعني أن اليهود ــ منذ ذلك التاريخ وقبله وبعده ــ كانوا على استعداد طبعي دائم لنقض العهود، والاتفاق ولو مع الشيطان، لا مع المشركين فحسب، لسحق الإسلام والحق وكل شيء، كلما تعرضت مكاسبهم للاهتزاز والخسارة. كما يعني أن اليهود لا يهمهم من أمر دينهم مثل ما يهمهم من أمر مصالحهم المادية، ومثل ما تهمهم أنفسهم التي يعبدونها. فإذا كان العرب عبدة أوثان، فهؤلاء اليهود عباد المال والحطام، وهيهات أن يكون لأهل المصالح وعبدة الأموال عهود مجتمعة، أو مواثيق مصونة.

والذي نقوله في اليهود، يمكن أن نقوله في المنافقين أيضاً، من حيث إن الباعث على النفاق لا يمكن أن يكون مما يتصل بالعقيدة، التي لا تقبل المجاملة. فقد أعرب ابن أبـي بن سلول عن صدق محالفته لليهود، وابتنائها على مصالحه

وأغراضه القريبة؛ فهو لا يشفع لهم عند النبيّ ﷺ رجاء صلاحهم، بل لأن تنفيذ حكم الإسلام فيهم، سيفوِّت عليه سيلاً من الذهب والفضة، كانوا يفيضونه عليه، ويغرقونه به، فهو يلتقي بهم ويحالفهم للدنيا القريبة، وهو يعادي ـ بقلبه ـ المسلمين، لأنهم سيمنعونه من التسلق إلى قمة المجد، والثراء العريض، وهو يصافح اليهود، ويغدر معهم بالمسلمين، سعياً وراء الزعامة، التي يرى أنه لا يحققها له إلاً سيطرة رأس المال ونفوذه.

ألا إن اليهودية، والوثنية ـ ممثلة في النفاق والمنافقين ـ اتفقتا في نقض العهود، ونبذ المواثيق، وكان من ورائهما محرك دائب مِلِحٌّ قاهر لا يني ولا يفتر، وهو عبادة الهوى والمال، عبادة الذات. لا جرم كان الفريقان في أوج العداء السافر للإسلام، فلذا اجتمعا في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[1].

٢ ـ يعامل المنافقون بظاهر الإسلام:

وكذلك عامل رسول الله ﷺ ابنَ أبـي بن سلول ومن معه من المنافقين، مع أن الله أطلعه على مكرهم السيِّـىء، وكفرهم المكثف المبطّن، ولكنه كان يرسي قواعد الحكم والقضاء، كيلا يؤخذ الناس بالظِّنَّة، فتراق دماؤهم، وتبتز أموالهم، بالشكوك والأوهام.

إن القاعدة التي أرساها الإسلام هي: أن يعامل الناس بما يبدو من حالهم مع المسلمين، فلا يزالون مسلمين، ما صلَّوا إلى قبلتهم، ونطقوا بشهادتهم، ولا يَخرجون من الإسلام إلا أن يعلنوا كفراً بواحاً. وشؤون التعامل على أساس العقيدة، لا تقوم على الاستنتاج واستبطان الضمائر، لأنه ظنون وأوهام، إنما يترك أمر القلوب إلى علاَّم الغيوب؛ إنما يقوم التعامل على ما يقدمه المرء من أدلة

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

مادية، بلسانه وأفعاله، وهذه فوق مستوى الخلاف، فلا يمتري أحد فيما يقع تحت السمع والبصر، إلا أن يكون مكابراً.

ومن هنا أمسك النبـيّ ﷺ غير مرة، عن عقاب ابن أبـي سلول، وآخرين ممن كانوا معه من اليهود، لمواقف مريبة؛ وربما كانت كافية للاقتصاص، لو اعتمدنا في الحكم على مجرد القرائن التي يدحضها الظاهر.

وموقفه هنا من حلفائه، بعد أن اتجهت نية النبـيّ ﷺ وصحبه إلى سحقهم، وتعقيم الأرض المطهرة من لوثهم وخبثهم، كان قرينة كافية لاستبعاده من حظيرة الدين، واستباحة دمه، لو كان الشرع يكتفي في هذه الأحوال بالقرائن المجردة، لكن أحكام الشرع، وفيما يتصل بالدماء ــ على التخصيص ــ تبتنى على الظاهر من حال الناس.

وربما يكون إسرافه في الاستشفاع لحلفائه، خوفاً على المطامع المالية التي كانوا يطوقونه بها ــ كما بدا من مشادته ــ ضرباً من التلبسة والتغطية التي كان يستر بها ــ بحذق وكر ــ كفره العميق. وما كان ذلك ليخفى على النبـيّ ﷺ لكن القاعدة الشرعية الحقة أحق أن تتبع، لتشرِّع للناس المبدأ المقرر، والدرس المحتذىٰ.

هذا شيء، وشيءٌ آخر، هو أن ابن أبـي سلول ــ كما هو معلوم ــ زعيم أو كالزعيم للخزرج، الطائفة الكبرى من الأنصار؛ ولعله كان يتألفه أو يمهله من أجل قومه من الأنصار، البرآء من سلوكه الملتوي الأثيم الماكر. وقد بدأ بعض رؤوس الخزرج، كعبادة بن الصامت، ينفضون أيديهم من حلف اليهود، الذي يتشبّث به ابن أبـي سلول، وهذا بحيث يكشف الرجل في المستقبل ولو بعد حين. فلعل في تعجيل عقابه تمزيقاً للصف المسلم، وتصدعاً لوحدة المجتمع الإسلامي في المدينة، وهم الآن أحوج إليها من كل شيء، وما يزال عدوهم الأكبر من كفار مكة يتربَّصُ بهم الدوائر، وينتظر هذا التصدع بينهم، ويشتريه بأي ثمن.

وفي الوقت الذي كان فيه القرآن يكشف المنافقين، ويسلِّط الأضواء عليهم، كان يرسي القاعدة الكبرى في معاملة أهل النفاق، كما يبدو من حالهم، حفظاً على حرمة المسلم وصيانة من يسميهم المجتمع مسلمين، وتأديباً للمنافقين، وإغراءً لهم بالاستقامة والانسجام مع أنفسهم؛ ثم إلقاءً للمعذرة إذا اتخذت الإجراءات الحاسمة القاصمة حيالهم؛ ثم هو أولاً وآخراً: ينبه المسلمين على اتخاذ حذرهم منهم بملاحظة سلوكهم المريب، ووزن تصرفاتهم الماكرة الفاضحة.

٣ ـ لا ولاية للكافر على المسلم، ولا يتولىٰ مسلم كافراً إلا أن يكون مريضاً منافقاً:

علّقت الآيات القرآنية التي نزلت تفضح موقف ابن أبـي بن سلول في اليهود، وتحذر المسلمين منه، ومن أن يسلكوا مسلكه، مهما يكن من وراء ذلك من خير أو مغنم، بأنه لا ولاية بين المسلم والكافر، وأن الولاية إنما تثبت بين المتفقين في العقيدة فقط، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، ومن يتخذ وليّاً من غير المؤمنين فليس من المؤمنين، بل هو من مرضى النفاق ومن المنافقين؛ وليس النفاق إلا ضعفاً وخسّة، وشراءً خاسراً للدنيا بالآخرة.

ومعنى الولاية هنا: النصرة والعزة والسيادة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]. فالانحراف عن مسلك أهل الحق، من تخطيط من لا يؤمن بالله ولا يثق به ولا يتمسك بعهده، فهو يتخذ الكفرة أولياء له من دون الله، ويعتمد على دهائه وحيلته ومكره ابتغاء الدنيا والمركز الخاص في المدينة.

أما أهل الإيمان، فالحق عندهم قبل كل شيء، لا الغرض ولا المركز؛ ولهذا كانوا في قوةٍ وشجاعةٍ وجرأة، اعتزوا بالله، فأعزَّهم، وكتب لهم الغلبة، كما قدر للمنافقين الفضيحة والذلة والندامة، لما اعتزوا بمحالفة اليهود.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

إنه ليس للمسلم أن يجعل لغير المسلمين ولاية عليه، ولا يجوز له أن يشمل بولايته أحداً من غير المسلمين، فيدعمه وينصره على المسلمين، لأنه بذلك يفتِّت الوحدة الإسلامية، ويمزِّق الجماعة المسلمة الواحدة التي كانت أول ما حققه الإسلام في المدينة، وأقام على أساسه دولته الفتية القوية الأولى.

ومع هذا فإن رفض الإسلام الاعتزاز بولاية الكافرين، لا يعني أبداً في نظام الإسلام وروحه الإنسانية، الاعتداء على الكافرين أو ظلمهم، فالاعتداء حرام بإطلاق في القرآن، والظلم ظلمات يوم القيامة، والعدل مطلوب ولو في حال التنافر المستحكم: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[1] والبرُّ والإحسان إلى الناس كافَّة من شرعةِ الإسلام وإنسانيته وعالميته، ولو بالنسبة إلى الكافرين إلا أن يستحلوا دماء المسلمين، أو يستبيحوا حرماتهم ومقدساتهم: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩ ﴾[2].

٤ ــ الحجاب أصل في الإسلام ومن مميزات المرأة المسلمة التي تتمسك بها:

دلَّت دراسة هذه الغزوة، بأسبابها البعيدة والقريبة، على أن سببها المباشر كان اعتداء اليهود على المَرأةِ المسلمة، إذ زيَّنوا لها نزع حجابها، وألحُّوا عليها في ذلك؛ ولما أصرّت عليه واستمسكت به، عمدوا إلى الاستهزاء بها، والنيل من كرامتها بأسلوب دنيء ماكر خبيث.

وهذا كالنص على أن الحجاب من مظاهر الإسلام، وخصائص الأسرة

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

(٢) سورة الممتحنة: الآيتان ٨ ــ ٩.

المسلمة، تعتز به المرأة وتحرص عليه، في مواجهة الإثارات والتحديات، والمزعجات المغرضة، وأنه ثابت مقرر في وقت مبكر من العهد النبويّ. ولا بد أن يكون تمسك المرأة المسلمة به أمام تحرشات اليهود في هذه الغزوة، امتداداً وتطبيقاً لتشريعٍ سابق عليه نسبياً، بحيث أصبح عادة دينية، وسلوكاً قائماً مستقراً.

وفي النصوصِ الأدبية من الشعر العربـي، ما يشير بوضوح إلى أن العرب عَرَفوا الحجاب في الجاهلية؛ ولا يبعد أن يكون الإسلام قد أقرَّه شرعة للمسلمات، ثم وقع الأمر به صريحاً في آيةِ الحجاب. في قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾[1].

ولا بأس من أن نتوسع ولو بعض الشيء في هذه الجزئية، فنذكر أقوال أهل العلم في تفسير هذه الآية، ومذاهبهم في عورة المرأة، واستثناءاتهم منها، ثم نعرج على فتاوى مقلدي الأجانب في إباحة السفور، وما يؤدي إليه من الاختلاط، وموقف أهل الدين والعلم والإنصاف منها:

(أ) فمن النصوص الواردة بصدد تفسير هذه الآية:

١ ــ ما رواه ابن جرير في تفسيره الشهير عن ابن سيرين بسنده إليه، قال: سألت عَبِيدَة السَّلماني عن هذه الآية ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه، فَتَقَنَّع بها وغطَّى رأسه كله، حتى بلغ الحاجبين، وغطَّى وجهه، وأخرج عينه اليسرى من شقه الأيسر.

٢ ــ وروى أبو حيَّان في البحر المحيط عن ابن عباس، قال: تلوي الجلباب فوق الجبين، وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر، ومعظم الوجه.

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٩.

٣ ــ ثم روى عن السُدِّي أنها تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلاّ العين. ويعلق أبو حيَّان على هذه الرواية بقوله: كذا عادة أهل الأندلس، لا يظهرون من المرأة إلا عينها الواحدة.

٤ ــ ويقول ابن الجوزي في معنى الآية المذكورة: أي يغطِّين وجوههنّ، ليُعلم أنهنَّ من الحرائر.

٥ ــ وجاء في تفسير الجلالين وغيره، عن ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهنّ ووجوههنّ بالجلابيب، إلا عيناً واحدةً، ليُعلم أنهنَّ حرائر.

والجلباب في قول أهل العلم: الثوب السابغ الذي يستر البدن كله؛ أو هو ثوب أوسع من الخمار، ودون الرداء؛ أو كل ما يغطي به من ثوب وغيره. فيبدو أنه ما يغطى البدن كله أو أكثره أو أعلاه، مع الرأس.

والنصوص التي ذكرناها، نقلاً عن أهل العلم الثقات في التفسير، لم تفهم من الجلباب إلا ما يغطي الرأس والوجه. ومنها يعرف حكم الجلباب الذي تلبسه بعض المسلمات في أيامنا، وهنَّ يرين أنه السنَّة، فإنه لا يتصل بالجلباب الإسلامي المذكور بسبب، بل هو البدعة التي تخالف السنَّة، التي وردت عن أهل السنَّة من السلف، فالتزمها أهل السنَّة ــ حتى أيامنا ــ في الشرق والغرب، ونص عليها أبو حيان الأندلسي في تفسيره.

(ب) وربما اضطررنا لاستعراض المذاهب الفقهية، في عورة المرأة وذلك لتفسير الحجاب، الذي أدت المحاولة اليهودية كشفه، إلى فضح اليهود ومواجهتهم بالسلاح، ونفيهم عن المدينة.

١ ــ فقد قرر الحنفية والمالكية، أن المرأة عورة، واستثنوا وجهها وكفيها وقدميها لكنهم أوجبوا عليها مع ذلك ستر الوجه، خوف الفتنة؛ وكذا كل من قال من أهل العلم من الفقهاء إن هذه ليست بعورة، شرط الأمن من الفتنة.

٢ ــ وجمهور الفقهاء، ومنهم الشافعية والحنبلية، على أن المرأة بالنسبة إلى الأجانب، كلها عورة، أما في الصلاة فإن عورتها ما سوى الوجه والكفين فقط.

وفي هذا يروى قول إمام أهل السنَّة، أحمد ــ رضي الله عنه ــ : «كل شيء من المرأة عورة حتى الظفر» لا يستثنى منها شيء حتى الظفر، إذ كان متغزل أهل الفسق والخلاعة من الشعراء.

وربما استدل الجمهور بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1]، والقول متسع لتفسير هذا الظاهر، فهل هو محل الزينة الذي هو الوجه والكفان، مما لا يسع إلا ظهوره ــ كما روي عن سعيد بن جبير وعطاء ــ ، أم هو خاص بالصلاة، إذ قد ثبت في النصوص «إن المرأة عورة مستورة»[2]؟

ولهذا صرح ابن القيم ــ رحمه الله ــ في كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، وهو من الحنبليين السلفيين المتبعين، بأن استثناء الوجه والكفين، إنما هو في الصلاة، أما خارجها وبالنسبة إلى الأجانب فالمرأة كلها عورة؛ وأفاض في بيان هذا في كتابه المذكور، كعادته في تحقيق المهام ــ رحمه الله تعالى ــ .

يضاف إلى ذلك أن الوجه بؤرة الفتنة، وأصل الجمال، ومجمع الحسن، ولهذا كان ستره عن الأجانب واجباً بالضرورة، وليس من المعقول أن تؤمر المرأة بستر شعرها وساعدها وساقها، وهي عورة بالإجماع، ولا تؤمر بستر وجهها، والفتنة فيه، والإثارة به أبلغ.

على أن أبا حيَّان ــ رحمه الله ــ يرى في تفسيره أن الأمر بلبس الجلابيب في آية الحجاب، ليس مقصوراً على الحرائر ــ كما يقول غيره من أهل التفسير ــ بل

(١) سورة النور: الآية ٣١.

(٢) هذا حديث رواه الإمام أحمد.

هو شامل للإماء، إذ الفتنة بهنّ أكثر، لكثرة خروجهن وتصرفهن، بخلاف الحرائر، فيحتاج استثناؤهن إلى دليل. ولهذا يرى أن المراد من قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾، هو أن التستر بالجلباب المأثور ـ بالتفسير الذي رأيناه ـ هو أدنى إلى العفة، وأقرب إلى التستر، فيدفع عنهن أذى الآخرين، إذ إن العفيفة لا يقربها أحد، بخلاف المتبرجة.

وللأستاذ المصلح الاجتماعي الكبير أبـي الأعلى المودودي تعليقٌ نفيس على هذه الآية:

فهو يرى: أن العورة ما لا يجوز كشفه حتى للمحارم من الرجال، أما الحجاب فهو شيء فوق العورة... فهو يتساءل: كيف ينهىٰ الإسلام عن ضرب الرِّجْل في سورة النور، ويبيح كشف الوجه؟

ويرى أن هناك فرقاً بين الإبداء والبدو: فما ظهر هو كالملاءة، فلا يمكن أن تخفى، والقرآن ينهى عن إبداء الزينة، ويرخص فيها إذا ظهرت من غير قصد؛ والتوسع إلى حد إظهارها مخالف للقرآن، وللروايات التي بينت أن النساء ما كُنَّ يبرزن إلى الأجانب سافرات؛ والأمر بالحجاب كان شاملاً للوجه، إلا في حال الإحرام.

(ج) ومع هذه الروايات المأثورات والوقائع التي سردناها في شرعية الحجاب، فقد طاب لبعض الناس أن يخالف عن هذا الحكم الواضح الظاهر المتسق مع آداب الإسلام ونظافته ونظامه، ويفتي بنزع الحجاب، حباً في الظهور، أو رغبةً في الشذوذ عن صراط الجماعة المسلمة، أو جراً للمسلمين بعجلة التقليد للجاحدين الكافرين.

واجترأ بعضهم فقال: إن الحجاب لا أصل فيه في الإسلام، ونشر هذا القول في المجلات، وربما لم يكتف بعضهم بنبذ الحجاب الثقيل ـ على حدّ تعبيره ـ

فخطا خطوة أوسع في التحررية والتقدمية، فأباح الاختلاط. ولعله ظن أن في المسلمين من سيقتنع بالفتاوى الرخيصة المرتجلة، ويستغني بها عن مذاهب السلف الصالح، وسلوك المسلمين في خير القرون.

وسبق هؤلاء الشيوخ داعية السفور قاسم أمين، لكنه دعا إليه باسم المدنية والتحرر، لا باسم الدين. ومع ذلك فقد أفتى الشيوخ في الأزهر بكفره، لاستحلاله ما هو معلوم الحرمة من الدين بالضرورة. وحذا حذوه طه حسين، مع أنه لا صلة له ولا لسابقه بالشرع، ولا يصح أن يفتي في أحكام الدين... لكنه اجترأ كسابقه، وأدلى دلوه وتخوّض، وتجاوز السفور إلى الاختلاط، فقال: «لا أجد في كتاب الله، ولا في سنَّة رسوله، ما يحرم اختلاط الرجال بالنساء».

ولو أنه أنصف الحق، وكلَّف نفسه بالبحث، لوجد الكثير مما أشرنا إلى بعضه قبلاً.

وحاول بعض الجرءاء أن يجددوا في الاجتهاد، فطوعوا بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنَّة لهواهم ورأيهم في السفور الذي هو ذريعة إلى الاختلاط والتبرج:

١ ـ فربما احتج بعض الكاتبين بحديث: «يا أسماء، إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض، لم تصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا، وأشار إلى وجهه وكفيه»[(١)]. والحديث منقطع، ومحمول على أنه كان قبل نزول الحجاب، وحال الأمن من الفتنة. وهذا الحمل ضروري حفاظاً على عمومية النصوص الآمرة بالحجاب، وبعضها قطعي، ومعظمها صحيح، وتطبيقاتها محل اتفاق المسلمين، وإجماعهم العملي، الذي لا يناهضه رأي ولا خبر واحد.

٢ ـ وربما احتج آخرون، بما روي أن النبيّ ﷺ رفض تلبية دعوة وجَّهها إليه

(١) رواه أبو داود.

جاره، إلا أن تدعى عائشة معه أيضاً، فلما دعاها معه لبّـى دعوته. لكن هل معنى هذا أن عائشة أم المؤمنين لما دعيت جالست الرجال المدعوين، وآكلتهم وخالطتهم وحدثتهم وجهاً لوجه، مع قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[1]؟ فإن كان فيه ما يشير إلى جواز اصطحاب النساء إلى الولائم، فليس فيه ما يدل على اختلاط الرجال بالنساء وهنَّ سافرات، وهذه الآية تعلِّل بصراحة للحجاب، بأنه لقصد الأطهرية، لكلا الطرفين، والعلة قاطعة قائمة مستمرة، ولا تقبل التغير، فليكن الحجاب معلولها أيضاً ثابتاً لا يتغير، إذ الطهارة هنا في شؤون الأخلاق، وهي محكمة لا تتبدل. كما يستحله بعض الناس، وهو موضوع المسألة.

٣ ــ كما استدل بما روي أنه ﷺ حضر وليمة عرس صاحبه أبـي أسيد الساعدي حيث قدمت العروس ضيافة الوليمة بنفسها. ولكن من يدري؟ فلعل زواج أبـي أسيد وقع مبكراً قبل نزول الحجاب، والأمر بغض البصر، والتلبث في البيوت. وهذه حادثة خاصة، ولعلها من امتداد العادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام ــ فيما أبطل من كثير من العادات ــ آخراً، بدليل أنها لم تتكرر في سلف هذه الأمة، ولم ينقل لنا أن نساء الصحابة والتابعين فَعَلْنَه، ولا احتج بها أحد من أهل العلم، والأمانة على دين الله. على أن نصوص القرآن التي تلوناها، والتي سنتلوها عامة، وهذه حكاية فعيل خاصة، فلا تعم، كما تقرر في الأصول.

على أن من الناس من يرى أن الاختلاط يرقق الطباع، ويهذب النفوس، ويحل العقد، ويعين على تصريف الغرائز المكبوتة، ويشفي من الأمراض النفسية

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٣.

التي يورثها الحرمان؛ لكن المشاهد العكس، وأنه يورث السّعار، ويوقد النار، ويزيد في الأوار، ويشتت الأفكار: بل يقول الأستاذ سيد قطب: إنه كذب في الواقع، حتى في البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الكشف والاختلاط؛ ولم ينته إلى تهذيب، بل إلى سعار ومجون وجنون، لا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ.

ويذكر أيضاً ـ رحمه الله ـ أن الأمراض النفسية، والعقد التي يقال: إنها تنشأ من الكبت والحرمان، قد شاهدها ومعها الشذوذ الجنسي بكل أنواعه، ثمرة للاختلاط، والتبرج والسفور ذريعة إليهما.

لهذا يرى أن الطريق المأمون، ليس الاختلاط، لأنه يؤدي إلى الإثارة، إنما هو تقليل المثيرات، مع تهذيب الطبع، وتشغيل الطاقة البشرية، بهموم أخرى في الحياة، غير تلبية دافع اللحم والدم.

وإنا لنعجب أن تقوم في المسلمين جماعة تتصدى للعمل بالسنَّة، وقمع البدعة، فتدعو النسوة المتحجبات إلى السفور، وتمزيق الحجاب، في زمن وَهَن فيه الوازع الديني، وطغت الشهوات الآثمة على المجتمعات، ثم تزعم للناس أن هذا هو السنَّة، ومنهاج السلف: ويلغطون بأن الوجه ليس بعورة؛ فهل فهموا من أنه ليس بعورة أنه يجب كشفه، أو أن كشفه هو السنَّة، مع ما رأينا من الاتفاق على وجوب الستر عند خوف الفتنة؟ ولا ندري بماذا يغطون أو يعطلون النصوص التي سردناها . . . بل هذه النصوص التي تفيض بالطهر والستر والعفاف والأدب الرزين، الذي يؤدب به الله تعالى أمهات المؤمنين، وهن النماذج الكاملة لكل المسلمات:

ـ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

ـ ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾[2].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) نفسها: الآية ٥٣.

ـ ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾[1].

ـ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[2].

ـ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[3].

وأكدت السنَّة النبويّة هذه العفة المقصودة المحببة، فندبت أيضاً إلى الأدب الذي دعا إليه القرآن، والصون الرفيع، وحذرت من السفور، والتكشف المسف، فمنها:

«يا علي لا تُتبع النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة»[4].

«صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس. ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأَسْنِمَة البُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». . . وفي رواية: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام»[5].

إذا كانت أمهات المؤمنين الطاهرات ـ وهنَّ في خير القرون في الدنيا، وهنَّ اللواتي لا تتطاول إليهنَّ الأعناق طهراً وعفافاً ـ مأمورات بأن لا يترخصن في القول، ولا يتكسَّرن في الحديث، ومأمورات بالتقرُّن في البيوت، والقول المعروف، فيا ليت شعري هل لنسائنا من بعدهن أن يسفرن ويختلطن ويتكشفن في الدروب ومجامع الرجال، ويبدين الكثير من زينتهن، مما يحل ومما لا يحل، وبينهما قاسم مشترك، وهو وصف الإيمان؟

---

(١) نفسها: الآية ٥٩.

(٢) سورة النور: الآية ٣٠.

(٣) سورة النور: الآية ٣١.

(٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والدارمي.

(٥) رواه الإمام أحمد ومسلم.

لقد كنا وكان الشرف والتحشم والفضيلة في صون وعفة وتقدير، حتى اندس بين المسلمين من الفساق الحيوانيين، من زيَّن السفور ثم الاختلاط ثم التعري. . . فهبط الذوق الرفيع، واستعرت الحيوانات المتجسدة، وانساق الناس بلذائذ اللحم إلى وادٍ سحيق موحل ملوّث.

إنما أراد الإسلام من الحجاب ما يرمز للفصل النظيف الطبعي المهذب بين الجنسين، ومنع الاختلاط بعامة، وذلك لينصرف كل جنس إلى مهامه الحيوية، ولكيلا ينزلق في متاهات الجنس، ومتاهات البهيمية المرتكسة.

أراد الإسلام من ضرب الحجاب صون المرأة، والحفاظ على كرامتها وعفتها، وأراد الناس من السفور الاختلاط، وتهيج الشهوات الكامنة، وإيقاظ المشاعر الوادعة النائمة؛ والله أعلم بما يصلح لخلقه.

ولو لم يشرع الإسلام الحجاب، لكان من الواجب في سياسة الرعية، والسياسة الشرعية، تشريعه، استصلاحاً للناس، ودرءاً للفسق والفجور والتميع، لمَّا فسد الزمن.

ولقد نفهم أن يدعو إلى السفور الهابطون الأنانيون، الجسديون الماديون، لكن ما كنا نقدر أن يكون من دعاته بعض المحسوبين من أهل الدين، ودعاته.

وقد نفهم أن يقال لكاشفات عن معظم محاسنهن: إن الوجه واليدين ليست بعورة، للتدرج بهن إلى أحضان الإسلام النظيفة الآمنة؛ لكن لم نفهم أن تدعى هذه البقية الباقية المتسترة من النسوة المؤمنات المتحجبات إلى نزع الحجاب باسم الدين، وتطبيق السنَّة، واتباع سلف هذه الأمة، وهو الذي عرفنا تمسكه وطهره وعفافه. فيا للإثم المبين، ويا للخسارة الفادحة، في العلم والدين.

فإلى هؤلاء وإلى أولئك، وإلى رواد الحق، أسوق هذه الحادثة المعبرة، التي رواها أحمد تيمور باشا ــ رحمه الله ــ في كتابه: تراجم أعيان القرن الثالث

عشر: تاركاً التقاط العبرة منها للقارىء الحصيف، وقلبه النظيف، وفكره النير المنفتح:

«أراد رئيس بعض المحاكم الأهلية في مصر، أيام كان رئيس الوزارة المصرية (نوبار باشا الأرمني) أن يكشف وجه امرأة مصرية مسلمة متحجبة، لحاجة القضاء إلى زيادة التعرف على شخصها، فامتنعت المرأة المسلمة عن أن تسفر عن وجهها أمام المحكمة ــ مكتفية بإبراز هويتها ــ واحتجت بأن الشريعة الإسلامية الغراء لا تبيح السفور.

واستفتى رئيس المحكمة عندئذ شيخ الأزهر، في ذلك العهد، الإمام الشيخ محمداً العباسي المهدي، وكان مفتي الديار المصرية أيضاً، فأفتى الشيخ الإمام بعدم جواز السفور، وشدَّد في المسألة.

وما كان من نوبار باشا إلا أن سعى لدى الخديوي في عزل الشيخ المهدي، وقال له: إن الشيخ أصبح عقبة أمام القضاء، معارضاً لأحكام القضاء.

فلما سمع الشيخ المهدي بمساعي نوبار الأرمني، وتأثيره، استقال من مشيخة الأزهر ومن الفتوى في مجلس واحد، قبل أن يفكر الخديوي في موضوعه، غير آسف عليهما».

ما أشبه الليلة بالبارحة.

إن رئيس وزراء مصر الأرمني يهتم بمسألة نزع الحجاب، ويلحّ في دعوته إلى السفور، كما ألحت عصابة من اليهود قبل بضعة عشر قرناً على المرأة المسلمة بأن تنزع حجابها، وكانت فتنة، تمخضت عنها هذه الغزوة، غزوة بني قينقاع، التي نواجهها بالدرس.

إن الكفرة ــ إذاً ــ مهما اختلفت جهات كفرهم، دعاة إلى نزع حجاب المرأة

المسلمة لكنهم كفرة... فما بال أهل الإيمان يمشون في مساكنهم، وعلى دروبهم؟

إن غزوة بني قينقاع عرفتنا أن أول يد آثمة في تاريخ الإسلام، حاولت نزع حجاب المرأة المسلمة، كانت يداً يهودية قذرة، ماكرة مدبرة، فهل عرف أهل العلم والإيمان في أيامنا هذه، همزة الوصل بين اليهودية وبين دعاة السفور؟.

● ● ●

غـــزوة أُحـــد

١ ــ كفّـار مكـة:

أورثت الهزيمة النكراء، التي ألحقها المسلمون يوم بدر، بكفار مكة، حقداً دفيناً، كما أنها هزت مكانة قريش بين العرب، وألصقت بهم عاراً، قرروا أنه لا يمحوه إلا الأخذ بالثأر. وزاد في الحقد والتصميم على المواجهة: أن المسلمين في المدينة سيطروا على مركز هام من قوافل مكة، في طريق البخور، إلى الشام، فلن يتركوا الطريق مفتوحاً لتجارة قريش، تجتازه في أمن.

ولا شك أنه كان لقصائد كعب بن الأشرف، ذلك اليهودي الحاقد الحاسد، أثر كبير في تأليب قريش وما حولها على المسلمين، كما كان لقصائد أبـي عزة ــ الشاعر الذي منَّ عليه النبـيّ ﷺ يوم بدر، فخلى سبيله، على أن لا يظاهر عليه المشركين، والذي أغرته قريش بعد ذلك، فغدر بعهده ــ أثر غير يسير في تحريض بني كنانة.

ومن هنا سارع فتيان من قريش، ممن فقدوا آباءهم وإخوانهم يوم بدر، من أمثال عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبـي جهل، وصفوان بن أمية، إلى أبـي سفيان عميد الكفر والكفرة، وإلى من كانت له في عير قريش تجارة، فاقترحوا تخصيص أرباحها، لتجهيز جيش يغزون به محمداً وصحابته في عقر دارهم، أخذاً للثأر،

وغسلاً للعار، واستعادة لمكانة قريش بين العرب، وكانت أرباح العير توازي رأس مالها.

واستجاب المشركون لذلك، وكان أبو سفيان أول مستجيب، فردوا إلى المشتركين في التجارة رؤوس أموالهم، واستبقوا الأرباح التي كانت نحواً من خمسين ألف دينار، إذ كانوا يربحون في تجارتهم بكل دينار ديناراً.

وفي هذا التكتل المتآمر، نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1].

وانضم إلى قريش قبائل من كنانة وبني المصطلق، الذين كانوا يسمون بالأحابيش وأهل تهامة.

وتجمع للكفار جيش معد مسلح في نحو ثلاثة آلاف مقاتل، فيهم مائتا فرس وسبعمائة بعير، فخرجوا قاصدين المدينة برئاسة أبـي سفيان، ومعهم جبير بن مطعم، وله غلام حبشي اسمه وحشي، وكان هذا الغلام رامياً لا يكاد يخطىء له سهم، فقال له سيده: إن أنت قتلت حمزة بعمي طعيمة فأنت حرّ. وكان معهم نسوة بلغن خمس عشرة امرأة، من بيوتات قريش لإثارة الحمية، وإلهاب الحماس، والإغراء بالقتال؛ كانت فيهن هند بنت عتبة مع زوجها أبـي سفيان، وكانت ــ قبل إسلامها يوم الفتح ــ من القرشيات ذوات النفس والأنفة والعزة المستصعبة، والحقد المشتعل.

وخرجت القينات للغناء والعزف، كما خرج الغلمان لحمل الخمور، واتجهوا إلى المدينة، فنزلوا ببطن الوادي المقابل للمدينة، في منطقة مزروعة مشجرة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٦.

٢ ــ المسلمون:

أرسل العباس بن عبد المطلب عم النبيّ ﷺ رسولاً، حمله رسالة منه إلى ابن أخيه، يعلمه فيها بخروج قريش لحربه؛ واعتذر العباس عن خروجه يوم أحد لكيلا يصيبه ما أصابه يوم بدر من أذى ومكروه.

وجاءت رسل النبيّ ﷺ تحمل إليه أنباء مركز جيش الكفرة، واحتلالهم زروع المدينة، يعيثون فيها فساداً وإتلافاً. فجمع الصحابة واستشارهم قائلاً: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها.

فقال فريق من الذين لم يشهدوا بدراً، من الفتيان الثائرين: كنا نتمنى هذا اليوم، وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا، وقرب المسير، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا.

أما عبد الله بن أبي بن سلول، رأس المنافقين، فقد كان على النقيض من ذلك، إذ كان من المثبطين، وكان مما قاله: إن مدينتنا يا رسول الله عذراء، ما فضت علينا قط، وما دخل علينا عدو فيها إلا أصبناه، وما خرجنا إلى عدو قط إلا أصاب منا، فدعهم يا رسول الله، وأطعني في هذا الأمر، فإني ورثت هذا الأمر عن أكابر قومي، وأهل الرأي فيهم.

وأخذ النبيّ ﷺ برأي الجمهور المتحمس من الشباب، فصلى بهم الجمعة، وحثّهم فيها على الصبر والثبات، وكان فيما قاله لهم: لكم النصر ما صبرتم. ودخل حجرته، ولبس عدته، وتقلد سيفه، وألقى الترس وراء ظهره.

فلما خرج إلى الصحابة، قال له ذوو الرأي، الذين قدروا أن المتحمسين من الشباب استكرهوه على الخروج: يا رسول الله! استكرهناك، ولم يكن لنا ذلك، فإن شئت فاقعد. فقال رسول الله ﷺ: «ما يكون لنبيّ إذا لبس لأمته ــ درعه ــ أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه».

وعقد ألوية جيشه، فجعل لواء المهاجرين إلى مصعب بن عمير؛ ولواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر؛ ولواء الأوس إلى أسيد بن حضير. وكان في الجيش نحو ألف مقاتل، استبعد منه الحدثان، وهو يستعرضه ممن لم يبلغ الخامسة عشرة، كأسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وأجازهم بعدئذ يوم الخندق.

واستبعد أيضاً رافع بن خديج، وكانت سنه خمس عشرة، وسمرة بن جندب؛ فذكروا له أن رافعاً رام، فأجازه، فبكى سمرة، وهو يقول: أنا أصرع رافعاً، فعاد فأجازه.

والتحق بالجيش بعد أن كاد يغادر المدينة، فيلق من الجيش اليهودي مجهز بالسلاح والعتاد ليقاتلوا معه، فردهم واستغنى عنهم، إذ كان يقدر مكرهم السيِّىء، وغدرهم الخبيث وخيانتهم المتوقعة.

ويقول الرواة: فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبد الله بن أبـي منفرداً بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسنا؟ فرجع بمن تبعه من قومه من أهل النفاق والريب. فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، يقول: يا قوم، أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيَّكم عند من حضر من عدوهم. قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا نرى أنه لا يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه، وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيّه.

وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾[1].

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

وافترق المسلمون في شأن هؤلاء المنخذلين المنافقين: فئة ترجح قتلهم، وأخرى ترى تركهم. ففي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1].

كما وصف الله حال ابن أبي ومن معه من المنافقين، وكشف عما في قلوبهم، وحذر منهم المسلمين، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾. الآيات إلى قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[2].

٣ ــ الموعد:

وقف النبيّ ﷺ بأصحابه السبعمائة، وكلهم من المشاة، في جانب الوادي، وجعلوا ظهرهم إلى الجبل، فلم يكن يخشى إلا من العدو أن يحيط به، وأمامهم جيش المشركين في ثلاثة آلاف مقاتل. يحدو بالمؤمنين إيمان مثبت، وتصميم مطلق، وإقدام لا ينثني؛ ويندفع جيش الكفر بحقد دفين، وعظمة فارغة مجنونة، وثأر يغلي كالمرجل في قلوبهم، لذوي قرابتهم يوم بدر.

كان على ميمنة جَيش المشركين خالد بن الوليد، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل، وعلى المشاة صفوان، وقبضة الجيش في يد أبي سفيان. وجعل الرسول على جيش المسلمين الزبير بن العوام إزاء خالد بن الوليد، وجعل آخرين أمام الباقين.

---

(١) سورة النساء: الآيتان ٨٨ ــ ٨٩.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ١١٨ ــ ١٢٢.

وتقدمت هند زوجة أبـي سفيان في نسوة من صويحباتها يمشين بين الصفوف المشركة، وهن يغنين محرضات مثيرات:

نحـن بنـات طـارق نمشـي علـى النمـارق
الـدر فـي المخـانـق والمسـك فـي المفـارق
إنْ تقبلـوا نعـانـق ونفـرش النمـارق
أو تـدبـروا نفـارق فـراق غيـر وامـق

كان النبـيّ ﷺ في صحابته، يعدل صفوفهم، ويثبتهم ويحثهم على القتال، ويشجعهم ويعدهم بالنصر، ويقول فيما يقول: «ألقى في قلبـي الروح الأمين، أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أقصى رزقها، لا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها، فاتقوا ربكم، وأجملوا في طلب الرزق؛ لا يحملنكم استبطاؤه أن تطالبوه بمعصية الله؛ والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد، إذا اشتكى تداعى له سائر جسده».

ثم أحضر الرماة، وكانوا خمسين يرأسهم عبد الله بن جبير، فأوقفهم خلف الجيش على ظهر الجبل، وقال لهم محذراً مؤكداً: «انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا؛ إن كانت الدائرة لنا أو علينا، فالزموا مكانكم، ولا نؤتَيَنَّ من قبلكم» وفي بعض الروايات قال لهم: «احموا ظهورنا، إن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا».

وليس في الأوامر الحربية القيادية أبلغ من هذه الأوامر الصارمة، ولا معذرة بعدها في أية مخالفة تلويها أو تند عنها.

وكان من تحريضات النبوّة أن النبـيّ ﷺ أمسك يوم أحد بسيفه ذي الفقار، وقال: من يأخذ هذا السيف بحقه؟... فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام أبو دجانة، وقال: ما حقه يا رسول الله؟ قال أن تضرب به في العدو حتى ينحني. قال: أنا آخذه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة شجاعاً مغواراً، يقاتل مستميتاً؛ وكانت له عصابة حمراء، إذا اعتصب بها عرف أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف أخرج عصابته فاعتصب، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت؛ ثم انطلق وهو يقول:

أنـا الـذي عـاهـدنـي خليلـي ونحـن بـالسفـح لـدى النخيـل
أن لا أقـوم الـدهـر فـي الكيـول أضـرب بسيـف الله والـرسـول

والكيول: مؤخرة الجيش. يريد أنه لا يقاتل في المؤخرة، بل يكون دائماً في الطليعة.

٤ ــ القتـال:

بـدأ القتـال بـالمبـارزة الفـرديـة. وهـمَّ أبـو بكـر الصـديـق أن يبـارز ابنـه عبد الرحمن، وكان من أشجع رجالات قريش، وأرماهم بسهم، لولا أن رسول الله ﷺ قال له: «متعنا بنفسك يا أبا بكر».

ولما تصدت ــ بعد المبارزة ــ خيول المشركين للمسلمين، تقهقرت مرة بعد مرة، إثر وابلات النبال، التي كان ينضحها بها المسلمون، في عزم وإيمان راسخ عميق، مما اضطر المشركين إلى الهروب واللوذ بالفرار، والنسوة يصرخن ويُوَلْوِلْنَ، ويُحَرِّضْنَ ويهيجن العواطف؛ والرسول ﷺ يدعو ويقول: «اللهم بك أجول، وبك أصول، وفيك أقاتل، حسبي الله ونعم الوكيل».

وأظهر أبو دجانة في هذه الموقعة بسالة وشجاعة نادرتين، وحمل حملات موفقة. وبينما كان يغير على صفوف العدو، رأى إنساناً يحرض الناس، خلف زمرة من ضاربات الطبول، فحمل على أبو دجانة بسيفه، فسمع منه ولولة وصراخاً، فكان هذا صوت هند. قال: فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وخرج حنظلة بن أبي عامر، من بيته، وكان حديث عهد بعرس، فالتحق

بالجيش المكافح، مخلفاً وراء ظهره لذاذات اللحم والدم، وقاتل حتى قتل شهيداً، وكان جنباً، وفيه يقول النبيّ ﷺ: «إن صاحبكم حنظلة لتغسله الملائكة».

لكن قتل من المسلمين حمزة سيد الشهداء، غافله وحشي، وهو يجول بين الصفوف وضربه بحربة لم تخطىء ثنايا بطنه.

كما قتل مصعب بن عمير، حامل لواء المهاجرين، قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظن أنه محمد: فحمل اللواء من بعده علي.

وكان انتصار المسلمين حاسماً، وقد وقع لواء قريش تحت أشلاء القتلى، فلم تقم للمشركين قائمة، فلاذوا فعلاً بالفرار، تاركين وراءهم غنائم كثيرة.

٥ ــ تغير وجه المعركة:

وما إن شاهد الرماة المشركين حتى هللوا، ولم يستطيعوا أن يستمروا في أماكنهم؛ وعبثاً حاول أميرهم عبد الله بن جبير أن يثبتهم، ويذكرهم بالأمر المشدد الذي أصدره إليهم رسول الله ﷺ إذ أجابوه بقولهم: لقد انهزم المشركون، فما مقامنا هنا؟ فانحدروا إلى الوادي وهرعوا إلى الغنائم يستبيحونها، تاركين مراكزهم مكشوفة للعدو، فيا للغلط الفادح.

لما بصر خالد بن الوليد ــ وهو يلوذ بالفرار مع الفارين من المشركين ــ بظهر المسلمين مفتوحاً تماماً، اغتنمها فرصة سانحة، فعطف كاراً على ابن جبير ومن معه من القلة القليلة من المؤمنين، فاكتسحهم، ولم تغن عنهم مقاومتهم شيئاً... بل انقض كالبازي الكاسر على المسلمين من خلفهم، قتلاً وطعناً وتمزيقاً، وهم منهمكون بجمع الغنائم والسَّلْب.

ورفع المشركون لواءهم من جديد استئنافاً للقتال، وعلا صوت ابن قمئة، الذي قتل مصعباً يقول: إن محمداً قتل، فَفَتَّ هذا في عضد المسلمين، وانقلب وجه المعركة وأصيب المسلمون بشيء غير قليل من الرعب والذهول والاضطراب، فقد أخذوا من حيث لم يتحسبوا، وفت في عضدهم.

عاد بعضهم منطلقاً إلى الجبل صعداً، طلباً للنجاة، ولاذ آخرون بالفرار ضاربين في الصحراء؛ وركض فريق متجهاً إلى المدينة؛ وفكر آخرون بأخذ الأمان من أبـي سفيان؛ وذهل أبو بكر وعمر وجماعة مما وقع، فتملكتهم الحيرة، فهم لا يدرون ما يأخذون من الأمر ولا ما يدعون... فشدتهم الأرض إليها جاثمين منهارين.

ومر بهم أنس بن النضر وهم جلوس، فقال في حدة وتوبيخ: ما يجلسكم ها هنا؟ قالوا: «قتل رسول الله. قال: وما تصنعون بالحياة من بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله! إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل» وانفلت عنهم يقاتل بسيفه، وتبعه آخرون يقاتلون، فما زال يهبط بسيفه ويرتفع على هام العدو، ينال منهم وينالون منه، حتى قتل تمزيقاً بالسيوف والنبال... فما عرفته إلا أخته ببنانه...

وفي هذه البادرة المنتفضة الحثيثة، نزل بعدئذ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾... ﴾[1].

وأحاطت جماعة صغيرة من المسلمين بالرسول ﷺ تحميه من نبال المشركين التي كانت تنهال كالوابل المتساقط من الحجارة، وكان في ظرف عصيب وشدائد مريرة، مشغولاً بتجميع المسلمين، وإعادة تنظيمهم يقول: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله... ليشد من عزمهم، وكاد يتحطم، ويقوي من روحهم، وكادت تبلغ الحناجر...

وما أخطأته، وهو في تلك الشدة، سهام المشركين ورمياتهم الهادفة والطائشة. رماه عتبة بن أبـي وقاص، فكسر رباعتيه اليمنى السفلى، وشجه ابن

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

شهاب الزهري في جبهته، وأصابه ابن قمئة بحجر فانغرست حلقات من مغفره في وجنته، فألقى بنفسه عليه أبو عبيدة، يعالجها بأسنانه حتى أخرجها، فكسرت ثنيتاه، ومص دمه الشريف حانياً مبتهجاً، فبشره النبيّ ﷺ قائلاً: «من مسّ دمي لم تمسّه النار... كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟».

وليس ذلك فحسب كل ما أصاب النبيّ ﷺ بل إنه وقع في حفرة من الحفر التي احتفرها المشركون، ليتردى فيها المسلمون، فانتشله منها علي وطلحة بن عبيد الله.

واستأنف النبيّ ﷺ مهمته، يدير المعركة، تسيل جراحاته، والنبال تتساقط على من حوله، وكلهم متجمهرون يدرؤونها عنه بأجسامهم، لا يتحركون وبخاصة أبا دجانة، فقد ترس بظهره دونه، وجعلها درعاً للنبيّ ﷺ.

واشترك معه أبو طلحة، إذ كان يقول: يا نبيّ الله، بأبي أنت وأمي... لا تشرف على القوم، فيصيبك سهم من سهامهم، نحري دون نحرك... لكنه يأبى إلا أن يشرف بنفسه ويوجه المقاتلة، ويحرض سعداً ـ على التخصيص ـ قائلاً: ارم سعد، فداك أبي وأمي.

وكانت أم عمارة تحمل الماء على ظهرها، تسقي المؤمنين، وتشجعهم وتحرضهم، فتنفث فيهم الحمية والإقدام، فأمسكت بسيف، وقاتلت مع المقاتلين إلى جنب رسول الله ﷺ حتى سقطت جريحة.

ورأى كعب بن مالك النبيّ ﷺ فجاءة بين هؤلاء النفر، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أبشروا، فهذا رسول الله ﷺ فبعثت هذه الصيحة المسلمين من جديد، وأقبلوا من كل صوب إلى جهته، مستميتين في الدفاع عنه.

وصاح أبي بن خلف: أين محمد؟ لا نجوت إن نجوتَ؛ فقال له الرسول: بل أنا أقتلك؛ وتناول حربة الحارث بن الصمة، وطعنه بها، فوقع يخور خوار

الثور، وهو جزع، يقول لقومه: أليس قال: لأقتلنك؟ لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلهم، ولم يلبث أن مات.

وبلغ الإعياء من المشركين مبلغه، فلم يثأروا لقتله، بل فترت حدتهم في محاولة قتل الرسول ﷺ.

وأخذ الصحابة يجمعون شملهم، ويلتفون حول نبيهم، فأمرهم أن يصعدوا الجبل ويحصبوا قريشاً عنه بالحجارة، حتى يجلوهم عنه...

وجاءت فاطمة من المدينة، قلقة على أبيها، وجرحه ما يزال يقطر دماً، فأحرقت حصيرة، وذرت عليه الرماد، فانقطع النزيف؛ فصلى بهم قاعداً من إعيائه، وصلوا وراءه قعوداً أيضاً، من شدة الإعياء.

٦ ــ في أعقاب المعركة:

قتل من المسلمين سبعون صحابياً، بعدد أسرى المشركين يوم بدر، واندفعت قريش بحقدها الدفين لتمثل بالأسرى، حتى إن النسوة ارتمين على القتلى، يمثلن بهم، يفقأن الأعين، ويجدعن الأنوف، ويصلمن الآذان... أما هند: فقد روّت حقدها، وشفت غلّها فوق ذلك، فاتخذت من آذان الرجال وأنوفهم قلائد وأقراطاً تزين بها، ثم أعطتها وحشياً قاتل حمزة.

ثم ارتمت على جثة حمزة ــ من بين القتلى ــ كالفهد، فبقرت بطنه، وسحبت كبده، ولاكتها بين فكيها، بحنق ووحشية، فلما لم تستطع أن تسيغها، لفظتها، فلما أطفأت غليلها، اتجهت إلى المسلمين، وهي تصرخ منشدة:

نحن جزيناكم بيوم بدر ... والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان لي عن عتبة من صبر ... ولا أخي وعمه وبكري
شفيت نفسي، وقضيت نذري ... شفيتَ وحشيُّ غليل صدري
فشكر وحشي علي عمري ... حتى ترم أعظمي في قبري

حتى أبو سفيان، زوج هند، وكان يجوب ميدان القتال، لعله يعثر على جثة محمد، فتعثر بجثة عمه حمزة، فجعل يضرب في شدق حمزة بزج الرمح، وهو يقول: (ذق عقق) فغضب منه الحليس سيد الأحابيش، وقال: يا بني كنانة! هذا سيد قريش، يصنع بابن عمه لحماً ما ترون! فخجل أبو سفيان، وقال: «ويحك، اكتمها عني، فإنها كانت زلة». ثم اتجه إلى المسلمين، وهم في سفح أحد، فقال لهم: إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر؛ أُعْلُ هُبَل!.

وسمعه الرسول ﷺ فقال لعمر: أجبه. فقال: الله أعلى وأجل.

وعرف أبو سفيان صوت عمر، فقال له: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال: اللهم لا، وإنه ليسمع الآن كلامك. فقال في أسف وخيبة أمل: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر. ثم قال: إنه كان في قتلاكم مثلة، والله ما رضيت ولا سخطت. ثم قال: إن موعدكم بدر للعام المقبل؛ فقال له عمر على الفور: نعم، هو بيننا وبينك موعد.

وأرسل النبيّ ﷺ علياً خلف فلول قريش، وقال له: اخرج في آثار القوم، فانظر ما يصنعون وما يريدون: فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة.

والذي نفسي بيده، لئن أرادوها، لأسرعن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم.

فخرج علي ثم رجع، وقد رأى القرشيين يجنبون الخيل، ويمتطون الإبل، شطر مكة.

٧ ــ المواساة:

وانطلق النبيّ ﷺ يواسي صحابته، ويخفف من مصابهم، ويكسب في نفوسهم من الإيمان، ما يملؤها رضاً بقضاء الله، وتسليماً لأمره، وإذعاناً لحكمه؛ وسجل هذا الرضا والتسليم، بهذا الدعاء الذي تتجلى فيه العبودية الكاملة المطلقة لرب العالمين.

فقد روي أنه لما كان يوم أحد، وانكفأ المشركون راجعين، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: استووا حتى أثني على ربي عزّ وجل، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال:

«اللهم لك الحمد كله؛ اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط بما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن من يوم الخوف.

اللهم إني عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا، وشرّ ما منعتنا.

اللهم حبّب إلينا الإيمان، وزَيِّنْه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق»[١].

٨ ــ مع الشهداء:

ثم اتجه إلى الميدان، حيث أشلاء الشهداء يدعو لهم، ويشهد لهم، ويتلمس عمه حمزة فيهم؛ فرآه وقد بقرت بطنه، وجدع أنفه، وصُلِمَتْ أذنه، ومثل به أشنع تمثيل، فقال: «لن أصاب بمثلك أبداً؛ ما وقفت قط موقفاً أغيظ إلي من هذا». ثم قال: «لولا أن تحزن صفية، وتكون سنَّة بعدي، لتركته يكون في بطون السباع،

(١) رواه الإمام أحمد والحاكم، وصححه.

وحواصل الطير» ثم قال: «ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم». وقال الصحابة: «لنمثلن بهم مثله، لم يمثلها أحد من العرب». فنزل في هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1] فنهاهم عن المثلة.

ووصلت أنباء الحرب المؤسفة، والانكسار الشنيع إلى المدينة، وأقبلت النسوة وفيهن صفية أخت حمزة، فأمر ابنها الزبير أن يلقاها، ويرجعها، كيلا ترى منظر أخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغني أنه مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن، إن شاء الله.

ودفن الموتى حيث قتلوا، وخولفت رغبة بعضهم بنقلهم إلى المدينة، دفنوا بغير تغسيل ولا تكفين، كل اثنين أو ثلاثة في ضريح، عملاً بقوله ﷺ: «ادفنوهم حيث صرعوا» وقال فيهم بعد أن ووروا في التراب: أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك»[2].

• • •

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢) رواه الإمام أحمد.

الـدروس والمبـادىء

إن تكن غزوة أحد مؤسفة بالنظر إلى نتائجها، وما أسفرت عنه من ضحايا ودماء زكية غالية، ما كانت لتراق جزاء لأخطاء وقع فيها ضعيفو النفوس؛ فقد كانت غزوة غنية حافلة بالعظات والعبر، والمبادىء والتربية الإلهية، والدروس الهامة. ولذا تنزلت فيها آيات طويلة، تركت في المسلمين من الآثار والفوائد، أكثر مما تتركه الغنائم والأسلاب بعد النصر؛ وبقي اسم أحد، محتفظاً بمكانه المرموق، ورصيده الوافر في قلوب المسلمين. وبقيت التعاليم الإلهية التي عمقت الإيمان، وثبتت الأحكام، وسمت بالنفوس المؤمنة، موصولة بأحد الذي اتخذ بسببها بحق وصف المحبة المتبادلة: «أحد يحبنا ونحبه»[1].

فمن أهم الدروس.

١ ـــ الحــزم في الأمــور:

فقد استشار النبـيّ ﷺ تطبيقاً للنصوص، أصحابه، في مبدأ الخروج من المدينة لمواجهة المشركين، فكانوا بين مؤيد للقعود، وبين مشير للخروج، وكانوا ـ كما رأينا ـ من الشباب، فمال قلبه إلى رأي هؤلاء، لما فيه من التحرك ومظهر القوة والعزة.

وقد بادر فعلاً، فلبس للحرب لبوسها، فلما خشي الشباب أن يكونوا قد دفعوه إلى الحرب، وربما كان لا يريدها، عادوا ليرغبوا في القعود.

(١) رواه الطبراني في الأوسط.

لكنه لم يَنْثَنِ عن عزمه، فلم يوافقهم على البقاء في المدينة، وأعلن تصميمه على الخروج، بقوة وصراحة وعزم صحيح، وسد عليهم كل باب للتراجع، وقال كلمته الخالدة: «ما ينبغي لنبـيّ إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل» كما روتها كتب السنَّة والسيرة. وفي المقدمة ابن إسحاق.

وتبدو الحكمة في هذا الموقف الصلب، فإن قضايا الحرب والقتال ينبغي أن تترفع عن مجالات الأخذ والرد والتردد، فإن الاضطراب فيها هو نذير الفشل، وسوء العاقبة.

وهل يفسر الإقلاع عن الحرب، بعد اتخاذ لبوسها والسير في مقوماتها، بشيء سوى الخوف من العدو، والاعتراف بوزنه؟ وهل يطمح العدو بأكثر من هذه الحقيقة، أن تأخذ سبيلها إلى القلوب، بدون أن يبذل من أجلها ثمناً ما؟ إنها السلاح السلبـي الفتاك الذي يغري بالسلامة، ويحبذ الركود، والإخلاد إلى السكون المميت.

٢ ــ لا يكشف المنافقين مثل المواقف الحاسمة:

النفاق ضعف وتلبسة، ولا يكشف الضعف إلا القوة، ولا يجلي التلبسة إلا الوضوح. فابن أبـي بن سلول ينخذل في الطريق إلى أحد، بثلاثمائة من أتباعه، كانوا يمثلون ثلث الجيش، وليس هذا العدد بقليل؛ وانفصاله عن المسلمين في الوقت الحاسم، مما يثبط الهمم، ويكسر النفوس الضعيفة، ويثير فيها بواعث القلق والخوف والاضطراب، وهي مقدمات الهزيمة.

ولعله ما كان يقصد إلا هذا، أن يفتَّ في عضد المسلمين، ويثبطهم عن لقاء إخوانه المشركين؛ إذ قد كان يمكنه أن يقعد ولا يخرج مع من خرج، لكن هذا لن يحدث التفكك المطلوب، والتمزيق المنشود، لهذا انحسر مع شرذمته المنافقة في الوقت المناسب.

ولقد تذرع بأنه تأثر من رفض النبيّ ﷺ رأيه، وهو الشيخ المحنك، وأخذ برأي الشباب السذج؛ ورأيهم فطير.

وليس هذا إلا تَعِلَّةَ الانفصال؛ وإنما العلة أنه لا يتصور أن يقاتل مع المسلمين، أعوانَه وأنداده من أهل الشرك. فكان من فوائد هذه الغزوة أنها كشفت هؤلاء المنافقين، وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾[1].

ولا شك أن انسحاب المنافقين، قاطع بأن المحاربين مؤمنون، وأن الغزوة محّصت المؤمنين من غيرهم، ولا شيء مثل الغزو والحرب والقتال والمحن، يكشف الزيف، ويطهر القلوب، ويبرز الزغل والزيف، ويفصل بين الإيمان الواضح الصريح، والكفر المبطن المطلي.

وقد جاء في الآيات القرآنية التي عقبت على هذه الغزوة العجيبة، قوله تعالى في هذا الذي نحن في مواجهته: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[2].

٣ ـ لا يستعان بالكفار في جهاد الكفار:

رد النبيّ ﷺ فرقة من اليهود، مجهزة بالسلاح، عرضت مساعدتها ومقاتلتها مع المسلمين في هذه الغزوة، كما رأينا.

ولعله كان يعلم، ما تنطوي عليه جوانح اليهود، من حقد على المسلمين، ومكر مخطط للغدر بهم، فردهم واستغنى عنهم.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٤١.

وقد جعل الإسلام الجهاد مع المسلمين علامة صدق الداخلين في الإسلام، ورأينا الإشارة إلى هذا المبدأ في الوثيقة التي عقدها مع اليهود بعد الهجرة إلى المدينة، فقد نصت في بندها الأول، على أن من اتبع المسلمين، فلحق بهم، وجاهد معهم، انغمس في أمة الإسلام. فالجهاد مع المسلمين، شرط الدخول في الإسلام، وأمارة صدق النسبة إليه، وليس من المعقول، الاكتفاء بالجهاد، مع الاستغناء به عن الأصل وهو الإسلام؛ ولا يستغنى بالشرط عن المشروط، ولا بالفرع عن الأصل؛ والتابع تابع دائماً.

وقبول جهاد المنافقين مع المسلمين، قبل انخذالهم، معاملة لهم بظاهر حالهم، وهو الإسلام؛ وقد تقرر مبدأ التعامل بالظاهر من حال مظهري الإسلام. أما من أظهر الكفر، وهو به موقن، فما يصح أن يستعان بجهاده مع المسلمين، وكيف يقاتل أهل ملته معهم، والكفر كله ملة واحدة؟.

وفي رواية بعض كتب السيرة أن النبيّ ﷺ لما رد اليهود، مستغنياً عن عونهم، قال لهم: لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك. وفي الصحيح: «أن النبيّ ﷺ قال لرجل تبعه يوم بدر ليقاتل معه: أتؤمن بالله؟ قال: لا. قال: فارجع، فلن استعين بمشرك»(١).

ولا شك أن التقوّي بالكفار، اعتزاز بهم، وإقرار بنوع من ولايتهم، والنصوص القطعية ترفضه دون تردد.

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ﴾(٢).

﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾(٣).

(١) رواه مسلم والترمذي.
(٢) سورة المائدة: الآية ٥٧.
(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

﴿ لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾[1].

إن الجهاد قمة الإسلام، أقصد الجهاد في سبيل الله، ولتكون كلمة الله هي العليا، ولتطبق نظامه في هذه الأرض، فلا يقفز إليها أعداء الله، ولا يتطاول إليها الملوثون بالشرك والكفر.

الجهاد في سبيل الله طريق الجنة؛ وبابها المفتوح، لا يدخله إلا الأولياء والصديقون، ولا مطمع فيه لأهل الكفر والعناد، والكذب واللعنة؛ ولا يمكن أن يتجهوا إليه بإخلاص ويقين.

نعم! يجوز أن يستعان بما عند الكفار من سلاح أو عتاد، مما يفتقر إليه المسلمون، على أن لا يخدش ذلك كرامة المسلمين وعزتهم، وأن لا يكون فيه مظهر توليهم عليهم. وقد ثبت أن النبيّ ﷺ طلب من صفوان بن أمية، يوم حنين، دروعاً وسلاحاً، على أنها عارية مضمونة مردودة؛ لكن هذا غير استعانته بالكفار في قتال الكفار.

واستعراض تاريخ الجهاد الإسلامي، في حروبه وغزواته في خير القرون، يشهد لما نقول.

٤ ــ الإيمان يعد الناشئة للمعارك الفاصلة:

إن ما يثير الدهشة والإعجاب، أن يتسابق الفتيان، وحديثو العهد بالبلوغ، للانخراط في الجيش المسلم، حباً في الجهاد، وهم يعلمون ثمن امتزاجهم بالمقاتلة، ويقدرون جيداً أنهم لا يشاركون في رحلة ربيعية، أو جولة ترفيهية، ولا ينغمسون في نعيم ماتع، أو متعة ناعمة، ولا يشهدون فرقة موسيقية أو رياضية؛ إنهم يعلمون أنهم يخوضون معركة حربية ضارية، ويواجهون عدواً لدوداً عنيداً، ويعلمون الثمن الباهظ في هذه المواجهات، وهو الدم الزكي، والشباب الفتيّ، والروح الغالية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

وإن نظرة إلى أجسامهم الرشيقة الناعمة الطرية، وهي تخالط جسوم الرجال، ذوي الأيد والقوة، والعضلات المفتولة، لتوحي بالرجولة المبكرة، والهمم المتصاعدة، والمقاصد الشريفة، التي تتخطى مطالب الشباب، ونزوات المراهقين.

ويدلف النبيّ ﷺ إلى جيشه، يستعرضه، وينظم صفوفه، ويفجأ بالصغار، يتخذون مواقفهم مع الكبار، فيعزلهم عنهم، ويستبعد أسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، في شيء غير قليل من التقدير والإعجاب.

ويستبعد أيضاً رافع بن خديج، وسمرة بن جندب، وكانا قد بلغا بالسن حينذاك، فيشهد لرافع بعض الصحابة، بأنه يرمي كأحسن ما يكون الرمي، فيجيزه؛ ويبكي سمرة، في نشيج ونحيب، أن لا يجاز في الحرب كما يجاز رافع، وهو ـ عند نفسه وفي الواقع ـ أقوى قوة من رافع، وأشد منه عضداً، ويطرحه أرضاً في المصارعة.

ويرى النبيّ ﷺ فيه صدق الرغبة، وصلاح العزيمة، ونبل المقصد، فيعود فيجيزه.

أي شباب هذا، وأية تربية مثالية هذه؟ شباب في ميعة الصبا، وغضارة الإهاب، ومقتبل الحياة، يبكي لأنه لا يؤخذ للقتال، ولا يجند في الجيش المسلم، يبكي وهو يستقبل الحياة، ليموت في سبيل الله، فيحيا حياة لا يموت بعدها أبداً.

إذن ذلك من آثار الإيمان، ومعطيات هذا الدين العظيم؛ وكلما رسخ الإيمان في القلوب أعطى هذه الثمار اليانعة اليافعة، والقوى الدافعة الغالبة المحركة، وعندما يتحول الإيمان إلى مظاهر وأشكال ورسوم، لا حياة فيها ولا حركة ولا قوة، لا يهب إلا الإخلاد إلى الراحة، وحب الخلود، وإيثار السلامة، والضن بالمال والقدرات، وبكل شيء، فضلاً عن الروح.

٥ ـــ لن تموت نفس حتى تستكمل أقصى رزقها:

استعرض النبيّ ﷺ جيشه، وتفقد اصطفاف الصحابة، فلما سواهم صفوفاً، قام فيها فخطب، حاثاً على الصبر والثبات؛ وبشر بالجنة، وحذر من الفرار؛ وكان فيما قال: «إن روح القدس، نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»[١].

ولقد يعجب المرء من هذه التوصية، في ساحة الحرب، والموت يطل على الرجال؛ ولقد يكون لهذه التوصية وقعها في السلم، والنفوس تشرئب إلى المال، وتتطلع إلى المادة؛ أما في أهوال الحروب، وصلصلة السلاح، فقد تبدو أمامها علامات الاستفهام.

غير أن المؤمن البصير، المطمئن إلى رجاحة عقل الرسول ﷺ وأنه يتصرف بأمر الله، ووحي من لدنه، لا يتشكك في أن الباعث على هذه التوصية في هذه المقام، هو التحذير من شغل القلب بالسَّلَب، وتعلق النفوس بالمغانم، وأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر في اكتساب الرزق المقدور، بل قد يجر إلى الخسارة والوبال، والخروج عن التقوى، فليكن طلب المال في غير معصية الله، ومخالفة الرسول القائد، وفي رفق رقيق، لا تجاوز فيه ولا سرف.

وقد صدقت أحداث معركة أحد هذه التوصية، إذ كان النصر في جانب المسلمين، فلما خولفت تعليمات رسول الله ﷺ التي أصدرها إلى الدريئة، فرامت مكانها الذي أمرت بالتلبث فيه مهما يكن من الأمر، لتشارك في حيازة الغنائم، كَرَّ عليهم المشركون من خلفهم، وأهووا عليهم بسيوفهم ونبالهم، وهم راكعون في جمع الأسلاب والحطام، فأسقط في أيديهم، ووقعوا بين فكي الرحا، واستشهد الكثير، وجرح الأكثر، حتى الرسول ﷺ.

---

(١) رواه ابن ماجه.

الدماء الزكية، والأرواح البريئة، تعجل إليها الموت، واستلب النصر، ومني المسلمون بأفجع المصائب، لمخالفة غير مقصودة لأمر القائد، كان سببها البعيد تعلق القلب بالمادة وشغله بها، والتوسع بعض الشيء في طلبها، وقد كانت الوصية بالإجمال في الطلب.

إن التعلق بالمادة، جر ـ ولو عن غير قصد ـ إلى مخالفة أمر القائد الرسول، فقلب الموضوع، وغير وجه المعركة، ومسّ الجيش كله، بعذاب أليم، وسوء منقلب.

فصدق الرسول ﷺ في قوله: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[1].

وصدق الله تعالى في قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[2].

٦ ـ حب الصحابة الرسول غاية في النموذجية وعمق الإيمان:

وتجلى حب الصحابة الرسول ﷺ في مواقف شتى من هذه الغزوة، أسفرت كلها عن حب دفين، وإيمان عميق، وإيثار على النفس والروح.

١ ـ فأبو دجانة يشرفه أن يأخذ سيف الرسول المسمى بذي الفقار، ويعد بأن يفي بحقه، وهو المقاتلة به حتى ينحني أو ينكسر.

بل أنه بعد أن يأخذه، يعتصب بعصابة الموت الحمراء، ويمشي متبختراً، في مشية يكرهها الله ورسوله إلا في هذا المقام ـ كما ورد فيه ـ ولم لا يفخر، وهو يضرب بسيف الرسول، ويتقوى بقوته، ويفرح بإنجازه وعده إياه.

ويبلغ به حب الرسول وإكباره شخصه، أنه يسمع في المعركة صوتاً يحرض

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرسلاً.

(٢) سورة النور: الآية ٦٣.

المشركين على القتال، فيتجه نحوه، فيرفع سيفه ليهوي به على الرأس الذي ينبعث منه، لكنه يحجم عنه فجاءةً، إذ يرى امرأة، فيكره أن يضربها بسيفه، ويكرم سيف الرسول أن يضرب به النساء؛ بل هو يخصه بضرب الأبطال الأشداء.

وفي الساعة العصيبة، لما حاولت قريش قتل الرسول ﷺ في جماعته التي تنافح عنه، فرمتهم بالنبال، التي كانت تسّاقط عليهم بغزارة، كان أبو دجانة يترس عليه بظهره، واتخذ نفسه درعاً يقي بها الرسول ﷺ؛ فكانت النبال تخترق جسمه، وهو ثابت راسخ لا يتحرك.

٢ ــ ذلك هو الفداء، وتلك المحبة المحمدية الدينية، وما بعد هذا الحب، الذي تسترخص فيه الروح، في ذات الحبيب الأعظم، من مزيد.

ألم يكن يقول أحدهم في معرض حديث معه: نفسي لك الفداء يا رسول الله!.

قد كانوا جادين في الذي يقولون، وكانوا يعنونه ويقصدونه؛ فهذا من تطبيقاته وواقعاته: الاستماتة في المنافحة دونه.

ففي الصحيح «أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد، في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش؛ فلما أرهقه المشركون قال: من يردهم عني وله الجنة؟ فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، ثم أرهقوه فقال: من يردهم عني وله الجنة؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة»[١].

هكذا، يساقط الصحابة واحداً إثر واحد، في الدفاع عن الرسول ﷺ وفرسان المشركين ورماتهم يمطرونه بالنبال والسهام الطائشة، في عناد وحدة وإلحاح، بغية قتله.

---

(١) رواه مسلم.

٣ ــ وهذا أبو عبيدة، ما إن يرى رسول الله ﷺ والدم ينزف من وجنته، وحلقات المغفر مغروسة فيها، حتى يلقي بنفسه عليه، ويضمه إليه، في حنان وإشفاق، ويعالج الحلقات بأسنانه، حتى يخرجها، فتتكسر ثنيتاه، وهو غير عابىء، ويتسرب دمه الشريف إلى جوفه، فيمصه في ابتهاج وارتياح، ويبشره النبيّ ﷺ قائلاً: «من خالط دمي دمه لا تمسه النار»[1].

سمو في الحب، ومثالية فيه عالية، تتحدى الطبائع وعادات الناس، تقصر عنها همم ذوي الهمة، ولا يفسرها إلا الإيمان الراسخ العميق.

٧ ــ مهارة النبيّ ﷺ في فنون الحرب، ورباطة جأشه في المعارك:

أما مهارته وخبرته، فقد تجلتا في تنظيم صفوف الجيش، وتخير الصالحين للقتال والمبارزة، واستبعاد من سواهم، ووضع الدريئة التي تحمي ظهور المسلمين، وتوجيه أوامره إليهم بأن لا يروموا أماكنهم، مهما كانت البواعث.

ولا شك أن هذا كله من أمر الوحي، ومن أمر الله الذي اصطفاه واصطنعه، وعلَّمه وحلاَّه بما أهَّله للرسالة، وقيادة الأمة، وإرساء قواعد الملة.

وأما رباطة جأشه في المعارك، فقد تجلت عندما انقلب وجه المعركة، وفوجىء المسلمون بالمشركين تهوي سيوفهم ونبالهم فوق الهام، وهم مشغولون بجمع الحطام، فطاشت الأحلام، وزاغت الأبصار، ووقعوا بين شقي الرحى، فتفرق أمرهم، وتبعثر شملهم: فاتجهت فئة إلى المدينة، ولاذت أخرى بالجبل، وأقعدت الحيرة ثالثة فما تدري ما تفعل. . .

١ ــ هنا انطلق النبيّ ﷺ يلم شمل المسلمين، ويصيح فيهم: إليّ عباد الله، إليّ عباد الله! محاولاً إعادة تنظيم المسلمين، فتجمعت حوله حفنة لا تزيد

---

(١) رواه الطبراني.

على الثلاثين، دافعت دفاع المستميتين، وصدت هجمات المشركين نحوه، وكسرت وقع نبالهم، وهي تتهاوى صوبه.

٢ ــ رغم الجراح التي أصابته ﷺ والشدائد العظيمة التي قاساها، فقد تصدى لها بثبات لا مثيل له، لم تلن له قناة، ولم تضعف قوته، وغالب الوقائع المرة، وقاوم الأحداث التي ما مر به مثلها.

٣ ــ ها هوذا يواجه أبـي بن خلف الجمحي، أقبل نحوه، شاهراً سيفه، يقسم أن يقتله، فقد سنحت له الفرصة؛ فقال النبـيّ ﷺ: بل أنا أقتله ــ إن شاء الله ــ . وتناول من فوره حربة الحارث بن الصمة، فطعنه بها طعنة نجلاء، فوقع على الأرض، يخور خوار الثور، فلم يلبث أن مات بعد قليل؛ وقال قبل أن يلفظ أنفاسه، يعترف لمحمد بالصدق والقوة، أليس قال: لأقتلنك! فلو كانت تتجمع له ربيعة ومضر لقتلهم.

٤ ــ بل إنه ﷺ بعد أن جمع أصحابه، أمرهم بأن ينزلوا قريشاً من القمة التي احتلوها في الجبل، ورشقوهم منها بالنبال، وقال لهم ــ في عزة السيد الكريم غير آبه بهذا النصر الذي استرقته قريش في غلطة بعض الرماة، وفي غفلة من الرقب ــ : «ليس لهم أن يعلونا» فما زال المسلمون يحصبونهم بالحجارة، حتى أجلوهم عنها، واستردوها.

٥ ــ وليس ذلك فحسب، فقد بلغ من خبرة النبـيّ ﷺ في شؤون المعارك: أنه أرسل علياً في آثار المشركين، وقال له: «انظر ما يصنعون، فإن هم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فهم يريدون المدينة؛ فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم، ثم لأناجزنهم فيها».

وهذا كلام يحمل في طياته الخبرة والحنكة، كما يحمل الكثير من معاني

التصميم والمضي في القتال؛ كما يشير إلى أن الرسول ﷺ كان يتمتع بقوة لا تني، وعزم لا ينثني، وجرأة نادرة على مصاولة الأبطال، وعمالقة الرجال، دون أن تجد شدائد الخطوب والأحداث، سبيلاً إلى إضعاف نفسه، أو تفتير همته واتقاده في الحروب.

وسنرى، عما قليل كيف تعقب ــ مع ذلك ــ قريشاً، يطاردها، ويقطع طمعها في الاعتداء في غزوة حمراء الأسد.

٨ ــ الصحابة يتسابقون إلى الجهاد، والشهادة في سبيل الله:

لئن فر المنافقون في شوط من الطريق، خوفاً من القتال، ووراءه الموت، فإن الصحابة أهل الإيمان الحق، واليقين الصادق، سارعوا إلى الموت في هذه الغزوة، راغبين في الشهادة. وعلى سواعد هؤلاء قامت هذه الغزوة، وبدمائهم ارتوى أحد، ومن أجلهم أحب النبيّ ﷺ أحداً، وأحب أحد المسلمين المجاهدين، فمن هؤلاء السابقين إلى الشهادة، في يقين ثابت، ورغبة ملحة صالحة:

١ ــ خيثمة الذي قتل ابنه يوم بدر، وكان به مولعاً، وكان يتشهى أن يكون قد قتل معه شهيداً، فيرافقه في رفيع الجنات، ففاته ذلك الشرف.

فلما كانت غزوة أحد، أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله! لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت ــ والله ــ حريصاً عليها، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم، في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا، ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعد ربي حقاً.

وقد أصبحت يا رسول الله، مشتاقاً إلى مرافقته، وقد كبرت سني، ورق عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله ــ يا رسول الله! ــ أن يرزقني الشهادة، ومرافقة ابني في الجنة. فدعا له رسول الله ﷺ فقتل شهيداً يوم أحد.

٢ ــ وهذا عمرو بن الجموح، كان أعرج بيّن العرج، وكان له أربعة أبناء شباب، يجاهدون يغزون مع رسول الله ﷺ فلما توجه النبـيّ ﷺ إلى أحد، أراد أن يخرج معه، فمنعه بنوه، وقالوا له: إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت، ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد.

فأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بني هؤلاء يمنعونني أن أجاهد معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة! فقال له رسول الله ﷺ أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه: وما عليكم أن تدعوه، لعل الله ــ عزّ وجلّ ــ أن يرزقه الشهادة!.

فخرج مع رسول الله ﷺ يوم أحد. وتقول الروايات: إن رسول الله ﷺ مر به، فقال: كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة.

وأجاب الله دعوة نبيه لعمرو، وحقق له رغبته الصادقة، فقتل يوم أحد شهيداً.

٣ ــ ويقول النعمان بن مالك: يا نبـيّ الله! لا تحرمنا الجنة ــ يريد أن لا يمنعه من سببها، وهو الجهاد في سبيل الله، وذلك يوم أحد ــ قال: فوالذي نفسي بيده، لأدخلنها؟ فقال له رسول الله ﷺ: بم؟ قال: بأني أحب الله ورسوله، ولا أفر يوم الزحف، فقال له رسول الله ﷺ: صدقت. واستشهد يومئذ.

٤ ــ وهذا عبد الله بن جحش، وهو من الغزاة المجاهدين، ورأس سرية قبل أحد تسمت باسمه، يقول يوم أحد، مناجياً ربه ــ عزّ وجلّ ــ مخلصاً من أعماقه: اللهم إني أقسم عليك، أن ألقى العدو غداً، فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي، ويصلموا أذني، ثم تسألني، فيم ذلك؟ فأقول: فيك.

فيقول بعض رواة الحديث عن سعد، قال: فلقد رأيته آخر النهار، إن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط.

وصدق الله العظيم، وتمت كلمته، إذ قال: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ﴾[1].

هؤلاء الذين روّوا أحداً بدمائهم الزكية، ومزجوها بتربته الطيبة النقية، وخلدوا ببطولاتهم ذلك الجبل الأشم، والعقيدة الشماء، وهذه نماذج البطولة الإسلامية التي تخرجت في مدرسة محمد ﷺ فأروني ماذا تخرج المدارس والمعاهد التي لا تنهض على صريح الإيمان، في أيامنا؟.

٩ ــ يموت الدعاة، ولا تموت الدعوة:

أنكر الله تعالى على المسلمين، ذلك القنوط الذي أخذهم في المعركة، لما أشيع مقتل محمد، والذهول الذي منوا به تلقاءه، حتى كأنهم ظنوا أنه لا فائدة من القتال بعد موته، ولا معنى للجهاد بعد فقده، فكأن الدعوة انتهت، ومات الدين بموت رسوله، ونسوا الحقيقة الواضحة اليسيرة، وهي أن العقيدة باقية، والدعوة خالدة، ولو مات الدعاة؛ والدعوة قبل الداعية وجوداً، وباقية بعد موته؛ ووظيفة الداعية تبليغها الناس، وغرسها في الضمائر، وتقريرها في العقول، فإذا مات الداعية، بقي تصور الدعوة حياً قائماً راسخاً، لا يناله الموت بسوء.

إن محمداً ــ عليه الصلاة والسلام ــ رسول، أدى رسالته في درب الرسل عبر التاريخ، وقد مات الرسل، ولا بد أن يموت محمد؛ لكن الدعوة إلى الله والحق ونظام الله في هذه الأرض، بقيت بعد موت الرسل، وهي باقية بعد موت رسول الله ﷺ.

لا تموت الأفكار، بل تموت رجالها، والأفكار صائرة إلى الخلود، والناس يصيرون إلى فناء، فالدعوة أبقى من الدعاة.

ولهذا عتب الله على المسلمين، لما ركنوا إلى ما يشبه القنوط والقعود عن

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

الجهاد، واعتبره كالارتداد عن العقيدة، التي هي حركة وجهاد، وليست جموداً وقعوداً: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

وكأن الله تعالى يُعِدُّ بهذا اللفت إلى الحقيقة، أولئك المسلمين، المتعلقين بحب الرسول ﷺ وبشخصه، والذين رأينا استماتتهم في الدفاع عنه، في هذه الغزوة، للمفاجأة الكبرى، حين يموت الرسول ـ فعلاً ـ كيلا يستبد بهم الهول ووقع المصيبة، فلا يؤاخذوا ولا يذهلوا، ولا تطيش أحلامهم، ولا يفقدوا السيطرة على أنفسهم.

وربما كان الصديق ـ رضي الله عنه ـ من أعظم الصحابة تمثلاً لهذه الحقيقة، وانتفاعاً بهذا التوجيه الإلهي السديد، والإعداد الرشيد، فهو الذي قال قولته الخالدة ـ عندما توفي رسول الله ﷺ ـ وتهدد عمر بسيفه المشهور كل من يجرؤ على نعيه: «من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيّ لا يموت».

وهكذا فصلت العقيدة الإسلامية ـ بحق ـ بين الدعوة وبين الداعي؛ فالدعوة باقية خالدة، والدعاة ميتون، مستميتون في سبيلها، وأمنية المتأخرين من الدعاة، أن يلحقوا بالسابقين، على درب الدعوة الطويل نفسه، دونما تغير في الدعوة، أو انحراف عن مقاصدها، أو تبديل في معالمها، أو ادخار أي وسع في إنجاحها.

فمن هنا قال النضر بن أنس ـ رضي الله عنه ـ، للذين رآهم، قعدوا بعد إشاعة قتل النبيّ ﷺ، مستسلمين للأمر الواقع، والإشاعة المرجفة المغرضة: «فما تصنعون بالحياة من بعده؟ قوموا، فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ».

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

١٠ ــ فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به:

رأينا كيف أن النبيّ ﷺ بعد أن انقضت المعركة، اتجه إلى مصارع الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله، يواسي فيهم نفسه، وأصحابه، ويفرغ في ضمائرهم التسليم لأمر الله، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه.

وقد قال حيال مشهد عمه حمزة، وهو مبقور البطن، مَلوك الكبد، مجدوع الأنف، مصلوم الأذن: «لن أصاب بمثلك أبداً ــ ما وقفت قط موقفاً أغيظ إليّ من هذا... لئن أظفرني الله بقريش، لأمثلنّ بثلاثين منهم» فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[(١)].

النفس البشرية قد تخضع في بعض فتراتها للعاطفة، والموقف فظيع، والممثل به عزيز غال مكين، ويد الإثم تفتك بأطهر الأصحاب، وأفضل الأرحام والأعمام، لكن ذلك كله لا يغير من المبدأ الراسخ في الإسلام، ولا من الحقيقة المقررة في شرع الله، وهي المماثلة في العقاب، وحظر التجاوز، بل التوجيه إلى التغاضي عن جرائم الآخرين، والتذرع بالصبر، والتحلي بالعفو، والترفع عن مطالب النفس، والارتفاع إلى مرضاة رب العالمين: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[(٢)].

إن مبدأ المعاقبة بالمثل، يرفع الظلم، ويرسي أصول العدل، حيث تستشرف النفس البشرية للانتقام، وعلى التخصيص في الحروب، وجرائم الدمار والأرواح؛ لكن الشريعة جاءت لصيانة النفس، وهذا من مقاصدها الأولى، التي استهدفت بها مصالح الناس، لذلك قطعت كل الوسائل التي من شأنها أن تزعزع هذا المبدأ، أو تهزه، أو تقلل من سلطانه، حتى بالنسبة إلى أعداء الدين من الكفرة

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٢٦.

والمشركين، فمثل هؤلاء يجب إنصافهم إذا ظلموا، وذلك بالمعاملة بالمثل، والظالم لا يظلم بسبب ظلمه، ولكن ينتصف منه بالحق والعدل.

إن هذه المبادىء التي يطبقها الإسلام تطبيقاً سليماً، حتى في أحلك الظروف، وأسوأ الأحوال، تزيد ـ بطبيعتها ـ المؤمن إيماناً، وتزيل شكوك الكافر، وتخضعه للرضا بحكمه. إنها تجر الكافرين إلى الإسلام تلقائياً، دون أن يشعروا بانجذابهم نحوه؛ إنها هي التي تقرر حتمية النصر في المعارك المصيرية للإسلام؛ إنها تجعل الإسلام ـ كما هو في الواقع ـ فوق مستوى الشبهات والأهواء والمطامع.

إن الإسلام لا يأمر بالمعاقبة بالمثل، وينهى عن الاعتداء فحسب، بل يأمر مع ذلك، وفي الوقت نفسه، بالتجرد لله، والاحتساب بالصبر ابتغاء الخير عنده، لأنه يقدر ما في هذا المخلوق من تسلط الضعف النفسي أحياناً، فيرده إلى الحق المقرر، ويرتفع به إلى مراقي الصعود، ومراتب الآفاق، وعوالم الأشواق، حيث تموت حظوظ النفس، ويعدّه إعداداً خاصاً لمركزه المرموق في جنة النعيم: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[1]. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2]، ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[3].

١١ ـ الإسلام يهذب الأخلاق، ويستأصل الأحقاد:

رأينا كيف مثلت قريش بقتلى المسلمين، وكيف دفعها الحقد الدفين إلى ارتكاب ألوان من التمثيل بهم، تتقزز منها النفوس، وتقشعر لها الأبدان: فَفَقأت الأعين، وجدعت الأنوف، وصلمت الآذان، وبقرت البطون؛ وأفرطت هند بنت

---

(١) سورة النحل: الآية ١٢٦.

(٢) سورة الشورى: الآية ٤٠.

(٣) سورة الشورى: الآية ٤٣.

عتبة زوجة أبـي سفيان، في التشفي وإرواء الحقد، فاتخذت عقداً لها من الآذان والأنوف، ولم تكتف بذلك، بل أهوت على جثمان حمزة، فبقرت بطنه، وسحبت كبده، فقضمتها ومضغتها، ثم لفظتها لما لم تستسغها.

وكمل زوجها أبو سفيان، زعيم قريش وقتئذ، وقائد الحملة، فشق برمحه شدق رحمه حمزة، وهو يقول: «ذق عقق».

هذه صور من أخلاق قريش قبل الإسلام؛ وإلى هؤلاء ومن هؤلاء بعث الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ ليقوّم هذه الأخلاق، ويذيب هذه الأحقاد، ويزرع محلها الأخوة، والتضحية والبذل، والإيثار؛ واستطاعت دعوة محمد ﷺ أن تستأصل الكثير السيِّـىء من هذه الرواسب الجاهلية، وأن تستبدله بحميد الخصال، وجميل الآداب، ومحاسن الأخلاق ومكارمها، ومن هؤلاء أخرجت الدعوة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس: في الأخلاق، والسلوك، والعقيدة، والتزام الإحسان في كل شيء.

فما أعظم فضل الإسلام على العرب والإنسانية؟ وماذا عسى أن يكتب التاريخ عن العرب، وهذه صور من فظائعهم وخصالهم، لو لم يشرق الإسلام في ربوعهم، ولو لم يصقل نفوسهم، ويطهر قلوبهم من عفن الشرك، ولوث الكفر؟

لقد تأخر إسلام أبـي سفيان هذا، وإسلام زوجته، واستمرت مقاومتهما للإسلام، كما تأخر إسلام وحشي قاتل حمزة، حتى كان الفتح، فدخلوا في الإسلام، وجاهدوا مع المسلمين، واصطبغوا بصبغة الإسلام، أدبه وخلقه.

فوحشي شارك بعد إسلامه في حروب الردة، وفي حرب اليرموك.

وأبو سفيان أسلم عام الفتح، وحارب مع المسلمين، فشهد حنيناً والطائف، وفقئت فيها عينه.

وهند بنت عتبة أسلمت أيضاً يوم الفتح، وبايعت النبـيّ ﷺ فيمن بايعه من

النسوة، وكسرت صنمها بالقدوم، وحسن إسلامها ـ كما يقول رواة الحديث ـ وشكت زوجها إلى النبيّ ﷺ وهي متنقبة.

حتى هؤلاء الذين اقترفوا أبشع أنواع التمثيل بشهداء المسلمين، بسط لهم الإسلام جناحيه، فدخلوا فيه عن قناعة ويقين، وحسن إسلامهم، واستقاموا على طريقته، وتخلقوا بأخلاقه.

١٢ ـ أم عمارة تقاتل في أحد:

شهدت أُحداً أم عمارة نسيبة الأنصارية النجارية، والدة عبد الله وحبيب ابني زيد بن عاصم، مع زوجها وولديها.

ويبدو من مراجعة النصوص أن أم عمارة ـ رضي الله عنها ـ كانت لها مهمة خاصة في هذه الغزوة، وهي أن تحمل الماء على ظهرها، تسقي المؤمنين، وكانت خلال عملها هذا، تدعو للصحابة المجاهدين، وتحرضهم على الرمي، وتحثهم على الاستبسال والبطولة، وتشجعهم على الإقدام والاستشهاد في سبيل الله، وقد قامت بمهمتها على أحسن وجه.

فلما تغير وجه المعركة، وأحيط بالنبيّ ﷺ ومن معه، ورشقوا بالنبال والسهام، ووقعت ساعة الحرج العصيبة، وتدافع الصحابة لحماية الرسول ﷺ يقونه بأنفسهم، ويترسونه بأجسامهم، يتلقون بها النبال والحجارة ـ انحازت إلى رسول الله ﷺ تباشر القتال وتذب عنه، حتى جرحت وسقطت فيمن سقط من الجرحى، بعد أن تصدت لفارس من المشركين، فأسقطته قتيلاً.

وتحدث الصحابة عن جهادها وبلائها في غير أحد، فقد شهدت وقعة اليمامة، وجرحت يومئذ اثني عشر جرحاً، وقطعت يدها، وقتل ولدها.

وليس ذلك فحسب، فقد شهد لها النبيّ ﷺ بقوة المقاومة وحسن البلاء،

وجميل الدفاع عنه، يوم أحد، وقال، فيما رواه عنه عمر ـ رضي الله عنه ـ : ما التفت يوم أحد، يميناً ولا شمالاً، إلا أراها تقاتل دوني.

وفي جهاد أم عمارة الأنصارية درس عظيم، وعبرة عظيمة، وتربية مثلى؛ ويجدر بنسائنا وبناتنا أن يتخذن منها نموذجاً يحتذى، في فهم الواجب، وسلامة تطبيقه، والتضحية في سبيله، فهل هن فاعلات؟.

١٣ ـ حمد الله وتمجيده حق على العباد في كل حال:

لما وضعت المعركة أوزارها، ورجع المشركون بالنصر الذي استخفهم، والمسلمون بالمصاب الذي استأثر بصفوة من كبار الصحابة، الصابرين والمصابرين، الذين تجردوا للدعوة وأعبائها في رضاً وإيمان ـ وقف النبيّ ﷺ يواسي أصحابه، ويسكب في قلوبهم الرضا بقضاء الله وقدره، والتسليم المطلق لأمره، في غير عتاب، ولا تشكيل محكمة، ولا تقريع ولا تعزير، فحسب الذين خالفوا عن أمره، هذه النتائج المؤسفة المريرة، التي اصطلى بها العامة، وحسبهم ما نزل فيهم من الوحي؛ حسبهم من العتاب تقريع الإيمان، وتأنيب قلوبهم المؤمنة.

فلما أتم المواساة، قال لأصحابه: استووا حتى أثني على ربي ـ عزّ وجلّ ـ فصاروا خلفه صفوفاً، وقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولاهادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت.

في أعقاب المعركة، المعركة الضارية الخاسرة، يتخذ النبيّ ﷺ أُهْبَتَه، وينظم المسلمين، صفوفاً، لكي يثني على ربه، عزّ وجلّ.

إنه لموقف عظيم، يجلي إيماناً عميقاً، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب

العالمين، الفعال لما يريد. . . هو القابض والباسط، والمعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه، زوى عنهم النصر، وأحرزه عدوهم، وأرجعهم بخسارة فادحة؛ لكنه ربهم ورب العالمين، هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وليس لهم من الملك ولا من الأمر شيء؛ وهو الحكيم العليم، والغفور الرحيم، وهو المعبود الحق، وهم العابدون، فليكونوا في مقام العبادة، والتسليم، فذلك هو الإيمان، وسر اليقين.

والمادة والنصر والغنائم تغدو وتروح، فلا النصر بمستمر، ولا الغنائم والأموال مستقرة، ولا يقيم في هذه الدنيا مقيم، ولا أمنها موفور، كل ما فيها غاد ورائح، فليسأله: «النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول».

لقد منحهم الله تعالى أولاً النصر والغنائم، فكانت فتنة لبعضهم جرت إلى شر مستطير، وبلاء كبير؛ فلما منعهم آخراً من الأمرين، كلفهم ذلك الدماء البريئة، والشهداء الأبرار، والجروح والقروح، وعذاب الروح؛ فلا يتعلقن المؤمن بنصر أو مادة، ولا يتعلقن إلا برب العالمين، ولِيَسْتَعِذْ به من شر ما أعطاه ومن شر ما منعه: «اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا، ومن شر ما منعتنا».

لا يحفل المؤمن إلا بالإيمان، وترسيخه في القلب، وإبراز آثاره في صالح العمل، وتجميل الأعمال به؛ ولا يتلقى المؤمن إلا الكفر الذي يحبط العمل كله، والفسق والمعصية، وهما من رواسب الكفر، وذرائع الخروج عن الهدى والرشاد.

«اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين».

ولئن سبق الشهداء إلى رحمة الله، ووُوْرُوا في ثرى أُحُد الأشم، راضين مرضيين، فإنا على إثرهم، والموت قافية كل حيّ، وهو تحفة المؤمن، فلا يميتنا الله إلا أعزَّة في غير محنة ولا بلاء ولا فتنة: «اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين».

أما أولئك الكفرة، الذين يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، ويكذبون الرسل، ويقاتلون أتباعهم، ويقيمون السدود والحواجز دون دعواتهم، فالله هو المسؤول أن يقاتلهم بعد قتالنا، وأن ينزل بهم بأسه وعذابه، إنه إله الحق، وناصر الدين:

«اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، إلّه الحق».

للعبودية مظاهر ومواقف، وهذا الموقف من أعظم المواقف التي تسمو بالعابدين، وتجلّ المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء الجميل.

وإنا لا نكاد نجد لمثل هذا الدعاء ومضمونه الأمثل نظيراً، لا في أعقاب المعارك الرابحة، ولا في أعقاب المعارك الخاسرة، عبر التاريخ.

إنه يصور العبودية في أعلى أشواقها؛ إنه يصور الموقف الثابت الراسخ الذي يهبه الإيمان أهل العقيدة؛ الموقف الذي لا تستهويه نشوة ولا نزوة، ولا تنال منه زلة ولا عثرة؛ وكل شيء في الدنيا إلى زوال، إلا العقيدة ومعطياتها النفسية الرفيعة، فقد تزول الجبال ولا تزول.

إن العقيدة لتربط العابد بالمعبود، وتعلق النفس بالله، وتوثق قلب المؤمن بربه، وبها يرتبط المؤمن بالعروة الوثقى الدائمة الباقية، التي تنفي عنه تقلبات النفس، وشرود الفكر، وتنقذه من تلاطم الأمواج، وظلمات الحيرة، وتنقله إلى ساحل السلم والأمن والإسلام.

١٤ ــ هول المصاب لا يطغي على الحق ولا ينسي الأدب:

كثر الشهداء في أحد، وبلغوا السبعين؛ وكان من هدى الإسلام أن يلف

الشهداء بثيابهم الدامية، دون أن يغسلوا، ويدفنوا حيث قتلوا، ودون أن ينقلوا إلى مقابر ذويهم في بلدهم.

وقد تحدث جابر بن عبد الله، أن عمته جاءت بأبيه لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ قائلاً: «ردوا القتلى إلى مضاجعهم»[1]: أي ادفنوهم في مصارعهم ولا تنقلوهم.

وتشير الروايات الصحيحة إلى أن رسول الله ﷺ أشرف بنفسه على دفن الشهداء، وكان يجمع ـ للكثرة ورفع الحرج ـ بين الشهيدين في قبر واحد؛ وكان يراعي في اللحد تقديم الأقرأ لكتاب الله، والأكثر حفظاً وتحصيلاً، فيقدمه في اللحد، ثم يتبعه بصاحبه الشهيد الذي هو دونه في ذلك، ثم يقول: بعد أن يواريهم في أجداثهم: «أنا شهيد على هؤلاء، أنه ما من جريح يجرح في سبيل الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة، يدمى جرحه، اللون لون الدم، والريح ريح مسك»[2].

فانظر إلى أدب الإسلام في دفن الشهداء، ورعاية حقوقهم، وتكريمهم في مواراة أجسادهم، وإكبارهم واحترامهم، وإعلام إخوانهم الأحياء بمقامهم ومنازلهم في القيامة، وأحوال الحشر، وأهوال يوم الفزع الأكبر.

وقد يكون من الميسور ملاحظة ذلك في عواقب النصر، والغزوات الموفقة؛ أما في إثر أُحد، والهزيمة الشنيعة التي مني بها المسلمون، فقد يبدو ذلك من الأمور الهينة، التي يمكن التغاضي عنها في تلك الظروف.

لكن الإسلام، لا يغفل حقوق الإنسان، ولا يقصر في واجب تكريمه في كل حال؛ والحق حق في كل ظرف، والأدب لا يكون أدباً إلا إذا اطرد واستمر.

وأبرز ما يكون الأدب، حيال حملة القرآن، الآخذين بذكره في البكور والآصال، المتعلقين به في سائر الأحوال، تلاوة وعملاً والتزاماً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي ويروى: مضاجعها.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٣٧.

والأدب الإسلامي بصددهم، أنهم حينما يدفنون مثنى في قبورهم، يقدم الأقرأ في اللحد، تكريماً لحملة الكتاب، وتطويقهم وتجميلهم به، كما يقدم الأقرأ في إمامة الصلاة، والإمامة العامة.

يا الله! لا الحروب ولا الأهوال، ولا الكوارث المدلهمة، ولا الأحداث العصيبة، تعذر أو تغني عن التمسك بالآداب الإسلامية، وعلى التخصيص ما يتصل منها بتكريم الآخرين من الناس، ولو كانوا في عداد الأموات، كلما كان تطبيق الأدب ممكناً في ذاته.

إن في ذلك لدرساً بليغاً، يعلم الناس مبلغ حرص الإسلام على تكريم الناس وتوفية حقوقهم؛ وإنه لدرس يشعر الأحياء بكرامة الأموات ـ وعلى التخصيص الشهداء ـ عند ربهم؛ وإنه لدرس عظيم ينبىء بأن هذه الحياة لا تنتهي بالموت، بل تبدأ في إثرها حياة برزخية خاصة، يستشعر فيها الميت بضرب من النعيم أو العذاب، والتكريم أو الإذلال، فليكن من أول ما يستشعر به في مثواه الأخير، تكريمه فيه بحمله القرآن.

١٥ ـ أحداث أحد كانت بإذن الله، ووفق سننه:

أشارت آيات القرآن الكريم إلى ذلك، في التعليق على هذه الغزوة، وبينت أن لله في هذا الكون سنناً ثابتة مستترة، تجري وفقها الأحداث، وأن الإنسان في تحركه وفعاليته يخضع لهذه السنن ولا يشذ عنها. بل هو في كل أحواله ينطبق عليها، وينضوي تحتها، والسنن ومطابقاتها كلها بإذن الله وقدره، تتسق معه، ولا تخرج عنه.

وإن من سنة الله، أن النصر لمن صبر، وامتثل الأمر؛ وقد أخلّ الأصحاب بالصبر، ولم يوفروا الشرط، فكانت الهزيمة المريرة، وكان القرح والجرح، وكان استشهاد سبعين من كبار الصحابة، وكانت الآلام المبرحة، وكان كل ذلك بقدر الله وإذنه ومشيئته وسنته.

وإن كون الصحابة مسلمين مجاهدين، لا ينبغي أن تغير لهم السنن والنواميس التي ربط الله تعالى بها كونه وأحداثه، بل من لوازم الإسلام أن يخضعوا لهذه السنن، وأن لا يعطلوها: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾(١).

لكن الإسلام يسعفهم في عون الله لهم، وهو يطبق عليهم سننه، فهو يرعاهم، ويتخذ من أخطائهم التي تقرحوا بسببها، خيراً لهم، وبركة عليهم، وتبدو بذلك الحكمة المستكنة وراء هذه السنة، والقدر المخبوء وراء هذه الأنظمة والنواميس.

قد كان وراء هذه الأحداث سنن مطبقة لا تتخلف: منها استدراج الكافرين، وتمحيص المؤمنين، ومداولة الأيام بين الناس، واختبار مبلغ الصبر على الحق والشدة، ومحق الكافرين المكذبين.

فلا ينبغي أن يطمح المؤمنون ــ لإيمانهم ولأنهم مؤمنون ــ أن يغير الله لأجلهم سننه، ونظامه في الكون، وهذا سر تعجيل عقوبة المخالفة في أحد، ليعلموا أنهم ليسوا بدعا من الناس، وأن الكون الذي سخر الناس، لا تغير نواميسه من أجلهم، بل تطبق عليهم فيمن تطبق.

ولا ينبغي أن يغتر المسلمون بالنصر يوم بدر، فيظنوا أن الدنيا دانت لهم، وأن العزّ لن يتخلى عنهم؛ إنهم نالوه واستحقوه بالإخلاص والصبر والطاعة لله ورسوله، وعليهم أن يبقوا في مستواهم، ليبقى لهم العزّ والنصر؛ فإذا هبطوا عن مستواه ارتفع عنهم، وعزّ عليهم.

١٦ ــ عتاب المخطىء برقة ورأفة، يخالطه الدرس، وينفي عنه اليأس:

سرت في الآيات المعقّبة على غزوة أحد، مسحة من العتاب الرقيق الرفيق،

(١) رواه الشيخان.

أشارت إلى الأحداث، ووجهت إلى الدروس التي ينبغي أن يفيد منها المخطىء في حياته.

١ ــ فعتاب المخطئين هادىء رفيق، لا يشعر بالقنوط، ولا ينزع الأمل، ولا يخدش الطمأنينة: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1].

أما عتاب المنتصرين، يوم بدر، فقد بدت فيه الشدة اللاذعة: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾[2].

وفي هذا حكمة عملية، وتربية قرآنية، يحسن أن يلتزمها أهل التربية، والقائمون على التوجيه.

٢ ــ إنه ليس المؤمن الحصيف الذي لا يخطىء، بل هو الذي ينتفع بخطيئته، ويعتبر بها؛ وليست الخطيئة بالتي تهد الكيان، وتدك البنيان، وتذر الديار بلاقع؛ فكل بني آدم خطّاء، وسنة الله أن يعاقب المخطىء، على أن تكون العاقبة له، ما دام مؤمناً: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾[3]. وكفى بهذا طمأنة ورتباً ليناً، ورد اعتبار، وثقة بالله.

٣ ــ وهذه الجروح والقروح التي مست المؤمنين، قد مسَّ مثلُها الكافرين يوم بدر، ويوم أحد، حين كان النصر أولاً للمسلمين، فلما طمعوا في الغنائم والأسلاب هبطوا عن مستوى الجهاد المتجرد المحتسب، الذي لا مطمع فيه ولا غرض، ودارت الدائرة عليهم. لكن في هذا ــ مع تطبيق سنن الله ــ حكمة

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٢.
(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦٧ ــ ٦٨.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٩.

عظيمة، وهي مداولة النصر والحكم والسلطان بين الناس، ليتبين المؤمن من المنافق، والملتزم لمنهج الإسلام وحكمه، من المتقلب والمتغير: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾(1).

٤ ـــ وإنه ليست نتائج المعركة المريرة، قاصرة على التمييز بين الفريقين المذكورين، بل منها أيضاً أن يختار الله من المجاهدين الذين سقطوا في المعركة، شهداء على الحق والرسالة والبلاغ، لأنهم لقنوا الدعوة، وتمثلوها، وجاهدوا فيها بأموالهم وأنفسهم حتى ماتوا فيها؛ ولا مركز ينتظره الشهداء أعظم من هذا عند ربهم: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾(2).

٥ ـــ وليس دخول الجنة بالأماني والأحلام المحلقة، ما لم يمهد له بالجهاد في واقع الحياة العملية؛ وذلك بالصبر الدائب المستمر في كل الميادين، في الطاعة لأمر الله، وفي مجانبة معصية الله، ومعاداة أعداء الله، وفي معاناة المكابرين والمضللين، وفي مصاولة الباطل، ومقاومة داعي الهوى ونزوات النفس: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ . . .﴾(3).

٦ ـــ ضرب الله تعالى مثلاً للمؤمنين، بالذين سبقوهم بإيمان وإحسان، في موكب الدعوة إلى الله، ومواكب الرسل الدعاة؛ لقد كانوا حشوداً في درب الإيمان الطويل، درب الجهاد والنضال في سبيل الله، وأصيبوا في أموالهم وذوات أنفسهم، وتقرحت جسومهم، وشجت رؤوسهم، وقطعت أطرافهم، ونكل بهم تنكيلاً، لكنهم لم يستيئسوا، ولم ينهاروا، وآمنوا أن ذلك من ثمن الدعوة إلى الحق، وبسبب أخطاء اقترفوها، فاستغفروا منها الله، واستغفروا لإسرافهم في

---

(1) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

(2) سورة آل عمران: الآية ١٤٠.

(3) سورة آل عمران: الآية ١٤٢.

أمرهم، ورغبوا إليه في أن يثبتهم في المعارك، وينصرهم على أعدائهم، فاستجاب لهم، وكتب لهم النصر في الدنيا، والعزة في الآخرة:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾(١).

وبعد: فكم في هذه الآي من لطف من رب العالمين، بالصحابة الذين ألمت بهم هذه الكبوة العارضة! وكم فيها من عظات بالغة، ودروس، سمت على حطام النصر، وغنائم الفوز!.

لو أن المرء وازن بينها وبين الأسلاب يوم بدر، لوجد فيها رجحاناً ظاهراً، وخيراً وبركات، وعناية ورعاية، حانيتين أثيرتين من رب العالمين، وربّ ضارة نافعة.

١٧ ــ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون:

غيرت الآيات النازلة إثر أحد، من مفهوم الحياة والموت عند الناس؛ فلم يمت الشهداء كما نتصور، ولم تنقطع صلاتهم بنا، بل هم عند الله في أعالي الجنان، يتمتعون بحياة خاصة، لا نستطيع أن ندرك كنهها، لكن الخبر الصادق أثبتها.

وإنهم في هذه الحياة يأتيهم رزقهم من عند الله، فيستقبلونه بحفاوة وارتياح بالغين؛ وإنهم يفرحون بما يؤتيهم الله، لأنه من فضله، ومن أنعمه.

وإنهم موصولون بإخوانهم الذين لم تكتب لهم الشهادة، كما كتبت لهم،

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٤٦ ــ ١٤٧.

فيتمنونها لهم؛ فما فيها خوف بل فيها الأمن كله، ولا فيها حزن بل فيها السرور كله؛ فيها مرضاة الله، وهي عين السعادة.

كم أخطأ الذين حسبوا هذا الموت نهاية! إنه بدء حياة سعيدة أبدية، إن لا نتصورها، فقد صورتها النصوص البينة الصادقة: «أرواح الشهداء، في جوف طير خضر تسرح في رياض الجنة»(١). ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾(٢).

١٨ ــ نكبة أحد فتنة وتمحيص، وليست خاتمة الجهاد الإسلامي:

لم يشأ النبيّ ﷺ أن يشعر أصحابه بلذع الهزيمة، ومساورة الفشل، وخشي عليهم من عواقبهما؛ كانت غلطة عصفت بالنصر الذي كان بأيديهم، فأراد أن لا يتم فرحة المشركين به، وأن يرد إلى المؤمنين اعتبارهم، وقوتهم المعنوية، وثقتهم بربهم، فخرج لمبارزة المشركين من جديد، في اليوم التالي أحداً، ولما يبثْ سوى ليلة واحدة في المدينة.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحد، يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذن مؤذنه أن لا يخرجن معنا أحد، إلا من حضر يومنا بالأمس.

وتشير رواية أخرى لابن إسحاق، عمن شهد أحداً من الأصحاب، قال شهدنا أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخي، فرجعنا جريحين؛ فلما أذن مؤذن

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه. ويروي: تعلق من ثمر الجنة. وفي رواية ابن إسحاق من ابن عباس: «... ترد أنهار الجنة؛ وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، في ظل العرش...».

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ١٦٩ و١٧٠.

رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي: أو قال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جُرْحاً منه، فكان إذا غلب حملته عُقْبة ومشىٰ عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

وقد ساروا إلى (حمراء الأسد) واقتربوا من جيش المشركين، الذين ما إن بصروا بهم، والنار تشتعل من تلقائهم، حتى مادت بهم الأرض، وأشفقوا على النصر الذي انتزعوه من المسلمين، الذين هبّوا لاستئناف القتال من جديد، وهم أعجم عوداً، وأصلب عزماً، وأوفر قوة. ونظروا في الأمر، إذ كانوا في خيرة من إحدى اثنتين: أولاهما: العودة إلى القتال، ولا شك أنه مجازفة بالنصر المحرز في عاقبة مجهولة، ربما أطاحت به، والأخرى الاستمرار في الطريق إلى مكة، وفي هذا حفظ النصر، لكنه اعتراف ضمني بقوة المسلمين، وتحسن حالهم، وقدرتهم على مقاومتهم.

مال أبو سفيان إلى هذه الأخرى، إيثاراً للسلامة والنصر الرابح، وغطى هزيمته بإرسال من يهدد المسلمين بأن قريشاً عائدة لتجهز عليهم وتستأصلهم.

وجاء رسولهم، فهدد وأرعد، وأرغى وأزبد، فلم يأبه بشيء من ذلك المسلمون، ولبثوا ثلاث ليال في تحد سافر، وتصميم قاهر، على قتال كاسح كاسر، يوقدون النار، في الليل والنهار، يتحدون قريشاً في العودة إلى قتال أدهى وأمر.

فاستخزت قريش لهذا التحدي، وآثرت سلامة الأوبة.

وعاد المسلمون إلى المدينة، بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجل ظواهرها بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[1].

ويبدو من خلال وقائع هذه الخطة الهائلة ما يأتي:

١ ــ تصميم الرسول ﷺ على متابعة قريش فورياً، ولمَّا تضمد الجراح، وتمسح السيوف المتقاطرة دماً، بل لما ترح النفوس بعد من مكابدة الحرب، ومعاناة أهوال الحرب. فقد دعاهم ومنع أن ينضم إليهم سواهم، كيلا يسوء الظن بأن الفشل بسبب قلة العدد والعدة.

٢ ــ لم يتردد الصحابة في الاستجابة لهذه الدعوة التي لا تكاد تجد لها مثيلاً في التاريخ، ورأينا تحامل الأخوين الجريحين، بكل طاعة وانقياد، ودون تمرد أو شذوذ. لهذا أثنى الله تعالى عليهم وقال: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح**﴾.

٣ ــ ولعل المقصد من هذه الدعوة أن لا تزهو قريش بانتصارها، فيحدوها إلى الطمع في المسلمين، ويغريها بهجوم آخر، واعتداءات متكررة.

٤ ــ ولعله أيضاً تقوية معنوية للمسلمين، وإشعارهم واقعياً بقوتهم، وضعف عدوهم، وتحصيل قناعتهم بأن الفشل كان وليد المخالفة والمطامع، وأن النصر لهم دائماً ما تجردوا واحتسبوا.

٥ ــ وهو أيضاً تنويه بشأن الإيمان، وبالغ قوته، وأنه لا يمكن أن تنتهض له أية قوة، في الوجود، لأنه يستمد قوته من مصدر هذا الوجود، ﴿**الذين قال لهم**

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٧٢ ــ ١٧٤.

الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء...﴾ الآية.

١٩ ــ أحـد يحبنا ونحبه:

كما وارى قليب بدر جثث المشركين، ضم أحد ــ في ثراه الندي، وتربته الداكنة، في سفحه الناعم ــ شهداء الدعوة، ممن هاجر، وممن آوى ونصر، ذلك الرعيل الأول في درب الدعوة والجهاد، الرعيل الصابر المحتسب، المضحي بالمال والنفس، في تجرد مطلق، ومثالية فريدة، وكان في طليعتهم حمزة عم النبيّ ﷺ وسيد الشهداء ــ رضي الله عنه ــ، وخيثمة، وعمرو بن الجموح، والنعمان بن مالك، وسعد بن الربيع.

تركت أحد، وشهداء أحد، رواسب في قلب النبيّ ﷺ وأحزاناً، وموجدة، كما تركت أكلة خيبر آثارها في صحته، فلما دنا الأجل، وأزف الترحل للحاق بالرفيق الأعلى، زار قتلى أحد، مودعاً الدنيا في أشخاصهم، ذاكراً جهادهم، داعياً لهم، واعظاً بهم جماعة المسلمين، من الصحابة، في خير القرون.

ففي الصحيح «عن عقبة بن عامر ــ رضي الله عنه ــ قال: صلى رسول الله ﷺ على قتلى أحد، بعد ثمان سنين، كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا؛ وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا، أن تنافسوها، كما تنافسها من كان قبلكم، فتهلككم، كما أهلكت من كان قبلكم».

قال عقبة ــ راوي الحديث ــ: «فكان آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله ﷺ»[١].

• • •

(١) رواه الشيخان.

في إثــر أُحــد

سرايا: بني أسد، والرجيع، وبئر معونة؛ ثم غزوة بني النضير

استطاع رسول الله ﷺ أن يخفف مرارة الانكسار الذي لحق بالمسلمين في أحد، واستطاع أيضاً أن يسترد ـ ولو إلى حد ما ـ هيبة المسلمين ومركزهم في المدينة، بعد الذي عاينه من شماتة اليهود، واستهزاء المنافقين، وذلك في غزوة حمراء الأسد.

ومع ذلك، فإن انتصار المشركين في أحد، أطمع الخصوم الألداء، من الأعراب المشركين، وساد الشعور بإمكان مناوشتهم والتغلب عليهم، فما أقواس النصر التي ارتفعت لهم في بدر إلا من قبيل المصادفة، وقد حطمتها موقعة أحد. ومن ثَمَّ اتجهت أنظار كثيرين من الأعراب إلى غزو المدينة ذاتها، ومقاومة المسلمين ـ في كلب ـ حيث كانوا، واستئصال شأفتهم، وكسر شوكتهم.

١ ـ سرية بني أسد

وكان بنو أسد، أول من فكر من الأعراب، في اقتحام المدينة ونهبها، وما إن علم بذلك رسول الله ﷺ حتى ألقى بمائة وخمسين صحابياً، على رأسهم أبو سلمة، ذلك البطل الذي شارك في أحد، وأصيب فيها بجراح، ليبادرهم في دورهم، فمزقوهم شرَّ مُمَزَّق، وقضوا على حركتهم، وساقوا أنعامهم إلى المدينة، فدخلوها ظافرين ظاهرين.

لكن ما لبث أبو سلمة أن نغرت عليه جراحاته التي أصابته في أُحد، فمات متأثراً بها.

٢ ــ غزوة الرجيع

كما ألَّب خالد بن سفيان الهذلي، جموع هذيل لحرب المسلمين، فوجَّه إليه عبد الله بن أنيس، فقتله، وأثار ذلك حفيظة هذيل، فأسهمت في تسليم أسرى المسلمين إلى كفار مكة، في غزوة الرجيع.

وتتلخص أحداثها في أن وفداً من (عضل والقارة)، وكانوا من حلفاء هذيل، وفدوا على النبيّ ﷺ وطلبوا منه أن يرسل معهم وفداً يفقههم في الدين، فأرسل معهم ستة نفر، برئاسة عاصم بن ثابت؛ حتى إذا كانوا على مقربة من ماء لهذيل، في ناحية الرجيع، غدر بهم أصحابهم، واستعانوا بهذيل عليهم.

ولم يفلح النفر الدعاة في القتال دفاعاً، لبراءتهم ولقلتهم، حيال المتآمرين المدججين بالسلاح، فَقُتِل عاصم وآخرون، وأُسر اثنان هما: زيد بن الدثنة، وخبيب، وسيقا إلى مكة، وبيعا من أهلها، ليشفوا بهما أحقادهم التي ورثتها بدر. وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، ليقتلوه بأبيهم، كما اشترى صفوان زيداً، ليقتله بأبيه.

يقول أبو سفيان لزيد، لما قدم إلى القتل؛ أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه، تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي؛ فقال أبو سفيان، ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمدٍ محمداً؛ ثم قطعوه بسيوفهم.

وأما خبيب، فقد التمس منهم أن يصلي ركعتين، قبل أن يصلبوه، فصلاهما وأتمهما وأحسنهما، ثم قال: لولا أن تظنوا أني إنما طَوَّلت جزعاً من القتل،

لاستكثرت الصلاة. ثم دعا فقال: «اللهم إنَّا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداة ما يصنع بنا»، وقال داعياً: «اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً». ثم صلب وهو ينشد من قصيدة ارتجلها في هذه المحنة:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً ... على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شَلْوٍ ممزع

٣ ــ بئر معونة

وليس ذلك فحسب كل ما همَّ به المشركون، ليأخذوا به المسلمين غدراً وقهراً، فقد أقبل أبو براء عامر بن مالك، الملقب بملاعب الأسِنَّة، على النبيّ ﷺ يطلب منه إرسال دعاة لنشر الإسلام في ديار نجد؛ فلما خشي عليهم من الغدر المتوقع، ومن سوء المصير؛ قال عامر: أنا لهم جار. فأصحبه النبيّ ﷺ بضعة وسبعين من قرّاء الصحابة وفضلائهم، كانوا يكدحون عاملين في النهار، ويصلون في الليل، مطمئنين إلى إبلاغ رسالة نبيهم، ومرضاة ربهم.

فلما كانوا في بئر معونة، أقبل رئيسهم (حرام بن ملحان) على سيد بني عامر: وكان وقتئذ عامر بن الطفيل، وقدّم إليه كتاب النبيّ ﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، فلم يقرأ الكتاب، وأمر بعض أصحابه باغتياله، فلما نفذت الطعنة في صدره، صاح فرحاً بالشهادة: «فزتُ وربِّ الكعبة». ولم يكتف بذلك عامر، بل استصرخ على المسلمين الوادعين الآمنين العُزَّل من السلاح، قبائل مواتية له، فأعملوا في المسلمين سيوفهم، حتى أبادوهم عن آخرهم.

لم ينج من هذه المجزرة الغادرة إلا اثنان من الصحابة، كانا ثاويين في متاع القوم: فأما أحدهما فقد كره أن يبقى حياً، ليقصَّ نبأ أخيه الشهيد في زمرة الشهداء، على إخوانه المسلمين في المدينة، فصمَّم على أن يُقتل كما قُتل إخوانه، فقاتل مستميتاً مستشهداً، حتى قُتل.

وأما الآخر، وهو (عَمْرو بن أمية الضمري)، فقد أُسِرَ أولاً، ثم أَعتقه عامرُ بن الطفيل عن رقبة زعم ـ كما يقول ابن هشام ـ أنَّها كانت على أمه، فقفل راجعاً إلى المدينة.

فبينما كان يحث الخُطا في أوبته المحرجة، لقي رجلين ظن أنهما من بني عامر، الذين غدروا بإخوانه القُرَّاء، فأنزل بهما ثأره، فأرداهما قتيلين، وشفى بهما نفسه. فلما ذكر ذلك النبـيّ ﷺ تبيَّن له أنهما من بني كلاب، وكان لهم عهد من المسلمين، فقال له النبـيُّ الوفيُّ ﷺ في شيء غير قليل من الأسف والحزن: «لقد قتلت قتيلين، لَأَدِيَنَّهما».

وتقول الروايات: إن النبـيّ ﷺ لبث شهراً يقنت في صلاة الفجر، يدعو على قبائل سليم: (رعل، وذكوان، وبني لحيان، وعصية).

• • •

غـزوة بني النضـير

حتى اليهود، هموا برسول الله ﷺ أن يقتلوه غدراً، مع أنه كان بينهم وبينه عهد، والمسلمون ثابتون للأحداث المتلاحقة، في إيمان راسخ، ومصابرة لا تلين، واثقين من النصر المخبوء المذخور لهم.

لم يكن لدى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو أصدق وأولى من وفى بعهده، ما يدي قتيلي بني كلاب، فيقول الرواة: إنه قصد إلى منازل بني النضير، في جماعة من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، يستعينهم في ديتهما، وكان عهده معهم عند مقدمه المدينة ما يزال سارياً. فأظهروا حفاوةً وترحيباً ماكِرَيْن؛ ثم خلا بعضهم إلى بعض، وجلس النبـيّ ﷺ إلى جنب جدارٍ لهم، ينتظر وفاءَهم بما وعدوه به.

وخلص اليهود يتناجون قائلين: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فَمَنْ رجل يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فتصدى لتنفيذ هذه المؤامرة أحدهم. فأوحي إلى النبـيّ ﷺ بما دبره القوم، فخرج عائداً إلى المدينة، وصمّم على نبذ عهدهم في الوثيقة القديمة: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨ ﴾[1]. بل عقد العزم على مواجهتهم بالحرب.

وكان من أول ما خططه لذلك، أنه أرسل إليهم محمد بن مسلمة، يأمرهم

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

بمغادرة المدينة، وأن لا يساكنوه فيها، وأجّلهم عشراً، فمن وجد بعدها فدمه هدر.

جبن اليهود أمام هذا الأمر، فارتبكوا وتضعضعوا، وبعد تفكير وتدبير، أصاخوا له واستعدوا للترحل. لولا أن عبد الله بن أبـي بن سلول، شيخ المنافقين، أغراهم بالتمرد والقعود، ووعدعم بالانتصار لهم، والمقاتلة معهم. ونزل القرآن مسجلاً هذا التآمر، مكذّباً المنافقين في شخص شيخهم: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾[1].

وقد نزل اليهود، عند وعد ابن سلول، واطمأنوا إلى دعمه، فأرسلوا إلى النبـيّ ﷺ يقولون: إننا لن نخرج من ديارنا، فافعل ما بدا لك.

وحيال هذه المصارحة المتحدية، لم يتردد النبـيّ ﷺ في حربهم، فأمر المسلمين بالتهيؤ واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فسار إليهم بجيش من الصحابة في ألف مقاتل، يحمل لواءه علي ــ رضي الله عنه ــ .

وذعر اليهود إذ بصروا بالجيش المسلم مقبلاً على ديارهم، يهد الأرض، ويثير النقع، فلاذوا بحصونهم فراراً من المواجهة؛ وحاصرهم المسلمون ست ليال، واليهود صامدون. فلما رأى النبـيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ إصرارهم، أمر بقطع نخيلهم الجيد، فدب الرعب في قلوبهم، وقلوب المنافقين، الذين لم يستطيعوا أن يقدموا إليهم يداً، ولا أنْ يُسدوا إليهم عوناً؛ ووجدوا أن المسلمين في موقف من الجدية لم يحسبوا له حسابه.

ويبدو أنَّ توالي الضربات الغادرة على المسلمين، يوم الرجيع، ويوم بئر

---

(١) سورة الحشر: الآيتان ١١ و١٢.

معونة، زاد من تصميم المسلمين على مقاومة جرائم الغدر، والاغتيالات المتتالية، حتى إذا كانت محاولة بني النضير الغادرة، استنسروا في سحق هؤلاء اليهود، واستبسلوا في إبادتهم، لما نقضوا من عهد الوثيقة، وشاقوا الله ورسوله؛ ومع أنهم كانوا ذوي بأس وطَوْل، وثراء عريض، وقوة وَمَنَعَةٍ في الحصون، فقد استولى عليهم الرعب، وتملكهم الفزع، ولم يجدوا مناصاً من النزول على حكم الرسول المنتصر.

لقد احتملوا من أموالهم ما استقلّت به إبلهم ـ مما سوى السلاح ـ فبلغ من استبداد الهلع بهم، أنهم كانوا يُخْرِبون بيوتَهم بأيديهم، ليحملوا جذوع السقوف، وأبواب المنازل، وهم يسعون لمغادرة المدينة، حيثما كان المسلمون يهدمونها من الخارج، ويخربون الجدران التي تحصنوا خلفها.

وفي تصوير هذا الهلع الهالع، والترحل المهين، نزل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾[1].

هكذا نصر الله المسلمين، بلا قتال، ولا إراقة دماء، نصرهم بالخوف المجرد، وبإيمانهم العميق المتجرد.

• • •

---

(١) سورة الحشر: الآيات ٢ ـ ٤.

الدروس والمبادىء

تجلت في السرايا أو الغزيّات التي أعقبت أحداً، دروس وعبر هامة، نذكر منها.

١ ــ لا بد للدعوة من تضحيات:

رأينا كيف غدر حلفاء هذيل بالنَّفَر الستة من القُرَّاء، الذين أرسلهم النبيّ ﷺ معلِّمين ومفقهين في غزوة الرجيع، وكيف غدر عامر بن الطفيل، ومن والاه، بالسبعين من القُرَّاء، الذين استنفروا للدعوة إلى الله، والتفقيه في دين الله، في مجزرة رهيبة دنيئة، وذلك في يوم بئر معونة.

وقد تركت هذه الغزيات، في نفس الرسول ﷺ آثاراً غائرةً، بعيدة الأعماق، حتى إنه لبث شهراً، يقنت في صلاة الفجر، داعياً على قبائل سليم، التي عصت الله ورسولَه.

لكن ذلك لم يفتَّ في عضد المسلمين، ولا فتَّر من حميتهم في الدعوة إلى الله، ولا كسر من همتهم في الانطلاق الماضي في سبيل الله، وخدمة دينه.

ولمَّا قُتل أصحاب عضل الستة، وجَّه من بعدهم إلى عامر في جهات نجد أكثر من عشرة أضعافهم، فلاقوا حتفهم إلا واحداً منهم، ومع ذلك الحزن العميق، الذي وَرَّثَه هذه الأحداث الغادرة في نفوس المسلمين، فقد استمر إرسال السرايا، وإيفاد القُرَّاء، إلى الجهات النائية عن المدينة؛ لأن مصلحة الدعوة فوق الأنفس

والدماء؛ بل إن الدعوة لا يكتب لها النصر، إذا لم تبذل في سبيلها الأرواح، ولا شيء يمكِّن للدعوة في الأرض، مثل الصلابة في مواجهة الأحداث والأزمات، واسترخاص التضحيات من أجلها.

إن الدعوات بدون قوى أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات وأخيلة، تلفها الكتب، وترويها الأساطير، ثم تطويها الدهارير.

إن هذه الغزيَّات بصرتنا بالمسؤولية الضخمة عن دين الله، والدعوة إليه، ووضعت نصب أعيننا نماذج من التضحيات الفارغة الباسقة، من الأصحاب القُرَّاء في خير القرون؛ فليس لنا أن نستغلي ثمن نجاح الدعوة في تلك العهود، وقد استرخصوه واستعذبوه، وقال قائلهم ــ والسهم في مقتله ــ: «فزت وربِّ الكعبة».

إن للسعادة ثمناً، وإنَّ للراحة والطمأنينة ثمناً، وإن للمجد والسلطان ثمناً، وثمن هذه الدعوة: دمٌ زكيٌّ يُهراق في سبيل الله.

والدعوة إلى الله، أسنى مطالب المسلم، وأسمى أهداف الإنسانية، لو تجردت من أهوائها ومصالحها ورواسب الموروث، فهي أغلى من الرجال، وأثمن من الدماء، وأسمى ما في الوجود، وإنه لا يبقى في الوجود إلا واجب الوجود الحق، وكل ما سواه، دنيا وبهتان وبطلان، فليسخّر كل ما سواه في ذاته، وتحقيق شرعه ونظامه، وتثبيت معالم دينه.

٢ ــ الإسلام ينتزع الغدر والأحقاد، ويحل محلها الوفاء والمسالمة:

من طريف ما يروى في الصحاح، عن أبي هريرة، في قصة خبيب، أن خبيباً اشتراه بنو الحارث، «وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها؛ قالت: فغفلت عن صبيٍّ لي، فدَرَجَ إليه حتى أتاه، فأجلسه على فخذه، فلما رأيته

فزعت فزعةً عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى...[1]».

موقف رائع مثالي حقاً. الأسير ينتظر الموت الذي حددت له ساعته، فلم يبال كثيراً بفراق الدنيا، وأقبل في نفس تفيض بالإيمان والبِشْر على مصيره المحتوم؛ أخذ الموسى ليصلح بها بعض شأنه، وليقبل على ربه في سَمْت جميل، ومظهر حسن، فلما دلف إليه الصغير، ابن عدوّه الذي سيقتله ثأراً لأبيه عمَّا قليل، أخذ يداعبه، ويربت عليه، ويتلطف به، وكان في الإمكان أن يغدر به، وبيده الموسى، أو أن يساوم في قتله، وينتزع العفو من أهله انتزاعاً، إنقاذاً لنفسه، ولهذا فزعت أم الوليد من غدر الأسير.

لكن الأسير المسلم، المنشأ في مدرسة النبوة، أشار في كلامه، إلى أن هذا ما يفعله في هذا المقام الماديون الهابطون، الذين ما تمرسوا بأحكام الدين، ولا تأدبوا بآدابه، ولا ارتفعوا إلى قمته؛ أما هو، ذلك الأسير المسلم، الذي سيكرمه الله بالشهادة في سبيله، فليس من شأنه أن يغدر بطفل بريء وادع، ولا أن يمسه بأي سوء، لأنه يفهم جيداً ذلك المبدأ الإسلامي العظيم، الذي يقرره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[2].

انظر كيف أشار إلى ذلك بقوله: «ما كنت لأفعل إن شاء الله». ويشير هذا الأسلوب في البيان العربي إلى أن هذا الفعل غير وارد ولا متصوَّرٍ ولا هو في الحسبان، في هذا الظرف الحاسم، الذي قد يتعلق فيه الاستثناء، لموقع الضرورة، وإنقاذ المهج، لكن المبدأ الأصلي، الوفاء، والكف عن البرءاء، لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١٥.

وقارن بين التزام خبيب بمبادىء الإسلام في أحلك الظروف، وبين غدر حلفاء هذيل وموالي عامر بن الطفيل، الذين خضعوا للشرك وضلالات الوثنية، فاستباحوا لأنفسهم الغدر بالأبرياء، وقتل الوادعين من الدعاة الأمناء، وكلهم عرب نبتوا في الجزيرة؛ ثم أحكم وأنت منصف في حكمك بأنه لا شيء مثل الإسلام، يستل الأحقاد، ويزرع السِّلم والوفاء في موضعها.

٣ ــ من أحبَّ الله ورسوله حقاً، ضحى فيهما بكل شيء:

صورة هذه الحقيقة، فيما ذكرناه يوم الرجيع، ذلك الحوار الهادىء بين أبـي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك، تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي.

إنه يقرر في جوابه أنه لا يؤثر، في موقفه هذا الحرج، أن ينتقل إلى أهله سالماً ناجياً من الموت المحتم، إذا كان في ذلك ما يمسُّ شخص الرسول ﷺ بأيسر مكروه؛ وإنه ليؤثر حياة الرسول على حياته، مهما يكن في الأمر، فلا خير في حب بلا موت في سبيله.

ولهذا عقب أبو سفيان ــ زعيم المشركين بعد أبـي جهل ــ على هذا الكلام الصادق النفيس، بقوله: ما رأيت أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمدٍ محمداً.

حب المال يحمل على النَصب في سبيله، وحب العلم يبعث على السفر والسهر في تحصيله؛ وحب الحياة والسلطان والمعالي يحمل النفس على التطامن والإذلال، وحب السكن والاستقرار يحمل على بذل المال والغوالي؛ وحب الله ورسوله يحمل على التضحية بالمال والنفس جميعاً وبكل شيء، في سبيل الدين والشرع، ومرضاة الله ورسوله.

ولمَّا قال عمر لرسول الله ﷺ: لأنت يا رسول الله، أحب إليّ من كل شيء إلامن نفسي التي بين جنبيّ. قال له: لا، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك التي بين جنبيك. فلما قال عمر: والآن أنت أحبّ إليّ من كل شيء حتى من نفسي التي بين جنبيّ، قال له: الآن يا عمر.

ولا يكون الحبيب أحب من النفس، إلا إذا تطوع بها المحب في سبيله، وضحّى بهما من أجله؛ وليس وراء النفس مطلب لحبيب، ومن ضحّى بنفسه لم يبخل بشيء، فليس فوقهما زيادة لمستزيد.

وقد جاء في الحديث الصحيح:

١ ــ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين»[١].

٢ ــ «ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...»[٢].

٤ ــ كرامات الأولياء ثابتة، وهي من ضروب الرُّخَص:

ومن طريف ما يروي المحدثون في غزوة الرجيع، أن بنت الحارث، قالت تتحدث عن تقوى خبيب، وسموِّه الروحي: «ما رأيت أسيراً قط، خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق بالحديد، وما كان إلا رزق، رزقه الله»[٣].

ولا شك أن هذا ــ كما قالت ــ إكرام من الله لعبده الذي أسر في أداء رسالته وإحسان منه، وتبشير له بمنزلته عنده، ومقامه المهيأ له في الدرجات الزلفى يوم

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

(٢) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(٣) رواه البخاري.

القيامة. إنه لإكرام عظيم، أن يأتيه رزقه عنباً، ولا عنب في مكة، والأسير موثوق بقيود من حديد، مثقَّلٌ بالأغلال.

ومن الحكمة واللطف أن يكرم الله عبده المجاهد في سبيله، بعد أن أسر، وهو يرتقب الموت صابراً محتسباً، لأن في هذا الإكرام تثبيتاً لفؤاده، وتخفيفاً لأزمته وشدته، ودفعاً لدواعي الفتنة أن تتسرب إليه، فيحبط عمله، ويكون من الخاسرين.

وكرامات الأولياء ثابتة؛ وأهل التوحيد ينصون على أن كل ما كان معجزة لنبـي جاز أن يكون مثله كرامة لولي، سوى القرآن. ولا فارق بين المعجزة وبين الكرامة إلا في التحدي ــ كما تقرر عندهم ــ .

وأهل الأصول يعتبرون كراماتِ الأولياء، من ضروب الرُّخَص، لأن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، وهذا من باب العزيمة؛ وتجيء الخوارق بعد ذلك أحوالاً واستثناءات، تجري على يد الولي، لا لحظٍ في نفسه، بل لمعنى شرعي، وتجري من نفسها ولا يجريها من قبل نفسه.

وقد عقد الإمام الشاطبـي ــ رحمه الله ــ في آخر الجزء الأول من الموافقات فصلاً خاصاً ممتعاً شيقاً لابتناء الكرامات على الرُّخَص، وقرر أن من شرط الرُّخص أن لا يقصدها ولا يتسبَّب فيها لينال تخفيفها، والأمر كذلك في الكرامات، لأن مخالفة هذا الشرط مخالفة لقصد الشرع.

وسرد ألواناً من الكرامات التي حصلت لبعض الأولياء، وعقب على بعضهما بمحاورة جرت بين أبـي تراب النخشي، وبين أبـي العباس الشرفي، إذ قال الأول للآخر: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقال الآخر: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال أبو تراب: من لا يؤمن بها فقد كفر؛ إنما سألتك من طريق الأحوال. فقال الآخر: ما أعرف لهم قولاً فيه. فقال الأول وهو

أبو تراب: بل قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك ولم يساكنها، فتلك مرتبة الربانيين.

وختم الإمام الشاطبي الحديث في هذا بقوله:

«وهذا كله يدلك على ما تقدم، من كونها من حكم الرخصة، لا من حكم العزيمة، فليتفطَّنْ لهذا المعنى فيها، فإنه أصل ينبني عليه فيها مسائل: منها: أنها من جملة الأحوال المعارضة للقوم، والأحوال من حيث هي أحوال لا تطلب بالقصد، ولا تعد من المقامات، ولا هي معدودة في النهايات، ولا هي دليل على أن صاحبها بالغ مبلغ التربية والهداية، والانتصاب للإفادة، كما أن الغنائم في الجهاد، لا تعد من مقاصد الجهاد الأصلية، ولا هي دليل على بلوغ النهاية».

وقصة خبيب هذه التي علَّقنا عليها هذا التعليق، خير ما يصور نظرة أهل العلم ـ والإمام الشاطبي في المقدمة ـ إلى الكرامة.

وقد ثبتت كرامات الأولياء في صحاح الأحاديث، منها قصة الثلاثة الذين آواهم المطر إلى الغار، فاحتموا فيه، فسقطت الصخرة فسدت عليهم باب الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم، حتى تزحزحت، وانفتح لهم الباب، فخرجوا.

ومنا قصة جريج الراهب، والغلام الرضيع الممهد الذي اتهم به أنه أبوه، فسأله جريج من أبوك، فقال أبي الراعي، في الحديث الصحيح الطريف الذي ورد فيه أنه لم يتكلم في المهد إلا عيسى، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون[1].

والذي حدث لخبيب ومن قبله لجريج وأصحاب الغار، كان من قبيل الكرامات، وما كان خبيب وجريج وأصحاب الغار إلا من الأولياء المتقين،

---

(1) رواه الحاكم.

الجديرين بإكرام الله، وهم في أحلك المحن، وأحوج ما يكونون إلى تثبيت اليقين، وبث البشرى من رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[1].

وبعد ورود النصوص الشرعية الثابتة، في الصحيحين وغيرهما، لا يتصور من المؤمن السوي، أن يحاول أو يماري في ثبوت الكرامات؛ فهذا تأويل من كفر منكرها.

٥ ــ وداع الحياة، وختم الأعمال بالصلاة:

قد ذكرنا في قصة خبيب أيضاً، أنه صلّى ركعتين قبل أن يصلب، فأتمّهما وأحسنهما، ولولا أنه خشي أن يظن المشركون أنه طوّل جزعاً من الموت، لاستكثر من الصلاة.

ولم ينكر عليه ذلك، فربما يكون أول من صلّى قبل أن يقتل.

وإنَّ الاتجاه إلى الله في مثل هذه الساعات الرهيبة، والوقوف بين يديه، في هيئة المناجاة، ومظهر العبودية السامي، في رضا عميق، وتسليم مطلق، وخشوعٍ تام، يجلبهما الثناء الجميل، والركوع والسجود، له مضمونه ودلالته الكافية، على تغلغل الإيمان في قلب الأسير، ورسوخ اليقين في ضميره.

ولا شك أن أفضل الأعمال الصلاة، «وأقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2] ــ كما ورد ــ وأن «الصلاة خيرُ موضوع»[3] ولا أدل على تفاني العبد في

---

(١) سورة يونس: الآيات ٦٢ ــ ٦٤.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط.

مولاه ــ بعد الجهاد ــ من الصلاة؛ فليقبل الأسير المقتول على ربه نقيّاً مصليّاً، فما في الدنيا ــ بالنسبة إلى حاله ــ موقف يفرغ فيه الطاعة والعبودية لله، مثل الصلاة.

إنها راحة النفس، وراحة الحياة، وقرة العين، وأنس المؤمن بربه، فلا ضَيْر على خبيب أن جعل آخر عهده بالدنيا، وقد دنا من الموت، أو دنا منه الموت، أن يصلي ركعتين، يودع فيهما كل ما يحمل بين جنبيه، من يقين وإيمان، وانقياد وإذعان، ورضا وتسليم لأمر رب العالمين.

٦ ــ لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين:

لمَّا انصرف المسلمون من حمراء الأسد، أسروا في طريقهم أبا عزة عمر بن عبد الله الجمحي ومعاوية بن المغيرة بن أبـي العاص، الشاعر، وكان ممن أسر يوم بدر من المشركين، واستغاث بالنبـيّ ﷺ ليمنَّ عليه، من أجل بناته، فمنَّ عليه بلا فدية، وشرط عليه أن لا يقاتله إذا قاتله المشركون، فوعده بذلك.

لكن نكث بعهده، وقاتل مع المشركين يوم أحد، فلما أسر وجيء به إلى النبـيّ ﷺ، قال: يا محمد: امنُن عليَّ لبناتي، وأعاهدك أن لا أقاتلك. فقال النبـيّ ﷺ: لا أدعك تمسح عارضيك بمكة، وتقول: خدعت محمداً مرتين: «لا يُلدغ المؤمنُ من جُحر مرتين»[1] ثم أمر به فضُربت عنقه.

وتقرر هذه الحادثة الجزئية مبدأين هامين:

١ ــ أن الإسلام في طبيعته السماحة، وحب العفو، والرفق بالآخرين، وعلى التخصيص المستضعفين من الناس، كالبنات والصغار ومن إليهم، وظهر ذلك جليّاً في هذه الحادثة، عندما أطلق النبـيّ ﷺ أبا عزة هذا، ومَنَّ عليه بلا فداء بعد أسره، وذلك من أجل بناته الصغيرات، وفي هذا الاستثناء، لهذا المعنى، من حكم فداء الأسرى بمقابل مال جم يدفع عن كل فرد، من الدلالة على سماحة

---

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه.

الإسلام، وأخذه أحوال الضعفاء بعين الاعتبار، شيء كثير. فإذا ضُمَّ إليه أن المسلمين وقتئذ كانوا في فقر وفاقة، وحاجة ملحة ـ كما رأينا في خروجهم جياعاً عراة حفاةً إلى بدر ـ كانت الدلالة على سماحة الإسلام، وإيثاره العفو، والصفح الجميل أكثر.

٢ ـ أن للعفو أبعاداً محدودةً، وفواصلَ مقدرةً، إذا تُجُوْوِزَتْ أدت إلى مضمون مضاد، ومعنى غير حميد في مجالات السياسة والإدارة، كالغباء والخديعة، والغفلة والبساطة؛ والمؤمن في معزل عنها، فضلاً عن صاحب الرسالة، النبيّ الأعظم ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

لهذا لما مَنَّ عليه أولاً إثر بدر، كان متسقاً مع المبدأ الأول، في غاية الاتساق؛ فلما نكث بعهده، وظاهَرَ المشركين على المسلمين في أحد، وأسر بعد حمراء الأسد، لم يكن في المقدور أن يعفى عنه أو يمنَّ عليه؛ فتكرار الأذى، ونقض العهد، يدل على خبث في الباطن، وفساد في الجبلة، كما سيستغل في التبجح بخديعة المسلمين، والاتجار بها في محافل أهل الشرك. فكان الاعتذار عن المنِّ بلا فداء ـ رغم وجود البنات الصغيرات ـ لأن سمعة الإسلام، ومصلحة الدعوة العامة، تربو رعاية الصغار، وتعهد البنات. وكان توجيه الاعتذار بهذه الحكمة النبوية الأصلية: «لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين» دعماً لموقف النبوة، الذي تتمثل به العزيمة الماضية، والتربية الصارمة، والشدة في موضعها المناسب؛ كما يتمثل فيه العقاب على النكث بالعهود، كيلا تكون نهبة أهل اللعب والعبث من قليلي المروءة؛ ويتمثل فيه أيضاً الحفاظ على مستوى الإسلام الرفيع، بعيداً عن الشغب والدس بالمكر والخديعة.

وقد ذهبت هذه الحكمة النبوية العظيمة مثلاً عربياً سائراً سائغاً، وتناولتها كتب الحديث بالشرح والتعليق، وتناقلها المحدثون والرواة والكاتبون، وتعتبر من جوامع الكلم النبوية.

وتفيدنا في هذا المقام أن المؤمن ينبغي أن يكون يقظاً فَطِناً، فهو لا يعود إلى معصية أو ذنب بعد أن يقارفه، ولا ينبغي أن ينخدع بكلام الغادرين المتمردين مرةً بعد أخرى، وإذا اقتضى المقام العفو والحلم، فإنَّ للغضب لله مقاماً يأبى التحلم والعفو؛ وفي هذا المعنى يقول النابغة:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يُكَدَّرا

٧ ـ قيمة العهود عند المسلمين وعند اليهود:

رأينا قبل غزوة بني قينقاع، كيف كان المسلمون أوفياء بعهودهم، جادّين في معايشة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين يلتقون بهم في الإيمان بالرسالات والكتب السماوية؛ وأنَّ اليهود كانوا عند أسوأ الظن، فقد عاشوا مع المسلمين في المدينة، يحرجون صدورهم، ويلمزون بدينهم ونبيهم، ويعينون عليهم أهل الشرك، الذين لا يلتقون معهم بنبيٍّ مرسل، ولا بكتاب منزل، ويسعون في نقضِ دولتهم الفتية من القواعد، كلما أرسوا لها ركناً، نقضوا منها أركاناً.

وقد كشفت تلك الغزوة، ضغينة القوم، وخبثهم المبطَّن، ونقضهم الوثيقة والعهد الذي كان بينهم وبين المسلمين، بأسلوب دنيءٍ وهابطٍ مُزْرٍ، عبث بحجاب المرأة المسلمة الرزين، وكرامتها المصونة.

وكان ذلك في منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة.

وغزوة بني النضير هذه كانت في شهر ربيع الأول في السنة الرابعة للهجرة. وكانت غدراً خبيثاً، ومكراً سيئاً، بشخص الرسول ﷺ نفسه.

ففي الوقت الذي سعى إليه اليهود، يستعينهم في دية قتلىٰ بني عامر، للعهد الذي كان بينه وبينهم، كان اليهود يبيتون الغدر به، وبينهم وبينه عهد وميثاق.

يا لَلَّه للوفاء العجيب المتسامي إلى القمة، ولنقض العهد في أبشع صور الخسة والجبن والحقارة.

وليتمثل المسلم وفاء الرسول رئيس هذه الدولة المسلمة النامية، بالتزاماتها حيال ما قطعته على نفسها من عهد الجوار، وليس في خزانتها ما يدي قتيلين؛ فلا يمهل، ولا يعطل، ولا يرجىء، بل يسعى ليقترض في دفع الدية، وفاءً بما التزم، وليتصور كيف تحاك ضده ــ وهو في أنبل طرق الوفاء، وصدق التعاقد ــ أحطّ مؤامرة، تحاك لكي تودي بحياته المثلى، ورسالته الإنسانية العليا.

إن دولة الإسلام، كشرعة الإسلام، لا تعرف إلا الوفاء، ولا وجود للغدر في دستورها. إنها التزمت الوفاء كأشد ما يكون الالتزام، وكأروع ما يكون، ولهذا ضربت المثل في عهودها المتلاحقة. كما أن دولة اليهود لم تعرف إلا الغدر ونقض العهود، كأبشع ما يكون الغدر ونقض العهد، وتاريخها مع المسلمين، وغير المسلمين، حافل بالأحداث والشواهد المخجلة المؤسفة اللاإنسانية.

ولتأكيد قيمة العهود، والوفاء بالالتزامات والعقود، نزلت هذه الآيات القطعيات في محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾(١).

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾(٢).

وكان الوفاء بالعهد من أبرز صفات المؤمنين، كما أنه من صفات رب العالمين:

﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ﴾(٣).

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾(٤).

فهل يقدِّر المسلمون هذه الصفة النبيلة حق قدرها؟ وهل يرعونها حق

---

(١) سورة المائدة: الآية ١.

(٢) سورة النحل: الآية ٩١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١١.

رعايتها، في التصور والتطبيق، ولا يكونوا كاليهود، الذين تنكَّر لها تاريخهم الطويل القائم، فتخوَّضوا في وديان سحيقة من الأنانية البغيضة، والمادية المسرفة، والعنصرية المنبوذة المنكرة؟.

٨ ـ الله يعصم نبيه من اليهود:

حفظ الله تعالى نبيه ﷺ مِن تآمر المشركين لما كان في مكة، وحفظه من غدر اليهود لما استقر في المدينة، في أحداث كثيرة، ووقاعات جماعية وفردية، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾(١).

وقد صرحت كتب السيرة هنا القديمة والحديثة، بأنَّ الله تعالى أوحى إلى نبيه، بما تآمر به اليهود، فيقول ابن هشام: «فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم...».

ولا شك أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان يتمتع ببصيرة نافذة، وفراسة صادقة، لكن رسالته لم تعتمد على شيء من ذلك، وإنما كانت تعتمد بالجملة والتفصيل، وقبل كل شيء وبعد كل شيء، على الوحي: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾(٢).

لهذا لم نشته أن يعبر بعض الذين كتبوا في التفسير عما بيَّته اليهود بقوله: «فألهم رسول الله ﷺ ما يبيت اليهود من غدر» وبعض الكاتبين في فقه السيرة بقوله: «ألهم رسول الله الخطر المدبر له» لأن الإلهام إحساس داخلي عميق ينعكس حيال الأحداث الكونية؛ وهو ـ كما يعرفه أهل العلم ـ بتعبير أدق: ما يُلْقىٰ في الرَّوع بطريق الفيض، فيحمل الملهم على انتهاج مسلك خاص، من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة. وهذا المعنى لا يختص بالرسل، ويشترك فيه أهل

---

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) سورة النجم: الآية ٤.

الحصافة والفكر جميعاً؛ بخلاف الوحي والخبر الإلهي، فإنه من دلائل النبوة، وخصوصيات الرسالة، لا مطمح لمخلوق فيها.

ولا شك أنَّ هذا الإيحاءَ الإلهي المعجز، هو الذي نفث في روع النبيّ ﷺ فنهض لتوِّه عجلاً، متظاهراً بقضاء بعض حاجاته، وقفل راجعاً إلى المدينة، ونجّاه الله بذلك من تلك المكيدة.

إنَّ لدقة التعبير هنا، حظاً من الإيمان واليقين، أكثر من حظها من العلم والبيان. ولا يحسن بالكاتب أن ينصرف في التعبير عن الحقيقة، إذا انقدحت في ثوب الإعجاز، إلى أي تعبير آخر، مهما كان فيه ظلال من لفت أو إثارة.

٩ ــ تقريب الإسلام بين الطبقات:

تكوَّن المجتمع المسلم الأول في المدينة من طائفتين كبيرتين من المسلمين: المهاجرين والأنصار. وكان المهاجرون من الفقراء، الذين أُخرجوا من ديارهم في مكة وأموالهم، وافدين على المدينة. أما الأنصار فكانوا سكان يثرب الأصليين، لهم كل ما فيها من مال صامت وناطق، ويدهم عليه ملك يمين، فكان البون شاسعاً بين الطائفتين، والإسلام يهدف دائماً إلى تحقيق التوازن بين الطبقات، ولا يقر تضخم الثروات، وتركزها في أيدٍ قليلة، بالشكل الذي نجده في بعض النظم المادية والاقتصادية.

ذلك، ومع أن الأنصار المالكين الواجدين، كانوا يتمتعون بروح معنوية عالية، وبسماحة وسخاء ظاهِرَيْن، وكانوا ــ كما وصفهم القرآن الكريم: ﴿ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[1]، ومع أنه انعقدت بينهم وبين المهاجرين أخوة فوق الأخوة من النسب، وهي أخوة الإسلام ــ كما رأينا من قبل ــ ، ومع أن الأنصار أيضاً، وفّوا

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

هذه الأخوة حقها من البذل والعطاء، وربما اقترحوا على النبيّ ﷺ قسمة النخيل بينهم وبين المهاجرين، كما في الصحيح، فرفض ذلك تقديراً للعواقب ــ مع هذا كله، بقي الفارق المادي ظاهراً بين الطائفتين.

لهذا انتهز النبيّ الكريم ﷺ أول فرصة سنحت له، لإزالة هذا الفارق الذي لا يرضاه الإسلام، وقد تمثل في أموال بني النضير، التي كانت تسمى فيئاً، فخصَّ قسمها بين المهاجرين، إغناءً لهم، وليرتفع بمستواهم المادي إلى ما يقرب به من مستوى الأنصار.

قال ابن هشام في أموال بني النضير: «فكانت لرسول الله ﷺ خاصة، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار؛ إلا أن سهل بن حنيف، وأبا دجانة سماك بن خرشة، ذَكَرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ».

وقد كان هذا التصرف بوحي من العزيز الحكيم، وهو في غاية الحكمة والمصلحة الاجتماعية والاقتصادية، لأن الفيء ــ في الاصطلاح الفقهي ــ اسم لما رده الله تعالى على أهل دينه من أموال من خالفهم في الدين بلا قتال، إما بالجلاء ــ كما هنا ــ، أو بالمصالحة على جزية أو غيرها، بخلاف الغنيمة، فإنها: المأخوذ بقوة الغزاة وقهر الكفرة. ولهذا تُخَمَّسُ الغنائم، ثم تقسَّم بين المحاربين، دون الفيء، فإنه كله لأمر الإمام حاكم المسلمين، يضعه حيث تحقق به المصلحة، ولم يكن ثمة مصلحة أهم من سد حاجة المهاجرين، ورفع مستواهم المادي، وتقريبهم فيه من إخوانهم الأنصار.

إنه التصرف العادل الحكيم، الذي لا سطو فيه على ما في أيدي الأغنياء، فيثيرهم، وفيه استغلال فيء منَّ الله به على المسلمين، بلا قتال ولا قعقعة سلاح، ووضعه في فئة فقيرة صادقة صالحة، على وجه يسد عوزها، ويقيم أودها، ويحقق لها قسطاً من الحياة المادية الفاضلة.

إنه تصرف الطبيب الحصيف اليَقِظ، الذي يشخِّصُ العلة، ويصف لها العلاج الكافي، الذي من شأنه أن يحصل الشفاء ــ بإذن الله ــ، ويستأصل الداء، ويفيض على المجتمع الأمن والراحة، والبرء والسلامة، ويزيل الفوارق، ويسوِّي الخلجان.

إنَّه التصرف النزيه الحكيم النابع من صميم العدل الذي قامت به الشرائع السماوية: لم يسلب الواجدين ما في أيديهم من حق، فلم يبتعث فيهم حقداً، ولم يورثهم ضغينة؛ وأنصف ذوي الفاقة في أقرب طريق، وأيسر سبيل، فحقق العدالة بالأخوة والإيمان، والمحبة والسلام، لا بالعداء والدماء، ولا بالحقد والموجدة، ولا بتمزيق المجتمع، وتفريق الصف، وتشتيت الأمة الواحدة المتماسكة:

داويــــت متئـــــداً وداووا طفـــــرة وأهــون مــن بعــض الــدواء الــداء

ثم إنه التوجيه الإلهي الراشد، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي لا تتطاول إليه إصلاحات ولا تقنينات ولا تنظيمات مهما تجردت، إن كان لها إلى التجرد سبيل؛ والذي أرسى القاعدة الصلبة الأولى، التي ينبغي أن تقوم عليها لبنات العدالة الأولى، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾(١).

تلك القاعدة الكبرى، التي تردُ ــ في الواقع ــ قيداً في الإسلام، على الملكية الفردية، التي أباحها الإسلام، تمشياً مع الفطرة الإنسانية، والغريزة الإنسانية، في حب التملك، لكنه حددها بقيود، منها تحريم الربا والاحتكار، والغش والرشوة، ومن أهمها هذه القاعدة التي ترتد إليها تلك القيود جميعاً: كي ﴿لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾(٢). فكل وضع من شأنه أن يَقْصر تداول المال بين

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

الأغنياء فقط، وحبسه عمَّن سواهم، ليس من الإسلام، وما يكون للإسلام أن يقره.

ذلكم شرع الله، ودينه الوحيد المتميز، في كل شيء، في عقيدة التوحيد، وفي منهج الحياة، وأسلوب العبادة، ونظام المال والاقتصاد؛ الشرع الفريد الذي لا يدانيه نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية، لأنه متوازن الجوانب، متعادل الحقوق والواجبات، موائم بين الغرائز الفطرية، والتكاليف الشرعية المالية.

١٠ ـ لا يحيق المكر السيِّىء إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرسول ﷺ في المشهد الذي صوّرناه، غايةً في الخسة والوضاعة؛ وكانوا يبتغون من مكرهم وغدرهم عزةً ورفعةً، ومجداً وغلبةً؛ لكن القدر سَخِرَ منهم، فنجّى الرسول ﷺ وكذّب عزتهم، وأهوى رفعتهم، وقوّض مجدهم، وكسر غلبتهم، وخرب بيوتهم، ورحّلهم عن الديار، شر ما يكون الترحيل.

ولم يكلف ذلك كله المسلمين، قتالاً ومواجهةً، ولا اصطداماً مسلحاً، لكنه الخوف الذي قذف الله تعالى به في قلوبهم، فطلبوا النجاة بأرواحهم في ذلة وخزي، مخلِّفين وراءهم ثراءً عريضاً، وملكاً كبيراً، حازه المسلمون غنيمةً باردةً.

وقد قرأت البيان القرآني الرفيع، في وصف ذلك المشهد الفظيع: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾[1].

هذه عاقبة المكر السيِّىء، والغدر المشين، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى موطن العبرة، في هذه الموقعة، وإلى هذا التهديد الذي أعلنه

---

(١) سورة الحشر: الآية ٢.

لكل من يسلك سبل المكر المزري، والحقد المستبد، وقال: ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَـٰرِ ۝٢﴾[1].

فهل للمسلم أن يعتبر، وهو الناظر الدارس في مسلك اليهود الماكر، أن ينتفع بما أحاط بهم، وأحبط تآمرهم، وكَلَّفَهم من ثمنٍ غال، دفعوه راغمين مقابل مكرهم السيِّىء؟

بل هل للمسلم أن يجتنب المكر بأخيه المسلم، الغافل الخالي، السليم الطوية، الصافي السريرة، فيحب له ما يحب لنفسه، ويكره ما يكره لها، ليكون في مسلك الإخوة المؤمنين، وفي مستوى الإيمان الرفيع الغالب؟

اللهم نظِّف قلوبنا، وطهرها من كل مرض، واغسلها بكل منقٍّ معقم، اللهم واجعل سريرتنا خيراً من علانيتنا، واجعل علانيتنا صالحة.

• • •

(١) السورة والآية أنفسهما.

غـزوة ذات الرقـاع

بعد غزوة بني النضير، أقام النبـيّ ﷺ في المدينة شهر ربيع الآخر وبعض الشهر الذي وليه، مطمئناً إلى نصر الله، حذراً غدر الأعداء، يبثُّ عيونه فيمن حوله، يتلقى بهم تحركات الكفار وتحرشاتهم.

فجاءه الخبر، بأن قبائل من نجد تتجهز لحربه، وهم بنو محارب، وبنو ثعلبة؛ فما عتَّم أن تجهز لهم، وخرج إليهم في سبعمائة مقاتل، وولَّى على المدينة عثمان بن عفان، أو أبا ذر ــ كما يروى ــ .

وظلوا سائرين، حتى وصلوا نجداً، ونزلوا بغطفان، وعكسروا في أرض تسمى: (نخل). وألقى الله تعالى في قلوب المشركين الرعب، فاعتصموا بالجبال، وتجمّعوا في شعبها؛ ورأى المسلمون الديار خواء، إلا من المال والنساء، فاستباحوا المال واحتملوا النساء سبياً.

ولما بصر المشركون بغارة المسلمين، وسبـي نسائهم، تحدّروا من الجبال لمواجهة المسلمين في الحرب، فخوّف بعضهم بعضاً، ولم ينشب قتال. ولما حانت الصلاة، صلى النبـيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالمسلمين صلاةَ الخوف، ثم انصرف بمن معه، وبما احتاز من الفيء، إلى المدينة بعد غيبة خمسة عشر يوماً، فرحين بالنصر، وما آتاهم الله من الفضل.

سميت هذه الغزوة بذات الرقاع، لأنهم رقعوا راياتهم فيها؛ أو لشجرة هناك

كانت تسمى كذلك؛ أو لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة، فسميت كذلك.

ويبدو أن الصحيح من السبب ما ورد في الصحيح عن أبـي موسى الأشعري، قال: «خرجنا مع النبـيّ ﷺ في غزاة، ونحن ستة بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنا نلفُّ على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع، لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا. قال أبو بردة ــ راوي الحديث ــ فحدث أبو موسى بهذا الحديث، ثم كره ذلك، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره، قال: كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه»[١].

ومع النصر العجيب الذي أحرزه المسلمون، في هذه الغزوة دونما اشتجار أو مبارزة، فقد ذكر ابن هشام، نقلاً عن ابن إسحاق، جملة من الأحداث والوقائع، التي تخللتها، فيها دروس قيمة، وعظات بالغة، نذكر منها هنا:

١ ــ أن رجلاً من بني محارب، يقال له: غورث، قال لقومه ــ من غطفان ومحارب ــ : ألا أقتل لكم محمداً؟ قالوا: بلى، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به.

فأقبل إلى رسول الله ﷺ وهو جالس، وسيف رسول الله ﷺ في حجره؟ فقال: يا محمد! انظر إلى سيفك هذا؟ وكان مُحَلًى بفضة ــ فيما قال ابن هشام ــ قال: فأخذه فاستله، ثم جعل يهزّه، ويهم، فيكبته الله، ثم قال: يا محمد! أما تخافني؟ قال: لا، وما أخاف منك. قال: أما تخافني وفي يدي السيف؟ قال: لا، يمنعني الله منك، ثم عمد إلى سيف رسول الله ﷺ فرده عليه. قال: فأنزل الله ــ تعالى ــ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١١﴾[٢].

(١) رواه الشيخان.

(٢) سورة المائدة: الآية ١١.

٢ ــ وروي عن جابر بن عبد الله، قال: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع من نخل، على جمل لي ضعيف: فلما قفل رسول الله ﷺ قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف، حتى أدركني رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا جابر؟ قال: قلت يا رسول الله! أبطأني جملي هذا، قال: أنخه، فأنخته؛ وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصاً من شجرة، قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال: اركب، فركبت؛ فخرج ــ والذي بعثه بالحق ــ يواهق ناقته مواهقة. (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدثت مع رسول الله ﷺ فقال لي: أتبيعني جملك هذا يا جابر؟ قال: قلت يا رسول الله! بل أهبه لك، قال: لا، ولكن بعنيه. قال: قلت: فَسُمْنيه يا رسول الله! قال: قد أخذته بدرهم، قال: قلت: لا، إذن، تغبنني يا رسول الله! قال: فبدرهمين، قال: قلت: لا؛ قال: فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه، حتى بلغ الأوقية، قال: فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله! قال: نعم؛ قلت: فهو لك؛ قال: قد أخذته.

قال: ثم قال: يا جابر! هل تزوجت بعد؟ قال: قلت: نعم، يا رسول الله، قال: أثيّباً أم بكراً؟ قال: قلت: لا، بل ثيّباً؛ قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قال: قلت يا رسول الله! إن أبـي أصيب يوم أحد، وترك بنات له سبعاً، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهنَّ، وتقوم عليهنَّ، قال: أصبت ــ إن شاء الله ــ أما إنا لو قد جئنا صراراً ــ (موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة) أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها (وسائدها). قال: قلت: والله يا رسول الله! ما لنا من نمارق، قال: إنها ستكون، فإذا قدمت فاعمل عملاً كَيِّساً.

قال: فلما جئنا صراراً، أمر رسول الله ﷺ بجزور فنحرت، وأقمنا عليها

ذلك اليوم، فلما أمسى رسول الله ﷺ، دخل ودخلنا، قال: فحدثت المرأة الحديث، وما قال لي رسول الله ﷺ قالت: فدونك، فسمع وطاعة. قال: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به، حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، قال: ثم جلست في المسجد قريباً منه، قال: وخرج رسول الله ﷺ، فرأى الجمل، فقال: ما هذا؟ قالوا: يا رسول الله: هذا جمل جاء به جابر، قال: فأين جابر؟ قال: فدعيت له، قال: فقال: يا ابن أخي، خذ برأس جملك، فهو لك؛ ودعا بلالاً، فقال له: اذهب بجابر، فأعطه أوقيّة، قال: فذهبت معه، فأعطاني أوقية، وزادني شيئاً يسيراً. قال: فوالله ما زال يَنْمى عندي، ويرى مكانه من بيتنا، حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا، يعني يوم الحرَّة.

٣ ــ عن جابر بن عبد الله الأنصاري ــ أيضاً ــ قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع من نخل، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً، أتى زوجها، وكان غائباً، فلما أخبر الخبر، حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمدٍ دماً. فخرج يتبع أثر رسول الله ﷺ؛ فنزل رسول الله ﷺ منزلاً، فقال: مَنْ رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل آخر من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله! قال: فكونا بفم الشِّعب. قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي، وهما: عمار بن ياسر، وعباد بن بشر ــ فيما قال ابن هشام ــ .

قال ابن إسحاق: فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه، أوله أم آخره؟ قال: بل اكفني أوله. قال: فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل ، عرف أنه ربيئة القوم (حارسهم) قال: فرمى بسهم، فوضعه فيه، فقال: فنزعه ووضعه، فثبت قائماً؛ قال: ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه: قال: فنزعه فوضعه، وثبت قائماً، ثم عاد له بالثالث، فوضعه فيه، قال: فنزعه فوضعه،

ثم ركع وسجد؛ ثم أهب (أيقظ) صاحبه، فقال: اجلس، فقد أُثْبِتُّ (جُرحت). قال: فوثب، فلما رآهما الرجل، عرف أن قد نذرا به (علما)، فهرب.

قال: ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله! أفلا أهببتني أول ما أرماك؟ قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع علي الرمي ركعت فأذنتك، وايم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه، لقطع نفسي، قبل أن أقطعها أو أنفذها.

• • •

الدروس والمبـادىء

كانت هذه الغزوة خفيفة مباركة، تم فيها النصر للمسلمين بدون قتال ولا اشتجار وحدثت فيها وقائع ذات أهمية بالغة في الاعتبار والتأسي، فنذكر من دروسها ما يلي:

١ ــ أعظم ما يكون النصر بالخوف:

عرفتنا هذه الغزوة ــ كما عرفتنا غزوة بني النضير من قبلها ــ أن الله تعالى، مكّن لنبيه في الأرض، وأخذ أعداءَه بالفزع، فكانوا يولُّون مدبرين، طالبين النجاة، تاركين وراءهم ما خولوه، من مال وثراء، وريع وعقار، وذراري وحيوان.

ذلك أنهم نصروا الله، وبذلوا آخر ما في طوقهم، من قوة ومن رصيد، لم يَسْتَبْقُوا لأنفسهم عزيزاً ولا غالياً، إلا وقدَّموه في سبيل الله.

ألم تر أنهم خرجوا مشاة، يتناوبون الجمل الواحد وهم سداس، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، ولفوا الخرق على أقدامهم، وهذا قصارى جهدهم، كل ذلك فعلوه ابتغاء وجه الله، ولنصرة دينه، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[1].

غير أن النصر هنا ما كان بقعقعة السلاح، ولا مبارزة الشجعان، بل كان بأن ألقى الله الذعرَ في قلوب المشركين، فاعتصموا بشعب الجبال، متلمسين النجاة.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤٠.

وصدق قول النبـيّ ﷺ في الصحيح: «نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر»[1].

وإنَّما يكون هذا النصر للذين يتولاهم الله من أنبيائه وأوليائه، والذين وثقوا صلتهم بالله، فلم يجدوا لهم سنداً إلا الله، ولا متجهاً إلا إليه، ولا نصيراً سواه؛ فيكتب الله لهم الغلبة والعزة، بإرهاب عدوهم، فإذا رهب لم يستطع أن يتخذ إلى مقاومتهم سبيلاً، وذلك أعظم ما يكون النصر والغلب، فمع الخوف تسقط الحيل، وتحبط الخطط، ويتجمد الفكر، وينقطع العمل المنظم المجدي.

٢ ـ لا شيء يثني عن الجهاد والدعوة إلى الله:

قد ذهبنا في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، إلى ما ذهب إليه أهل الحديث وكثير من كتب في السيرة النبوية، من أن الصحابة في هذه الغزوة مسهم شيء كثير من الضنك، وتعرضوا لألوان من الشدة، حتى نقبت أقدامهم، وسقطت أظافرهم، فأهووا على أرجلهم يلفونها بالخرق، يبقون عليها من وخز الأشواك، وقسوة الحجارة، وحر الرمال، فما كان لكل ستة منهم سوى بعير واحد، يتعاقبون ركوبه. . .

هكذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، راضين ومصممين، لا يشكون من فاقة، ولا يخشون من الحر، ولا من عناد الطبيعة، ولا من ضعف وسائلهم في مقاومتها، ولا يحسبون حساباً لشيء حتى الموت، الذي استقلوه في ذات الله، وفيما عند الله، فباعوا أنفسهم، واشتراها الله منهم.

وحينما تقوى الروح المعنوية، تفتر جميع القوى، ويتهاوى كل شيء دونها: قوي إيمانهم، ورسخ يقينهم، واتصلوا بأعظم قوة في الوجود، قوة رب العالمين، فتضائل الوجود أمامهم، فخضدت الأشواك، وتكسرت الحجارة، وانطفأ لهيب الرمال، وتغلب الصحابة على هذه الظواهر المادية الطبيعية بأيسر الأسباب، فألقوا على أقدامهم الخرق، ولفوها بها.

---

(١) متفق عليه، ورواه النسائي.

يا الله! ما أعظم المقصد، وما أشرف الغاية، وما أعلى تلك النفوس، التي اكتسحت بالشدائد المتجمعة، وغالبت قوى الطبيعة، لتكفكف قوى الشر والكفر والعدوان، وتمهد لرسالة الله، وتنشر الحق، وتقيم العدل، وتضع منهاج الله في هذه الأرض.

في سبيل هذه الغاية العليا، تهون الصعاب، وتزول الشدائد، وتكتسح العقبات، وكذلك الإيمان العميق، يسخر كل شيء لخدمته، ويتلاشى كل شيء دونه.

٣ ــ ينبغي تجريد الأعمال الصالحة لرب العالمين:

صرحت الرواية التي ذكرناها عن أبي موسى، بأنه حدث بهذا الحديث، ثم كره ذلك، وقال راوي الحديث عنه: كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه.

فيبدو أن أبا موسى ــ رضي الله عنه ــ حدث بهذا الحديث، في مناسبة ما، رداً على سؤال، أو كشفاً لخفاء، وأنه راجع نفسه في ذلك، فبدا له أنه تعجل بعض الشيء في التعريف بسبب هذه التسمية، إذ ترتب عليه إظهار ما كان ينبغي الإسرار به، من الأعمال الصالحة، خشية الرياء، أو أن يتسرب إليها نزغ الهوى، وحظ النفس، فيحبطها؛ ولهذا ندم على تعجله في توضيحه، إشفاقاً على ذلك الجهاد المحتسب عند الله، أن يبطل مثوبته.

وجاء في رواية ابن هشام، أن أبا موسى أعلن أسفه لهذا التصريح، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟ فقد خرج الأمر من يده، ولم ينل من مقابله شيئاً، بل ربما نقص من ثوابه المذخور، أو أحبطه.

أرأيت إلى مبلغ حياطة سلف هذه الأمة، أعمالهم الصالحة، وصونها من مداخل الشيطان، والهوى المهلك؟

وكذلك ينبغي احتساب الأعمال الصالحة، عند رب العالمين، وتجريدها من كل باعث لغيره فيها، لتكون جديرة بالرفع والتقبل وادخار الأجر، وتنميته عنده.

ولا يفسد العمل، مثل الرياء به، وإشهاره على الملأ، وشراء الثناء عليه، ومحمدة الناس من أجله.

ومن ثم دعا القرآن إلى الإخلاص في كثير من آياته، وذم المرائين: قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾[2] قال أهل العلم: إنها نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله.

وفي الصحيح عن النبيّ ﷺ يقول الله عزّ وجلّ: «من عمل لي عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله، وأنا منه بريء، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك»[3].

ولهذا كان السلف الصالح من هذه الأمة يحترسون من الشهرة وحب الظهور بالأعمال، فربما تركوا العمل خوفاً من الشهرة أن تتلفه عليهم.

قال الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ : لقد صحبت أقواماً، إن كان أحدهم لتعرض له الحكمة، لو نطق بها لنفعته، ونفعت أصحابه، وما يمنعه منها إلا مخافة الشهرة، إن كان أحدهم ليمر فيرى الأذى في الطريق، فما يمنعه أن ينحيه إلا مخافة الشهرة.

إن تجريد الأعمال الصالحة من كل حظوظ النفس والهوى والمصلحة، هو خلاصة الدين، ومحصل العبودية لله رب العالمين.

---

(١) سورة البينة: الآية ٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ١١٠.

(٣) رواه الإمام مالك ومسلم وابن ماجه.

لذلك جمّل السلف أعمالهم، وصانوها، وخافوا عليها من أنفسهم، فلهذا كره أبو موسى ـ رضي الله تعالى عنه ـ التحدث بسبب تسمية هذه الغزوة، وقال: ما كنت أصنع بأن أذكره؟

فانظر يا أخي المسلم، كيف كان سلفك الصالح يحترس من الرياء ومن الظهور بعمله الصالح، وكيف ترى اليوم من المسلمين من يرائي إذا عمل، ويحب الظهور بما يعمل وبما لا يعمل؟

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، ونعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من أن نعجب بما نعمل، وأن نفسد أعمالنا بالرياء، وحب الثناء.

٤ ـ الله يعصم نبيه من المشركين، كما عصمه من اليهود، والنبيّ واثق بعصمة ربه:

دلّت قصة غورث المشرك، الذي ندب نفسه لقتل رسول الله ﷺ وتطوع بذلك لقومه، على مبلغ ما كان يتمتع به النبيّ ﷺ من رعاية الله وعنايته وحفظه، وعلى ثقة النبيّ بربه في ذلك.

وإلا فما ظنك بالرسول ﷺ وقد نزل تحت شجرة سمرة، فعلق بها سيفه، ونام مع أصحابه نومة ـ كما قررت رواية البخاري ـ ولعله طال نومهم أو قصر، وإذا بغورث يخترط السيف، ويستله يهدد به النبيّ ﷺ وهو في مركز القوة والثقل، يقول: ألا تخافني؟ ما يمنعك مني؟ ويجيبه المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بكل اعتداد وثبات، وثقة بوعد الله: لا أخاف منك، يمنعني الله. فيهوي السيف من يد المشرك، بقدرة الكبير القدير، ويتهاوى المشرك، فيسلم السيف إلى صاحبه.

ليس لهذا التفسير، والقصة صحيحة في كتب السيرة، وفي صحيح البخاري إلا العناية الإلهية، والإعجاز الإلهي، الذي يتخطى العادات والسنن، ويتجاوز قوى الناس، لنصرة نبيه، والذود عن دعوته.

وقد قررت آي القرآن أن الله ضمن لنبيه ﷺ حفظ حياته وسلامته من كل خطر يهدد حياته، ليستمر في الدعوة إلى الله بكل اطمئنان.

من ذلك قوله تعالى: ﴿والله يعصمك من الناس﴾[1]. وقوله: ﴿واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾[2] أي امض لأمر الله ونهيه، وتبليغ رسالته، فإنا نحوطك ونحفظك، فلا يصل إليك من أرادك بسوء من المشركين.

فليست قصة غورث هذه التي روتها الصحاح، إلا مثالاً من أمثلة هذا الحفظ المؤكد المضمون، وصورة من صور تلك الحياطة الملتزمة، فضلاً من الله وتكرماً.

٥ ــ كان النبيّ حلو العشرة، لطيف الحديث، بالغ العناية بأصحابه، جم التواضع لهم:

دلّ على هذا حواره الهادىء الهادف مع جابر، في القصة الجانبية، التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أهل السيرة، منصرفه من هذه الغزوة، والتي تمثل خلق الرسول الكريم ﷺ خير تمثيل، وتصور حسن عشرته لأصحابه ــ رضي الله تعالى عنه ــ في أجلى صور اللطف والرقة، والتواضع الرفيع الرحيم:

(أ) أرأيت كيف أدرك جابراً، وقد تخلف عن القوم، لضعف جمله، فأهمه أمره، واتخذ له جريدة، فنخسه بها نخسات لعلها كانت خفيفة، فكانت للجمل قوة، غالب بها الجمال، وواهقها فسبقها. . . معجزة للنبيّ ﷺ.

(ب) ثم عرض على جابر أن يبتاع جمله هذا، فأراد أن يهبه إياه، فأبى، وساومه مساومة، كانت سمحة بارة، لا كما يساوم الناس في بياعاتهم، وما كان من قصد النبيّ ﷺ المتاجرة بالجمل، والمرابحة فيه، وإنما اتخذه وسيلة لبر جابر، فإنه لما انقلب إلى صرار، رد على جابر جمله، ونقده ثمنه، وزاده شيئاً يسيراً ــ كما قالت الرواية ــ .

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤٨.

إنه أسلوب فريد في بر الأصحاب، والتلطف بعشرتهم، ما يفعله إلا الرسل ومن تأسى بهم.

(ج) وليس ذلك فحسب، بل إنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ تعرف على أخبار جابر الأسرية، بعد أن استشهد والده في أحد، فعضه الدهر بنابه، وأصبح هو المسؤول عن الأسرة وحده؛ وعلم من خلال سؤاله عن أحواله وزواجه، أنه تزوج أخيراً امرأة ثيباً. فأعلمه أنه كان يود الزواج من بكر غضة الإهاب، تداعبه ويداعبها، وتخفف من قسوة المحنة التي يعاني منها؛ لكنه استصوب رأيه، لما أجابه بأنه آثَـرَ الثيب، لتقوم على البنات السبع، اللاتي مات عنهن أبوه، وتلم شعثهن، وترم من رثاثهن.

(د) وأحب الرسول الكريم، ذو الخلق العظيم، أن يكرم الصحابي المجاهد معه في غزوة ذات الرقاع، لقرب عهده بالزواج، عندما يقترب من المدينة، فيكون منها على بعد أميال، فيأمر فتنحر الجزور، ويقيم عليها يومه، وتسمع زوجه العروس بمقدمه، فتصلح من شأنها، وتتعهد بيتها، وتنفض وسائدها، تأهباً للقاء زوجها.

ولما عقب جابر، بأنه ليس في بيته وسائد، أخبر الصادق المصدوق مبشراً بأنه ستصلح حاله، وسيغتني بفضل الله، وستكون له وسائد وغيرها من وسائل النعيم.

أي لطف هذا، وأية مواساة هذه، وأية طمأنة وإحسان صحبة، في أوبةٍ من غزوة، بلا تكلف ولا تهيؤ ولا استعداد سابق: أبرأ جمله وقواه له، بلمسة خارقة، ومعجزة ظاهرة، ثم وهبه إياه بعد أن نقده ثمنه؛ ثم احتفى به فأمر فنحر القوم الجزور لتسعد عرسه للاستقباله؛ ثم طمأنه عن نعيم منظور، وغنىً مذخور في جيب الأيام.

تلك من نماذج الأخلاق النبوية، التي تحلى بها رسول الله ﷺ والتي حلاه بها ربه، الذي بعثه ليتمم به مكارم الأخلاق. وبهذا الأسلوب الهادىء الوادع، الرفيق الرقيق، يعلِّم الربانيون، حسن الصحبة، وصدق الأخوة، وبر الخلة والأخلاء.

اللهم كما متعتنا بالاستماع إلى هذا الهدي النبوي الرفيع، وفقنا للمتعة باتباعه والتأسي به فيه، وإبرازه خلقاً ومنهاجاً، ونوراً للإنسانية الهابطة المعذبة في ماديتها المسرفة، وأنانيتها المؤسفة.

٦ ــ الرباط في سبيل الله، وحراسة ثغور المسلمين عبادة عظمى:

أفصحت قصة عمار بن ياسر المهاجري، وعباد بن بشر الأنصاري، اللذين أقامهما سيدنا رسول الله ﷺ حارسين ثغرا من ثغور المسلمين، عن مبلغ امتثال السلف الصالح في خير القرون أمر الرسول القائد، ومبلغ تصورهم الجهاد في يقينهم.

فليس الجهاد في الإسلام طاقة مادية، وقوة عسكرية، وتحركاً مادياً، ابتغاء النصر كيفما كان الأمر. كلا؛ إنه في الإسلام عبادة، يتطوع بها المسلم بدمه وماله، لنصرة دين الله، وترسيخ شرعه ونظامه في هذه الدنيا.

ليس القصد في الجهاد الانتصار ولا الغلبة والسيطرة على مناطق النفوذ، ولا بسط السلطان على أكبر مساحات من الخامات؛ كلا! القصد فيه مرضاة الله، بنشر دينه وتطبيق شرعه: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[1].

ولما تمثل عباد هذه الحقيقة، وعرف أنه وهو على الثغر، في مقام العبادة، شفع عبادته هذه بمناجاة الحق سبحانه، فقام يصلي؛ قام يتبتل، ويقرأ ويدعو، ويستغرق في عبوديته لرب العالمين... فلم يشعر وهو ممتزج ذائب في عبوديته،

---

(١) رواه الإمام أحمد والشيخان.

بوقع السهام في جسمه، الواحد تلو الآخر، وراح ينتزعها بغير مبالاة، كما لو كانت ذباباً يطيره، أو غباراً ينفضه.

ومن ثم لم تكن به حاجة إلى قطع الصلاة، أو قطع السورة التي كان يتلوها فيها، ولولا خوفه ـ أخيراً ـ من فراغ الثغر إن سقط، واتساع الخطر على المسلمين المجاهدين الذين تولى حراستهم ليناموا، لما قطع صلاته، ليسلم أخاه أمانة حفظ الثغر.

فاستمع إلى قوله: «وايم الله، لولا أن أضيع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها» يعني صلاته.

أرأيت كيف تنسي حلاوة مناجاة الله تعالى، الآلام، وكيف تتكسر السهام في موقف امتثال أمر الله، وأمر رسول الله؟

كم كان عباد بن بشر متلذذاً بموقف الحراسة، وشرف الرباط في الثغر، امتثالاً للأمر! أتشك في أنه كان يحفظ جيداً قول النبيّ ﷺ: «عينان لا تمسهما النار أبداً: عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»![1].

فلا تشك إذن في أنه كان يحفظ جيداً قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[2].

حينما يرقى المسلمون في جهادهم إلى هذا المستوى، يصبحون جديرين بنصر الله، وإنجاز وعده. والقوة المادية المجردة، لا غناء للإنسانية فيها، إن لم يصنعها الإيمان، ويفجرها اليقين، وتبثها إشعاعات من روح الله.

اللهم حبب إلينا الإيمان، وعرفنا بشرف الجهاد، وبصرنا به ابتغاء مرضاتك،

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

وأحينا سعداء، وأمتنا شهداء، في سبيلك، يا رب العالمين!.

* * *

ملاحظة:

ذهب الإمام أبو عبد الله البخاري إلى أن غزوة ذات الرقاع، هذه التي كنا بصددها، وقعت بعد غزوة خيبر، وخيبر هذه كانت في أواخر محرم السنة السابعة.

وبرر ابن حجر ما ذهب إليه البخاري بأمرين:

١ ــ أن صلاة الخوف شرعت في غزوة ذات الرقاع هذه، فلو كانت في السنة الرابعة، لصلاها النبيّ ﷺ يوم الخندق أو الأحزاب، التي كانت في شوال سنة خمس من الهجرة، عند جمهور علماء السيرة، والثابت أنه ما صلى الخوف في الخندق، بل فاتته صلوات وقضاهن بعد ذلك مرتبات.

٢ ــ أنا ذكرنا حديث أبي موسى في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، مع أن أبا موسى ــ كما يقول المترجمون له ــ لم يعد من الحبشة إلا بعد غزوة خيبر التي كانت في مطلع السنة السابعة، فكيف يتحدث عن غزوة في السنة الرابعة، ويسرد حوادث شهدها فيها، مع أنه كان أثناءها خارج البلاد في الحبشة، التي لم يغادرها إلا في السنة السابعة؟

لكن جمهور علماء السيرة ذهبوا إلى خلاف ما ذهب إليه البخاري، وقرروا أن غزوة ذات الرقاع كانت قبل الخندق، وبعد غزوة بني النضير؛ وأنها كانت في ربيع الآخر من السنة الرابعة، وتابعنا الجمهور في ذلك، فذكرناها بعد غزوة بني النضير، وقبل الخندق، كما رأيت...

وأجابوا عما استدل به البخاري، بما يأتي:

١ ــ أما أن النبيّ ﷺ قضى ما فاته من الصلوات يوم الخندق ولم يصل صلاة الخوف فأجابوا عنه بأمور:

(أ) استمرار التراشق بالنبال يوم الخندق بين المسلمين وبين المشركين، بحيث لم تكن ثمة فرصة لصلاة الخوف.

(ب) أن العدو في غزوة ذات الرقاع، لم يكن في جهة القبلة، فأمكنت صلاة الخوف؛ بخلاف غزوة الخندق، فإن العدو فيها كان في جهة القبلة، فتعذرت صلاة الخوف.

(ج) أن الشارع الكريم أراد أن يبين للمؤمنين مشروعية قضاء الصلوات، كلما فاتتهم بإطلاق.

وأنت ترى في هذه الأوجه ما يقنع في الجملة.

٢ ــ وأما أن أبا موسى الأشعري روى سبب تسمية هذه الغزوة، بما شهد فيها، مع أنه لم يعد إلى المدينة إلا بعد خيبر، فقد أجابوا عنه بأنه قصد بذلك غزوة أخرى سميت هي أيضاً بغزوة ذات الرقاع، بدليل أن أبا موسى، حدث ــ كما رأينا ــ قائلاً: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة، ونحن ستة نفر، بيننا بعير نتعقبه... الخ. وغزوة ذات الرقاع هذه التي كنا بصددها، كان المسلمون فيها كثيرين، بحيث إن رسول الله ﷺ صلى بهم صلاة الخوف، فطائفة صفت معه، وطائفة صفت تجاه العدو.

غير أن هذا الجواب تخلص؛ إذ لا دليل على أن ذات الرقاع كانت غزوة متكررة، وعلماء السيرة لم يحدثونا إلا عن واحدة، فأين الأخرى؟ ولم يقولوا، كما قالوا في بدر: بدر الأولى، وبدر الآخرة.

هذا! لكن مما يدل على تقدم غزوة ذات الرقاع على غزوة الخندق كما يقول بعض أهل العلم، فضلاً عن خيبر ــ خلافاً لما ذهب إليه البخاري ــ رحمه الله تعالى ــ أن جابر بن عبد الله، الصحابي الجليل، الذي استشهد والده في أحد، فعال أخواته السبع من بعده، وتزوج بأرملة لتقوم عليهن، كما تحدث بذلك إلى

رسول الله ﷺ بحديث لطيف منفتح معه إثر غزوة ذات الرقاع ــ كما رأينا ــ صنع للنبيّ ﷺ يوم الخندق ــ كما سنرى ــ طعاماً يكفيه ويكفي نفراً من الصحابة، فدعا النبيّ ﷺ الصحابة عامة؛ ولما دخل جابر على امرأته وأعلمها بأن النبيّ ﷺ دعا المهاجرين، والأنصار ومن معهم قالت له: هل سألك كم طعامك؟ قال: نعم. قالت: الله ورسوله أعلم. وقد أكل الصحابة جميعاً، وتركوا القدر تفور، والعجين يخبز، كما في الصحيح.

فهذه الآثار المروية عن جابر، في زواجه، وفي طعامه، تشير إلى أن هذه الغزوة، ذات الرقاع التي تزوج قبيلها، وقعت قبل الخندق، التي أولم فيها بمساعدة زوجه، للنبيّ ﷺ ومن معه، لا جرم يستبعد بعد ذلك، القول بأنها وقعت بعد خيبر. ولهذا صرح الشيخ الخضري، وهو أول من كتب في السيرة من المحدثين، بأن أهل السيرة، أجمعوا على خلاف ما ذهب إليه البخاري.

• • •

غـزوة بـني المصـطلق

وهي غزوة المريسيع، كما ذكر البخاري.

والخلاف مستمر في وقتها بين علماء السيرة، فشيخهم ـ ابن إسحاق ـ يرى أنها كانت في شعبان سنة ست؛ والمحققون من أهل العلم، كالحاكم وابن حجر والزرقاني، يرون أنها كانت في شعبان سنة خمس؛ ذلك أن سعد بن معاذ ورد ذكره في قصة الإفك في هذه الغزوة، في نزاع حدث بينه وبين سعد بن عبادة في أصحاب الإفك. وقد مات سعد بن معاذ في غزوة بني قريظة، متأثراً بجراحه التي أصابته يوم الخندق؛ وقد كانت غزوة بني قريظة في العام الخامس، فلو كانت غزوة بني المصطلق في العام السادس لزم أن يكون سعد بن معاذ حياً بعد عام من وفاته، وذلك مرفوض قطعاً.

وبنو المصطلق هؤلاء، هم الذين ساعدوا قريشاً في حرب المسلمين يوم أحد، فبلغ النبـيّ ﷺ أن الحارث بن ضرار سيدهم، يجمع الجموع لحربه، فخرج إليهم في سبعمائة من المسلمين، واستخلف على المدينة زيد بن حارثة، أو أبا ذر الغفاري، وخرج معه أيضاً جماعة من المنافقين، لم يخرجوا قط في غزوة قبلها، طمعاً في الغنائم وعرض الدنيا؛ وذلك لما رأوا من محالفة النصر للمسلمين على الدوام؛ كما خرج معه من نسائه عائشة وأم سلمة.

وفي أثناء المسير، التقى بعين بني المصطلق، فسأله عن أحوال العدو، فلم

يجب، فأمر بقتله؛ فلما بلغ الحارث خروج المسلمين إليه، وقتلهم جاسوسه، ذعر هو وجيشه، الذي تفرق عنه بعضه.

فلما وصل المسلمون إلى ماء لهم اسمه (المريسيع) ـ من ناحية (قديد) إلى الساحل، تصاف الفريقان للقتال؛ فلما دنا منهم أمر عمر بن الخطاب، فنادى فيهم أن قولوا لا إله إلا الله، تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم، فأبوا؛ فتراموا بالسهام ساعة، ثم حمل عليهم المسلمون حملة شديدة، فهزم الله بني المصطلق، فلم يفت منهم أحد، إلا قتل أو أسر، واستاقوا الإبل، وكانت ألفي بعير؛ والشياه، وكانت خمسة آلاف.

ولم يقتل من المسلمين سوى هشام بن صُبابة، قتله رجل من رهط عبادة بن الصامت الأنصاري خطأ، وهو يظن أنه من المشركين.

كان في السبايا ابنة سيد بني المصطلق، جويرية بنت الحارث، وكانت وسيمة مليحة، فلما قسم رسول الله ﷺ الغنائم، أربعة أخماسها على المقاتلين، للراجل سهم وللفارس سهمان، وقعت جويرية في السهم لثابت بن قيس، فكاتبته على نفسها بمبلغ من المال، في مقابل عتقها، ثم أتت الرسول ﷺ فقالت له: «يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فجئتك أستعينك على كتابي. فقال لها: أقضي عنك كتابك وأتزوجك»، فرضيت بذلك.

ويروى أن الحارث أتى بفدية ابنته، فأعادها النبيّ ﷺ إليه، فلما أسلمت بإسلام أبيها، خطبها إليه، ومهرها أربعمائة درهم. وما إن ذاع خبر ذلك الزواج، حتى قال الصحابة: أصهار رسول الله ﷺ أصهارنا، لا ينبغي أسرهم في أيدينا، فمنوا عليهم بالعتق. وأرسلوا إلى بني المصطلق بما في أيديهم من غنائم وسبايا، فكان ذلك سبباً في إسلامهم عن بكرة أبيهم، وكانوا مع المسلمين بعد أن كانوا

عليهم؛ ففي هذا قالت عائشة ــ رضي الله عنها ــ : ما كانت امرأة أعظم بركة على قومها من جويرية.

وحدث في هذه الغزوة نادرتان، كادتا تعصفان بالصف المسلم، لولا حكمة النبـيّ ﷺ:

أولاهما ــ أن غلاماً لعمر بن الخطاب، يدعى جهجاه بن مسعود الغفاري، زاحم ــ وهو على الماء ــ سنان بن وبر الجهني، حليف بني عوف بن الخزرج، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار! أو صرخ جهجاه يا معشر المهاجرين! فغضب لذلك عبد الله بن أبـي بن سلول ــ شيخ المنافقين، وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم، غلام حدث قوي الإسلام ــ فقال: ما رأيت كاليوم مذلة، أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيبَ قريش ــ يعني المسلمين المهاجرين الذين كانوا يلبسون الأزر الغلاظ، ويلتحفون بها ــ إلا كما قال الأول: «سمِّن كلبك يأكلك»؛ أما والله، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم؛ أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم؛ ثم لم ترضوا بما فعلتم، حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد، فأيتمتم أولادكم، وقللتم وكثروا، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده.

سمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عباد بن بشر فليقتله؛ فقال له رسول الله ﷺ: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذِّن بالرحيل؛ وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ولمّا علم عبد الله بن أبـي أن زيد بن أرقم أبلغ محمداً مقالته، مشى إليه، فحلف بالله، ما قلت ما قال، ولا تكلمت به؛ وكان شريفاً في قومه، فقال من حضر من الأنصار، يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، وذلك دفاعاً عن ابن أبـي، وحدباً عليه.

وسار المسلمون والشمس في كبد السماء، والحر منهك، والدنيا تشتعل، فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله! والله لقد رحلتَ في ساعة لم تكن ترحل في مثلها، فقال: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: أي صاحب يا رسول الله! قال: عبد الله بن أبـي، قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعزّ منها الأذلّ؛ قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت؛ هو والله الذليل، وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله! ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وسار النبـيّ ﷺ بالناس يومهم ذاك حتى أمسوا، وليلتهم تلك حتى أصبحوا، ومطلع يومهم حتى لفحتهم الشمس، وترنحوا إعياء، فأمر عندئذ بحط الرحال؛ فما وجد القوم مسَّ الأرض، حتى وقعوا نياماً؛ حتى إذا استراحوا استأنف المسير، حتى عاد إلى المدينة.

وكلم رجال من الأنصار عبد الله بن أبـي، في أن يطلب من الرسول الاستغفار، فلوى رأسه واستكبر؛ ونزلت سورة المنافقين، تفضح ابن أبـي، وتصدق زيد بن أرقم، وتقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾[1].

كان لابن أبـي ولد مؤمن مخلص عميق الإيمان، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله ﷺ فقال له ــ فيما رواه ابن إسحاق ــ :

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

«يا رسول الله! بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبـي بن سلول، فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبـي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار؛ فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا».

فكان قوم ابن أبـي بعد ذلك هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، إذا أحدث الحدث؛ فقال رسول الله ﷺ لعمر، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته، يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: فوالله علمتُ، لأمرُ رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبـي، وقال له: قف؛ فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له.

النادرة الأخـرى:

لئن كانت الأولى محاولة تقطيع الصف المسلم، فإن هذه الأخرى كانت محاولة جريئة وقحة، استهدفت نبـي الإسلام، ورسول المسلمين، وتدمير بيت الرسالة، بالطعن في أقرب الناس إليه؛ وذلك باتهام عائشة بنت الصديق بالفحشاء؛ فيا للخسة الرعناء، ويا للفرية اللئيمة، ويا للعداء الصارخ الألد، للإسلام ورسوله وللمسلمين.

وقد روت الصحاح وكتب السيرة، حديث الإفك، عن عائشة أم المؤمنين نفسها، وقد برأها الله تعالى منه، فقطع أَلْسِنَة السوء، وأَكّد طهارتها وعفتها.

قالت ــ رضي الله عنها ــ :

«كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، أيتهن خرج سهمها خرجت معه؛ فلما كانت غزوة بني المصطلق، خرج سهمي عليهن معه، فخرج بي رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذ ذاك إنما يأكلن العُلَق ــ قليل الطعام إلى الغداء ــ لم يهجهن اللحم ــ لم تورم أجسامهن ــ فيثقلن. وكنت إذا رُحِّل لي بعيري، جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين يرحلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله، ثم يأخذون رأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجَّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذَّن في الناس بالرحيل.

فارتحل الناس، وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي، فيه جزع ــ خرز ــ ظفار ــ مدينة باليمن ــ. فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري؛ فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي، فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمسته حتى وجدته؛ وجاء القوم الذين كانوا يرحّلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع؛ فاحتملوه فشدوه على البعير، ولم يشكوا أني فيه. ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر، وما فيه من داع ولا مجيب، وقد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتقدت لرجع إلي.

قالت: فوالله إني لمضطجعة، إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي؛ وكان قد تخلف من العسكر لبعض حاجته، فلم يبت مع الناس، فرأى سوادي، فأقلب

حتى وقف علي، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة رسول الله ﷺ وأنا متلففة في ثيابي قال: ما خلفك ـ يرحمك الله ـ؟ قالت: فما كلمته. ثم قرب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عني قالت: فركبت وأخذ برأس البعير، فانطلق سريعاً، يطلب الناس: فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت، ونزل الناس؛ فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتج العسكر ـ اضطرب ـ ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى جديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء؛ وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ، وإلى أبوي، لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً؛ إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي: كنت إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي؛ فلم يفعل ذلك بي، في شكواي تلك، فأنكرت ذلك منه؛ كان إذا دخل علي، وعندي أمي تمرضني، قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك. قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله! ـ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي ـ : لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي، فمرضتني؟ قال: لا عليك. قال: فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

وكنا قوماً عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف، التي تتخذها الأعاجم، نعافها، إنما كنا نذهب في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن كل ليلة في حوائجهن. فخرجت ليلة لبعض حاجتي، ومعي أم مسطح.

قالت: فوالله إنها لتمشي معي، إذ عثرت في مرطها ـ كسائها ـ فقالت: تعس مسطح! قالت: قلت: بئس ـ لعمر الله ـ ما قلتِ لرجل من المهاجرين، قد شهد بدراً. قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك. قلت: أو قد كان هذا؟ قالت: نعم، والله، لقد كان.

قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي، حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي ــ يشقها ــ .

قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟ قالت: أي بنية، خففي عليك ــ هوني ــ الشأن، فوالله، لقلما كانت امرأة حسناء، عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس يخطبهم، ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.

قالت: وكان كِبْر ــ معظم ــ ذلك عند عبد الله بن أبـي بن سلول، في رجال من الخزرج، مع الذي قال، مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش، كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن من نسائه امرأة تناصيني (أي تساويني) في المنزلة عنده غيرها؛ فأما زينب فعصمها الله بدينها، فلم تقل إلا خيراً؛ وأما حمنة بنت جحش، فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادني لأختها، فشقيت بذلك.

فلمَّا قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله! إن يكونوا من الأوس نكفكهم؛ وإن يكونوا من الخزرج فمرنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً ــ فقال: كذب لعمر الله، لا نضرب أعناقهم؛ أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قالت: وتساوَرَ الناس ــ قام بعضهم إلى بعض ــ حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر؛ ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليّ.

قالت: فدعا عليّ بن أبـي طالب ــ وأسامة بن زيد ــ رضي الله عنهما ــ فاستشارهما: فأما أسامة فأثنى علي خيراً وقاله، ثم قال: يا رسول الله! أهلك، وما تعلم منهم إلا خيراً، وهذا الكذب والباطل؛ وأما علي فإنه قال: يا رسول الله! إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية، فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة ليسألها؛ قالت: فقام إليها علي بن أبـي طالب، فضربها ضرباً شديداً، ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ، قالت: فتقول: والله ما أعلم إلا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أني كنت أعجن عجيني، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثم دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا عائشة! إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارَفْتِ سوءاً مما يقول الناس، فتوبـي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده، قالت: فوالله، ما هو إلا أن قال لي ذلك، فَقَلَص ــ ارتفع ــ دمعي، حتى ما أحس منه شيئاً؛ وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله ﷺ فلم يتكلما.

قالت: وايم الله، لأنا كنت أحقر من نفسي، وأصغر شأناً، من أن ينزل الله فيَّ قرآناً يقرأ به في المساجد، ويصلى به، ولكني لو كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يكذِّب به الله عني، لما يعلم من براءتي، أو يخبر خبراً؛ فأما قرآن ينزل في، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟ قالت: فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه. قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبـي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما أن استعجما عليّ، استعبرت فبكيت، ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً؛ والله إني لأعلم

لئن أقررت بما يقول الناس ــ والله يعلم أني بريئة ــ لأقولن ما لم يكن؛ ولئن أنا أنكرت ما يقولون، لا يصدقونني.

قالت: ثم التمست اسم يعقوب، فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾[1].

قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه، حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه؛ فسجي بثوبه، ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه؛ فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله ــ عزّ وجلّ ــ غير ظالمي؛ وأما أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما، فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

قالت: ثم سرّي عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنه ليتحذر منه مثل الجُمان، في يوم شات، فجعل يمسح العرق عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك!.

قالت: فقلت: الحمد لله، ثم خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ...﴾[2] إلى آخر عشر آيات. ثم أمر بمسطح بن أُثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدهم. وقال قائل من المسلمين في ضربهم:

لقد نال حسان الذي كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيراً ومسطح
تعاطوا برجم الغيب زوجَ نبيهم ... وسخطةَ ذي العرش الكريم فأُترحوا

(١) سورة يوسف: الآية ١٨.
(٢) سورة النور: الآيات ١١ ــ ٢٠.

وآذوا رســـول الله فيهـــا فجُللـــوا   مخــازي تبقــى عُمِّمــوهــا وفُضِّحــوا
وصُبَّــت عليهــم مُحْصَــداتٌ كــأنهــا   شــآبيــب قطــر مــن ذرا المــزن تسفــح

قالت عائشة: وكان أبي ينفق على مسطح، لقرابته منه وفقره، فقال: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة؛ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

فقال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفقها عليه».

كما أن النبيّ ﷺ عفا عن الثلاثة الذين أُرجفوا بحديث الإفك، واسترد حسان منزلته عنده، وعادت عائشة إلى منزلتها التي كانت لها في قلبه الكبير، وجرت الأمور في مجاريها الطبعية، وعُفِّي على هذه الفتنة الكبرى، كما لو لم تكن.

واعتذر حسان نادماً آسفاً من موقفه في قصة الإفك، وقال شعراً، منه:

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم   فــلا رفعــتْ ســوطــي إلــيّ أنــاملــي
فكيــف وودي مــا حييــت ونصــرتــي   لآل رســـول الله زيـــن المحـــافــل
وإن لهــم عـــزاً تـــرى النـــاسَ دونـــه   قِصــاراً، وطــال العــز كُــلَّ التطــاول

• • •

(١) سورة النور: الآية ٢٢.

الدروس والمبادىء

تعتبر غزوة بني المصطلق، من الغزوات المباركة، الحافلة بالأحداث الهامة، ذات النتائج الخطيرة، وكلها كانت منبعثة من الحكمة الإلهية، التي أرادت الخير لعموم المسلمين.

فمن أهم ما تجلى فيها من العبر والدروس:

١ ــ اتخاذ زمام المبادرة القوية في الحروب من أهم أسباب النصر:

ما إن علم النبيّ ﷺ بتجمع بني المصطلق لحربه، حتى استحث الصحابة لحربهم، فخرج إليهم في سبعمائة من الصحابة المقاتلين، في غير تردد، ولا انتظار هجومهم ليرد اعتداءهم، بل بادرهم بالقتال؛ ولعله كان يرىٰ أن الكسب دائماً في جانب المهاجم لا المدافع.

فأضف هذه الحادثة إلى ما ذكرناه لك قبلاً، من الردود على من ذهب إلى أن القتال شرع أولاً دفاعاً في مرحلة الحرب الدفاعية، وأن أمر الجهاد لم يستقر إلا بعد غزوة الأحزاب.

ولم يقتصر النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ على المبادرة، بل عمد إلى إخافة العدو بقتل الجاسوس، لما رفض أن يجيب عن أي سؤال وجه إليه، ولم يشأ أن يدلي بأية معلومات عن أحواله؛ إن انضمام المبادرة إلى هذا القتل، كان قوة في قتال المسلمين، فكان هذا من أول النصر، الذي تم بالملاقاة الحاسمة.

٢ ـ لا يقاتل الكفار إلا بعد عرض الإسلام عليهم:

رأينا كيف أن النبيّ ﷺ لما دنا من صفوف الكفار أمر عمر بن الخطاب أن ينادي فيهم بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ليمنعوا بها أنفسهم وأموالهم، وأن عمر فعل ذلك، فلما رفضوا أن يقولوا كلمة الإسلام، حمل المسلمون عليهم حملتهم الشديدة، فهزموهم بإذن الله.

لقد كان عرض الإسلام على الكفار المقاتلين، قبل بدء القتال، مبدأ إسلامياً مقرراً مطبقاً في كافة الحروب الإسلامية التي خاضها سلف هذه الأمة، في الدعوة إلى الله، وتوطيد نظام الإسلام ومنهاجه في هذه الأرض، ما كان منها في عهد النبوة، وما كان منها في عهد الخلافة الراشدة.

ويلاحظ أنه اكتفي بعرض كلمة التوحيد على المقاتلين، فقط، ولم تعرض عليهم الجزية، بعد أن أبوا الإسلام، لأن هؤلاء من مشركي العرب، الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، كما تقرره كتب الفقه، وأشرنا إليه من قبل.

٣ ـ يعتبر العتق سبباً هاماً من أسباب انتصار الإسلام وانتشاره:

فتح الإسلام أبواب العتق على مصارعها، ويسر سبله، وجعله من أعظم أسباب مرضاة الله، كما قال: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾(١).

على عكس ما كان عليه الحال عند الرومان، والدول التي عاصرت فجر الإسلام وسبقته؛ وذلك في الوقت الذي حدد أسبابه، وضيق روافده، وألغى أكثرها، إلا سبباً واحداً، وهو الاسترقاق في الحروب، ضرورة التماثل في التعامل الخارجي.

---

(١) سورة البلد: الآيات ١١ ـ ١٣.

وقد أحرزت سياسة تحرير الرقيق نجاحاً كبيراً في الصف الإسلامي عبر القرون، كما يبدو ذلك لمتتبع تاريخ الإسلام السياسي، وتاريخ رجال الإسلام الموالي؛ وعادت على المسلمين بحصيد وافر، وحصيلة ضخمة، من الأمم والشعوب والرجال الأفذاذ.

وتعتبر غزوة المريسيع، من الغزوات الفريدة المباركة، التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحادث الذي أسلمت القبيلة من أجله، هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم، بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم؛ واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ . وحيال هذا العتق الجماعي، وإزاء هذه الأريحية الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله.

وصدقت عائشة ـ رضي الله عنها ـ في قولها: «كانت جويرية أيمن امرأة على قومها»، وأية بركة أعظم من إسلام قبيلة بأسرها؟

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد، هو حب الصحابة النبيﷺ وتكريمهم إياه، وإكبارهم شخصه العظيم؛ وكذلك يؤتي الحب النبويّ هذه الثمار الطيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ.

٤ ـ زواج جويرية استهدف مصلحة إسلامية عليا تحققت فوراً:

إن إحلال زواج النبيّ ﷺ بما فوق الأربع وبما دونها، ثم تحريمه، كان بأمر الله وإذنه ووحيه: قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾[1] وقال: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾[2].

ومهما يكن في جويرية من ملاحة وجمال، ففي بعض أمهات المؤمنين

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) نفسها: الآية ٥٢.

ملاحة وحسن وجمال؛ وما يصح أن يكون الحسن وحده هو الباعث على الزواج في نظام الإسلام، وفي توجيهات النبوة؛ وقد عرفنا أن جويرية كانت بنت الحارث سيد قومه، ووقعت في قسمة الغنائم في سهم أحد الأنصار، فافتدت نفسها منه، فأغلى فداءها، لمكانتها من قومها، وزعامة أبيها؛ فاستعانت بالنبيّ ﷺ فلباها لذلك، وقضى كتابتها وتزوجها.

ولو أراد النبيّ ﷺ أن يصطفيها لحسنها، لاصطفاها قبل قسمة الغنائم؛ لكن الزواج منها كان لأمر أبعد من ذلك وأسمى، وهو الطمع في إسلام قومها؛ وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعز الإسلام، ومن لك بإسلام قبيلة كاملة، بأي سبيل؟

إنها الحكمة الدينية البعيدة، وليست الغرض النفسي القريب، ولا قضاء الوطر، ولا إشباع الرغبات الجنسية الحرّى، كما يلغو بذلك بعض المستشرقين والمستغربين.

ومن أجل الإخلاص في استهداف المصلحة الإسلامية البعيدة، يسر الله هذا الزواج، وباركه، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث.

أترى لو بقيت جويرية عند ذلك الأنصاري، الذي وقعت في سهمه، أكان في الوسع أن تتحقق هذه المصلحة الإسلامية العظيمة؟

إن الحكمة الحكيمة، كانت تكمن في هذا الزواج، الذي عاد على المسلمين بالبركة والقوة، والدعم المادي والأدبي معاً، للإسلام والمسلمين.

فأين من هذا السمو في الزواج النبوي، تحرضات المتحيزين، من أهل الكفر ومن بعض أهل الإيمان المتأثرين بهم، ووصفهم النبيّ ﷺ بذي الولع المفرط بمفاتن المرأة، والرغبة الجنسية العارمة، مما لا يليق بآحاد الناس الماديين، فضلاً عن سيد الناس، الذي غير وجه التاريخ، وسما بالإنسانية إلى أوجها، الذي قدره

لها علام الغيوب؛ وما يزال بهديه، وبشريعته بطبيعتها الكاملة، قادراً على هذا التغيير والسمو، كلما التُمس المنقذ من هذا الضلال المادي المسرف المهلك الهابط؟.

٥ ــ يعامل المنافقون بظاهر الإسلام، ما داموا مع المسلمين، ويحتاط لهم:

أشرنا إلى هذا المبدأ قبلاً، ووقع التصريح به هنا في قولة النبيّ ﷺ: «ونحسن صحبته ما بقي معنا».

والجديد في هذه الغزوة أن النبيّ ﷺ لم يقف موقفاً سلبياً حيال مؤامرات المنافقين هذه، وكلمات ابن أُبيّ المسمومة المهددة بطرد المسلمين من المدينة، والتي استهدفت تفتيت الصف المسلم، وتشتيت المسلمين، وتمزيق الوحدة الإسلامية، التي صنعها رسول الله ﷺ؛ بل اتخذ إزاءها الخطوات الإيجابية التالية:

١ ــ أنه عفّى على كلمات ابن أُبي المحرقة، وتهديداته المسفة، بما دفنها في مهدها، وأطفأ لهيبها؛ وذلك بالرحيل المفاجىء، في غير أوقات الرحيل، حيث الشمس في كبد السماء، والجو يشتعل... وذلك ليشغل المسلمين بأعباء السفر، ومهام النقلة الثقيلة، عن هذا اللغو الأثيم؛ فلا تلوكه ألسنتهم، ولا يجترونه مرة بعد مرة؛ وبذلك يبيد إلى الأبد...

وأفلحت فعلاً هذه الخطوة النبوية الجريئة الحاسمة، التي لم تلتفت مطلقاً إلى إثارة الأسئلة والاستفسارات حولها، فخرست ألسنة حداد، وأمسكت أخرى شداد، ودفنت الفتنة التي أيقظها ابن أُبي لساعتها في مهدها.

٢ ــ ولم يشأ النبيّ ﷺ أن يواجه حملة ابن أبي المحطمة، ومؤامراته المدبرة، بالقوة واستعمال السلاح، حرصاً على وحدة الصف المسلم؛ وذلك لأن لابن أبي أتباعاً وشيعة مسلمين مغرورين، ولو فتك به لأرعدت له أنوف، وغضب

رجال مسلمون، متحمسون له؛ وقد يدفعهم تحمسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة؛ وليس في ذلك أية مصلحة للمسلمين ولا للإسلام، فكانت الحكمة النبوية التي تجلت في نهي عمر عن قتله؛ وعللت ذلك بأنه سيتحدث الناس عندئذ أن محمداً يقتل أصحابه، ولا يخفى ما في ذلك من إرجاف بالمسلمين، وإضعاف لقوتهم؛ بل على العكس من ذلك، أعلنت أنها تحسن صحبته ما بقي مع المسلمين، ولم ينحز إلى الكافرين فعلاً.

وإنها لسياسة شرعية حكيمة رشيدة، في معالجة المواقف العصيبة، في حزم وقوة أعصاب، وبعد نظر؛ ومن أجدر بذلك من النبوة المستندة في تصرفاتها كلها إلى الوحي الموحى به.

٣ ـ لكن ذلك كله لم يحل دون كشف هذا الموقف بعد ذلك، لينخذل النطاق، وتخضد شوكة المنافقين، ويفتضح أمرهم على الملأ، فيخجل منهم أتباعهم أنفسهم، ويقعدوا عن نصرتهم؛ وفي ذلك هزيمتهم واندحارهم.

لقد نزلت في هذه المواقف المخزية، سورة كاملة سميت بسورة المنافقين، تكذبهم في إسلامهم، وفي إيمانهم، وتقلل من أهميتهم، ولا تكترث بأموالهم ولا بأولادهم، وتشير إلى إرجاف كبيرهم، وتعلق على كلمته الكبيرة المهددة، وتقول: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾[1].

سورة تتلى من كتاب الله، وتحفظها الصدور، وتقرأ في الصلوات، يتوارثها المسلمون عبر الأجيال من كلام الله؛ خير بكثير من حرب مبيدة؛ على أنها حرب معنوية، وهي أشد على أهل النفاق من الحرب الفتاكة، لأنها فضّاحة الأسرار، كشّافة النوايا، وصّافة الوقائع عن مشاهدة، وكفى بالله شهيداً.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

٦ ـ المسلم مجنَّد لأمر الله ورسوله، ولو أمر بقتل أبيه ما استنكف:

أشارت قصة إرجاف ابن أبـي، لمحاولة تفريق المسلمين، والمحادثات التي نبتت في جوانبها، إلى أن المسلم مجند في الدين، ممتثل لأمر الإسلام، ينفذه تلقائياً، ولو في أحب الناس إليه، وآثرهم عنده.

فهذا عبد الله المؤمن، ابن عبد الله بن أبـي المنافق، يعرض على النبـيّ ﷺ استعداده لقتل أبيه، وحمل رأسه إليه، وأنه ينفذ الأمر كما صدر إليه. وكان باراً بوالده، كأشد ما يكون البر، يعرف منه ذلك كل الناس، لكن بر الرسول أولى؛ وإنه لَيخشىٰ إن تُوُلِّيَ غَيْرُهُ قتل أبيه، أن تطغى عليه نفسه وشحنةُ العاطفة الأبوية الثرة، فيقتل قاتل أبيه، فيدخل النار، لقتله نفساً مؤمنة.

فأي شيء هذا الإيمان، وما أعمق جذوره في نفوس المؤمنين الصادقين! إنه يملك عليهم كل شيء، حتى ليصبحون أداة طيعة لتنفيذ تعاليمه وأوامره...

ومع ذلك فقد جاء الشرع باعتبار المنافق مسلماً بحسب ظاهره، ويعامل بهذا الظاهر معاملة المسلمين، ما دام معهم. ولهذا أضرب النبـيّ ﷺ عما عرضه عليه عبد الله، وقال: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا».

ومن مظاهر طاعة المسلم المطلقة لأمر الله ودينه، في حادثة ابن أُبـيّ أيضاً، أن عبد الله ابنه، تصدى له عندما وصلوا المدينة، وقال له: قف! فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ؛ فلما أذن له تركه يدخلها.

أرأيت إلى هذه الطاعة المثلى، أرأيت إلى التأهب الكامل لتنفيذ الأوامر الدينية العليا، بدون تحريف ولا تأويل ولا تعطيل، ولا دس حظوظ الهوى والنفس خلالها...؟

إن هذا لهو الإيمان المثالي والحب المثالي، كما يريده الدين نفسه، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا

وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

إن هذا لهو التطبيق الصحيح المثالي المطلوب لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

اللهم عمق الإيمان في قلوبنا، حتى لا يكون فيها شيء أرسخ ولا أثبت منه، وأغل وأعلِ حب شرعك ودينك في أنفسنا، فلا يكون شيء في الدنيا أغلى منه ولا أعلى، وارزقنا الأهلية الكاملة لحمل شريعتك، وتطبيق تعاليمك، يا رب العالمين.

٧ ــ ما أوذي رسول الله ﷺ بمثل ما أرجف به المنافقون في حديث الإفك:

ذكرنا أن المنافقين الذين اندسوا في هذه الغزوة، غزوة المريسيع، دونما قبلها، بقصد كسب المغانم مع المسلمين المؤيَّدين بالنصر، أحدثوا مع ذلك حدثين في هذه الغزوة.

أولهما: أنهم حاولوا أن يوقعوا بين المسلمين، ويفتتوا الوحدة الإسلامية، فأخفقوا بذلك؛ ورد النبيّ ﷺ هذه المؤامرة وأحبطها، بحسن تصرفه وتدبيره؛ فدفنها في وكرها، وترحل بالمسلمين، في القيظ، حتى أتعبهم، وشغلهم عن التَّلَمُّظِ بمقالة المنافقين الهدامة؛ وتولى القرآن الكريم فضحهم.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

(٢) سورة المجادلة: الآية ٢٢.

الآخر: أنهم طعنوا في بيت النبوة الطاهر الكريم، الذي ينضح بالطهر والعفاف، وقذفوا السيدة عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ في أعزّ ما لديها؛ فماذا كانوا يهدفون من وراء ذلك؟

القصد هو الطعن في الرسالة نفسها، وشخص الرسول نفسه، ثم الطعن في صديقه الصديق، وصحابـي آخر كبير، شهد له رسول الله ﷺ بأنه ما علم عليه من سوء.

كان ذلك الحدث، سلاحاً ذا حدود، وكان أحدها الطعن في الرسالة ذاتها، عن طريق الطعن في شخص الرسول، وبيته الطاهر، والعبث بقلبه الكبير، المفعم بالإيمان واليقين...

فقد لبث النبـيّ ﷺ شهراً كاملاً، أيام هذه الفرية، يعتصر الألم قلبه، ويعمل فيه الشك، وتتصارع فيه الأوهام، ويفتقد اليقين الإلهي الذي ينير له الطريق، كلما أطبقت فيه الظلمات، وانطفأت المشاعل.

الفتنة يقظى تسري في المدينة كالهشيم، وتغلي كالمرجل المتقد، والمحترق بها قلب الرسول ﷺ المفجوع بزوجه الأثيرة، بنت الصديق الأثير، سيدة نساء العالمين، وأولى أمهات المؤمنين، وأحبهن إلى قلبه... والمنافقون يرجفون ويلغطون ويتأثر بقالتهم المنكرة بعض السذج من المسلمين؛ وما في الأمر دليل حاسم، يزيل الشك، ويقطع ألسنة المرجفين ومن تبعهم.

فتحدث المنافقون والكفار، عن خذلان السماء النبـيّ المرسل من عند الله، وظنوا أنهم وصلوا إلى غرضهم، وهو تكذيب الرسول، وتكذيب دعوته.

فلما أبطأ الوحي، شهراً كاملاً، اشتد الأمر على النبـيّ ﷺ لكنه لم يستسلم لأحزان المصاب الجلل، واستمسك بالإيمان، حتى نزلت الآيات، فبرأت الطاهرة المطهرة، وفضحت المفترين الأفاكين، وأفاضت على قلب الرسول العظيم ﷺ الراحة والرحمة، والأمن والطمأنينة.

٨ ــ ينبغي التريث والتبصر: إزاء الإشاعات، والاعتماد على الاستشارة، والتذرع بالحلم:

حيال هذه الفرية المكذوبة، وما خلفته من آثار داكنة، وهموم ثقيلة في قلب النبيّ الكبير ﷺ لاذ بيت النبوة وبيت الصديق بالصمت، واعتصما بالصبر، فلم يلجأا إلى تكذيب المنافقين ومعاتبتهم، كيلا تكون فتنة وشر مستطير؛ ولا إلى تجريح عائشة والنيل منها، لئلا يعملا على تثبيت مكر المنافقين السيِّىء الهدام.

وفي هذا الموقف حكمة عظمى، تكشف عن مبلغ التصبر والتجلد، الذي كان البيتان يتحليان به، وعمق الإيمان الذي يعتصمان به كذلك، وما بعد الصبر والإيمان إلا النصر والفرج. . .

ومع ذلك فقد تكون في هذا الموقف سلبية، لها دلالة عكسية، وسكوت على الواقع المرير؛ لهذا خطا النبيّ ﷺ خطوة أخرى في التحقيق والاستشارة: ودعا قريبه علياً، وحبيبه أسامة، فاستشارهما؛ ودعا بريرة الجارية ألصق الناس بأم المؤمنين. . . فسألها. . . واتخذ لنفسه سبيلاً فريداً. . .

فاتجه إلى عائشة وعندها أبوها، وامرأة من الأنصار، وهما تبكيان. . . فقال ــ وملؤه الثقة بالله، والركون إلى أهله ــ:

«يا عائشة: إنه قد كان ما بلغك من قول الناس، فاتقي الله؛ وإن كنت قارفت سوءاً مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده».

هذا هو الموقف السليم، حيال الدس الرخيص، والإشاعات المغرضة، والإرجاف الهدام: كظم الغيظ والانفعال، والتحلي بالصبر، وإجراء التحقيق الهادىء، واللطف في مخاطبة المفترى عليه، في وقار نفس، وعظمة قلب، ورجاحة نظر.

هذه المواقف النبوية المسددة، والخطوات الرزينة الثابتة، استنزلت الوحي

من عند الله قرآناً يتلى، ببراءة أم المؤمنين ــ رضي الله تعالى عنها ــ .

أترى لو تغير موقف النبوة، واتخذت مواقف عنيفة أو خطت خطوات قلقة مضطربة، أكانت تنزل هذه الآيات الكريمات؟

ألا ما أعظم الصبر، وما أطيب نتائجه، وما أجمل عواقبه!.

وصدق الله وتمت كلمته: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ...﴾[1].

وليست الخيرية في هذه الآي التي تنزلت إثر حديث الإفك، وموقف النبوة حياله، فحسب، بل الخيرية أيضاً، في دعم النبيّ ﷺ وفي تصديق الرسالة التي استهدف الأفاكون أن ينالوا منها شراً، كما سنحدثك عنه فيما يلي:

٩ ــ أراد المنافقون من حديث الإفك أن يشككوا في الرسول والرسالة، فكان في الوحي التأييد والتصديق المطلق:

قد يتساءل بعض الناس عن الحكمة الإلهية، من وراء هذا الحديث المفترى، الذي ما وقع إلا بإرادة الله ومشيئته؛ ومع الدروس التي رأيناها في مناسبته، فقد يُرى أن الخير في أن يبقى بيت النبوة في براءة وطهر، ومعزل عن اللوك بالألسن، والافتيات الرخيص، وأن يجنَّب النبيّ ﷺ وصحابته أخطر معركة عليهم وعلى الدعوة؛ لكن الحكمة من ذلك تتجلى في أمور، نذكر منها:

أولها: تقرير هذا المبدأ، وهو أن النفوس المريضة الهابطة، لن يزال من شأنها، أن تتخوض في الأعراض، وتنال به من الأصفياء والأولياء والأنبياء؛ فليخفّ الوقع، وليستلّ بذلك أهل الإيمان.

ثانيها: أن المنافقين ــ في حديث الإفك ــ التقوا مع اليهود، الذين طعنوا قبلاً في السيدة مريم بنت عمران، وقد نعى الله عليهم ذلك في القرآن، وجعله تالياً

(١) سورة النور: الآية ١١.

لكفرهم بالله، فقال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾[1]. وقد ذكرنا قبل شيئاً من مواقف التقاء الفريقين الألدين عداءً للمسلمين.

ثالثها: وهذا من أعظم الحِكم، وهو الذي نقض هدف المنافقين من هذا البهتان العظيم، ونوّه بالخير العظيم من وراء حديث الإفك، الذي صدر القرآن الكريم ما أنزله فيه بقوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[2] كان شراً ذره المنافقون، فانقلب بنعمة الله وفضله إلى خير عظيم: برأ الصديقة المتهمة، وكشف الغم عن نبيّه العظيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وزيّف افتراء المفترين، ونفى كل شك في الوحي والرسالة، اللذين جاء بهما.

ألم يكن بوسع النبيّ ﷺ، لو لم يكن يتلقى الوحي من عند الله، أن يعفي عن آثار هذه التهمة، فيختلق لنفسه قرآناً فيها، ويبرىء بيته، وأهله من هذه الإشاعة، ولا ينتظر شهراً كاملاً، يكابد الآلام العظام، ويغالب الهم الدفين؟

لكنه رسول الله الصادق المصدوق، الأمين على هذا الدين، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[3]، وما كان له أن يقول إلا الحق الذي يتنزل عليه، ويبلغه الناس كما تنزل و: «لم يكن له ــ كما قال هرقل لأبي سفيان في حديثه الطويل المعروف معه ــ أن يذر الكذب على الناس ويكذب على الله»[4].

اسمع إلى ما قاله المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز، في هذا الصدد، في كتابه القيم: النبأ العظيم:

«ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة ــ رضي الله تعالى عنها ــ وأبطأ الوحي، وطال الأمر، والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٦.

(٢) سورة النور: الآية ١١.

(٣) سورة النجم: الآيتان ٣ و٤.

(٤) رواه البخاري.

الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول، بكل تحفظ واحتراس: «إني لا أعلم عنها إلا خيراً»؟

ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله، والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء: لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسيبرئك الله؛ وإن كنت أَلْمَمْتِ بذنب فاستغفري الله».

هذا كلامه بوحي ضميره، وهو ــ كما ترى ــ كلام البشر، الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصِّديق المتثبت، الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم؛ على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات، حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بطهارتها.

فما كان يمنعه، لو أن أمر القرآن إليه، أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل، ليحمي بها عرضه، ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1].

ونحب أن نؤكد هنا ما أشرنا إليه من قبل، وهو أن موقف النبي ﷺ إزاء حديث الإفك مع ما قد ناله من الأذى البالغ، كان في غاية الحكمة، وكان في القمة من الصبر والحلم، ما أفصح إلا عن كلمات لا يقولها في موقفه ذاك إلا ذوو العزم من الرسل والأنبياء: «إني لا أعلم عنها إلا خيراً، إن كنت بريئة فسيبرئك الله... وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»[2].

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ ــ ٤٧.

(٢) رواه الإمام أحمد.

فأين من هذا الموقف الفريد الفذ، ما قاله بعض الكاتبين المتأخرين في السيرة: «. . . فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر عادي من الناس، ليس له اطلاع على غيب مكتوب، ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون، وشك كما يشكون. . . ».

لا، لا، يا أخي، إن محمداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يضطرب إزاء حديث الإفك كما يضطرب الناس، ولا شك كما يشك الناس؛ بل ثبت حيث لا يثبت الناس، وتجلد حيث لا يتجلد الناس، وقال كلاماً ما قاله أحد من الناس في مثل موقفه. . . مما دل على أنه يتصرف في أناة وروية وبصيرة راجحة. ويتأمل في فلك وحيد فريد بعيد، ويفكر في عقلية هي الكمال بعينه، والذروة في عليائها، وليس ـ كما تقول يا أخي ـ : «فاجأت هذه الشائعة سمع النبيّ ﷺ. وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل، ويفكر كأي أحد من الناس، ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر عادي من الناس. . . ».

لا، لا، ثم لا، أيها الأخ الكريم، ليس سيدنا محمد في بشريته كأي بشر عادي من الناس؛ ولو قدر لي أو لك أو لغيرنا من الناس، أن نقف هذا الموقف وقد أرجف الناس، ولغطوا وكثر الخلط والخبط، وطال الأمر شهراً. . . ما استطعنا أن نتصرف كما تصرف سيد البشر، ولا أن نقول ما قاله سيد ولد آدم، ولا أن نفعل ما فعله سيدنا محمد ﷺ.

إنه ـ كما ذكر القرآن ـ بشر، لكن في تصرفاته وتفكيره ومواقفه وتأملاته ونظره، في القمة، وليس كأحد من الناس، وإني لأستغفر الله مما تقول.

* * *

ملاحظتان:

١ ـ نزلت آية التيمم في هذه الغزوة، تنويهاً بشأن الصلاة، وتنبيهاً على

عظيم شأنها، وأنه لا يحول دون أدائها فقد الماء، وهو وسيلة الطهارة التي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف وفقد الأمن من إقامتها.

٢ ـ روي في الصحيح أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ استفتوا رسول الله ﷺ بعد أن قسم بينهم السبي ـ في العزل، فقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة، إلا وهي كائنة»[١].

وهذا يشير إلى نفور الدين من الحيلولة دون الإنجاب، بوجه عام.

وهذا البحث مستوفى في كتب الفقه، وفي باب الحظر والإباحة عند الحنفية على التخصيص. ومن أحسن من كتب وتوسع فيه الإمام حجة الإسلام الغزالي ـ رضي الله عنه ـ في إحيائه العظيم؛ ومن أول من كتب فيه بعنوان (تحديد النسل) من المحدثين الأستاذ الأكبر الشيخ الإمام محمود شلتوت؛ وكتب فيه أخيراً الزميل الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، لكنه لم يشر بإطلاق ـ سامحه الله ـ إلى ما كتبه قبله شيخنا شلتوت ـ رحمه الله تعالى ـ .

● ● ●

---

(١) رواه الإمام مالك في الموطأ، والإمام أحمد والبخاري وأبو داود.

غـزوة الأحـزاب

وتسمى غزوة الخندق؛ وجزم شيخ الكاتبين في السيرة الثقة الموثق عند الحنفية، محمد بن إسحاق، كما جزم غيره، بأنها كانت في شوال السنة الخامسة من الهجرة.

وقد خرج نفر من يهود بني النضير، الذين أجلوا عن المدينة ــ كما رأينا ــ حتى قدموا على كفار قريش من مكة، وحرضوهم على حرب رسول الله ﷺ، وقالوا: إنا سنكون معكم، حتى نستأصله؛ وأعلنوا لهم أن دين المشركين خير من دين محمد، وأنهم أولى بالحق منه؛ فيقال إن فيهم نزل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ. . . إلى قوله: وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾[1].

وكما أثار ذلك النفر قريشاً، أثاروا غطفان؛ وتبعتهما بنو سليم وبنو أسد وبنو أشجع. ونشطت قبائل العرب لحرب محمد، واجتمعت له، واتَّعَدَتْ، وتبعهم الأحابيش. وحِيكَتْ مؤامرة واسعة النطاق، لضرب المدينة، وتقويض الإسلام في مهده الأول.

فلما سمع النبيّ ﷺ بخبر هذه التجهيزات المتكتلة، استشار أصحابه، فيما يفعل حيالها: أيمكث في المدينة، أم يخرج للقائها؟ واستقر الرأي على عدم

---

(١) سورة النساء: الآيات ٥١ ــ ٥٥.

مواجهة هذه الحشود، وعلى التحصن في المدينة، وملاقاة العدو، وإن دهمها عليهم.

وكانت المدينة محصنة بالطبيعة، بالجبال وبالبساتين، والبيوت والحصون من كل جانب، ما عدا الجانب الشمالي منها، الذي يتوقع هجوم الأحزاب منه، إذ كان ضعيفاً مفتوحاً؛ فأشار سلمان الفارسي، وكان حديث عهد بالإسلام، بحفر خندق على طول الجبهة الشمالية، من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية؛ ولعله كان قد علم ببعض ذلك في بلاده.

أعجب المسلمون بذلك الرأي، وخرجوا من المدينة ثلاثة آلاف، حتى عسكروا في سفح جبل سلع، وطفقوا يحفرون الخندق بينهم وبين عدوهم، مكملين بذلك تحصين المدينة من كل جوانبها.

كانوا في حال شديدة، وتحملوا متاعب كثيرة: هبت عليهم رياح باردة، فكادوا يتجمدون من البرد، وقطع الأعداء عنهم المؤونة، فعضهم الجوع، وفترت قوتهم، لولا الإيمان العميق الراسخ، الذي كان يمدهم بالدفء والقوة، ويغريهم بالدأب.

ظلوا كذلك، وهم يحفرون بكل بسالة واستماتة، ستة أيام؛ غير أن رجالاً من المنافقين تسللوا إلى أهليهم في المدينة، بغير إذن، وتخلفوا عن العمل ضعفاً وخذلاناً؛ وكان المسلم إذا مسته حاجة، استأذن النبيّ ﷺ في اللحاق بها، ثم لا يلبث أن يعود إلى عمله، رغبة في الخير، واحتساباً له. وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ

﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[1] .

وشارك في حفر الخندق رسول الله ﷺ فحفر بيديه، وحمل التراب، حتى وارى جلده الشريف غبار منه كثيف، وكان يرتجز ــ وهو يكدح، وينقل التراب، ويرتجز معه الصحابة ــ قولَ ابن رواحة:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

ويروي البخاري أن رسول الله ﷺ كان يمد صوتها بها معهم فيقول لاقينا. . . أبينا، وذلك الغناء للتنشيط، وتخفيف التعب، وتناسي آلام الجوع والعمل الشاق.

وروى أهل الحديث «عن البراء بن عازب ــ رضي الله عنه ــ قال: أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان الخندق، لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله ﷺ فجاء رسول الله ﷺ قال عوف ــ راوي الحديث عن البراء ــ : وأحسبه قال: وضع ثوبه، ثم هبط إلى الصخرة، فأخذ المعول، فقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام؛ والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا؛ ثم قال: بسم الله ، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن، وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا! ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا»[2].

وروى هذا الحديث ابن الأثير في تاريخه (٩٩/٤ و ١٠٠) بصيغة أخرى جاء

---

(١) سورة النور: الآيتان ٦٢ و٦٣.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، قال ابن حجر في الفتح: وإسناده حسن.

فيها، أن النبيّ ﷺ لما ضرب الصخرة، صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها ـ يعني المدينة ـ ، حتى كأنها مصباح في جوف ليل مظلم، وأنه كبر وكبر الصحابة، ثم سألوه عن ذلك، فقال: لقد أضاء لي من الأولى قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ومن الثانية أضاءت القصور الحمر من أرض الروم، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها. ومن الثالثة أضاءت قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها، فأبشروا. واستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله، موعود صادق.

وأصل حديث الصخرة في البخاري عن جابر؛ وورد بلفظ الكدية، كما سنراه.

ثم حفر الخندق، وفوجئت به قريش وغطفان ومن تبعهما من الأحزاب، فأسقط في أيديهم، فما هم بمستطيعين عبوره، ولا قادرين على دخول المدينة من جهاتها الأخرى المحصنة؛ وقد تصدى لهم رسول الله ﷺ والمسلمون معه، والخندق بينهم وبين المشركين.

ومع تحصين المدينة، وحفر الخندق، فقد أضحت مطوقة بالأحزاب، لكن المسلمين اعتصموا بالإيمان، وركنوا إلى مواعيد النبيّ الكريم، بالنصر المبين، والفتح الإسلامي الممتد إلى خارج الجزيرة، في حديث الصخرة المعترضة في الخندق، فلم يفرقوا لهذا الحصار، وواجهوه بعزم صادق، وإيمان عميق.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾[1].

لكن الذين بقوا معهم من المنافقين، من الذين لم يتسللوا منهم إلى داخل

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

المدينة، بغير إذن، طفقوا يتندرون بهذه الأمنيات، وأحاديث الفتح المعسول، ويقولون للمؤمنين: يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة، ومدائن كسرى، وأنتم لا تأمنون على أنفسكم أن تذهبوا إلى الغائط.

ففيهم يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[1].

وآخرون من المنافقين طفقوا يخذّلون المؤمنين، يقعدونهم عن الحرب ويعوّقونهم، ويستأذنون في العودة إلى بيوتهم في المدينة، بحجة أنها مكشوفة، يبغون الفرار من الموت المحدق، والخطر المدلهم.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[2].

وكان المشركون مرابطين حول المدينة، يطوفون بها باحثين عن منفذ إليها، أو عورة يقتحمونها، ويغيرون على المسلمين بسيوفهم، ويستأصلون شأفتهم، ويقضون على الإسلام في مدينته الأولى.

وكان بين الفريقين تراشق بالنبال؛ إذ همَّ فريق من المشركين أن يقتحم الخندق من خلال مكان ضيق فيه، فصدهم عنه عليٌّ وآخرون معه.

وقد تصدى ــ كما يذكر ابن إسحاق ــ لعمرو بن ود، هذا الذي كان الحقد يأتكل قبله منذ يوم بدر، حيث أثقلته الجراح فأقعدته عن أحد، لما وقف هو وخيله وقال: من يبارز؟ فقال له سيدنا علي ــ كرّم الله وجهه ــ: يا عمرو، إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلىٰ إحدى خلتين إلا أخذتها منه، قال: أجل، قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام، قال:

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

(٢) نفسها: الآية ١٣.

لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله ما أحب أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك ـ واشتد غضبه ـ فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ؛ فتنازلا، وتجادلا، فقتله علي ـ رضي الله عنه ـ . وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

كان يهود بني قريظة على عهدهم مع المسلمين، كانوا يمدون المسلمين بالمؤونة في حربهم مع الأحزاب؛ وكان البرد قارساً، عاصف الرياح، فاستيقن أبو سفيان ومن معه أن الحرب ممتدة، وكانوا يرجون النصر يسيراً وشيكاً، كالذي كان يوم أحد، وكانوا يطمعون في وعود اليهود ثمار خيبر سنة كاملة إن تم النصر؛ فهموا أن يعودوا أدراجهم إلى مكة.

لكن شيطان بني النضير، حُيـيّ بن أخطب، قامر بآخر سهم عنده في جعبته، فأوحى إليهم أنه سيقنع بني قريظة بنقض عهد محمد، فينقطع المدد عنه، وينفتح الطريق أمام المشركين إلى المدينة.

فخرج حتى أتى كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فلما سمع هذا بمقدمه، أغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه، فأبـى أن يفتح له، فناداه حيـي: ويحك يا كعب! افتح لي، قال: ويحك يا حيـي! إنك امرؤ مشؤوم، وإني قد عاهدت محمداً، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً، قال: ويحك، افتح لي أكلمك، قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلا جشيشتك ـ طعامك ـ أن آكل معك منها؛ فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر، وببحر طام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها. . . قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمداً ومن معه، قال: فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام ـ سحاب ـ قد هراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، ليس فيه شيء؛ ويحك يا حيـي، فدعني وما أنا عليه،

فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يزل حيـي بكعب، يفتله في الذروة والغارب ــ يعني يراوضه ــ حتى سمع له، على أن أعطاه عهداً وميثاقاً، «لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمداً، أن أدخل معك في حصنك، حتى يصيبني ما أصابك».

فنقض كعب عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

ومضت قريظة في تنفيذ هذه المؤامرة الخسيسة، وأحضرت صحيفة الميثاق، فمزقتها.

ولما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ بعث سعد بن معاذ في آخرين لاستجلائه، وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا إن كان حقاً ما بلغنا عن هؤلاء القوم أو لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه (أي لغزاً وإشارة)، ولا تفتوا في أعضاد الناس (أو تضعفوهم)؛ وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم، فاجهروا به للناس.

فأقبل سعد ومن معه، وقالوا: عضل والقارة (أي غدروا كغدر عضل والقارة، بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه) فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين.

هنالك اشتد البلاء على المسلمين، وعظم الخوف، وأتاهم عدوهم من كل صوب، حتى ظن المؤمنون كل ظن، وأرجف المنافقون، يفتون في عضد المسلمين، ويصرفون كلاماً، يتندرون بالمسلمين.

وهذا الموقف صورته هذه الآيات:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ١٠ و١١.

إنه الموت بعينه، يلتمع في شرر السيوف المشهرة، وتدب مخافته إلى القلوب المزلزلة، ويحاول أن يسحق الدين في مهده، ويجهز على المسلمين في عقر دارهم، ومع الموت المجاعة التي كانت تهددهم، بسبب قطع المؤونة عنهم.

حيال هذه الظروف العصيبة، لم يجد النبيّ ﷺ إلا الوسيلةَ للخلاص من مواجهة الكفار، فعمد إلى الحيلة، في مهادنة غطفان، التي ملت طول الحصار بدون طائل، سوى إجابة حيي بن أخطب اليهودي.

أرسل إليها سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، ليصالحاها على ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابها بمن معها. فقالا: يا رسول الله، أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟

قال: بل شيء أصنعه لكم؛ والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم ـ اشتدوا عليكم ـ من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما. فقال له سعد بن معاذ، يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك.

وأراد الله إكرام المسلمين، وأن يمدهم بفضل من رحمته، لموقفهم المشرف، في هذا الظرف الخانق، فقد أفرغوا طوقهم، وبقي عمل العناية الإلهية.

فهذا نعيم بن مسعود الأشجعي، وكان صديقاً لقريش واليهود من بني غطفان، أتى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله! إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال له النبي ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد،

وماذا عسى أن تفعل؟ فخذّل عنا إن استطعت، فإن «الحرب خدعة»[1]، وردّه إلى قومه المشركين، وأوصاه أن يكتم إسلامه.

عرف نعيم ما يجب عليه أن يفعله، فأتى بني قريظة، وكان نديمهم في الجاهلية، ــ كما يذكر ابن إسحاق ــ فقال لهم: يا بني قريظة! قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم؛ البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره؛ وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فليسوا كأنتم؛ فإن رأوا نهزة ــ فرصة ــ أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم، حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً، حتى تناجزوه، فقالوا له: قد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبـي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم. وفراقي محمداً، قالوا: نعم، قال: وإنه قد بلغني أمر، قد رأيت علي حقاً أن أبلغكموه، نصحاً لكم، فاكتموا عني؛ فقالوا: نفعل.

قال: تعلَّموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم، حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم؛ فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه والدارمي.

ثم خرج حتى أتى عشيرته من غطفان، وقال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

قال ابن إسحاق: فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، كان من صنع الله لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان، إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل، في نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر ــ الإبل والخيل ــ فاغدوا للقتال، حتى نناجز محمداً، ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا إليهم: أن اليوم يوم سبت، ونحن لا نعمل فيه شيئاً، وقد كان بعضنا أحدث فيه حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم؛ ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن ضرستكم (ضحنتكم) الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا (تسرعوا) إلى بلادكم، وتتركونا والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجع عكرمة ومن معه إلى قومهم، قالوا: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق؛ فأرسلوا إلى بني قريظة، أنهم لن يدفعوا إليهم رجلاً واحداً من رجالهم، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا فقاتلوا؛ فقالت بنو قريظة عندئذ: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، وأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم.

وبذلك خذّل الله بين الفريقين، فتصرم العقد الذي بينهم، وتفرق جمعهم.

وأراد الرسول ﷺ لما بلغه هذا الخبر، أن يتحقق من أثره في صفوفهم، فلما قام قطعة من الليل قال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع، أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؛ فلما لم يقم أحد من الجوع والخوف والبرد دعا حذيفةَ بن اليمان، فقال له: يا حذيفة! اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحْدثن شيئاً حتى تأتينا.

وتسلل حذيفة ــ ممتثلاً الأمر النبويّ ــ إلى صفوف العدو، في ليل حالك،

وبرد قارس، وريح صرصر: تقلب القدور، وتطفىء النار، وتصفر في الآذان؛ فسمع أبا سفيان يقول: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه (أي احذروا العيون) فقال حذيفة ـ وكان حاضر البديهة ـ لجليسه: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. فاستحيا الجليس أن يسأله بعد عن اسمه.

ثم قال أبو سفيان ـ وقد سرى إليه اليأس، بعد انخذال بني قريظة، وانقلاب الطبيعة، وقلة العلف، وشؤم هذه الظروف النكراء الموحشة المترادفة المتلاحقة ـ:

يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، فقد هلك الكراع (الخيل) والخف (الإبل)، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

كان حذيفة يرى أبا سفيان، وهو يتحدث، فوضع سهماً في قوسه، وهم أن يرميه به، لولا أن ذكر قول رسول الله ﷺ: «لا تذعرهم عليّ» فأمسك ورجع، ليحدث رسول الله ﷺ بما رأى بعينه، وسمع بأذنه، وهو في وسط القوم، وكيف شهدهم وهم يرتحلون.

وكان النبيّ ﷺ قائماً يصلي، فلما أتم صلاته، استمع إلى خبر حذيفة، فحمد الله ـ كما هو أهله ـ، وذكر فضل الله عليه وعلى المسلمين، ولما تأكد ارتحال المشركين عن بكرة أبيهم، بغير منازلة ولا مبارزة؛ بل صرفهم الله تعالى عنهم بحوله وقوته وجنوده التي لا يعلمها إلا هو، انصرف بصحابته عائداً، إلى المدينة، وهو يقول: «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، لا شيء قبله ولا شيء بعده، لا إله الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

هكذا كشف الله عن المؤمنين هذه الغمة، وشملهم بنعمته، وأسبغ عليهم كثيراً من رحمته، كما قال في سورة الأحزاب:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾... ﴾[1] الآيات.

وهكذا، أيضاً، انتصر المسلمون هذا الانتصار الباهر بفضل الله عليهم، بعد أن بذلوا آخر ما في مكناتهم؛ وخسر المشركون، وانكسرت شوكتهم، فلملموا أذيال الخيبة، وكانوا يطمعون في اجتياح المدينة، وظهر المسلمون على مسرح الأحداث، أعزة أقوياء، يواجهون الأزمات أية كانت، ويغالبون العدو في كل معترك.

فهذا من تأويل قول النبـيّ ﷺ في منصرَفه من هذه الغزوة ــ كما روي في الحديث وكما درسنا قبلاً ــ : «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[2].

● ● ●

(١) سورة الأحزاب: الآية ٩.

(٢) رواه البخاري.

الدروس والمبـادىء

١ ــ لا حد للحقد اليهودي على الإسلام:

رأينا كيف أثار شيخ بني النضير حُيـيّ بن أخطب حفيظة قريش ومن تبعها ضد المسلمين، وكيف حرضهم على حربهم، وأقنعهم بأنه سيوحي إلى يهود بني قريظة، بنقض عهد محمد، وقطع المدد عنه، بحيث ينفتح أمام المشركين واليهود الطريق إلى المدينة.

ولا غرابة في أن يسلك ذلك الشيطان هذا المسلك، حيال الرسول ﷺ والمؤمنين، فقد طُرد هو ومن معه من اليهود من المدينة شر طرد، في غزوة بني النضير ــ كما رأينا ــ إنما تبدو الغرابة في استجابة بني قريظة، لهذه الدعوة الإجرامية، من عدة أوجه:

١ ــ أن المسلمين كانوا أوفياء ليهود يثرب، وكانوا مسالمين، لم يحدثوا إزاءهم أي شغب، ولم يسيئوا إليهم، حتى يفاجئهم هؤلاء اليهود بهذا الغدر الماكر اللئيم.

٢ ــ إنهم كانوا مرتبطين مع المسلمين بوثيقة، أشهد عليها الله ورسوله، وجاء فيها: «أن الله شهيد على من بر واتقى، وأن عليهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأنه لا يحل نصر المحدث وإيواؤه، وأن من نصره وآواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، لا يؤخذ منه صرف ولا عدل. . .» ــ كما تقدم ــ .

وقد بر المؤمنون بهذه الوثيقة؛ وها هم أولاء اليهود من بني قريظة يغدرون وينقضون العهد اليوم، كما نقضه من قبلهم إخوانهم يهود بني النضير، ومن قبلهم إخوانهم بنو قينقاع؛ وهذا تسجيل تاريخي لا يقبل التغيير والتبديل، وواقع لا مرية فيه، يعلن في جلية، أنه لا قيمة للعهود المواثيق عند اليهود بإطلاق.

٣ ـ أنهم تحالفوا مع المشركين، وهم يزعمون أنهم أهل التوحيد، فما وجه هذا الحلف، وما الصلة بين الموحدين وبين المشركين؟ لا شيء، سوى المصلحة والمادة، التي تغلب عندهم على الدين كله؛ فهم إذاً وثنيون كالمشركين، لكن هؤلاء يعبدون الأوثان، التي لا تضر ولا تنفع، وأولئك يعبدون الدرهم الرنان، فبه ينفعون وبه يضرون. . . ثم لا شيء سوى ترجيح الوثنية على الإسلام، وتفضيل الشرك على التوحيد، الذي يمثله الإسلام، الذي يزداد مع الزمن قوة وعزة، وسمواً ورفعة.

وقد استنكر بعض اليهود صنع بني قريظة هذا، ومحالفتهم الشرك ضد الإسلام، فقال الدكتور إسرائيل ولفستون في كتابه: تاريخ اليهود في بلاد العرب:

«كان من واجب هؤلاء، أن لا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم، لأن بني إسرائيل كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم، بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى، من تقتيل واضطهاد، بسبب إيمانهم بإله واحد، في عصور شتى من الأدوار التاريخية؛ (هكذا على حد تعبيره) كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عباد الأصنام، إنما كانوا يحاربون أنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، وبالوقوف منهم موقف الخصومة».

هكذا خطأ كاتب يهودي قومه في تفضيل الشرك على التوحيد، لكنه لم يحدد الباعث على هذا التفضيل، الذي وليه الاشتراك الفعلي في تأليب الشرك على الإسلام، والوقوف مع المشركين في حرب الموحدين.

لم يكن الباعث إلا خصومة اليهود للإسلام، وإشفاقهم من امتداد الفتح الإسلامي، وبسط نفوذه على أرجاء المعمورة، مما تتوارى معه الظلال اليهودية، ويضمحل السلطان اليهودي إزاءه، وتصبح عقيدة أن اليهود شعب الله المختار، أسطورة قديمة.

من أجل ذلك لم يكتف اليهود بتفضيل الشرك على التوحيد الذي يدعو إليه محمد، بل إنها خفت للتشغيب والتأليب على محمد، وشاركت في محاربته فعلاً.

وسنرى عما قليل، كيف لاقت قريظة جزاء عدوانها، وحاق بها من الخزي ما حاق ببني النضير وبني قينقاع قبلها.

٢ ــ من أهم أسلحة الحرب إعداد المفاجآت التي لا يتوقعها العدو:

كان السلاح المعروف في الحرب في صدر الإسلام، هو السيف والسهام والنبال والقسي، وما يتصل بها، وكان الاعتماد على الدربة في استعمالها، والعضلات القوية المفتولة التي تهزها، عند المبارزة.

لكن حفر الخندق الذي اقترحه سليمان الفارسي ــ رضي الله عنه ــ والذي حصن المنطقة المكشوفة من المدينة، وأيأس الأحزاب من دخولها، هو المفاجأة التي ما كانوا يقدرونها، ولا تخطر ببالهم.

لقد حال الخندق دون الالتقاء والمبارزة الفعلية، إلا بين أفراد ، وقهر الأحزاب، وأقعدهم أياماً طوالاً حول المدينة، لا يجدون السبيل إليها، وعرضهم بذلك لعض الجوع، وعصف الريح، ولسع البرد، فسرى اليأس إلى قلوبهم، فارتدوا على أعقابهم خاسرين.

كانت فكرة الخندق اقتراحاً تقدم به ذلك المسلم الفارسي، وسرعان ما لقي الموافقة والتأييد من المسلمين، ومن سيد المرسلين ﷺ، فانطلقوا يحفرون بقيادته ومساعدته مستبشرين، وهم يغنون ويرتجزون.

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان في أصحابه أخاً لهم، وواحداً منهم، يأخذ برأيهم، ويعمل باقتراحهم، ويحسن ما يحسنون، ــ فيما لم ينزل به وحي ــ ، فلا استبداد، ولا تسلط، ولا سيطرة، ولا تعال.

كما يشير إلى أن الرسول والصحابة، يسيرون في درب واحد، ويستهدفون مقصداً واحداً، هو نصرة هذا الدين، وحياة هذه الدعوة؛ فما لم يتنزل فيه الوحي، يبقى باب الرأي فيه مفتوحاً لجميعهم، في ميادين الإدارة والسياسة والحرب والسلم وغيرها، يتداولون ويتشاورون ويفكرون ويقترحون؛ والرأي السليم، الذي يحقق مصلحة الدين، أو مصلحة الدعوة، ولا مصلحة وراءهما، هو الذي يرضى عنه جميعهم، وهو الذي يكبرونه ويقدرونه وينفذونه.

كما يشير أيضاً إلى أن الإسلام لم يقصد إلى التنصيص على كل حادثة، ولا أن يضع حكماً لكل ما يجد من الأحوال والظروف، بل وضع القواعد والمبادىء، وترك للمسلمين حرية التفكير والنظر والتأمل، والرجوع إلى أعظم موهبة أنعم الله بها عليهم، بعد الإسلام، وهي العقل؛ فليفكروا، ولينظروا وليتأملوا، ما وسعهم الأمر، وما لم يتنزل الشرع؛ وهذا من أوضح الدلائل على أن هذه الشريعة حية خالدة، تلائم مواكب التقدم والمدنية والحضارة، بما شرع لها الخالق، وبما تفيض به قرائح أفكارها؛ ومن ثم كانت هذه الأمة المسلمة، أمة فريدة نموذجية في تاريخ البشرية، لم يعرف لها نظير، ولا يُعرف لها نظير. . .

وانظر بعد ذلك، واحكم وأنت مصيب في حكمك، ما أبسط أولئك الذين يريدون أن يتنزل نص في كل حادثة، وإذا لم يرد النص، تجمد الذهن، وعشي البصر، وانقطع الفكر!.

٣ ــ النبـي يذيب كل فارق بينه وبين الصحابة فيما سوى الوحي:

رأينا في حفر الخندق، كيف أن النبـيّ ﷺ شارك في الحفر مشاركة فعلية لا رمزية ــ كما يصنع بعض الحاكمين المتزعمين ــ حتى علا بطنه الغبار، ومسه الجوع، وتصبب منه العرق، وتعب كما تعب أصحابه؛ مع أنه سيد الخلق، وصاحب الشرع، وهو الذي لو أمر أطيع، ولو دعا أجيب، ولو أشار هفت لإشارته قلوب وهام. . .

لكنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان رأساً في الوحي، وفرداً من الناس فيما سواه، وعلى التخصيص في الأمر الجد الذي يحيق بالجماعة، فيقتضيها بذلاً أو عملاً أو جهداً أو تحركاً؛ فقد كان أسبقهم فيه، وأكثرهم تحملاً لمسؤوليته؛ يعرف ذلك من خلال سيرته، في أسفاره وغزواته، كهذه التي نحن بصددها، وفي رحلاته، أو لم يقل مرة لأصحابه ــ لما هموا أن يسقوه مما في بيوتهم، فقال: «لا حاجة لي فيه، اسقوني مما يشرب الناس»[١]. بل يقول الرواة: «إنه كان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف، وعليه إكاف من ليف»[٢].

فهذان وذاك وغيرها من أمثلة المساواة في الإسلام، كان النبـيّ ﷺ يطبقها على نفسه فعلاً، قبل أن يصدرها للناس شرعاً وحكماً، ولا يرى لنفسه ميزة على سواه إلا بالوحي، الذي يجعله أكثرهم مسؤولية، واضطلاعاً بالتبعات الجسام، لا أن يعفيه من الواجبات، أو أن يستثنيه من التشريعات، إلا ما خصه به رب العالمين.

ومن ثم نهى عن إطرائه، كما فعلت النصارى بالمسيح ــ عليه السلام ــ وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد الله

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) رواه الترمذي.

ورسوله»[1]؛ فهو رسول الله، لا يشاركه في هذه الصفة أحد بعده، وهو عبد الله، والعبودية صفة مشتركة بينه وبين سائر العباد، في التكليف والالتزام، ومع ما فيها من معاني الذل والخضوع والتطامن، فإن العبودية لله وحده رفعة وتشريف، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2]، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾[3].

ولما خير بين أن يكون نبياً ملكاً، وبين أن يكون نبياً عبداً، اختار أن يكون نبياً عبداً، واعتز بهذه العبودية فقال: «إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً»[4].

إن تحققه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بوصف العبودية هذا كملا، مع الرسالة، جعله الإنسان الكامل في إنسانيته؛ لا جرم كان لهذا قدوة الناس، وسيد العالمين.

ومع ذلك، فليس لنا أن ننزل بمقامه هذا، فنسويه بنا ـ ونقول: إنه عبد وبشر يعبد الله مثلنا، ويفكر مثلنا، ويدبر مثلنا. . . تأدباً؛ لأن عبوديته لا تناغى، ولا تغالب، وبشريته ـ بكمالها ـ في القمة والذروة بالنسبة إلى سائر الخلق.

٤ ـ في الخطر المحدق، النبيّ يبث الثقة، ويرسخ اليقين، ويعلق القلوب بالأمل:

كان النبيّ ﷺ مستوثقاً من النصر، رغم الخطر الذي طوق المدينة، يستشرفه من خلف السهوب، ومن وراء السهول، ومن فوق السحاب؛ كان يتوقعه في كل

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري والدارمي.
(٢) سورة الإسراء: الآية ١.
(٣) سورة الجن: الآية ١٩.
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه.

تحرك له، حتى إنه لما أخذ المعول، فضرب به تلك الصخرة العاتية، التي استعصت على الصحابة، فالتمعت لها أطراف يثرب، أبصر النصر في وميض الالتماعات، لا النصر في وقعة الأحزاب التي تغشتهم بشرها المستطير، وجمعها المحتشد، بل في المستقبل القريب والبعيد، في الشرق والغرب؛ استيقن أن دعوته وفتوحه ستبلغ بلاد الشام، ومدائن العراق، وأبواب صنعاء.

ولا يكاد الفكر يتصور مبلغ وقع هذا القول من الصادق المصدوق، في مثل هذه الشدة الخانقة في قلوب الصحابة؛ بل لا يكاد يتصور مقدار القوة والطاقة التي تشحن بها نفوسهم، والعزم الماضي المصمم الذي ينبث في هممهم؛ وكذلك كان شأن الرسول، كما هو القاعدة في الإسلام: لا يحرز النصر إلا بعد الابتلاء البين، وبذل منتهى الطوق، ومكابدة المشاق، ومعاندة اليأس، ومصابرة اليقين: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾[1].

«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا»[2].

وغني عن البيان، أن إصدار هذه البشائر في هذا الظرف العصيب الرهيب، من معجزات النبوة الخارقة، التي يكرم الله تعالى بها رسله، ويثبت بها فؤادهم، وأفئدة المؤمنين الذين يتبعونهم.

إلى أنها تنطوي على دروس لنا عظيمة، وعبرٍ قيمة، وهي أنه ينبغي أن يقارع المؤمن الخطوب، ويغالب اليأس ويدافعه، حتى لا يجد إلى نفسه سبيلاً، ولو كان في متهاوى السيوف، وملتقى الأسنة، فلا يجتمع في قلبه إيمان ويأس: ﴿إِنَّهُۥ لَا

---

(١) سورة يوسف: الآية ١١٠.

(٢) رواه الإمام أحمد.

﴿يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[١].

٥ ــ ينشط النفاق في النوائب والأزمات:

عرضت الفرصة للمنافقين حين ابتلي المؤمنون وزلزلوا، واشتد عليهم الكرب، واستبد بهم الهول، فأخذوا ضروباً من الأساليب لإضعاف المسلمين، وتخذيلهم في هذه الحرب، إذ كانت حرب أعصاب:

١ ــ ففريق منهم، انطلقوا يتهكمون بالمسلمين، ويسخرون منهم، وعلى التخصيص بعد حديث الصخرة التي فَتَّتَتْها يد النبوة، والآمال التي علقت بها قلوب المؤمنين، والفتوح التي وُعدوا بها، حتى قال أحدهم: يعدكم بكنوز كسرى وقيصر، وأحدكم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط؛ فهؤلاء الذين عناهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾[٢].

٢ ــ وفريق آخر حرض المسلمين على ترك الصفوف: فمقامهم هنا غير حميد، ورباطهم غير مفيد، والعاقبة مجهولة، وبيوتهم غير محمية، وفيها ذراريهم ونساؤهم؛ وهؤلاء هم الذين عناهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾[٣].

٣ ــ وفريق ثالث، استأذن النبـي صراحة في العودة إلى ديارهم، بحجة أنها مكشوفة، يبغون حمايتها من العدو المهاجم، والخطر الجامح؛ وقد كشف القرآن خبثهم ومكرهم بصراحة؛ ولما همّ رسول الله ﷺ أن يأذن لهم، قال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! لا تأذن لهم، إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا، فلم يأذن لهم.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

(٣) نفسها: الآية ١٣.

وفي هذا الفريق يقول القرآن الكريم: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾[1].

وتابع القرآن مواجهتهم، فوصفهم بضعف العقيدة، والاستعداد التام للردة والفتنة، عند أيسر طلب، ووصفهم بنقض العهد، الذي قطعوه على أنفسهم أمام الله، أن لا يفروا من الزحف يوم أحد؛ وهم اليوم يخلفون ما عاهدوا الله عليه، ويفرون من القتل والموت، وهما من قدر الله الذي لا مفر منه، والذي لا يتقدم ولا يتأخر؛ ولا ينفع الفرار من القدر المحتوم المكتوب المحدد.

٤ ــ وفريق رابع لاذ بالفرار، دون استئذان من النبيّ ﷺ في هذا الظرف الحرج، والهول المذعر؛ والمؤمنون معه على هذا الأمر الجامع، فنصت عليهم آيات في آخر سورة النور، ونفت عنهم صفة المؤمنين في هذه المناسبات، وهي الاستئذان، وصرحت بأنه عليم بتسللهم، ومخالفة أمر النبوة، وأوعدتهم بالفتنة في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

إن هذه المواقف المريبة، في هذه الظروف العصيبة التي تنذر بالإسلام والمسلمين، وفي الشدائد المرهقة المرهبة، كانت دأب المنافقين؛ ولا ريب أن المؤمن لا يقف مثلها، ولا تخطر منه ببال. وكان القرآن يغض النظر عنهم، في بدء الإسلام، والمسلمون ضعاف، والدعوة في المهد؛ فلما قوي المسلمون، وأطلت الدعوة على الجزيرة، واكتسحت المناوئين، عمد القرآن إلى كشفهم في كل مناسبة، فقد طال الزمن، وكثرت التجارب، وعرفت الأعذار.

فليتعرف المسلمون المنافقين من خلال مواقفهم في الشدائد، وليصنفوا أصدقاءهم الأوفياء، والمنافقين في الصداقة، عند اشتداد الأزمات، فإنها المحك الذي يجلي الحقائق، ويميز الأوفياء من المنتهزين.

---

(١) السورة والآية أنفسهما.

٦ ـ لا حد لاهتمام النبيّ بأمر أصحابه، وامتزاجه بهم إحساساً وشعوراً:

لم يكن الأمر مقصوراً على مشاركة النبيّ ﷺ أصحابه فعلاً في حفر الخندق، بل كان كأحدهم: مسّه الجوع كما مسهم، فلم يذق طعاماً خلال ثلاثة أيام، كما لم يذوقوا هم ذواقاً، بل شوهد وهو يهوي بالمعول، وبطنه معصوب بحجر، من شدة الجوع.

وما كان لرسول الله ﷺ وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، أن يفعل غير ذلك، ولا أن يستأثر بطعام من دونهم.

كان له من الغنائم الخمس، وكان يرده فيهم، فكيف يتميز عنهم في المخمصة؟

فهل سمعت الدنيا بمثل هذه المساواة العملية؟ وهل وصلت المساواة في قطر من الأقطار، أو إقليم من الأقاليم في الشرق والغرب إلى هذا المستوى الإنساني الرفيع؟ لا، لا يكون هذا، ولن يكون إلا لنبيّ مرسل، أو ولي مقرب، أو متَّبِعٍ للرسل والأنبياء بحق.

إن هذه المصابرة المجاهدة الجماعية للجوع، إنما كانت في سبيل الله، فلهذا أكرم الله تعالى نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فأطعمهم من جوع، حتى شبعوا جميعاً، بفضله ورحمته، حدث ذلك مرتين في هذه الغزوة.

أولاهما: أن أخت النعمان بن بشير، أوفدتها أمها ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ بحفنة من تمر في ثوبها إلى أبيها وخالها ابن رواحة، ليكون غداء لهما، فمرت برسول الله ﷺ وهي تلتمسهما، فقال: تعالي يا بنية، ما هذا معك؟ قالت: فقلت يا رسول الله! هذا تمر، بعثتني أمي إلى أبي وخالي يتغذيانه. قال: هاتيه، قالت: فصببته في كفيّ رسول الله ﷺ فما ملأتهما، ثم أمر بثوب، فبسط له، ثم دحا بالتمر

عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: اصرخ في أهل الخندق، أن هلمَّ إلى الغداء، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب.

والأخرى: ما تحدث به جابر بن عبد الله، أنه استأذن رسول الله ﷺ يوم الخندق، إلى البيت، فأذن له، فقال لامرأته: رأيت بالنبيّ ﷺ شيئاً ما كان لي في ذلك من صبر، فعندك شيء؟ قالت: عندي شعير وعَناق (سخلة) فذبحت العناق، وطحنتُ الشعير، حتى جعلنا اللحم في البُرمة، ثم جئت النبيّ ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي، قد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّم لي، فقم أنت يا رسول الله، ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب، فقل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي. فصاح النبيّ ﷺ يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سوراً (طعاماً عاماً) فحيهلاً بكم، فلما دخل جابر على امرأته، قال جاء النبيّ ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك كم طعامك؟ قال: نعم، قالت: الله ورسوله أعلم.

ثم جاء النبيّ ﷺ فقال: ادخلوا ولاتضاغطوا. فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمّر البرمة والتنور إذا أخذ منه (أي يغطيهما) ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع؛ فلم يزل يكسر الخبز ويغرف، حتى شبعوا، وبقي بقية، فقال: كلي هذا وأَهدي؛ فإن الناس أصابتهم مجاعة.

وفي رواية: قال جابر: فأقسم بالله، لقد أكلوا حتى تركوا وانصرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجيننا ليخبز كما هو.

فهذا الحديث، وغيره كثير في الصحاح، من دلائل النبوة، ومن المعجزات التي أيد الله تعالى بها نبيّه ﷺ وأكرمه بها، لِيزداد بها المؤمنون إيماناً، وليُفتن بها الكافرون، ومرضى القلوب، وضعفاء اليقين، وعجاف المسلمين.

وهو أيضاً يشير إلى مبلغ حفاوة النبـيّ ﷺ بأصحابه وحبه لهم، ورأفته بهم، واضطلاعه بمسؤوليته عنهم، في دينهم ودنياهم، وأحوالهم الخاصة، وكل ما يجري في حياتهم، فيؤلمهم أو يحزنهم أو يسوؤهم، أو يؤذيهم، وهي مسؤولية لا يحمل مثلها إلا الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

أرأيت كيف اكتشف جابر جوع النبـيّ ﷺ إذ رآه يحفر مع صحابته في الخندق، وهو جائع، يعصب بطنه بالحجر، يغالب به الجوع، فلم يطق لذلك المنظر صبراً، فهرع إلى أهله ليجد ما يسدّ به جوعته، فلم يجد إلا ما يكفي بضعة أشخاص، فقصر الدعوة عليهم.

وما كان لرسول الله ﷺ أن يستأثر بالطعام والخير من دون الصحابة، والطعام في ظاهره لا يكفيهم جميعاً؛ لكن قدرة الله على تكثير القليل، ومباركة اليسير، فوق الظواهر الطبعية، وأكبر من الأسباب والمسببات المادية، فالتمسها النبـيّ ﷺ في هذا المقام، فكان له ما أراد، معجزة خارقة؛ شاة واحدة، بل شويهة أو سخلة، تكفي أهل الخندق الجياع، وهم في حدود الثلاثة آلاف ـ كما رأينا عدتهم في صدر الغزوة ـ وقد ناداهم النبـيّ الرؤوف الرحيم ﷺ يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سوراً فحيهلاً بكم.

إنها عناية الله تعالى برسوله وبمن معه، جاءت في موضعها المناسب، حفروا الخندق، وبذلوا كل طوقهم في الإعداد للقوى الكافرة الغادرة الشرسة وهم جياع، يعملون في سبيل الله، ولنصرة دينه، فأكرمهم بقدرته إكراماً، ومسهم بجناح من رحمته، أحوج ما كانوا إليها، وكانوا بهما جديرين.

٧ ـ مواقف النبوة في هذه الغزوة تدل على تمتع بالحكمة السامية والسياسة الراشدة:

كان تصرف النبـيّ ﷺ في مواجهة أحداث هذه الغزوة، بأقواله وأفعاله، في

غاية الحكمة، وبعد النظر، وعمق الفكرة، وإصابة الهدف. وقد كان فيها ـ لذلك ـ دروس وعبر للحاكمين والدعاة والقادة، نذكر منها:

١ ـ مشاركة النبيّ ﷺ في الخندق، لم تقتصر على حفر التربة، وفلق الصخر، ونقل التراب، مما يدل على المساواة الفعلية، في المشاق والمشاكل والمهام والهموم، بين الراعي والرعية، بل إنها تجاوزت ذلك إلى الحدب الظاهر، والعطف الحاني، والرأفة البالغة بالصحابة المؤمنين، فكان يرتجز معهم قول ابن رواحة، كما أسلفنا ـ وهو يعمل ويحمل، ويمد صوته بآخر القافية، وذلك ليخفف عنهم مشقة العمل، وألم الجوع، وشدة المعاناة ـ .

وتمت كلمة الله في نبيه ﷺ إذ قال: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

فهل يحفظ المسؤولون هذا الدرس لمن يتولونهم، فيرأفون بهم، ويحنون عليهم ولا يقسون، ويرحمونهم ولا يظلمون؟

٢ ـ أثبت حادث الصخرة، إلى جانب وصل المؤمنين بربهم، وربط ثقتهم بالله، في كل حال، وفي حال الكرب المطبق، والبلاء النازل، على التخصيص ـ إطلاع الله نبيّه ﷺ على بعض شؤون الغيب، وأحداث الأيام، وتقلبات العالم، ومصير العوالم في المستقبل؛ فأراه أمد فتوح المسلمين في الشرق والغرب، وفي الشمال والجنوب؛ ورأوا قصور كسرى وبصرى، وأبواب صنعاء، يدخلها الفاتحون المسلمون، وشمول دعوته هذه الآفاق البعيدة، والأمصار العنيدة، والحضارات العتيدة.

وهذا قليل من كثير من المغيبات التي أظهر الله عليها قلب النبيّ ﷺ كما قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ، إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾[2].

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

(٢) سورة الجن: الآية ٢٦ و ٢٧.

وكما قال في قصة التحريم: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣﴾[1].

وفي السنَّة الكثير من ذلك:

(أ) ففي الصحيح عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: «قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً، ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله»[2].

(ب) اطلع ليلة المعراج على العوالم، والسموات السبع، ودخلها واحدة فواحدة، ورأى سدرة المنتهى، وعجائبها وسمع صريف الأقلام، ورأى العرش، والكرسي، وعاين سعتهما، وقال: «والذي نفسي بيده ما السموات السبع، والأرضون السبع، عند الكرسي، إلا كحلقة ملقاة في فلاة، وإن فضل العرش على الكرسي، كفضل الفلاة على تلك الحلقة»[3].

(ج) واطلع على مشارق الأرض ومغاربها، فقال: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها؛ وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها»[4].

وفي حديث آخر: «ما من شيء لم أكن أُريته إلا رأيته في مقامي هنا، حتىٰ الجنة والنار»[5].

(د) وتحدث عن القتلى والفتن قبل وقوعها. ففي الصحيح: «أشرف النبيّ ﷺ على أُطُم ـ مرتفع ـ من آطام المدينة، فقال: هل ترون ما أرى، قالوا: لا، قال: فإني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم، كمواقع القطر»[6].

---

(١) سورة التحريم: الآية ٣.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري.

(٣) رواه ابن مردويه وابن جرير.

(٤) رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٥) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم.

(٦) نفس المصدر السابق.

وفي آخر، عن عمر قال: «إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس، يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله؛ قال عمر: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأ الحدود التي حدها رسول الله ﷺ»[١].

(هـ) وأخبر عن بعض الرجال وعن أسرارهم بالغيب. ففي الحديث عن أنس، كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه»[٢]. وفي بعض الروايات أنه جاء سعد بن مالك.

ورأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشي، والناس يطأون عقبه ـ يمشون وراءه ـ فقال أبو سفيان في نفسه ـ حسداً وغيره ـ : لو عاودت هذا الرجل القتال، وجمعت له جمعاً. فجاء رسول الله ﷺ حتى ضرب في صدر أبـي سفيان، وقال له: إذن نخزيك «فقال أبو سفيان: أتوب إلى الله، وأستغفر الله، ما أيقنت أنك نبـي، إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك»[٣].

وكان أبو سفيان مرة في المسجد، فقال في نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه النبـيّ ﷺ فضرب في صدره وقال: «بالله نغلبك» فقال له أبو سفيان: أشهد أنك رسول الله.

وحديث وابصة بن معبد قال: «جئت تسألني عن البر والإثم؟ فقلت نعم، قال: يا وابصة! استفت نفّسك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب؛ والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي.

(٢) رواه الإمام أحمد. والرواية المذكورة للبيهقي.

(٣) رواه الحاكم والبيهقي.

(٤) رواه ابن سعد وغيره.

وقد أطلت بعض الشيء في هذا الموضوع، وهو إطلاع النبيّ ﷺ على بعض المغيبات، لأن في نفوس أبنائنا الطلاب، وبعض المسلمين شيئاً منه، فأردت بذلك ترسيخ إيمانهم به، وتزويدهم بحصيلة تمسح كل شك فيه.

ثم، في إعلان النبيّ ﷺ وهو يفتت الصخرة بمعوله، عن هذا الغيب، وما كشف له من أقاليم الأرض، بالطول والعرض، حكمة عظيمة، وسياسة راشدة حكيمة، جاءت في موقعها المناسب، وهي تثبيت قلوب المؤمنين التي هزتها الأحزاب، وتبديد مخاوفهم التي أثارتها السيوف العارضة، والتهديدات المتلاحقة، والجيوش المحدقة بالمدينة.

ولهذا لم يترك المنافقون هذا الإعلان بلا تعليق مضاد، وتندر مسف، وإرجاف مخذّل ــ كما رأينا ــ.

٣ ــ ينبغي التحقيق عن الأخبار، والتثبت من كل ما ينقل، وعلى التخصيص في الحروب. ــ كما قال القرآن الكريم ــ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[١] وقد قرىء: ﴿فتثبتوا﴾. وفي غزوة الأحزاب لم يتلق النبيّ ﷺ خبر نقض بني قريظة عهدهم، بل بعث سعد بن معاذ وآخرين معه لاستجلاء موقفهم حقيقة.

ولم يقتصر على ذلك، فإنه أمر الوفد بأن لا يجهروا بقولهم، إن عرفوا منهم الغدر، بل يلغزوا له لغزاً؛ وبين أن الجهر بذلك من شأنه أن يفت في عضد الناس، ويضعفهم، أحوج ما يكونون إلى القوة، ورباطة الجأش.

وهذا أصل في (الشفرة) التي تستعمل في الحرب والأسرار في أيامنا.

ثم إنه ﷺ لم يبتئس، أو لم يعلن ابتئاسه من نقض بني قريظة عهدهم، بل قدر سنة الله في عاقبة أهل الغدر، ومغبة الغادرين، فتفاءل واستبشر؛ وقد أراه الله

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

من قبل ما يفتح الله لدعوته من الأرض، ويتسلم من مفاتيحها، فرفع صوته قائلاً: أبشروا بفتح الله ونصره.

٤ ــ فكر النبيّ ﷺ أن يهادن غطفان، بعد أن سئمت طول الحصار غير المجدي، على ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابها عن الأحزاب، فأبى الصحابة أن يعطوهم إلا السيف في نهاية المشورة والمطاف.

وفي هذا العرض درس آخر من دروس تربية الحكام، وأخذهم بمبدأ الشورى، وصرفهم عن الاستبداد بالرأي، وكان هذا هدي النبيّ ﷺ في سائر أحواله وأمره.

وفيه أيضاً استعجام عود الصحابة، واختبار مبلغ قوتهم وصلابتهم في المعركة؛ وقد اشتد الخطب، والتحمت الجيوش، واستصعب النصر؛ وهذا أيضاً من أساليب التربية الحربية؛ ويؤيده أنه صرح لهم بأن هذا تصرف شخصي منه، وليس بلاغاً من رب العالمين.

والسؤال الذي يثور في هذا الصدد، هو أنه: هل يجوز للمسلمين إذا اقتضت الحاجة أن يتنازلوا للكفار عن بعض أموالهم، حفظاً على حياتهم، أو خوفاً من استئصالهم، بناء على هذا العرض النبوي على الصحابة؟

والجواب: أن النبيّ ﷺ قد عرض هذا على الصحابة، وفكر فيه، لكنه لم يفعله؛ والحجة الشرعية في أقواله وأفعاله ــ عليه الصلاة والسلام ــ، فلا تقوم به حجة، ونظيره مقاله في حديث آخر: «لقد هممت أن آمر بحطب فيجزل، ثم آمر رجلاً فينادي للصلاة، وآمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى أقوام لم يحضروا الجماعة، فأحرق عليهم بيوتهم»[١] فقد هم أن يحرق بيوت تاركي الجماعة، وصرح به، لكنه لم يفعله، فلا يجوز تحريق بيوت تاركي الجماعات، بإجماع؛

(١) رواه الإمام أحمد.

وإنما الحديث لتنظيم صلاة الجماعة، والترهيب من تركها بلا عذر، فكذلك الأمر هنا، لا يجوز ــ في الأحوال العادية ــ ترك المسلمين القتال، وبذل المال للأعداء.

نعم إذا اضطر المسلمون إلى ترك القتال، ومصالحة عدوهم، لكثرة العدو، وقلتهم، وقلة سلاحهم، بحيث إنه لا تكافؤ فيه مطلقاً، وخافوا من استئصال شأفتهم، واستيقنوا أنه لا طاقة لهم بمواجهة عدوهم، جازت لهم مهادنته، بمال أو بغير مال، تخلصاً منه؛ وهذا من باب الضرورات التي يجوز فيها ما لا يجوز في غيرها، فالأصل فيها المنع.

والضرورة كما هو معلوم في علم الأصول، نازلة لا مدفع لها إلا بارتكاب محظور يباح شرعاً لدرئها.

ومع ذلك فقد نص فقهاء الحنفية على جواز الصبر في هذه الحال، لأن فيه بذل النفس ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وأدلة هذه المسألة، من السنَّة وواقع الحرب الإسلامية، مبسوطة في كتب الفقه، يراجعها فيها من يشاء.

٨ ــ الحرب خُدْعة، وما يخدع العدو بمثل ما يفرق صفه ويشتت شمله:

لمّا أصرّ المسلمون على مواجهة الأحزاب، ورفضوا مصالحة غطفان على ثلث ثمار المدينة، استمسكوا بالأصل، وهو العزيمة، فاستعدوا بذلك ــ لمقارعة السلاح، ولبذل الأرواح، وباعوا أنفسهم في سبيل الله؛ وكانوا في ذلك جادين، وكانوا صادقين، وكانوا منسجمين مع عقد البيعة الذي صوره القرآن الكريم بقوله: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ . . . ﴾[1] أتم ما يكون الانسجام.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

فرضي الله ــ تعالى ــ عن موقفهم، وبارك لهم فيه، وحفظ عليهم أرواحهم، وسخر لهم جنوده التي لا يعلمها إلا هو، لتدافع عنهم، وتخدمهم، وتصرف كيد العدو عنهم:

ذهبت أستبقي الحياة فلم أجد   لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فقذف إلى النبيّ ﷺ بنعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني، وكان صديقاً لقريش ولليهود، يتمتع بسمعة بارزة مطبقة فيهما، وقد عرض على النبيّ ﷺ نفسه ليستخدمه فيما شاء، فاستقل فرديته في هذه الجيوش المتلاطمة، لكنه لم يهدر فعاليته، فلعله يصنع شيئاً، وهو في موقفه ذلك بحاجة إلى أي شيء، وقال له تلك الكلمة الغالية الكبيرة الجامعة: «إنما أنت فينا رجل واحد، وماذا عسى أن تفعل، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»[1].

ومعنى التخذيل هنا، حمل العدو على الفشل، وترك القتال، والإغراء بالقعود عن الحرب، وحب السلامة.

ومعنى أن الحرب خدعة، أنها تقوم على إظهار غير ما نخفيه للعدو، وإلحاق المكروه به من حيث لا يعلمه؛ معناه أن الحرب الكاملة الحقة والحرب الجيدة المفيدة، هي التي تقوم على المخادعة لا المواجهة، وذلك لخطر المواجهة، وحصول المقصود والظفر مع المخادعة من غير خطر.

وفي هاتين الجملتين شحنات هائلة ثمينة من الأسلحة المعنوية الفتاكة، التي تغني عن الكثير من أسلحة الحديد الثقيلة، والتي تفعل في العدو أكثر مما تفعله الذرة في أيامنا؛ إنها تعصف بالقوي، وتذوّب الجيوش، وتدك الجبال، وتذر الديار بلاقع.

أرأيت إلى توجيه كلام من عل، استمعت إلى كلام رسول الله ﷺ القائد،

---

(١) تقدم تخريجه.

وفيه العزة ــ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ــ وفيه الإشارة البليغة إلى التكليف الواجب، والتوجيه السديد، والعمل المثمر؟

الحرب خدعة، من جوامع الكلم، التي أوتيها سيدنا رسول الله ﷺ والتي كان بسببها في المحل الأول، من فصحاء العرب، كما قال: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش»[1]، ويروى: «أنا أعربكم، أنا من قريش»[2].

وهكذا استعان النبيّ ﷺ في حربه، حتى في طاقة الفرد الواحد.

وهكذا أحسن النبيّ ﷺ توجيهه إلى ما ينبغي أن يفعله في هذا الظرف العصيب المربك.

وهكذا أيضاً، وصاه أن يكتم عن قومه إسلامه، كيلا يتسرب إلى قومه الشك في مهمته التي يقوم بها.

وهكذا نجحت هذه الخدعة التي قام بها ذلك الفرد الواحد، الذي سخره الله للمسلمين في أحلك الأوقات.

وتعتبر هذه الخديعة تطبيقاً كاملاً للحديث المذكور، إذ ضرب بها بين قلوب بني قريظة وبين قلوب قريش، حتى تشكك كل فريق في نوايا الفريق الآخر، واحترس كلّ من صاحبه، فكان ذلك سبباً في تفتيت الأحزاب، وتفشيل اتحادها ضد المسلمين؛ وكانت المماكرة المسلمة خيراً من المكاثرة الكافرة.

وسنرى ــ في فتح مكة ــ إن شاء الله تعالى ــ كيف أن رسول الله ﷺ نفسه عمد إلى حيلة، ردع بها أبا سفيان، وخدعه؛ ذلك أنه أمر العباس بحبس أبي سفيان في مضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود المسلمين، وكان كذلك، فكانت تمر به القبائل قبيلة فقبيلة فيراها، فيقول من هؤلاء يا عباس؟

---

(١) هكذا رواه القاضي عياض في الشفاء.

(٢) رواه ابن سعد مرسلاً.

حتى قال أخيراً؛ ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال العباس: إنها النبوة، فقال أبو سفيان: فنعم إذن.

ومن هذا القبيل أنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها، وأنه لم يحل الكذب إلا في ثلاث، منها الحرب. وفي حديث ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان، قال: بعث النبيّ ﷺ سرية، فقال: تهافتوا في الكذب، تهافت الفراش في النار، إن كل كذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة.

وفي هذا قال ابن العربي: «الكذب في الحرب من المستثنى الجائز بالنص، رفقاً بالمسلمين، لحاجتهم إليه».

ولعل هذا أيضاً من مشمولات القوة في الحرب والسلاح الذي أمر به القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

وإذاً، فلا حرج على المسلمين في اللجوء إلى الحيلة والخديعة في قتال عدوهم، وعلى التخصيص إذا كان العدو يستخدم سلاح الشائعات والأراجيف الكاذبة، والأنباء المزورة، بقصد بلبلة الأفكار، وإضعاف الروح المعنوية في المسلمين، مستعيناً على ذلك بالصحف والإذاعات، والمنشورات والبرقيات وغيرها.

ومن هنا يعرف أهل الحق كيف يساير الإسلام الزمن، ويحالف القوة، وأسباب الانتصار، المادية والمعنوية؛ ويعرفون ما في الإسلام من قدرة على مواجهة كل ما يطالعهم به العدو، من مكنات وقدرات، واكتشافات واختراعات.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

٩ ــ الصحابة ينفذون أمر الرسول القائد بدقة متناهية:

أراد النبيّ ﷺ أن يتعرف على أثر فعلة نعيم بن مسعود، في صفوف العدو، فانتدب ــ كما قد رأينا ــ حذيفة بن اليمان، وإزاء هذه المهمة، أوصاه بهذه التوصية الحكيمة المطلقة، غير محدد له مهمته، وقال: «ادخل في القوم، فانظر ماذا يصنعون، ولا تحدث شيئاً، حتى تأتينا».

حدود المهمة أن يذهب ويشهد ما يصنع القوم، وما يتحدثون، ثم يرجع فيصف للنبيّ ﷺ ما رأى وما سمع.

ثم نهاه عن تجاوز هذه المهمة، فلا يحدث حدثاً، ولا يفعل فعلاً، حتى يعود.

وقد اندس حذيفة في القوم، وعاين اضطرابهم، وسمع كلام أبي سفيان زعيمهم، وكان قريباً منه، بحيث أنه كان يراه ويسمعه؛ وكم حدثته نفسه، أن يسدد إليه سهماً فيقتله، ويقضي على حملته، ويريح المسلمين منه؛ لكنه ذكر نهي النبيّ ﷺ وقوله: «ولا تحدث شيئاً»، فأمسك...

فهذا أصل في الأوامر العسكرية، التي يلقيها الرؤساء إلى جنودهم، فإنه ينبغي التزامها، وتنفيذها بكل احتراس ودقة وأمانة، دون تزيد ولا تنقص؛ عرف هذا الأصل العام المسلمون في فجر الإسلام، وطبقوه في حروبهم وغزواتهم، والتزموه كأحسن ما يكون الالتزام.

ولو قد فتح للمأمورين باب الاستصلاح، حيال الأوامر الصادرة إليهم، وإمكان التصرف بما تقضي به الظروف، أو تفرضه الأحوال والملابسات الخاصة حياله، لأدى ذلك إلى تعطيل الأوامر، وأصبحت بمثابة شيء لا معنى له، ولا وجود له؛ ولأصبح العمل مفوضاً إلى الجنود، كما لو لم يكن لهم قادة؛ وبذلك تعم الفوضى، وتسوء الحال.

وهذا مما ينطوي تحت قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾[١].

١٠ ــ كان الصحابة يستمتعون بقسط وافر من حنان النبوة، يذكر بما يتمتع به الأبناء من حنان الآباء:

روت كتب السيرة أن حذيفة، لما قفل راجعاً من مهمته التي كلفه بها رسول الله ﷺ في تلك الليلة الشديدة البرد، العاصفة الريح، الحالكة الظلمة، وجد النبيّ ﷺ قائماً يصلي في مِرط ــ كساء فضفاض ــ لبعض نسائه؛ فلما بصر به أشار إليه بالاقتراب، وطرح عليه طرف المرط، الذي كان يصلي فيه، ليقيه عادية البرد، ثم أتم صلاته، وهو فيه، حتى إذا تحلل من صلاته أخبره بالذي كان.

فيروى أنه أبقاه مشتملاً بها حتى أصبح، فناداه الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ مداعباً قائلاً: قم يا نومان!.

أرأيت إلى لطف هذا النبـيّ العظيم ﷺ وترفقه بأصحابه؟ إن صلاة الليل، وحلاوة المناجاة، لم تمنعه من التلطف بهذا الشاب الكشاف، الذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمها، فشمله بكسائه الذي يصلي فيه، ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتى أتم صلاته، بل حتى بعد أن أفضى إليه بالمهمة، وأشرق الصبح الجميل؛ فلما وجبت المكتوبة أيقظه بلطف وخفة ودعابة، قائلاً: هيا يا نومان، دعابة تقطر حلاوة، وتفيض بالحنان، وتسيل رقة.

إنها صورة نموذجية للرأفة والرحمة، اللتين تحلى بهما فؤاد الرسول ﷺ وتطبيق فريد رفيع لهما في أصحابه الكرام، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[٢].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٨.

إنها درس كبير للمعلمين الذين يتصدرون لتعليم الناس العامة منهم والخاصة، في الجامع والجامعة، في المعهد والمدرسة، يرشدهم إلى التحلي بالرأفة والحلم، في مجالس العلم، لينمو الغرس، ويثمر الدرس، ويؤتي التعليم أُكُلَه.

١١ ـ لا بد من الالتجاء إلى الله بصدق في الحروب واستنزال النصر من عنده مع إعداد القوة:

أفرغ المسلمون جهدهم في حرب الأحزاب، فحفروا الخندق، واستعدوا للمواجهة، مع قلة العدد والعدة، وركنوا إلى الحيلة والخديعة في الحرب، وهي السلاح المجدي الثاني بعد الخندق؛ ومع ذلك، فقد كانوا في كرب ظاهر، وموقف عصيب، وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾[(١)].

ويروى أن المسلمين قالوا للنبيّ ﷺ هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: نعم: «اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»[(٢)].

وفي الحديث الصحيح «عن عبد الله بن أوفى أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، (يعني في غزوة الأحزاب) انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس، فقال: أيها الناس! لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا؛ واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال:

«اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم»[(٣)].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٠.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه.

(٣) متفق عليه.

وهذا الحديث يشير ـ وفي هذا الظرف أيضاً على التخصيص ـ إلى أن الحرب في الإسلام ضرورة لا هدف، وحين تقع هذه الضرورة لا بد للمسلم من الصبر في ميادين القتال، لأنها من ساحات الجنان.

أما النصر، فهو من عند الله، فالله الذي نزل الكتب هداية للعالمين، وأجرى السحب سقياً للناس، وإنماء للزرع وإملاءً للضرع، وهزم أحزاب الكفار الذين كذبوا الرسل، هو القادر وحده على أن يهزمهم اليوم، وينصرنا عليهم.

فالحديث يشير إلى ما نحن بصدده، وهو أن القوة والصبر في المعارك، لا يحتمان النصر، لأنه منحة من الله، فينبغي التضرع به إليه، واستنزاله من لدنه.

وقد علمنا هذا الحديث أدب تقديم صفات الله تعالى، وأسمائه، بين يدي دعواتنا، فهو أدعى للإجابة.

فالدعاء المخلص، والاتجاه الصادق، واستنزاف الطاقة المادية، هو كل ما وسع المسلمين فعله، في هذه الغزوة؛ وبقي بعد هذا أن تتدخل العناية الإلهية، فتنصر المعتدى عليه، وتهزم المعتدي الظالم، وكذلك كان.

أرسل الله الريح الهوجاء العاصفة، فاقتلعت الخيام، وأكفأت القدور، وشلت الأعمال، وزلزلت الرجال، حتى استيأس زعيم الكفار أبو سفيان من النصر، في هذا الجو المكفهر، وقال كلمته يرحل بها جنوده. ولم يحس المسلمون بهذه الريح، فكانت عليهم برداً ورخاء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ . . . وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾[1].

(١) سورة الأحزاب: الآية ٩ ــ ٢٥.

١٢ ـ تقضى الصلاة المكتوبة إذا تركت عمداً أو سهواً:

ما كان لنا أن نتطرق إلى هذا المبحث لأنه فقهي محض، مرده إلى كتب الفقه المذهبية.

لكن ورد في الصحيح في هذه الغزوة أن النبيّ ﷺ فاتته صلاة العصر، يوم الأحزاب، فقال: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً. ثم صلاها بين العشاءين»[١]، مع العلم بأن صلاة الخوف كانت مشروعة، كما رأينا قبلاً.

والحديث صريح في وجوب قضاء الفائتة بإطلاق، وهو إجماع فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم، لم يشذ إلا داود، الذي قال بعدم قضاء فائتة العمد، جرياً على أصله في الاقتصار على ظاهر النصوص، ومن ذلك حديث: «من نام عن صلاة أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[٢].

وصرح المالكية بأن هذه المقالة لم تنقل عن أحد سواه، وأن روايتها عن مالك شاذة؛ وبالغ بعضهم فكفر من قال بعدم وجوب قضاء الفائتة.

وداود معروف بالجمود؛ وقد قال بعض المترجمين من العلماء: إن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المائتين؛ وحديث الخندق هذا حجة عليه، فقد شغلت الحرب النبيّ ﷺ عن الصلاة، لم ينم عنها ولم ينسها، وقضاها مع ذلك، وهي مما لم يشمله حديثه الذي اعتمد عليه؛ على أن حديثه هذا ليس فيه ما يدل على الحصر من حيث العربية، لكنه خرج مخرج الغالب، فالشأن في المسلم أن لا يترك الصلاة إلا كذلك، نوماً أو نسياناً.

ومع ذلك فإن التخصيص بالوصف والشرط لا يدل على نفي الحكم عما لم يوجد فيه ذلك الوصف أو الشرط، كما تقرر في الأصول.

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والدارمي.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

ومن اللطيف أن ننص هنا ـ للتوثيق وتجنيب الشذوذ ـ على أن الشافعية ـ رحمهم الله تعالى ـ قالوا بندب قضاء النفل المؤقت، قياساً على قضاء الفرائض، بجامع التوقيت.

لكن داود خالف الإجماع بإنكاره القياس، الذي هو الاجتهاد في كلام الشافعي، فتورط في مخالفات ومفارقات عجيبة.

فانظر يا أخي، رعاك الله، كم بين التفتح والاجتهاد، وبين التجمد والانغلاق من فرق، في المسلك والأثر؟

وفقني الله وإياك، لاتباع سبيل أهل العلم والاجتهاد، وجنبنا الابتداع، ومشاقة الله والرسول، بمخالفة إجماع المؤمنين، والله ولي التوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والآن ننتقل إلى غزوة بني قريظة، التي وليت غزوة الأحزاب مباشرة.

• • •

غـزوة بـني قريـظة

من أهم طوائف اليهود، بنو قريظة، وكان لهم موقف خاص سيِّـىء مع رسول الله ﷺ كما كان لبني قينقاع، وكما كان لبني النضير.

وكانوا قد هادنوا المسلمين بعد الهجرة، كما رأينا في الوثيقة، وأوجب لهم الرسول ﷺ فيها النصرة والحماية، وشرط عليهم ألا يغدروا ولا يعينوا عدواً ولا يعتدوا.

غير أن خطورة الدين الجديد، وتنظيمه السديد الرشيد للمجتمع الإسلامي، بمؤاخاته بين المسلمين، وإصلاحه ما بين الأوس والخزرج، ثم إسلام حبرهم عبد الله بن سلام، جعلهم يحذرونه ويخشونه على كيانهم، ويكيدون له، ويتربصون به، ويهمون بحربه بلا هوادة: بالتشكيك في العقيدة، والدس بين المسلمين، وممالأة المنافقين، بل المشركين ضد المسلمين.

وكان من أمر بني قينقاع، أن تحرشوا بحجاب المرأة المسلمة، وقاموا بأول خيانة للمسلمين، ونقض عهدهم، وأدى ذلك إلى محاصرتهم، وتدخل عميلهم ابن أبـيّ ابن سلول في الإحسان إليهم، فأمرهم بالخروج من المدينة، فغادروها إلى أذرعات؛ فكانوا أول من طرد من اليهود من المدينة.

وكان من أمر بني النضير أنهم هموا بقتل رسول الله ﷺ لما جاءهم ليقترض منهم دية قتيلي بني كلاب، وأدى ذلك إلى حصارهم، وقطع نخيلهم الجيد، مما روعهم، فخربوا بيوتهم بأيديهم، وخرجوا بالأخشاب والأسلاب، مغادرين المدينة إلى خيبر وما وليها من الشام.

وها هم أولاء بنو قريظة، ألبوا قريشاً على النبيّ ﷺ وتكتلوا معهم في الأحزاب، وقطعوا المؤنة عن المسلمين، حتى مسهم الضر، ولولا أن الله تعالى أرسل جنوده، وأثار الريح الهوجاء، تعصف بالمشركين، وتزلزل أقدامهم، وتخسف خيامهم، مما اضطرهم بعد طول الحصار إلى الارتداد عن المدينة، بذيول الفشل والخيبة، لخذل المسلمون، ولم تقم لهم قائمة بعد.

لهذا لما اتجه النبيّ ﷺ إلى المدينة بعد أن رأى جموع الأحزاب تكسر طريقها بالمطي راجعة إلى مكة، تحمل معها الندامة المؤسفة والحسرات المستطيلة، أتاه جبريل ـ كما روى ابن إسحاق وغيره ـ معتجراً ـ معتماً ـ بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة ـ سرج ـ عليها قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، قال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله ـ عزّ وجلّ ـ يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.

فأمر رسول الله ﷺ بلالاً، فأذن في الناس: «من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلين العصر إلا ببني قريظة»[١]، واستخلف علىٰ المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية علي بن أبي طالب.

واتجه الناس إلى بني قريظة أفواجاً، ورسول الله ﷺ في إثرهم على حماره، حتى بلغوا ثلاثة آلاف مقاتل. وما إن دنا علي من حصونهم حتى سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ فرجع فقال: يا رسول الله! لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم، يا رسول الله، فقال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلما دنا من حصونهم، قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله، وأنزل بكم نقمه؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً ولا فحاشاً.

فلم يكترث بقولهم، وأمر بحصارهم، فحوصروا حصاراً شديداً، حتى

(١) رواه البخاري.

جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وأيقنوا أنه لا مفر من التسليم، فقال لهم رئيسهم كعب بن أسد: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال:

١ ـ نتابع هذا الرجل، ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم إنه لنبيّ مرسل، وإنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره.

٢ ـ قال: فإذا أبيتم علي هذه، فَهَلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه، رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد؛ فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟

٣ ـ فإن أبيتم علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا، إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. قال: «ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً».

وذكر ابن هشام، أنهم أرسلوا حينئذ إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة، أحد الأوسيين حلفائهم، نستشيره، فأرسله إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وأجهش النسوة والصبيان بالبكاء، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة: أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله؛ وانطلق حتى أتى المسجد، فارتبط إلى عمود من عموده، وقال: لا أبرح مكاني حتى يتوب الله علي مما صنعت. وظل مرتبطاً على هذه الحال، ست ليال،

تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع.

وقد نزل في توبته قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[1]. فضحك رسول الله ﷺ لما نزلت عليه وهو في بيت أم سلمة، فسألته مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك؟ قال: تيب على أبـي لبابة. فقالت أفلا أبشره؟ قال: بلى، إن شئت، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب، فبشرته؛ وثاب الناس إليه ليطلقوه، فأبـى إلا أن يطلقه رسول الله ﷺ بيده؛ فأطلقه بيده الشريفة، وهو خارج إلى صلاة الصبح.

غير أن بني قريظة تشاورت فيما بينها، بعد مقالة أبـي لبابة، وقال قائلهم: لن نكون أسوأ من بني النضير مصيراً، وعرضت على النبـيّ ﷺ أن تخرج إلى (أذرعات) في بلاد الشام، فأبـى إلا أن تنزل على الحكم، وقال للأوسيين، ـ وكانوا حلفاء اليهود ـ : ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم؟ قالوا: بلى، قال: فقولوا لهم، فليختاروا من شاؤوا.

واختاروا سعد بن معاذ، هذا الذي قدم إليهم لما نقضوا العهد، وحالفوا الأحزاب، وحذرهم مغبة الغدر، وسمع بأذنه وقوعهم في النبـيّ ﷺ وسب المسلمين بغير حق.

وقام سعد بمهمته، فأخذ المواثيق من كلا الفريقين، بالنزول على حكمه والتسليم به، فلما أعطي المواثيق قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبـى الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[2] (أي سموات).

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم.

وحفرت الخنادق في سوق المدينة، وسيق اليهود أرسالاً (جماعاتٍ) إليها، لتنفيذ الحكم السماوي فيهم، كانوا ــ على اختلاف الروايات ــ بين الستمائة والتسعمائة، وفيهم سيدهم كعب بن أسد، فقالوا له ــ وهم يساقون إلى الرسول ﷺ ــ : يا كعب! ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!.

وجيء بحُيَيٍّ بن أخطب ــ شيخ تلك الغزوة، ومدبر الفتنة التي همت أن تمحق المسلمين، لولا أن الله لطف بهم، وكفاهم القتال بجند من عنده ــ وقد جمعت يداه إلى عنقه بحبل، فنظر إلى رسول الله ﷺ وقال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، ملحمة كتبها الله على بني إسرائيل. ثم جلس فضربت عنقه. ففي قتله يقول جبل بن جوال الثعلبي اليهودي الذي أسلم بعد ذلك، وكانت له صحبة:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسَه ... ولكنه من يَخذل اللَّهُ يُخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كل مقلقل

وكما أشار القرآن الكريم إلى صرف المشركين عن المسلمين ــ كما أسلفنا ــ بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[1] أشار إلى تمكين المؤمنين من اليهود الذين أيدوا المشركين بقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾[2].

• • •

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.
(٢) نفسها: الآيتان ٢٦ و٢٧.

الدروس والمبادىء

من أهم الدروس والمبادىء التي يمكن الاعتبار بها من هذه الغزوة ما يلي:

١ ــ الإسلام يدعو إلى السلم، ويسالم المعاهدين، ويفتك بالغادرين:

وفي النبيّ ﷺ والمسلمون بعهدهم في الوثيقة التي عقدوها لليهود، وما أخلوا ببند منها؛ لكن اليهود، كانوا في كل مرة هم الغادرين، وهم الذين أخلوا مرة بعد مرة بما نصت عليه الوثيقة.

فبنو قينقاع منهم عبثوا بحجاب المرأة المسلمة، وهددوا الرسول ﷺ والعهد قائم بينهم وبينه؛ وبنو النضير هموا بقتل الرسول ﷺ والعهد ما يزال قائماً؛ وها هم أولاء بنو قريظة يؤلبون قريشاً والمشركين العرب على رسول الله ﷺ ليجهزوا نهائياً على الدولة المسلمة الناشئة، ورسول الإسلام، وعلى المسلمين، فيقتلوا رجالهم، ويسترقوا نساءهم، ويمزقوا ذريتهم.

وما يكون للإسلام ــ وإن كان هو دين السلام ــ ، أن يقف ساكتاً مسالماً، مكتوف الأيدي حيال هذه الخيانات القذرة المسفرة؛ لهذا تصدى لهم في كل مرة؛ ولا خير في قوم ينقضون العهد مرة بعد مرة، وهم يرون عواقب نقض العهود، ونكث المواثيق، لا في غيرهم، بل في أنفسهم وإخوانهم.

ولا يمكن للسلم أن يستتب، ولا للعدالة أن تستقر، إلا بالقوة التي تذود عنها، وتحمي حماها، وتضرب على يد كل عابث بها:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

وإن من الحلم ومن السلم ــ أن يقضي على الظلم، حينما يكشر عن أنيابه، ويقلّم الغدر كلما أطال أظفاره، واستحد مخالبه، كيلا تقوم لهما قائمة أمام السلام.

ففي مثل هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾[1]. ويقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[2].

٢ ــ من مكر اليهود أنهم كانوا دائماً يعرفون الحق الذي هو لهم، ولا يعرفون الحق الذي هو عليهم:

كان اليهود يعرفون جيداً أن محمداً رسول الله ﷺ ــ كما قدمنا ــ وكما أخبر القرآن عنهم أكثر من مرة بقوله: «يعرفون كما يعرفونه أبناءهم». ومن مقتضيات هذه المعرفة، ومن حقوقها أن يؤمنوا به، ويوقرون ويعزروه، ولا يمسوه بأي أذى.

لكن يهود بني قريظة، كانوا كغيرهم من اليهود، كافرين بمحمد ورسالته، يظهرون له المودة والاحترام، ويضمرون له في أنفسهم حقداً دفيناً، ومكراً سيئاً ماكراً.

غير أن المناسبات الخاصة كانت تحرجهم، فتظهر ما يبيتون من المكر، ويدفنون من الحقد؛ وليست الخدعة التي ضرب بها الأشجعي بينهم وبين المشركين بالشيء الهين اليسير، فقد فرقت الجمع، وقطعت دابر الكفر بألوانه،

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

فخرج القوم عن طورهم، ونالوا بألسنتهم من رسول الله ﷺ، وسمع مقالتهم علي ـ رضي الله عنه بأذنه ـ فهرع إلى الرسول ﷺ ورجاه ألا يقاتل هؤلاء الأخابث.

فعلم ما وراء ذلك، وقال: لو رأوني لم يقولوا شيئاً.

لكنه سعى إليهم موبخاً، قائلاً: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله. . . ؟

ولا يخفى ما يحمل هذا التعنيف في شحنته من معان؛ ولا تخفى على أحد صفات القردة، فانظر كيف قابل الجبناء هذا التعنيف بقولهم: «يا محمد ما كنت جهولاً ولا فحّاشاً»!.

وإذا لم يكن محمد فاحشاً، فهل من مقتضيات ذلك أن يتطاول عليه، أو أن يمس بسوء؟ وهل من لوازم الإسلام ورسول الإسلام، أن يتآمر عليه، ويتألب ضده، والعهد قائم بينه وبينهم، وتحشد جموع الكفار كلها، وتضرب الحصار عليه، للقضاء عليه، فلا ينطق بكلمة سوء، وليست الكلمة إلا تلك التي وسمهم بها رب العالمين بقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾[1].

إنهم يعرفون أخلاق محمد، ويعرفون الحق الذي يدعو إليه، لكنهم ينكرون كل حق لهذه المعرفة، ولا يعترفون لها بحرية ولا تقدير سلطان.

إنهم يريدون أن ينالوا من محمد كل نيل باللسان والسنان، ليشفوا ما في قلوبهم من غل وعلل، إزاء الإسلام ورسوله، ولا يرضون بعد ذلك أن يدافع محمد عن نفسه، بكلمة ما، لأن خلقه عظيم، وليس بفحاش ولا سباب.

لهذا لم يأبه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأمانيهم وترهاتهم هذه، فواجههم بفتنتهم، وتصدى لهم ـ بعد أن ولى المشركون بخزيهم ـ ليصفي حسابه معهم، ويكيل لهم بالصاع الذي كالوه له مع المشركين.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٦٦.

ولقنهم درساً في عواقب الغدر، لا تنساه الأجيال، ولا تبليه الليالي، جزاء وفاقاً.

٣ ــ اليهود لا يؤمنون بالتوراة إلا شكلاً، ولا يؤمنون إلا بأنفسهم:

دلت قصة سيد اليهود كعب بن أسد، وعرضه عليهم ثلاث خصال: الإيمان بمحمد، فإنه تبين لهم ــ على حد تعبيره ــ أنه رسول الله؛ أو الخروج إليه بعد تقتيل النساء والأولاد، ليجرؤوا على قتاله؛ أو مباغتته يوم السبت. على أن اليهود كانوا يتعللون بالإيمان بالتوراة، وما كانوا بها مؤمنين، كانوا يؤمنون منها بما يحلو لهم؛ كانوا يؤمنون بأنفسهم، وبما يحقق مصالحهم، وآمالهم؛ فإذا جد الجد، وأمروا بأن يقتلوا أنفسهم، تكفيراً لذنوبهم، أو أن يقتلوا ذراريهم، ليخلصوا للجهاد، تثاقلوا وانقبضوا: ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾[1]. ومن قبل قالوا لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾[2].

إنهم كالطفل المدلل بالمادة، والمعلل باللهو واللعب، لا شخصية له ولا وجهة، ولا رأي ولا مبدأ، كان أحسن وصف لهم ما قاله سيدهم كعب بن أسد، في هذه المحاورة، وبعد أن طرح عليهم هذه العروض: «ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً». لقد قال لهم سيدهم: «قد تبين لكم إنه لنبيّ مرسل» وأخذ عليهم في التوراة أن يؤمنوا به، وبينت لهم فيها صفاته، وأمارات النبوة، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[3].

كفروا به، لأنهم كانوا يحصرون على أن يكونوا هم السادة، لا أن يكونوا

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٨.

(٢) سورة المائدة: الآية ٢٤.

(٣) سورة البقرة: الآية ٨٩.

تابعين لمحمد؛ وما كانت أنفسهم لتطيب بهذه التبعية؛ ولو أنهم نسوا أنفسهم، وذكروا التوراة، وآمنوا، لانتهت كل المشكلات والمتاعب.

وفي سبيل أنفسهم، خالفوا أحكام التوراة، بل عتوا واجترأوا، وحرفوا كلمها، وغيروا ما شاؤوا أن يغيروا، لتنسجم مع مصالحهم المادية، فنقضوا المواثيق، وصدوا عن سبيل الله، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وأكلوا الربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، وتقولوا على مريم، وزعموا أنهم قتلوا المسيح ابنها ـ عليهما السلام ـ وعدوا في السبت، وهموا بقتل محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كما بينا في غزوة النضير، بل همَّ الآن بنو قريظة بأن يفتكوا به وبالمسلمين جميعاً، ويسبوا ذراريهم، ويسترقوا نساءهم، ويبيعوا أطفالهم في أسواق الرقيق؛ فهل بذلك أمرتهم التوراة، وهي التي نزلت نوراً وهدى لهم؟ وهل هذا كله من محاسن إيمانهم بها؟

إن هذا ليدل على أنهم ما فهموها، ولا آمنوا بها، ولا طبقوا أحكامها، فكانوا كما قال القرآن الكريم فيهم: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾[1]. لقد آمن بالتوراة فريق منهم، كما نزلت، وآمن بما أوجبت، وسارع إلى الإيمان برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ كورقة، وابن سلام، ومخيريق، وآخرين. فلم يزدهم ذلك إلا عتواً ونفوراً، وحقداً على الإسلام، وإيغالاً في ماديتهم، وإغراقاً في حب أنفسهم.

٤ ـ المؤمن يبادر إلى التوبة، ويفرح بتوبة الله عليه:

كان أبو لبابة الأوسي، حليفاً لليهود، وقد استشاره هؤلاء ـ كما رأينا ـ في النزول على حكم محمد؛ فأشار عليه بالنزول على حكمه، وأومأ بيده إلى حلقه، يعلنهم أن محمداً مصمم على إبادتهم ذبحاً، واستئصالهم إن لم ينزلوا على حكمه.

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٥.

لكنه ما عتم أن علم أنه أفشى سراً مكتوماً لرسول الله ﷺ وأنه تسارع بذلك، وخان الله ورسوله.

فبادر إلى التوبة، وحكم على نفسه بالسجن، فارتبط بسارية من سواري المسجد، لا تحل وثاقه إلا زوجه للصلاة؛ وظل على تلك الحال نحو أسبوع. . .

إنها إقرار بالذنب، واعتراف بالسيئة، ومبادرة إلى العقوبة الذاتية التلقائية، دون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة.

إنها صورة تطبيقية لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾[1].

إنها صورة فريدة لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسه، على نفسه. . . ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان، وما ذلك إلا من آثار الإيمان العميق الراسخ، الذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثم أو فسوق.

ومن نظائر ذلك ــ وهي كثيرة ــ إسراع الغامدية إلى رسول الله ﷺ وقولها له: طهرني؛ وكذلك إلحاح ماعزٍ الذي ألمَّ بها على التطهير أيضاً، واعترافه بإثمه مرة بعد مرة، حتى نفذ فيه وفي صاحبته الحكم.

وقد فرح الصحابة وفرح النبـيّ ﷺ نفسه، بتوبة الله على أبـي لبابة، وتسابقوا إلى تهنئته، حتى كانت أم سلمة زوجة النبـيّ ﷺ هي التي بادرت بالتهنئة بعد الإذن فبشرته بقبول الله وتوبته.

وهذا مما يشير إلى أن المجتمع المسلم وحده وحدة متماسكة متراحمة، تعنى بالنظافة، وتحرص على الطهارة القلبية، ولا ترضى أن يكون فيها فاسق أو عاص، أو محروم من رحمة الله ومرضاته؛ تقلق لألم الفرد، وتسعد بسعادته، وتفرح بفرحه.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧.

٥ ـ كان الفتك ببني قريظة حكماً موفقاً وقصاصاً عادلاً:

قد تبدو القسوة في إعدام رجال بني قريظة، بهذا الشكل، وكانوا مئات؛ فهلا خفف الحكم بالنفي، كما كان شأن بني النضير، وبني قينقاع، وأين رحمة الإسلام، ـ كما قيل ـ من هذه الملحمة التاريخية؟

والجواب: أن بني النضير وبني قينقاع، خانوا العهد، ونقضوا الميثاق، فكانت الحكمة في تطهير الأرض منهم، إذ كيف يمكن أن يخلد إليهم، ويوثق بهم، وقد نبذوا المواثيق، وغدروا بالعهود.

أما بنو قريظة، فقد كانوا شيئاً غير ذلك، كانوا قتلة، متمالئين مع الكفار على سحق الإسلام والمسلمين، ووأد الإسلام في مهده، وكانوا مصرين على ذلك، لم يتوبوا، ولم يستغفروا ولم ينزعوا. حتى إن حيـي بن أخطب لما جيء به للقتل صرح بأنه ما لام نفسه على عدائه محمداً؛ وواجه الموت ـ كما ترى ـ بشيء من الرجولة والقوة، وتحمل التبعة، وصرح بأنه لا بأس بأمر الله، وأنه كتاب وقدر.

ومعنى هذا الكلام الإحساس العميق، بأن ما نزل فيهم كان بما اقترفته أيديهم، وأنهم نالوا جزاء فعلتهم قصاصاً عادلاً؛ ترى ماذا كانوا فاعلين بالمسلمين لو نجحوا مع المشركين في مؤامراتهم؟ أما كانوا ليجردوا حملة إبادة واستئصال، لا تبقي من المسلمين ولا تذر؟

إن العفو عنهم، هو بمثابة إعطائهم مهلة ليقوموا فيما بعد بتنفيذ ما عجزوا عنه من قبل: وليس في ذلك حكمة ولا مصلحة... بل تمكين المجرمين من تنفيذ الجريمة.

إن في القصاص لحياة، وإن في العدالة لرحمة، وإن الرحمة في القصاص من المجرم منعاً لإجرامه، وفي القضاء على الإجرام حيث وجد، قطعاً لدابر الفساد، وحسماً لمادة الشر.. وقد قال النبيّ ﷺ: «أنا نبـيّ الرحمة، وأنا نبـيّ

الملحمة»[1] وللرحمة مواطنها، وللملحمة مواطنها. ومن الحكمة وضع الرحمة في أهلها، ووضع السيف في أهله، بحق وعدل.

نعم لم يرحم الإسلام بني قريظة، لفظاعة جريمتهم، وبالغ خيانتهم، وكان في ذلك عادلاً حكيماً.

لكن هل عدل اليهود في تقتيل الآلاف من إخواننا في فلسطين، وفيما جاورها في أيامنا، وقت الاحتلال الغادر، وفي النزوح الغاشم، وفي الإبادات الجماعية جنوب لبنان؟ ولماذا نسي اليهود هتلر والنازيين الذين نصبوا لهم المجازر، وأوقدوا لهم الأفران في أوروبا؛ وذكروا إخواننا في فلسطين، أولئك العزل الأبرياء، فحصدوهم، وما يزالون يحصدونهم بالنار، ويسحقونهم بالمدرعات، ويقصفون قراهم بالقنابل، على سمع العالم وبصره بعد أن أخرجوهم من ديارهم، واستعمروا أوطانهم، وجردوهم من كل قوة وطوق وقدرة؟

إنهم عجزوا عن مواجهة القوة، فواجهوا المستضعفين.

إنهم لا يخضعون إلا للقوة؛ فهل فهم المسلمون جيداً قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2].

٦ ـ يستجيب الله دعاء المتقين المخلصين، والرسول ﷺ يأمر بإكرامهم:

كان سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ سيد الأوس، الذين كانوا حلفاء بني قريظة؛ وقد أصيب يوم الأحزاب، ودعا دعوة بني قريظة، فاستجاب له ربه، وحكم فيهم، فحكم عليهم، وكان حكمه هو حكم الله من فوق السموات.

روى ابن إسحاق أن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ كانت في حصن

---

(١) رواه الإمام أحمد، ورواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن، قالت عائشة: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب.

فمر سعد وعليه درع مقلصة، خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته ــ يرقد (يسرع) بها ويقول، متمثلاً:

لبِّث قليلاً يشهد الهيجا حمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق يا بني، فقد ــ والله ــ أخرت!.

قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، قالت: وخفت عليه، حيث أصاب السهم منه، فرمي بسهم قطع منه الأكحل. وقال له الذي رماه فأصابه؛ خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار.

ثم دعا سعد بهذه الكلمات:

«اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها، فإنه لا قوم أحب إلي أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك، وكذبوه وأخرجوه؛ اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة».

وهذا دعاء يتجلى فيه الإخلاص لله في حرب قريش التي آذت الرسول ﷺ وكذبته، وفي طلب الشهادة في سبيله، وفي شفاء غليل النفس من خيانة اليهود، ونقضهم العهود، وتمالئهم المقبوح لاجتياح المسلمين؛ وقد سمع الله ــ تعالى ــ هذا الدعاء المخلص، واستجاب له.

كان جرح سعد بليغاً، فأمر النبيّ ﷺ بمداواته في خيمة رفيدة في مسجده، وكانت تداوى فيها الجرحى، وتخدم من كانت به ضيعة من المسلمين، وقال: اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب.

فلما حكم في بني قريظة، حمله قومه على حمار، ووطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، وأقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك؛ وأكثروا عليه، فقال: لقد أنى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم؛ فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى سيدكم»[1]. فلعله أراد الأنصار، أو عَمَّم معهم المهاجرين.

وكفى بهذا تكريماً لسعد، وتقديراً لشخصه، إذ سماه سيداً، وأمر بالقيام له؛ فحكم بحكمه الحاسم الفاضل، كما رأينا، بعد أن أخذ المواثيق على التسليم بحكمه، ونفذ الحكم في بني قريظة، فاستجيبت دعوته، وقرت عينه، بوضع السيف فيهم، والإجهاز عليهم.

وكان قد اندمل جرحه الذي أصابه يوم الخندق، فاستجيبت دعوته الأولى، بأن يستشهد في حرب قريش.

وليس ذلك فحسب كل ما أكرم به سعد، فقد روى ابن إسحاق أن جبريل ــ عليه السلام ــ أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد بن معاذ من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق، فقال: يا محمد، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟ قال: فقام رسول الله ﷺ سريعاً يجر ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات.

ولما حمله الناس، وجدوا له خفة، فقالوا: «إن كان لَبَادِناً، وما حملنا من جنازة أخف منه»، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن له حملةً غيركم؛ والذي نفسي بيده، لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش»[2].

ولما دفن، سبح رسول الله ﷺ فسبح الناس معه، ثم كبر فكبر الناس معه،

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري والترمذي وابن ماجه.

فقالوا: يا رسول الله! مم سبحت؟ قال: لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره، حتى فرجه الله عنه؛ وقال: «إن للقبر لضمة، لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ»[1].

وهكذا يستجيب الله دعاء أوليائه المخلصين المتقين، وهكذا يحتفي بهم في الدنيا، وفي أول برازخ الآخرة، ويخصهم برحمته، ويسخر ملائكة لخدمتهم؛ وهكذا أيضاً يكرم رسول الله ﷺ أولياء الله المجابي الدعوة، فيأمر بالقيام لهم احتراماً وإجلالاً، ويشيع جنازتهم، ويشهد دفنهم، ويشيد بما يرى لهم من تكريم في قبورهم في الأرض، ولأرواحهم في أعالي السماء.

وغني عن البيان بعد هذا، أن قصة سعد هذه أشارت في ثناياها إلى شرعية تسويد أعلام المسلمين من الصحابة وغيرهم، والقيام لأهل العلم والفضل في الدين ــ كما تقرره كتب الفقه والحديث ــ ؛ كما أشارت إلى كرامات الأولياء، في الحياة وبعد الممات ــ كما تقرره كتب التوحيد ــ .

اللهم اجعل لنا في سعد وأمثال سعد، أسوة صالحة، وقدوة تحتذى، في إخلاص العمل، وتعلق القلب بالانتصار لدين الله، والشهادة في سبيله.

هذا: ويحسن أن نسجل هنا أن النبيّ ﷺ بعد غزوتي الخندق وبني قريظة، تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم تزوج بعدها زينب بنت جحش ــ رضي الله تعالى عنهما ــ .

• • •

---

(١) رواه الإمام أحمد.

عـمرة الحـديبـية

وربما عبر بعض الكاتبين بغزوة الحديبية؛ وربما عبر آخرون بصلح الحديبية.

والحق أنها ما كانت غزوة، فما خرج الرسول ﷺ فيها غازياً، وإن كادت؛ وما كانت صلحاً إلا في النهاية؛ وإنما خرج يريد العمرة في ذي القعدة سنة ست.

وقد رأى النبيّ ﷺ فيما يرى النائم ـــ ورؤيا الأنبياء حق وشرع ـــ أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، آمنين، محلقين رؤوسهم ومقصرين؛ فأخبر المسلمين أنه يريد العمرة، فقد طال استبداد المشركين بالبيت الحرام، وهو من ميراث إبراهيم وإسماعيل، ولا حق لأحد في احتكاره، واحتجاز الناس عنه.

وقد رسخت أقدام المسلمين بعد حروب طويلة، وقتال المشركين واليهود: أما هؤلاء فقد نفوا من الأرض، وطهرت منهم المدينة، وأما أولئك فقد لملموا ذيول الفشل، ولم يجرؤوا على دخول المدينة، وارتدوا عنها بدون أي خير أو نصر.

أذَّن، رسول الله ﷺ في الناس، بأنه يريد الخروج للعمرة، واستنفر الأعراب الذين كانوا يقيمون حول المدينة، ليكونوا معه، حذراً من قريش أن تردهم عن عمرتهم. غير أن هؤلاء الأعراب ومن كان على شاكلتهم من المنافقين، قعدوا متباطئين عن الخروج، إذ كانوا يظنون أن قريشاً ستصد المسلمين عن البيت، ولن

تدعهم يتقربون منه، ولو أداها ذلك إلى حمل السلاح، والقتال في المسجد الحرام؛ فتعللوا بأنهم مشغولون بأموالهم وأهليهم، وعولوا على البقاء، وآثروه على العمرة المحفوفة بالأخطار.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾(١).

فخرج الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمن معه من المهاجرين والأنصار، وكانوا في حدود الألف والخمسمائة؛ وولى على المدينة ابن أم مكتوم، وأخرج معه زوجه أم سلمة؛ أحرموا في ذي الحليفة يلبون، واستاقوا الهدي، ليعلم الناس أنهم ليسوا محاربين، بل قاصدين زيارة البيت الحرام؛ وإن كانت سيوفهم مغمدة في قرابها، فليس من المشروع أن يحملوها مشهرة، وهم في عمرة.

وسار المسلمون حتى بلغوا عسفان (على مرحلتين من مكة) فجاء بشر بن سفيان، الذي انطلق ليطلع على خبر قريش، فقال: يا رسول الله! هذه قريش، قد سمعت بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش، وأجلبت ثقيفاً معهم، ومعهم النساء والصبيان: ليكون أدعى لعدم الفرار، وأخذوا العوذ المطافيل (النوق ذوات الأطفال) ليشربوا ويأكلوا، وقد لبسوا جلود النمور، عازمين على القتال حتى الموت، وقد نزلوا الآن بذي طوى، يعاهدون الله، لا تدخلها عليها أبداً، وهذا خالد بن الوليد في مائتي فارس، طليعة لهم، ليصدوا المسلمين عن التقدم.

فقال رسول الله ﷺ: أشيروا علي أيها الناس. فقال له أبو بكر: يا رسول الله! خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فمن

---

(١) سورة الفتح: الآيتان ١١ و١٢.

صدنا عنه قاتلناه. قال: امضوا على اسم الله، ثم نادى: هل من رجل، يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟ فتقدم رجل من بني أسلم وقال: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقاً مجهولاً وعراً موحشاً، يتلوى بين الشعاب الضيقة، صعوداً وهبوطاً، في سفوح تكسوها الحجارة الحادة، التي تدمي الأقدام، ثم أفضى بهم إلى واد رملي واسع، أحسوا بأقدامهم أنه بساط لين، فحمدوا الله واستغفروه.

ولما رأى خالد ما فعله المسلمون، وتحويلهم الطريق، عاد إلى قريش فأخبرها بذلك.

ولما وصل المسلمون إلى ثنية المرار (منطقة بين الجحفة ومكة تشرف على الحديبية)، بركت ناقة النبيّ ﷺ، فزجروها فلم تقم، فقالوا خلأت القصواء (أي بركت من غير علة)، فقال: ما خلأت، وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل؛ والذي نفس محمد بيده، لا تدعوني قريش لخصلة فيها تعظيم حرمات الله، إلا أجبتهم إليها، ثم زجرها فوثبت، فمال بالمسلمين حتى نزل في أقصى الحديبية على حفيرة لم يكن فيها إلا قليل ماء، فانتزعه القوم، وشكوا إليه العطش، فانتزع سهماً من كنانته، وأمرهم أن يجعلوه فيها، فما زالت البئر تجيش لهم بالري حتى صدروا عنه، وقد رووا.

تبادل الرسل للمفاوضة:

أقبل على النبيّ ﷺ بديل بن ورقاء مع رجال من خزاعة، موفَداً من قريش التي سرعان ما علمت باتجاه المسلمين الجديد، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي، وقد نزلوا مياه الحديبية ومعهم العوذ المطافيل (النوق ذوات اللبن والأطفال) وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت؛ فقال رسول الله ﷺ إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين؛ إن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاؤوا هادنتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس؛ فإن أَنتصر وشاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا (استراحوا)؛ وإن هم أبوا فوالذي نفسي

بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي (تضرب عنقي) ولينفذن الله أمره.

فرجع بديل إلى قومه، وبلغهم ما سمع، وقال: إنكم تعجلون على محمد. وإنه ما جاء يريد قتالاً، بل جاء معتمراً، لكنهم اتهموه واتهموا من معه، وأغلظوا لهم القول، وقالوا لهم في عنجهيتهم: وإن جاء لا يريد قتالاً، فوالله لا يدخلها علينا عنوة، ولا تحدّث بذلك عنا العرب.

ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص الأخيف، وعرف النبيّ ﷺ في وجهه الغدر، ورجع بمثل ما رجع به بديل.

فبعثوا إليه بسيد الأحابيش، الحليس بن علقمة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون (يتعبدون)، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي (جانبه) رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، وأخبرهم بذلك؛ فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

فغضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده، لتخلُّن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: كف عنا يا حليس، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به.

ثم إنهم بعثوا بعروة بن مسعود الثقفي، بعد أن استوثق من صلته بهم، واطمأن إلى ثقتهم به، فأتى رسول الله ﷺ فقال له: جمعتَ أَوْشابَ الناس، ثم جئتَ بهم إلى بيضتك لتفضها (إلى قومك لتجتاحهم)؟ إنها قريش، قد خرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة، والله لكأني بهؤلاء، قد انكشفوا عنك غداً.

فقال له الصديق: ويحك، أنحن ننكشف عنه؟

وكان عروة خشناً جافاً، إذ جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، كأنه ينبهه إلى خطورة ما سيحل بقومه؛ وكان المغيرة بن شعبة يقرع يده كلما فعل ذلك، ويقول له: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك، فيقول عروة: ويحك ما أفظك وأغلظك! فأجابه رسول الله ﷺ: هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فقال عروة للمغيرة: أي غدر، وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس؟ يشير ـ كما ذكر ابن هشام ـ إلى أن المغيرة قتل قبل إسلامه ـ وكان في الجاهلية فاتكاً شريراً ـ ثلاثة عشر رجلاً، وأخذ أموالهم، فوداهم عروة، وأصلح الأمر.

وأكد النبيّ ﷺ لعروة ما ذكر لمن قبله من السفراء، وأنه لا يبغي حرباً، وإنما يريد زيارة البيت.

فرجع عروة يشيد بما رأى من صنيع الصحابة، وإجلالهم رسول الله ﷺ: لا يتوضأ إلا تزاحموا على وَضوئه يحملونه إليه، ويتمسحون بفضله، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر، تعظيماً له، فقال لهم: يا معشر قريش! إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكاً قط في قومه، مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً؛ فَرَوْا (أي انظروا) رأيكم، فإنه عرض عليكم رشداً، فاقبلوا ما عرض عليكم.

فقالت قريش: لا تتكلم بهذا، ولكن نرده عامنا هذا، ويرجع إلى قابل.

وكان الرسل يأتون قريشاً مقتنعين برغبة المسلمين الصادقة في أداء النسك والسلم، لكن قريشاً ـ ركبت رأسها، واستبد بها طيشها، وأصرت على صد المسلمين عن البيت بغياً وعتواً.

فلما أرسل رسول الله ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش على بعير يقال

له: (الثعلب)، ليبلغهم ما جاء له، عقروا البعير، وأرادوا قتله؛ فمنعه الأحابيش، وخلوا سبيله؛ كل هذا الغدر والنزق، والمسلمون يلزمون الهدوء، والسيطرة على أعصابهم.

فقد بعثت قريش ـ كما روى ابن إسحاق عن ابن عباس ـ أربعين رجلاً منهم أو خمسين، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ، ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً؛ فأخذوا أخذاً، فأُتي بهم رسول الله ﷺ فعفا عنهم، وخلى سبيلهم؛ وكانوا قد رموا في المعسكر بالحجارة والنبل.

ففي هذه العنجهية الجاهلية، والسماحة المحمدية يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

ولم يقنط النبيّ ﷺ من هدوء قريش واقتناعها بسواغية ما خرج له، فدعا عمر بن الخطاب ليقوم بهذه السفارة؛ وكان في الجاهلية يقوم ببعض السفارات بين القبائل، فقال: يا رسول الله! إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس في مكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها؛ ولكن أدلك على رجل أعز بها مني: عثمان بن عفان؛ فبعثه إلى أبـي سفيان، وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت للحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمته.

وانطلق عثمان، فدخل في مكة في جوار قريبه: أبان بن سعيد بن العاص، وبلغ الرسالة التي حملها؛ فقالت له قريش: إن شئت أن تطوف البيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ؛ فاحتبست قريش عثمان

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٦.

عندها، وأُشيع بين المسلمين أنه قُتل، فقال النبـيّ ﷺ عند ذلك: لا نبرح حتى نناجز القوم.

بيعة الرضوان:

كان هدي النبـيّ ﷺ أن لا يشن حرباً، ولا يقاتل عدواً، إلا برضى جنده المقاتلين، المحتسبين بقتالهم؛ فأمر عمر بن الخطاب بأن ينادي في المؤمنين: «أيها الناس، البيعة البيعة، نزل روح القدس، فاخرجوا على اسم الله».

وكان الرسول ﷺ جالساً في ظل دوحة، وارفة الظلال، فأقبل عليه المؤمنون، واحداً واحداً، يشدون يده، يبايعونه على الموت، وعلى أن لا يفروا من المقاتلة؛ فلما تمت البيعة بلغ النبـيّ ﷺ أن الذي ذكر له عن عثمان باطل، فضرب النبـيّ ﷺ بإحدى يديه على الأخرى، بيعةً لعثمان، كأنه حاضر معهم.

وبارك رب العالمين هذه البيعة الصادقة، والنفوس التي ارتاحت إليها، والقلوب التي ارتضتها، فأنزل القرآن يبشرهم بالفتح، والمغانم الكثيرة، وكف أيدي الكفار عنهم، ويقول: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ . . . ﴾[1].

عقد الصلح:

بلغ قريشاً تحفز المسلمين للقتال، وتوثبهم للشهادة، وتحرك السلاح فيهم، فقلقت واهتمت بالأمر، فأرسلت سهيل بن عمرو، وقالت له: ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا، أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

---

(١) سورة الفتح: الآيتان ١٨ و١٩.

ولما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً، قال: قد أراد القوم الصلح، حين بعثوا هذا الرجل. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح مبدئياً على هذه النقاط:

١ ــ أن لا يزور المسلمون البيت هذا العام.

٢ ــ أن توضع الحرب عشر سنين.

٣ ــ أن من خرج من مكة إلى المدينة يرده النبيّ ﷺ، ومن خرج من المدينة مرتداً عائداً إلى مكة لا ترده قريش.

٤ ــ أن من أراد أن يدخل في عهد محمد ﷺ دخل والتزم بالتزامه؛ ومن أراد أن يدخل مع قريش دخل والتزم بالتزامهم.

كانت هذه أهم البنود في ذلك الصلح، وكان عمر ــ رضي الله تعالى عنه ــ واقفاً يشهد التداول، ويسمع شروط الصلح، ودمه يغلي ويضطرب؛ وكان المسلمون يشهدون ويسمعون، في شيء كثير من القلق والشك؛ إذ سمعوا رسول الله ﷺ قبلاً يحدثهم عن الفتح، وأنهم سوف يدخلون المسجد الحرام، ويطوفون بالبيت، فكيف يتفق الآن على العودة، ويعاهد على هذه الشروط؟

قال ابن إسحاق، ناقلاً عن الزهري، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية (الذل) في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر! الزم غَرْزَه (أمره)، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! ألستَ برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن

يضيّعني. فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق، وأصوم، وأصلي، وأعتق، من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

كتابـة الصـلـح:

ولمّا تمّ الاتفاق على هذه البنود، جلس سهيل إلى رسول الله ﷺ وقال: هات، اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبـي طالب ــ رضي الله عنه ــ فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ اكتب: باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، قال: فقال رسول الله ﷺ: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو: اصطلحا:

١ ــ على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢ ــ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٣ ــ وأن بيننا عيبة مكفوفة (أي صدوراً منطوية على ما فيها) وأنه لا إسلال فيها ولا إغلال (أي لا سرقة ولا خيانة).

٤ ــ وأن على محمد وأصحابه أن يرجعوا عن مكة عامهم هذا، فلا يدخلوها.

٥ ــ وأنه إذا كان عام قابل، يدخلها بأصحابه، فيقيمون بها ثلاثة أيام، ومعهم سلاح الراكب، (السيوف في القرب)، لا يدخلها بغيرها.

٦ ــ وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

ولما سمع المسلمون تلك الالتزامات، بدا لهم أنها ليست في صالحهم، فقالوا في قلق بالغ: يا رسول الله! أتكتب هذا؟ قال: نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله؛ ومن جاء منهم فرددناه إليهم، سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب، أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين؛ وكان من المسلمين، أبو بكر، وعمر، وابن عوف، وسعد وعلي ــ كاتب الصحيفة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ .

وما إن تمت كتابة الصحيفة حتى جاء أبو جندل بن سهيل، يرسف في أغلاله، ملتحقاً بالمسلمين، لكن النبـيّ ﷺ وفى بالعقد، وأمره بالصبر، والاحتساب؛ وكانت محاورة في شأنه يائسة بين المسلمين والمشركين، كما سنرى.

التحلُّل من الإحرام:

ثم إن رسول الله ﷺ لما فرغ من الكتاب، قال لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا. قال الراوي: فوالله ما قام منهم رجل، قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، قالت أم سلمة: يا نبـيّ الله! أتحب ذلك؟ اخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك؛ فخرج فلم يكلم أحداً منهم، حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه؛ فلما رأوا ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، لعصيانهم ابتداء.

وبعث الله تعالى ريحاً شديدة، فحملت في ثناياها الشعر المحلوق، فألقته وحطت به في ساحة الحرم، فاستبشروا لما علموا بقبول الله عمرتهم، وإثابتهم عليها.

أقام النبـيّ ﷺ في الحديبية تسعة عشر يوماً، أو عشرين يوماً؛ فأمرهم

بالرجوع إلى المدينة، وكانوا يأملون أداء العمرة، أو أمره بالهجوم؛ فأطاعوا أمره في غير تلكؤ، حتى دخلوها.

فلما استقروا فيها جاءتهم مهاجرة أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، أخت عثمان لأمه، وسبيعة بنت الحارث، في أخريات من المؤمنات المستضعفات؛ فما كان أشد إشفاق الصحابة من ردهن إلى مكة، تطبيقاً لمعاهدة صلح الحديبية؛ لكن الوحي نزل بعدم انطباق نصوصه عليهن، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ . . . ﴾[1].

وبقي العقد سالماً سارياً فيما يتصل بالرجال، يطبقه النبيّ ﷺ في هدوء ونصفة، مستبشراً بالنصر القريب، والفتح المبين.

• • •

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

الدروس والمبــادىء

أسفرت غزوة الحديبية عن كثير من المبادىء والدروس والعبر، نذكر هنا منها:

١ ــ رؤيا الأنبياء حق ووحي وشرع:

قدمنا في أول هذه العمرة، أو الغزوة، أن النبـيّ ﷺ رأى في منامه أنه يدخل المسجد الحرام، هو والمسلمون، محلقين رؤوسهم، وذلك بعد أن طال العهد بمكة، واستبد المشركون بالبيت، فصدوهم عنه حتى في الأشهر الحرم، وخالفوا ما ألفوه من تأمين داخليه، ولو كانوا من ذوي الثأر.

فلما رأى رسول الله ﷺ هذه الرؤيا، استبشر، وحدث بها أصحابه، وأذن فيهم بالعمرة، لزيارة البيت العتيق.

وهذا الصنيع، يدل على أن رؤيا النبوة حق، ويثبت بها الحكم، الدال على الشرعية واقتضاء الامتثال؛ كما يثبت بالوحي المنزل؛ ومن ثم بادر النبـيّ ﷺ فخرج بأصحابه معتمراً، واستنفر العرب ومن حوله، خشية أن تعرض له قريش بحرب، أو تصده عن البيت.

ومن قبل قال إبراهيم في محنته وابتلائه لابنه إسماعيل ــ عليه السلام ــ وقد بلغ سن العمل معه: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا

تُؤْمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾[1]. فلما هم إبراهيم بالامتثال، وألقى إسماعيل على جنبه، وسقط جبينه على الأرض، لينفذ أمر الله، فداه بكبش عظيم.

إن مبادرة الرسول ﷺ إلى العمرة بعد الرؤيا، ومبادرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى ذبح ولده بعد رؤياه، مما يشهد بأن رؤيا الأنبياء حق، وأنه لا سبيل للشيطان على قلوبهم؛ وأن ما يرد في ثناياها من الأفعال، تكاليف شرعية، يجب عليهم الإيمان بحقيقتها، والعزم على امتثالها، والقيام بتنفيذها فعلاً.

٢ ـ التزام مبدأ الشورى في الأمور كلها، وعلى التخصيص في الحرب:

قدمنا أنه لما خرج النبيّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار، يريدون العمرة، سمعت قريش بخروجه، فاستنفرت الناس، تعاهد الله على أن لا يدخل مكة عليهم أحد أبداً، وعزمت على أن تصد المسلمين عن بيت الله، مهما يكن من الأمر.

وهذا موقف خطير، يحتاج إلى شيء غير قليل من التفكير والتدبر، فلجأ النبيّ ﷺ إلى المشورة، فقال: أشيروا علي أيها الناس! فقال له الصديق ـ رضي الله عنه ـ كلمته الحكيمة: خرجت عامداً لهذا البيت، ولا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه، ويبدو أن هذا كان رأي الآخرين، فما علمنا أن أحداً أبدى غير هذا الرأي، أو خالف فيه؛ فلهذا قال النبيّ ﷺ امضوا على اسم الله.

ومن قبل رأينا في بدر، كيف استشار الصحابة في مبدأ الخروج للقتال، واستشار في ميدان القتال، كما استشار في الأسرى.

وهذا يعني أن النبيّ ﷺ كان يلتزم مبدأ الشورى، في كل ما لم يتنزل فيه

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٢.

عليه وحي، تطبيقاً للقاعدة الكبرى التي أرساها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1]. وهذا يقرر أن الشورى هي أساس نظام الحكم في الإسلام، وأن الأمة المسلمة ينبغي أن تربى على هذه القاعدة، وتساس أمورها انطلاقاً منها، وخاصة فيما يتصل بالحرب؛ وأن الأمة ينبغي أن تشارك الحاكم في تحمل التبعات، وتدرب على الاضطلاع بالمسؤوليات الجسام في شؤون الدولة، حتى عندما يكون أمر الأمة في يد أمينة قادرة راشدة يوحى إليها من السماء؛ لا يلغى مبدأ الشورى ولا يعطل.

إن الشورى تعتمد رأي الجماعة، التي يكمن الحق والصواب في أفرادها، ويد الله مع الجماعة، و «إن أمتي لا تجتمع على ضلالة»[2]، ولو ترتبت بعض الأضرار على الشورى، في بعض الأحوال، فإنها خفيفة وطفيفة، بالقياس إلى الأضرار التي تقع نتيجة الاستقلال بالرأي، والاستبداد في الحكم، وفرض الفرد نفوذه، وسيطرته على الجماعة.

وفي التاريخ القديم والحديث أمثلة وعبر؛ وفي سقوط الإمبراطوريات، وتهاوي العروش، الدليل الصادق، على سيادة مبدأ الشورى، واندحار الرأي الفردي، الذي لا يأتي بخير، ولا ينتهي إلى خير.

وفي عهود عزة الإسلام، وسعادة جماعة المسلمين، كانت السيادة دائماً لمبدأ الشورى؛ وفي عهود الذلة والشقوة كانت السيادة للفردية البغيضة؛ وهذا من أكبر العبر، والدلالة على مبلغ أثر الشورى في منهج القرآن، والتربية المحمدية؛ وتمت كلمة ربنا تعالى في وصف المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٢) رواه ابن ماجه.

(٣) سورة الشورى: الآية ٣٨.

٣ ـ تجرد النبيّ ﷺ من ذاتيته في سبيل الدعوة:

إن مما يلفت النظر في هذه العمرة أو الغزوة، هو مبادرة النبيّ ﷺ إلى موادعة قريش، ورغبته الظاهرة في السلم والسلام، وهو حديث عهد بهم، في حرب كادت ـ لولا العناية الإلهية ـ تنسف المدينة، وتقتلع منها جذور الإسلام، وتأتي على المسلمين جميعاً، كما رأينا في غزوة الأحزاب.

ومع أن المشركين ارتدوا عن المدينة خاسرين جولتهم، فها هو النبيّ العظيم الرؤوف الرحيم، وهو في طريقه السلمي المسالم إلى بيت الله الحرام، عندما بركت ناقته، وتصايح الناس يقولون: خلأت القصواء، يقول، وهو الصادق الأمين المصدوق: «ما خلأت وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والذي نفس محمد بيده، لا تدعوني قريش اليوم، لخطة فيها تعظيم حرمات الله، إلا أجبتهم إليها، ولا إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»[1].

بعد تلك الحرب الضروس، وما قبلها من الحروب والمواجهات والدماء المهراقة، يعلن استعداده للمهادنة الإيجابية في سبيل الدعوة إلى الله، وتعظيم حرمات الله، وصلة الرحم التي أمر الله بها أن توصل.

ولا يبدو في هذه الخطوة الإيجابية نحو السلم أي أثر للذات، ولا أية رواسب للماضي القريب والبعيد الأسود، والظلم الصارخ التي تجاوزت فيه قريش حدود العرف، والتقاليد الإنسانية.

لكنها سلم لا استسلام، وفي سبيل الدين لا في سبيل الدنيا، ومن أجل أن تعلو كلمة الله، لا من أجل الحطام القريبة، والحظوظ الفانية، والرغبات المسفة.

وكم لرسول الله ﷺ من مواقف، تتلاشى فيها ذاته، وتسوّى نفسه، حتى ما

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود.

يكاد يشعر لها بحق، ويبقىٰ الحق كله لله، والبقاء كله لدين الله، وللدعوة إليه.

ألم يأته الملك في الحديث المتفق عليه، ويقول له: يا محمد! إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربي إليك، لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين! فقال النبيّ ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً»[1].

إنه بمقدار الفناء في المبدأ، يكتب له النجاح والخلود، وبمقدار حظوظ النفوس من المبادىء والفلسفات تقاس أعمارها.

أوليس من الفناء في الدعوة إلى الله، أن يبادر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للعمرة وزيارة البيت الذي صد عنه، وأخرج منه قبل بضع سنين، تخللتها حروب ومصادمات، وأريقت دماء زكية، وقطعت أشلاء من اللحم كثيفة، بمجرد رؤياه أنه يزور البيت؟

أوليس من قدسية الدين وتقديمه على كل اعتبار، هذا الاستعداد المطلق للمهادنة في هذا الظرف، وهو في مركز القوة، ومكان الحق، وسمو السلم؟

أوليس في هذا لأولي الأمر القائمين على الجماعات البشرية، عبرة التأسي، لتناسي الشر ورواسبه العميقة البعيدة، وتطوير العلاقات، وتوجيه الفكر الإنساني إلى تلافي النقص، ورم الرث، وسد الخلل، وإصلاح التصور الخاطىء، لهذه الرسالة السماوية الخالدة، ودعوتها الفريدة السعيدة؟.

٤ ـ الرغبة في السلم والمهادنة لا تعني أبداً المساومة على المبادىء:

بدت في إجابة النبيّ ﷺ بديل بن ورقاء، ومن معه من خزاعة، الرغبة في

---

(١) متفق عليه.

مهادنة قريش، طمعاً في تغيير موقفها في المستقبل؛ وبدت الإشارة إلى الاحتمالات المتصورة في هذه المهادنة:

١ ــ إن تم النصر بعدها للرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فلهم حرية الدخول في الدين الذي سبق إليه النصر.

٢ ــ وإن كانت الأخرى وهي انكساره فقد استراحوا من عدوهم.

٣ ــ وإن رفضوا الهدنة، فليقاتلهم حتى تضرب عنقه.

٤ ــ وإن الغلبة لهذا الدين.

وإنك لا تجد في الهدنات المعقودة، أقوى ولا أثبت ولا أحزم من هذه المتصورات؛ إن الاستعداد للهدنة، لا يساوي أبداً ــ في التصور الإسلامي ــ الحق، أو الاستهتار بالحق، بل إنها إتاحة الفرصة لاتخاذ الحق مجالات أخرى للدعوة، كما قال: «هادنتهم مدة، ليخلوا بيني وبين الناس»، وإنها لا تعني أبداً تقليص المبدأ، أو نقص الحق.

إنها مهادنة القوي للقوي، لإتاحة فرصة التروي، ومكنة التفكير والتدبير، ولتكون بمثابة الإعذار فيما يتمخض عنه المستقبل، ولا صلة لهذا بالمبدأ، الذي له السيادة المطلقة، والقدسية التامة، والاعتبار الأكمل.

إنها مهادنة إنسانية سالمة مثالية مؤمنة، تبغي الإصلاح ولا تبغي الفساد، وترجو الخير، ولا تفكر في الشر، وتريد ــ حتى للعدو ــ الحياة والسعادة، ولا تحيك له خيوط التآمر، والأخذ العنيف على حين غرة.

إنها هدنة، وليست استسلاماً... وحسبك أن في طياتها الكثير الفريد الأثير من معاني الصبر والثبات: «لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي»[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري.

إنها هدنة الواثق من فائدة الهدنة، وثمراتها المرجوة، وهذا ما يجعلنا نعتقد أن الهدنة لم تكن إلا عن وحي أوحي إليه ﷺ: «أنا عبد الله، ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني»[1].

إن الكلمات التي وقعت جواباً لبدليل، تذكِّر ــ في قوتها وتصميمها وثباتها ــ بقولة النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ لعمه أبي طالب، لما كلمه في أن يبقي على نفسه، وعلى عمه، ويذر هذه الدعوة: «ماذا تقول يا عم؟ والذي نفسي بيده، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلك دونه».

المبدأ هو المبدأ، والرسالة هي الرسالة، والدعوة هي الدعوة؛ كل الذي في المهادنة، تغير في الطريق، ومحاولة جديدة في الأسلوب، دون أي مساس بالمبدأ الذي هو الأصل.

٥ ــ تمتع النبيّ ﷺ بقدر وافر من الفراسة، وتصرفه المناسب حيالها:

تتالت رسل قريش، على النبيّ ﷺ قبل عقد الهدنة، وكان يتفرس ــ بما منحه الله من قوة النفوذ، إلى حقائق الرجال، وبواطن الأمور ــ في كل واحد ما يكشف عن حقيقته، ويتلخص فيه شخصه:

فقد تفرس في مكرز الغدر، وقال لأصحابه: هذا رجل غادر، ولم يغير موقفه منه، وأخبره بأنه إنما جاء لزيارة البيت، وتعظيم حرمته، وأنه لم يأت يريد الحرب.

أما الحليس، سيد الأحابيش، فقد تفرس فيه الديانة والتعبد، وتعظيم أمر

---

(١) رواه البخاري.

الله، فكان أن أمر بقذف الهدي ونثره تلقاءه كي يراه، فيبعثه ذلك على إقناع قومه، بصحة عزم المسلمين على الزيارة والقربى لرب العالمين، دون الحرب والقتال. . .

وفعلاً، كان الأمر كذلك، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من جانب الوادي، وفي أعناقها القلائد، وقد ساءت حالها، لطول حبسها عن مواطن نحرها، حتى تآكلت أوبارها، آمن بصدق الخروج، ونبل المقصد، وهو تعظيم الشعائر والبيت، فرجع إلى قومه، دون أن يقابل الرسول ﷺ اكتفاء بما عاين، وأخبرهم بأن خروج المسلمين لزيارة البيت، وجانب الوادي يسيل بالهدي، ويفيض بالقلائد، ولا ورود لفكرة الحرب في أذهانهم.

ولئن لم يقتنع المشركون بذلك، عناداً وكفراً وبغياً، لكن موقف الحليس من كفرهم وبغيهم، كان أن استنكره واستكثره، فقال لقريش: والله ما على هذا حالفناكم؛ أيصد عن بيت الله من جاء معظماً له؟ والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو ولأَنْفِرَنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد.

وحسب النبيّ ﷺ والمؤمنين في هذه الفترة الحرجة، أن يدافع عنه حيال المشركين حلفاؤهم، وأن ينتصر له بعضهم.

لقد أوفدت الفراسة الوضيئة الكاشفة، والتصرف الموفق في إثرها، رسولاً إلى المشركين من أنفسهم، يعرض وجهة نظر المسلمين، ويبررها تبريراً كافياً، فلئن لم يكتب له تمام التوفيق، فقد كان له فضل في تليين القلوب، وتبصير العقول، وإحسان التمهيد لعقد الهدنة.

إن النجح لا يصاب جملة واحدة، وإنما ينال بعد مخططات مرسومة مصممة وخطوات دائبة.

٦ ـ في العرب غلظة وجفاف، رققهما وطراهما الإسلام:

أفصح رسل قريش إلى النبيّ ﷺ في حديثهم معه، عما استقر في جبلتهم من جفاف البادية، وخشونة الأعراب، وغلظة القلوب، واعوجاج التصرف:

فقد تكرر على ألسنتهم وصفهم الصحابة، بأنهم أوشاب الناس، جمعهم النبيّ ﷺ ليجتاح بهم قومه، وليس الصحابة إلا فريقاً منهم أنفسهم.

وعمد عروة في حديثه مع النبيّ ﷺ فأمسك لحيته بيده، وهزها مرة بعد مرة، تنبيهاً وإيقاظاً؛ وما هكذا يفعل الموفدون في مهام إلى الآخرين؛ وكان المغيرة يقرع يده كل مرة، ويهدده بقطعها، فيرى تهديد المغيرة غلظة، ولا يرى لفعلته ظلاً من الغلظة أو الفظاظة؛ ويعيِّر المغيرة بفعلةٍ فعلها في الجاهلية، وأنه ما تخلى عنها إلا من قريب، ويذكره بفعلاته في الجاهلية، التي جبها له الإسلام.

ثم هاهم أولاء، يقفون من خراش بن أمية الخزاعي، رسول النبيّ ﷺ إليهم، فيعقرون بعيره، ويهمون بقتله، لولا أن حال بينهم وبينه الأحابيش.

وليس ذلك فحسب، فليتهم وقفوا عند حد العنف في القول، والغلظة في التعامل، لكنهم تجاوزوا، فأرسلوا أربعين رجلاً منهم، ليحدقوا بعسكر محمد وأصحابه، لينالوا منهم نيلاً، أو يصيبوا منهم أحداً، أو ينزلوا فيهم بأساً أو مكروهاً.

وكان المسلمون يقظين مرابطين في احتراس، فأخذوهم أسرى، واقتادوهم إلى رسول الله ﷺ الذي ما إن رآهم حتى عفا عنهم، وردهم إلى حيث انطلقوا.

ولا بد للمنصف النزيه، أن يوازن بين هذه التصرفات النابية، والغلظة البادية، التي اتسم بها رسل العرب في التمهيد للهدنة؛ وبين المواقف الحكيمة الرزينة الهادئة التي اتخذها المسلمون حيالها.

وكذلك يربي الإسلام ذويه وأصحابه، يبدل غلظتهم برقة، وخشونتهم

بأدب، وفظاظتهم بلطف ولين، ويقذف في قلوبهم الطمأنينة والسكينة، ويستأصل منها شأفة النزق الطائش، والحمية المندفعة.

وصور القرآن الكريم هذين الموقفين المتضادين بقوله: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾[1].

اللهم خلقنا بأدب الإسلام، وجملنا بتربيته، وزينا بسلوكه الأفضل.

٧ ــ ليس بعد تعظيم الصحابة رسول الله ﷺ مزيد ولا غاية:

شهد أحد رسل قريش إلى النبيّ ﷺ وهو عروة بن مسعود، هذا الذي تحدثنا عنه آنفاً عن خشونته، وغلظته في مكالمته رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى قومه، شهد عندهم بما عاينه من إكبار الصحابة، وإعظامهم، وحفاوتهم، برسول الله ﷺ مما لم يره لملك قبله ولا عظيم:

رآهم يتسابقون إلى تقديم وَضوئه، ويتمسحون بفضله، ويلتقطون شعره إذا سقط، يطرقون رؤوسهم عنده، ويغضون من أصواتهم إذا كلموه، وينصتون إلى حديثه في لهفة، ويستمعون إلى قوله في وعي، ولا يكادون يجرؤون على أن يحِدّوا إليه النظر، تعظيماً وإكباراً؛ فقال لهم فيما قال:

«جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه؛ وإني ــ والله ــ ما رأيت ملكاً قَطُّ في قومه، مثل محمد في أصحابه».

نعم! ليس أحد من الناس يجل أحداً، مثل إجلال الصحابة سيدنا رسول الله ﷺ؛ ومن قبل قال أبو سفيان لزيد بن الدثنة ــ كما تقدم في يوم الرجيع، وفيما رواه ابن إسحاق ــ : «ما رأيت أحداً يحب أحداً، كحب أصحاب محمد محمداً».

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٦.

وإن حبه وإجلاله ــ عليه الصلاة والسلام ــ من حب الله وإجلاله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[١].

ولا شك أن في الآية وعيداً لمن فضل هذه المذكورات، أو أحداً منها، على حب الله ورسوله. ولهذا ثبت في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله ووالده وولده والناس أجمعين»[٢]. وقال علي ــ رضي الله عنه ــ يصف حب الصحابة للنبيّ ﷺ: «كان رسول الله ﷺ أحب إلينا من أموالنا وأولادنا، وآبائنا وأمهاتنا، وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ».

وتقدم في غزوة أحد كيف كان الصحابة يُتَرِّسون النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ بأنفسهم، ويتلقى أبو طلحة السهام بصدره، ويقول: «هكذا، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك».

وتقول أنصارية استشهد زوجها وأخوها وأبوها، بعد أن اطمأنت عن سلامة رسول الله ﷺ: «كل مصيبة بعدك جلل»؛ أي هينة.

إن كلمة التوحيد لا تتكامل، والإسلام لا يستوي، إلا بالشهادة لمحمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ بالرسالة؛ وإن توقيره وحبه من نبع الإيمان، وفيض اليقين، وما التبرك بآثاره ووَضوئه وشعره وما يتصل به، إلا من وميض الحب، ودفق الإكبار والتوقير.

وما كان أمرهم ليقف عند هذا الحد، بل كانوا يرجون مرافقته في الآخرة في

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

أعالي الجنان. ولما رأى النبـيّ ﷺ عبد الله بن مسعود ذات ليلة وهو يصلي، قال له: سل تعطه، فقال ابن مسعود: «اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيِّك محمد ﷺ في أعلى الجنة، جنة الخلد».

إنه لا حد لفضل سيدنا رسول الله ﷺ علينا وعلى الناس، فلا أحد أجدر منه بحبنا وإجلالنا.

٨ ــ المبايعة على الموت في سبيل الله، من أعظم أسباب مرضاة الله:

بايع الصحابة النبـيّ ﷺ على جهاد الكفار يوم الحديبية، حتى الموت، وعلى أن لا يفروا من القتال، وذلك لما أشيع أنهم قتلوا رسوله إليهم، عثمان بن عفان ــ رضي الله تعالى عنه ــ .

وقد سمع الله ــ تعالى ــ هذه البيعة، وعلم بصدق نوايا الصحابة المبايعين، فبارك هذه البيعة، وجعل فيها رضاه، ووعد المسلمين من ورائها فتحاً قريباً للإسلام، ومغانم وخيرات كثيرة للمسلمين، وأنزل فيها قرآناً يتلى، سجل فيه نماذج التضحية المثلى، ونداء الدعوة الفريد؛ وجعل من الصحابة المبايعين أنجم هدى، وأمثلة تحتذى، على مر التاريخ، وتعاقب الأجيال.

والخشية كل الخشية من أن تتخذ هذه البيعة مثلاً للمسلمين، شكلياً لا عملياً، فيبايعون على الموت، للهتاف والشعارات والهالات، فإذا ما جد الجد، وطولبوا بتنفيذ بيعتهم، تولوا معرضين، وتؤول البيعات إلى هيعات وصيحات، تستغل في المناسبات، ثم لا تجد لها رصيداً ولا وجوداً، في ساحات الوغى، وميادين القتال.

ففي مثل هذه الظاهرات، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

﴿تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾[1].

ومن قبل وَعَدَ المنافقون في المدينة، بنصر الدين، ثم أخلفوا؛ وأعطوا العهود على أن يقاتلوا مع المسلمين، فلما جد الجد، ووجب القتال، انسحبوا منهزمين، فنزلت هذه الآية، كما جاء في بعض أسباب نزولها.

٩ ــ الصلح خير، وقد كان صلح الحديبية فتحاً مبيناً، وتمهيداً لفتح مكة:

سمى الله تعالى في القرآن الكريم صلح الحديبية فتحاً، وأنزل سورة الفتح، في منصرف النبيّ ﷺ من الحديبية عائداً إلى المدينة، تلك السورة التي افتتحت بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾[2].

نعم كانت فتحاً، ولم تكن ذلاً ولا دنية، كما تراءى لبعض كبار الأصحاب، وذلك لأمور:

١ ــ أن هذا الصلح أنهى الحرب المستمرة التي كانت بين النبيّ ﷺ وبين قريش؛ ولا شك أن هذا فتح عظيم، لأنه سيوفر الجهد الذي كانت تستنفذه قريش من المسلمين، ويدخره للدعوة إلى الإسلام خارج الجزيرة.

٢ ــ أن هذا الصلح كان وثيقة اعتراف قريش بوجود النبيّ ﷺ وبدولته وأمته، وقوته وسلطانه، وما يستتبع ذلك من حقه في نشر دعوته، وثبات مركزه، وسلامة موقفه، ونفاذ أمره.

٣ ــ أنه كان تمهيداً للفتح الأعظم، فتح مكة، فيما بعد؛ ذلك الذي مكن للإسلام في مكة، وكسر شوكة الشرك، وقضى على عبدة الأصنام إلى يوم الدين.

---

(١) سورة الصف: الآيتان ٢ و٣.

(٢) سورة الفتح: الآيات ١ ــ ٣.

٤ ــ وإنه فرّغ النبيّ ﷺ لليهود الذين كانوا يتألبون عليه مع المنافقين أحياناً ومع المشركين أحياناً أخرى، واستطاع أن يطهر منهم المدينة وما حولها، فيستأصل شأفتهم، ويضطرهم إلى النزوح، أو يحصرهم في خيبر، ويوثقهم بعقد خاص.

٥ ــ كما أنه أيضاً اعترف بحق المسلمين في قصد البيت الحرام للنسك والطواف، وأداء الشعائر الدينية في الحج والعمرة، على النحو الإسلامي الخاص الذي جاء به دينهم الجديد، وهو يخالف طواف المشركين حول البيت إلى حد كبير.

٦ ــ وترتب على ذلك، اعتراف قريش بوجود دين جديد، له تصوراته ومفاهيمه التي تختلف تماماً عن تصوراتهم ومفاهيمهم ومعتقداتهم؛ وبحق هذا الدين في ممارسة شعائره حول البيت، مع وجود أصنامهم وتماثيلهم فيه، وهي من أول ما يحقره هذا الدين، ويسفهه ويضلله، ويدعو إلى نبذه وطرحه قبل كل شيء، وهذا الاعتراف يعني تراجع قريش، وتخاذلها على نصرة مبادئها العقدية، وتساهلها نسبياً في شؤون دينها العتيق المتوارث؛ وبمقدار هذا التراجع يكون تقدّم المد الإسلامي، ورسوخ مبادئه وأفكاره؛ وإن هذا التراجع لهو أول النهاية الحتمية التي خطتها قريش في هذا الصلح لنفسها ولمستقبل آلهتها.

٧ ــ ولقد قرر هذا الصلح الفارق العظيم بين الفكر حين يسترسل في تدبير الأمور وبين الوحي الإلهي في توجيه الفكر نفسه إلى عين الصواب الذي لا يعدو الحق، وإلى الحق الذي لا يعدو الصواب.

وفي موقف عمر وتساؤلاته واستفهاماته المتكررة، في مواجهة الصدِّيق وفي مواجهة الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ نفسه؛ ثم اعتذاره أخيراً وندمه على ما فعل، وتصدقه المستمر استغفاراً منه؛ ما يجلي هذا الفارق، ويفرض الإذعان المطلق للتصرفات والتدابير الإلهية.

استمع إلى قول الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ في جوابه عن تساؤلات عمر: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني». وقول عمر لما انكشفت له النتائج العجيبة البعيدة عن هذا الصلح: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق، من الذي صنعت يومئذ، مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيراً.

٨ ــ وربما عد صلح الحديبية بعض الكاتبين فتحاً، فقد قال فيه الزهري، وهو من شيوخ المحدثين وأساطين العلم: ما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، وإنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناسُ بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة لم يكلم أحد بالإسلام، يعقل شيئاً، إلا دخل فيه: ولقد دخل في تينك السنتين ــ بعد الحديبية وقبل فتح مكة ــ مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

فيقول ابن هشام: والدليل على قول الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة في عشرة آلاف...

وشاهد هذا كله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ إلى قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ ...﴾[1] وقوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨﴾[2].

وأشرنا من قبل إلى أن هذه الآيات نزلت والمسلمون منصرفون من الحديبية إلى المدينة.

---

(١) سورة الفتح: الآيات ١ ــ ٣.

(٢) سورة الفتح: الآيتان ٢٧ و ٢٨.

فصدق الله، وتمت كلمته الحق، في قوله: ﴿والصلح خير﴾[1].

١٠ ــ الوفاء بالعهد يورث القوة، ويمنح البر، ويوافي أفضل النتائج، وأعظم البركات:

ضاق المسلمون ذرعاً بالشروط التي أملاها كفار قريش في صلح الحديبية، ولم يكن لهم شيء من الأمر حيال تصرف النبوة، وكان من أهم ما أغاظهم، اشتراط قريش أن يرد المسلمون من خرج من مكة إلى المدينة مسلماً، وألا يردَّ المشركون مَنْ خرج من المدينة عائداً إلى مكة... فقد وجدوا الحيف فيه ظاهراً؛ والغبن جلياً؛ ومما زاد في الضيق وجوب تحللهم من الإحرام، دون أن يؤدوا العمرة التي خرجوا لها؛ مما جعلهم يتلكؤون في التحلل؛ بعد خيبة الأمل.

أما فيما يتصل بوجوب التحلل، فقد يبدو فيه الغبن والإجحاف عند مقابلته بنقيضه بالنسبة إلى المسلمين، وهو أن يردوا على المشركين من خرج من مكة مسلماً قاصداً المدينة؛ غير أنه بالنظر الدقيق في شأن المسلم الذي يغادر جماعة المسلمين، ملتحقاً بصفوف المشركين، يتبدىٰ أن المسلمين في غنى عن أمثال هذا، لأنه لا يخرج إليهم إلا مرتداً، فلا خير في بقائه فيهم، ليكون عيناً للعدو، أو عوناً له، أو منافقاً يندس بين المؤمنين.

وأما اشتراط أن يرد المسلمون على أهل مكة من خرج منها مسلماً قاصداً المدينة، فهذا هو ــ فعلاً ــ موضع الحيف، وثقل الوطأة، وحرج الشرط؛ ويحتاج تطبيقه إلى إيمان راسخ، وعهد ملتزم، وتسليم مطلق للغيب، وللمخبر عنه.

ولهذا أمر النبيّ ﷺ صحابته، بالوفاء بهذا الشرط لأهل الشرك، وقال: «وفوا لهم، واستعينوا بالله ــ تعالى ــ عليهم».

إن هذا لهو موضع الابتلاء، وسر التسليم للقيادة المؤمنة المتصلة بالغيب،

(١) سورة النساء: الآية .

المعتمدة على الوحي... إن هذا لهو المحك لمبلغ. صدق المسلمين في وفائهم بالعهد، ولو كان مر المذاق، ثقيل الوطأة، عسير التقبل.

وهذا أمر الله به في غير موضع من كتابه، ونهيه عن نقضه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾[1] وأمر رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ به في أحاديث كثيرة، منها: «حسن العهد من الإيمان»[2].

لقد وفى المسلمون بعهدهم، وطبقوه في الأيام التي تلت عقد الصلح، تطبيقاً عجيباً، يلفت النظر، ويستثير السمع، ويستوقف تاريخ العهود والمواثيق.

وعلى ما كان في هذا التطبيق من شدة ظاهرة، ومشقة مرهقة، فقد أدى إلى أطيب النتائج، ورفع ضرره عن المسلمين، وأنزل الضرر كله بالمشركين أنفسهم، الذين كان الشرط في جانبهم، ولمصلحتهم، فطالبوا المسلمين في تلهف ومبادرة بإلغائه...

وصدق الله تعالى إذ قال: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[3].

فذكر الرواة أن أبا بصير عتبة بن أَسيد، خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة، ليقيم في دار الإسلام؛ فأرسلت قريش في إثره اثنين من رجالها، ليرجعا به، تنفيذاً لشرط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبـي بصير هذا ـ كما ذكر ابن هشام ـ: يا أبا بصير! إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك، ولمن معك من المستضعفين، فرجاً ومخرجاً؛ فانطلق إلى قومك. فقال أبو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين، يفتنونني في ديني؟

---

(١) سورة النحل: الآية ٩١.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك.

(٣) سورة النساء: الآية ١٩.

فقال: يا أبا بصير، انطلق، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً.

وانطلق معهما أبو بصير، فلما كانا بذي الحليفة، قال لأحد صاحبيه: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر، إن شئت، فاستله أبو بصير، ثم علاه به حتى قتله؛ ففر الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: قتل صاحبكم صاحبي، فما لبث أبو بصير أن حضر، متوشحاً السيف، وقال: يا رسول الله! وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم، وقد امتنعتُ بديني أن أُفتن فيه، أو يُعبث بي. فقال النبيّ ﷺ: ويل أمه، مِحَشُّ (موقد) حرب، لو كان معه رجال.

واتجه أبو بصير إلى العيص، على ساحل البحر الأحمر، لما استيأس من المقام في المدينة، وكانت على طريق قريش التي يسلكونها إلى الشام، ليهدد قوافلهم، وبلغ المستضعفين في مكة قولة الرسول ﷺ في أبي بصير؛ فخرجوا إليه، واجتمع إليه منهم نحو سبعين رجلاً، ضيقوا الخناق على قريش، لا يظفرون بأحد إلا قتلوه، ولا بعير إلا اقتطعوها.

حتى إذا ذاقت قريش بلاء هذه العصبة، كتبت إلى النبيّ ﷺ تناشده الرحم. أن يؤوي إليه هؤلاء، فلا حاجة لها بهم، وليتركوا لها الطريق آمناً، وبذلك تنازلت عن الشرط الذي أملته الغطرسة الجاهلية المتعنتة، فارتدت أضراره عليها، ودفعت ثمنه من رجالها وأموالها.

وكذلك يورث الوفاء بالعهد الخير الكثير، والنتائج الطيبة. وإن الأعجوبة الحقة، أن يأتي الفرج من حيث ظن المسلمون الضيم والغبن، وأن يكون سبيله حيث يطبق الشرط، ويوفى العهد في شخص أبي بصير الذي أُسلم إلى المشركين.

لكن أو لم يقل له الرسول ﷺ: إن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً؟ فهذا هو الفرج العظيم، والمخرج العريض المتسع، له ولمن معه.

لهذا كان المؤمنون دائماً عند شروطهم وعهودهم، وإن المؤمن الحق، الصادق الإيمان، لا تُكبتُ عقيدته وراء القضبان، وجدران السجون؛ لأن عقيدته ستطلق من وراء الحصون، وسترده ناراً محرقة، وسهاماً رائشة، وحرباً مدمرة للذين كبلوه بالأغلال والقيود.

ألا إن الوفاء بالعهد من إشعاعات العقيدة الصلبة، وآثار اليقين الراسخ، الذي لا يهدي إلا إلى البر، ولا يؤتي إلا أطيب الجنى.

آوى النبيّ ﷺ الذي كان دائماً أول من وفى بعهده ــ تلك العصبة المؤمنة التي أقضت مضاجع قريش، وأرغمتها على إسقاط شرطها التعسفي، فزادت بهم قوة المسلمين، وقويت بهم شوكتهم، واشتد بأسهم...

غير أن أبا بصير، رأس تلك العصبة ومؤسسها، لم يقدر له أن يكون معها، فقد وافاه كتاب النبيّ ﷺ بالعودة إلى المدينة، وهو على فراش الموت، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثغر، وهواه في قلب المجتمع النبوي في المدينة؛ فرحمه الله تعالى، ورضي عنه، في رجال الصدق، وأبطال الجهاد، ونماذج الإيمان الثابت المؤثل.

١١ ــ لم يكن عهد الحديبية منسحب الأحكام على النساء:

هاجرت إلى المدينة بعد الحديبية أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فتبعها أخواها، وسألا رسول الله ﷺ أن يردها تنفيذاً للعهد؛ فلم يفعل، إذ نزل قوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ﴾[١] ...

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

ولوحظ في هذا الاستثناء الشرعي:

١ ــ أن الظاهر في العهد المذكور تخصيصه بالرجال.

٢ ــ أنه يخشى من أن تتعرض المرأة المسلمة إذا ردت إلى الكفار، أن تتعرض للعسف والتعذيب وشرور لا قبل لها، ولا صبر لها عليها.

٣ ــ أنها لا تستطيع أن تفلت من يدي الكفار، وتتقلب في الأرض، وتتفرد بالكيد والمواجهة، كما فعل أبو بصير وغيره.

٤ ــ أن الغرض من العهد تقييد حرية المؤمنين، وكسرهم عن مناوأة قريش والتصدي لها؛ وما كانت المرأة بسبب من ذلك ــ على وجه الاستقلال ــ.

٥ ــ أن المرأة إذا أسلمت لا تحل لزوجها المشرك، ويجب التفريق بينهما، كما نطقت بذلك آية الممتحنة المذكورة: وعلى المسلمين ــ وهذا من فيض سماحة الإسلام ــ أن يردوا على الزوج المشرك صداقاً يستعين به على زواج آخر، إن بقي بعدها على شركه.

١٢ ــ المطلق يُجرى على إطلاقه:

نذكر في هذا الصدد، تأييداً لهذه القاعدة الأصولية، وختماً لصلح الحديبية، ما رواه ابن هشام، عن أبـي عبيدة، قال: إن بعض من كان مع رسول الله ﷺ، قال له لما قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله: إنك تدخل مكة آمناً؟ قال: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ قالوا: لا، قال: فهو كما قال لي جبريل ــ عليه السلام ــ.

وفي هذا الأثر، تبشير المؤمنين بفتح مكة، في المستقبل، وإيماء بالوحي الصادق إلى ذلك النصر المؤزر المحتم ــ بإذن الله ــ؛ وفيه تأديب ضمني لتعجل بعض المسلمين النصر، ولفت لهم إلى وجوب التسليم لأمره، بإطلاق، كلما ورد مطلقاً، دون تحميله زيادات وقيوداً، تصرفه عن إطلاقه.

• • •

غـزوة خيبـر

لم يكد النبـيّ ﷺ يستقر في المدينة إلا شهراً أو نصف شهر، بعد عودته من صلح الحديبية، أواخر ذي الحجة، حتى أمر أصحابه بالتأهب للخروج إلى خيبر، في بقية المحرم سنة سبع من الهجرة.

وخيبر هذه واحة خضراء، تقع على الطريق من المدينة إلى الشام، على بعد مائة ميل[1] شمالي المدينة.

وكان مع النبـيّ ﷺ من المستنفرين الذين كانوا معه في الحديبية ألف وأربعمائة مقاتل، وانضم إليهم مائتان من الذين تخلفوا عنها؛ فأعلمهم أنه لن يعطيهم شيئاً من الغنائم، فإن شاؤوا فليخرجوا رغبة في الجهاد فحسب، وأصبحت عدة الجيش ألفاً وستمائة، فيهم مائة فارس.

وفي السيرة أن رسول الله ﷺ قال في مسيره إلى خيبر لعامر بن الأكوع: انزل يا ابن الأكوع، فخذ لنا من هناتك (أي من أشعارك وأخبارك، ولعله أراد منه الحداء بشعر أو رجز) فنزل يرتجز، ويقول:

والله لـولا الله مـا اهتـدينا ... ولا تصــدقنــا ولا صلينــا
إنــا إذا قــوم بغــوا علينــا ... وإن أرادوا فتنــــة أبينــــا

---

(١) الميل: ١٨٤٨ متراً. انظر: الخراج في الدولة الإسلامية لمحمد ضياء الدين الريس ص ٢٨٧ فهي على بعد ١٨٥ كم تقريباً.

فــأنــــزلــــن سكينــــة علينــــا وثبــــت الأقـــدام إن لاقينــــا

فقال له رسول الله ﷺ: يرحمك الله! فقال عمر: وجبت والله يا رسول الله، لو أمتعتنا به! وقتل يوم خيبر شهيداً.

ولما أشرف النبيّ ﷺ على خيبر، قال لأصحابه: قفوا، ثم دعا لهم بهذا الدعاء: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها، وخير ما فيها؛ ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها. أَقدموا باسم الله.

وكان يدعو بذلك لكل قرية دخلها.

وكا ن من هديه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أنه إذا غزا قوماً لم يُغِزْ عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذاناً أمسك، وإن لم يسمع أذاناً أغار.

ونزل خيبر ليلاً، فبات أمام حصونها، ولما أصبح لم يسمع أذاناً فرآه عمال خيبر، وهم غادون إلى حقولهم، معهم المساحي والمكاتل والفؤوس؛ فما عتموا أن ولـوا هـاربيـن يصيحـون: هـذا محمـد والخميـس (الجيـش) معـه. فقـال رسول الله ﷺ: الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين.

كانت خيبر مجموعة من الحصون والقلاع، قامت فوق الصخور والجبال؛ وكان اليهود فيها من أقوى طوائفهم بأساً، وأكثرها مالاً، وأوفرها سلاحاً، لهذا استماتوا في الدفاع عن بلدتهم؛ واستمات المسلمون أيضاً في غارتهم عليها، إذ كانوا يعتقدون ــ بعد المواجهات السابقة مع طوائفهم ــ أنه ستستمر هذه الحروب ما بقيت لليهود قوة أو شوكة في بلاد العرب.

يقول الرواة: لما كان يوم خيبر، دفع رسول الله ﷺ اللواء إلى أبـي بكر

الصديق، وأرسله إلى حصن ناعم، فرجع ولم يفتح له؛ ولما كانت الغداة دفعه إلى عمر بن الخطاب، فرجع ولم يفتح له؛ فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، وبات الناس يذكرون أيهم يعطاها.

فلما أصبحوا غدوا إليه، وكلهم يرجو أن يعطاها؛ فقال: أين علي بن أبـي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي عينيه؛ قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فتفل في عينيه ودعا، فبرأ، حتىٰ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال علي: يا رسول الله! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ــ يعني مسلمين ــ قال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من حمر النعم.

فقاتل علي دون الحصن، وشن بمن معه هجمات موفقة، حتى سقط الحصن في أيديهم، وكان الفتح على يديه.

وتهاوت حصون خيبر، حصناً إثر حصن، تحت وطأة المسلمين، رغم دفاع اليهود المستميت عنها، إذ كانت أعزّ ما تبقى في أيديهم من منعة وقوة وثراء؛ إلا حصني الوطيح والسُّلالم؛ فقد حاصرهما المسلمون بضع عشرة ليلة، حتى إذا استيأس اليهود من النصر، واستيقنوا من الهلاك، إذ بدأ المسلمون ينصبون المنجنيق لضربهم به، نزل ابن أبـي الحقيق، وصالح محمداً ــ عليه الصلاة والسلام ــ على حقن دمائهم، وترك الأرض والأموال والسلاح، ولا يخرجون إلا بما يحمل الإنسان على ظهره. فصالحه النبـيّ ﷺ على ذلك، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يخفوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، وتم الصلح على ذلك. . .

وذكر ابن كثير أنهم ــ مع ذلك ــ كذبوا على رسول الله ﷺ وأخفوا المسك (الجلد) الذي كان فيه أموال كثير، لحيـي بن أخطب، وكان قد جاء بها من بني النضير، فلما سألهم عنه النبـيّ ﷺ قال ابن أبـي الحقيق: أذهبته النفقات

والحروب، فقال له رسول الله ﷺ: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك؛ ودفعه إلى الزبير بن العوام، فعذبه هذا، حتى أقر بأنه كان قد رأى حيياً دخل قربة يطوف بها، وأشار إلى موضع في الحصن؛ فلما نقبوا فيه، وجدوا المسك، وكان فيه أساور ودمالج وخلاخيل وأقراط وخواتم من الذهب، وعقود من الزمرد وغير ذلك.

فتحلل عندئذ رسول الله ﷺ من عهدهم، الذي نكثوه هم بأنفسهم، فقتل ابن أبـي الحقيق، وكان أحدهما زوج صفية بنت حيـي، وسبـى نساءهم وذراريهم وقسم أموالهم؛ وكانت صفية من نصيب دحية الكلبـي.

وبسقوط خيبر، سقط آخر معقل لليهود في الجزيرة، ولم تقم لهم من بعده قائمة أبداً؛ واضطرت طوائف يهودية أخرى كانت منثورة في بعض الواحات، إلى الصلح كيهود فَدَكَ الذين صالحوا على نصف أموالهم، من غير قتال؛ وأذعن يهود وادي القرى للصلح، بعد أن قاتلوا قليلاً؛ فكان مصيرهم كمصير خيبر، أما يهود تيماء؛ فقبلوا الجزية بدون حرب ولا قتال؛ وبذلك خضع اليهود في الشمال، لسلطان الإسلام.

فكان من خضوعهم، أن يهود خيبر، وهم الأكثر ثراءً وغنى، والأقوى شكيمة، طلبوا من النبـيّ ﷺ أن لا يجليهم عن خيبر، وأن يبقيهم في ديارهم، ليعملوا فيها للمسلمين مزارعة، بنصف ما يخرج منها؛ فصالحهم على ذلك رسول الله ﷺ وقال: نقركم على ذلك ما شئنا ــ كما في الصحيح ــ .

ومما حدث في تلك الغزوة، ما رواه ابن إسحاق، أنه لما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت إليه زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية (مشوية) وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع فأكثرت فيها من السم؛ ثم سمت سائر الشاة؛ ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة، فلم يُسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها، كما أخذ رسول الله ﷺ؛ فأما بشر فأساغها، وأما

رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال: إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم؛ ثم دعا بها، فاعترفت، فقال: ما حملك على ذلك؟ قال: بلغتَ من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيخبَر. قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ؛ ومات بشر من أكلته التي أكل.

وقد روى مسلم، أن النبـيّ ﷺ قال لها: ما كان الله ليسلطك على ذلك. أي على قتلي؛ قالوا: ألا نقتلها يا رسول الله؟ قال: لا.

وأخرج ابن سعد في طبقاته أن النبـيّ ﷺ دفعها إلى أولياء بشر فقتلوها.

ويبدو من هذين النصين، أن النبـيّ ﷺ أعذرها في محاولتها قتله، انتقاماً مما أصاب زوجها وأباها وقومها في خيبر؛ لكن لما مات بشر دفعها إلى أوليائه فقتلوها قصاصاً، إذ جزم الزهري وغيره، بأنها أسلمت.

وقسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر المنقولة، من الأسرى والأمتعة والتمور والذهب والفضة، بين المسلمين، للراجل سهم، وللفارس ثلاثة، سهم له، وسهمان لفرسه؛ ورضخ من الفيء للنسوة، اللاتي خرجن يداوين الجرحى، ويحملن الماء، ويعن المسلمين بما استطعن.

وكان من بين الأسرى، صفية بنت حيـي بن أخطب، وكانت حديثة عهد بعرس وكانت تحت كنانة بن الربيع بن أبـي الحقيق، وكانت قد رأت في المنام وهي عروس، أن قمراً وقع في حجرها، فذكرت رؤياها لزوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنين ملك الحجاز محمداً، فلطم وجهها، لطمة خضَّر عينها منها.

ولما وقعتْ في سهم دحية، قال بعض الصحابة للنبـيّ ﷺ: يا نبـيّ الله! أعطيت دحية صفية بنت حيـي، سيدة قريظة والنضير، وهي ما تصلح إلا لك. فقال لدحية: خذ جارية من السبـي غيرها؛ فأعتقها النبـيّ ﷺ وتزوجها، تخفيفاً من مصابها، وحفظاً لكرامتها وجعل عتقها صداقها.

ولما سألها عن اخضرار عينها، قصت عليه رؤياها تلك.

وبنى بها في عودته إلى المدينة، في سد الصهباء؛ بعد مرحلة من خيبر.

وقد خشي أبو أيوب الأنصاري، من غدر صفية بالنبيّ ﷺ فقد قتل أباها وزوجها وقومها، فبات يحرس الخيمة التي أعرس بها فيها؛ متوشحاً بسيفه، يطوف بالخيمة حتى أصبح رسول الله ﷺ ورآه في مكانه، فسأله: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: خفت عليك من هذه المرأة، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وأهلها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك.

وقد وافق فتح خيبر قدوم جعفر بن أبي طالب، ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة، وكانوا ستة عشر رجلاً وامرأة، فروا بدينهم من المشركين، فعادوا بعد أن عزّ الإسلام، وقامت دولته في المدينة: فلما وصلوا، قال رسول الله ﷺ وهو يقبل جعفراً بين عينيه، ويعانقه ويلتزمه في ابتهاج وغبطة: «والله ما أدري بأيهما أُسر، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر؟».

● ● ●

الدروس والعبـر

غزوة خيبر، غنية بالعبر والدروس والأحكام، كما أن خيبر نفسها غنية بالزرع والشجر والنخيل؛ بل ربما كانت خيبر أغنى بلاد الحجاز، فأشبهت أن تكون واحة خضراء، أو سهلاً من السندس الأخضر، تكتنفه الآكام والتلال، والصخور السوداء، والكثبان الصفراء.

فسنستعرض أهم ما نضحت به من الدروس والحقائق.

١ ــ غزوة خيبر نسفت آخر حصن لليهود في جزيرة العرب:

ربما كان صلح الحديبية، تأميناً للمسلمين من خطر المشركين، المتركزين في جنوب المدينة، وعلى التخصيص في مكة وما جاورها.

غير أن الإسلام دعوة للناس أجمعين، ولم يكن دعوة للعرب فحسب، ولا للجزيرة العربية من دون ما سواها، فهناك اليهود في الشمال، وهناك دولتا الروم وفارس؛ وكان النبـيّ ﷺ حريصاً على تعميم الدعوة الإسلامية في هذه المناطق، وغيرها؛ وربما كان يخشى اليهود الرابضين في خيبر، أن يقوموا بشن حرب انتقامية، لإخوانهم من بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة. ذينكما اللذين رُحِّلا من المدينة، وهؤلاء الذين قُتِّلوا فيها تقتيلاً.

وفي اليهود علم وذكاء؛ ولن تفلح معهم العهود والمواثيق، كما قد تفلح مع قريش؛ فقد نقضوها بعد أن أكدوها، ولاقوا مصيرهم العادل؛ وعداؤهم للإسلام،

وحقدهم على المسلمين، قديم موروث؛ فيخشى من تمالئهم مع من حولهم أو جاورهم، من أهل الأقاليم، والدول العظمى ضد انتشار الإسلام.

لهذا جاءت غزوة خيبر، تنفيذاً لمخطط القضاء على اليهود في الجزيرة، وتحطيم آخر معاقلهم فيها، بعد أن استيأس المسلمون من معايشتهم، لينفسح المجال أمام الإسلام، للدعوة خارج الجزيرة، في ربوع ترسخ فيها الكفر، وعاثت في أرجائها الوثنية والضلال.

ولذلك وقعت هذه الغزوة، بعد الحديبية، بما لا يزيد على خمسة عشر يوماً.

وعلى هذا الأساس، لا نرى من الصواب ــ بعد الذي قلناه سابقاً وآنفاً ــ ما قاله بعض الكاتبين في السيرة، من أن طبيعة هذه الغزوة تختلف عن طبيعة الغزوات السابقة: فتلك كانت تقوم على أسباب دفاعية ــ على حد تعبيره ــ وهذه كانت بنصه: «أول غزوة بدأها رسول الله ﷺ أغار بها فجأة على اليهود».

وقد نقضنا هذا الكلام فيما سبق، وبينا أن غزوة بدر، وهي أول الغزوات وأضخمها، كانت هجوماً مباشراً، وما كانت دفاعاً.

ونضيف هنا، أنّ قول النبـيّ ﷺ في منصرفه من غزوة الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» هذا الذي استدل به القائل بالغزوات الدفاعية، وأن الدعوة انتقلت حينئذ من مرحلة الدفاعية إلى مرحلة الهجوم والمبادرة... لا يصح الاعتماد عليه، في الذي ذهب إليه.

وذلك: لأن النبـيّ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قال هذا الكلام في مشركي مكة، عقب انصرافهم عن المدينة، في غزوة الأحزاب، بدون خير ولا نصر.

وإنه ــ مع ذلك ــ لم يواجههم بعدها في غزوة ما، ولم يبادرهم بالقتال؛ بل كان الأمر على خلاف ذلك تماماً؛ فقد خرج معتمراً، وصرح بأنه يرغب في الهدنة

والصلح، وأنه لا تدعوه قريش إلى أمر فيه تعظيم البيت، إلا أجابهم إليه.

فهل هذا هو الغزو؟ وهل هذه هي مرحلة المواجهة، والمبادرة النبوية، بعد حروبه الدفاعية؟

وهل كانت من قبل غزوة بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة دفاعية؟

ما قال أحد ممن كتب في السيرة: إنها كانت دفاعاً؛ وكل الذين قالوه: إن اليهود في هذه الغزوات نقضوا عهودهم، وخالفوا عن الوثيقة، فنبذ إليهم عهدهم، وأخرجهم من مدينته.

ولو صح أن ما بعد الحديبية من الغزوات كان محاربة على الكفر والعناد، ومن هذا بالضرورة غزوة خيبر، لجاء مخالفاً للمبدأ الإسلامي المقرر في قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1] وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[2]؛ وقد أقر من قبل في الوثيقة اليهود على دينهم، فما ينبغي أن يقاتل هؤلاء على ما أقر عليه إخوانهم.

إنما قاتل خيبر والخيبريين، لأنهم كانوا عقبة في طريق الدعوة إلى الله في الشمال، فاتجه إليهم بعد أن أمن الجنوب... وكذلك الإسلام يجتاح كل عقبة تقف أمام انتشاره، وتحول دون تبليغه... لكنه لم يحاربهم على كفرهم وعنادهم.

ولهذا أجاب علياً، لما سأله: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ بقوله: أنفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه؛ فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم.

ومتى كان الإسلام يجبر الناس على الدخول في الإسلام؟ لا نستثني إلا

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٩.

العرب في جزيرتهم، لأنهم حملة هذه الرسالة، فلا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ـــ كما سلف بيانه في تشريع القتال ـــ .

نعم لما دعاهم عليّ إلى الإسلام، فأبوا وأصروا، شن الغارة عليهم. . . ليكسر شوكتهم، ويأمن غدرهم ومكرهم، ويمهد الطريق للدعوة الإسلامية شمالي الجزيرة.

ولهذا لما تم له ما أراد، ما فرض عليهم الإسلام، ولا أرغمهم عليه، بل أقرهم على الأرض، يعملون فيها مزارعةً ومساقاةً، للمسلمين، ما شاء المسلمون، وكذلك كان؛ وبذلك أُمِن من مكرهم، حتى رحلهم المسلمون في عهد عمر إلى تيماء من بلاد الشام، لما أفسدوا في الأرض، ونقضوا العقد.

٢ ـــ حيطة الإسلام البالغة في عدم الإغارة على الكفار إلا بعد سابق الإنذار:

لم يغر النبـيّ ﷺ على خيبر إلا بعد أن تحقق من عدم التأذين للفجر، وعدم إقامة شعيرة الإسلام الأولى؛ وهي الصلاة؛ وإلا بعد أن أمر علياً بدعوة أهل خيبر إلى الإسلام من جديد؛ ولا بد أنهم قد بلغتهم الدعوة من قبل؛ فجاءت دعوة علي تأكيداً، وإعذاراً في الإغارة، لما أصروا واستكبروا، وتمردوا عن الحق الذي جاءهم.

ولا يختلف أهل العلم، في وجوب بلوغ الدعوة الكفار، قبل مهاجمتهم، وإنما يختلفون في وجوب التبليغ قبل الإغارة مباشرة.

وصنيع علي في خيبر، يدل على شرعيته؛ فلا بد أن الخيبريين عرفوا الدعوة الإسلامية، وأحاطوا علماً بمواقف إخوانهم من اليهود وخصومها وعاقبتهم، فكان تبليغ عليٍّ بعد ذلك احتياطاً، وقطعاً للشك وتبريراً شرعياً واقعياً لما أقدم عليه المسلمون. . .

٣ ـــ إنشاد الشعر للحداء والغناء، والدعاء لاستنزال النصر:

قد كان الطريق إلى خيبر طويلاً بعض الشيء، فاستعان عليه النبيّ ﷺ بشعر ابن الأكوع، وحدائه، واستمع إلى رجزه، الذي كان منه:

واللـه لـولا اللـه مـا اهتـدينـا ولا تصـــدقنـــا ولا صلينـــا

. . . الخ.

وفي هذا ما يدل على جواز إنشاد الشعر واستنشاده، والاستماع إليه في شيء من التغني والحداء، كلما كان ذلك في غرض صالح، ومقصد نبيل، وهدف شريف مشروع، كالعون على قطع المفاوز، واجتياز الفيافي، وتنشيط الجند، وتهوين السفر عليهم، وطي مسافه. . .

وقد استطاب النبيّ ﷺ شعر ابن الأكوع، واستجاده صحابته واستمتعوا به، وطلبوا إليه الاستكثار من إنشاده وحدائه. . . مما يشير إلى مبلغ تأثرهم بشعره، واستجابتهم لوقعه، واستمتاعهم به، وهم يخترقون الصحراء، في جو غير قليل من المشاق والمتاعب. . . وكفى بذلك ترويحاً للقلوب وتنشيطاً للنفوس. . .

وهذا كله في حدود القدرات الإنسانية، والوسائل الخاصة التي يتخذها الناس تمهيداً إلى مقاصدهم، في غير سرف ولا تجاوز، ولا خروج عن آداب الشريعة، ونظامها العام، في الجدية والالتزام. . .

فإذا جد الجد، واقترب القوم من ساحة الوغى، وكان الإشراف على منازل الأعداء. . . كان الاتجاه قبل كل شيء إلى الله، والتوسل إليه بالدعاء بالنصر، وكان التهيؤ والأدب فالدعاء، بالوقوف، وحسن التوجه، والاستعانة المطلقة به، واستنزال الخير من لدنه، والاستعاذة به من كل شر. . . إنه رب السموات، وما دونها، ورب الأرضين وما فوقها. . . وإنه رب الشياطين التي أضلت الكفار، ورب القوى جميعاً والرياح على التخصيص. . . وهو القادر

وحده على أن يسدي كل خير للمسلمين في خيبر، وأن يعزل عنهم كل شر فيها...

٤ ــ كل الصحابة يحبون الله ورسوله، وإن تفاضلوا فيما بينهم:

قدمنا أن النبيّ ﷺ أعطى الراية ــ في فتح حصن ناعم ــ أبا بكر، فلم يفتح له، ثم دفعها إلى عمر، فرجع ولم يفتح له بشيء، فقال النبيّ ﷺ: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، وأنه أعطاها بعد ذلك علياً، ففتح الله الحصن على يديه...

وما في علي ــ كرّم الله وجهه ــ ميزة حب الله ورسوله على صاحبيه الشيخين؛ فهي قاسم مشارك بين الصحابة، مشهود لهم بها، فما ينبغي أن يكون لتخصيصه بالاتصاف بحب الله ورسوله، انتفاء ذلك الوصف عن الشيخين... ولا اعتبار لمفهوم الصفة في النصوص الشرعية ــ كما هنا ــ، لأنه يؤدي إلى هذه المحاذير الساقطة في الاعتبار، كما قرره جماهير الأصوليين، وعلى التخصيص الحنفيين.

كلهم محب لله ورسوله، فإن يكن تفاضل بينهم في مبلغ ذلك الحب، فلا شك أن الصديق والفاروق كانا أشد حباً؛ كما تدل عليه المواقف، والمناسبات، وكما أجمعت عليه الأمة المسلمة، وأن الأفضلية فيهم تحكمها الأولية في الخلافة... كما نص عليه أهل العلم.

وإنما أراد النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ التنصيص في ذلك المشهد على أن علياً ــ رضي الله عنه ــ محب لله ورسوله؛ وأنه لحبه هذا سيدفع إليه الراية، ويتوقع أن يفتح الله عليه الحصن؛ بفضل منه تعالى وإكرام من لدنه، بقطع النظر عن كل اعتبار يمس شخص الشيخين؛ وكان الأمر كذلك.

٥ ــ من معجزات النبـيّ ﷺ إبراء الأرمد:

وذلك لما طلب علياً ليدفع إليه الراية، قيل له: إنه يشتكي عينيه، فأرسل إليه، فأُتي به، فدعا له ما شاء الله أن يدعو، ثم تفل في عينيه، فبرىء لساعته، قال الرواة: حتى كأن لم يكن به وجع...

وهذا الإبراء السريع، من معجزات النبوة الثابتة، وله نظائر كثيرة، منها ما تقدم في غزوة المريسيع، لما تخلف جمل جابر، لضعفه، فاتخذ عوداً فنخسه به، فما لبث أن نشط، وانطلق يسابق غيره من الجمال...

وإنه ليجب الإيمان بهذه الحقائق، الدالة على تكريم المولى قدر نبيه الأعلى ﷺ وتكميله بهذه الخوارق، وتجميله بهذه الشواهد والمشاهد، لتقوية إيمان المؤمنين، وتثبيت العقيدة في نفوس العامة، وقطع وساوس الشيطان في صدور الكافة.

٦ ــ الإسلام يستجيب للصلح وهو في مركز القوة، ولا يقر الغدر، كيفما كان الأمر:

لما استيقن يهود خيبر بالهلاك، بعد أن دكت حصونهم تباعاً، عرضوا الصلح على النبـيّ ﷺ فصالحهم على حقن دمائهم، وعلى أن يتركوا الأرض والمال والسلاح، ولا يخرجوا منها إلا بما يحمل المرء على ظهره، وعلى أن لا يكتموا شيئاً عنه، فإن كتموا نقضوا ذمتهم ونكثوا عهدهم...

غير أن اليهود كانوا ــ وما زالوا ــ لا يعرفون العهود، فكتموا أمر الجلد الذي كان يحتوي مالاً كثيراً لحيـي بن أخطب... وزعموا أن الحروب أكلته، فلما اكتشف الجلد، تحلل النبـيّ ﷺ من عهدهم؛ وسبـى الذراري والنساء، وقسم الأموال...

إن مبادرة النبـيّ ﷺ إلى قبول الصلح، وكانت الحصون تتهافت أمامه

تترى... لشاهد قوي على أن الحرب ليست من مقاصد الإسلام الذاتية، وأن الاستعداد والتسلط والتعادي ليست من الإسلام بسبيل؛ وأن الصلح أحب وأوجب في الإسلام؛ وبهذا استقرت مبادئه، ونطقت نصوصه: ﴿وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[1].

والإسلام يصالح وهو في مركز القوة، ليعلن أنه داعية السلم؛ فما إن ظفر به إلا تمسك به، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

والمسلمون عند شروطهم في الصلح، ولا ينقض صلحهم مثل العبث بشروطه، وقد كان صلح خيبر مشروطاً بأن لا يكتم اليهود شيئاً من المال... فلما كتموا أمر الجلد، أخلوا بالشرط، فنقض لهم عهدهم... فقسم المال، وسبى الذراري... ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3]؛ وقد خانوا فعلاً، وكتموا، وغدروا، فقطّع لهم عهدهم، ونبذ إليهم الصلح.

ألا إن الإسلام ليصالح وهو قوي منتصر، ويتصدى للغدر والقوة والحزم. إنه قوي في صلحه لا يستخذى؛ قوي في عهده يفي به ولا ينقضه، قوي في مقاومة الغدر لا يضعف ولا يني... فهو قوة في قوة: لكنها قوة راحمة ليست غاشمة؛ قوة تحسم ولا تتعسف؛ قوة تؤيد الحق وتتأيد به، ولا تصافح الباطل ولا تعبأ به، ولا تقيم له وزناً.

٧ ــ تُقَسَّم غنائم الحرب بين المقاتلين بعد تخميسها:

الغنيمة في الاصطلاح الفقهي كل ما أخذ من أموال العدو بقوة الغزاة المحاربين وسلاحهم، وقهر الكفرة. ويقابلها الفيء وهو ما أخذ من العدو بلا قتال، بالجلاء أو بالجزية والخراج.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٨.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٥٨.

وقد اتخذ النبيّ ﷺ إجراء خاصاً حيال تقسيم غنائم خيبر؛ ففرق بين الأموال المنقولة، كالأمتعة والأسلحة والتمر والنقد، وبين العقارات، من الأراضي والنخيل.

فأما المنقولات فقد خمَّسها، فأخذ خمسها لله ورسوله، ووضعه في ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما نصت عليه آية الأنفال المعروفة.

أما الأربعة الأخماس الباقية من الغنائم، فقسمها بين الفاتحين الغانمين المقاتلين: للفارس ثلاثة أسهم، سهم له، وسهمان لفرسه، وللراجل سهم واحد... وعلى هذا رأي الشافعية وآخرين.

ويذكر في بعض الروايات، أنه بعد عزل الخمس، وقيل النصف، لما ذكرنا للنوائب والنوازل، وزع الأخماس الباقية: للفارس سهمان، سهم له، وسهم لفرسه، وللراجل سهم؛ أما السهم الرابع، فإنه كان رضخاً وعطاء للعبيد والنسوة اللاتي خرجن في خيبر يداوين الجرحى، ويناولن السهام.

ففي مسند الإمام أحمد ـــ رحمه الله تعالى ـــ أن امرأة منهن قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، وأنا سادسة ست نسوة، فبلغ رسول الله ﷺ فأرسل إلينا فدعانا، فقالت: ورأينا في وجهه الغضب؛ فقال: ما أخرجكن؟ وبأمر من خرجتن؟ قلنا: خرجنا نناول السهام، ونسقي السويق، ومعنا دواء للجرحى، ونغزل الشعر، فنعين به في سبيل الله، فأمرنا فانصرفنا، فلما فتح الله خيبر أخرج لنا سهاماً كسهام الرجال.

والمراد أنه أعطاهن شيئاً، لا أنه أسهم لهن كالرجال تماماً، إذ لم يقل بهذا أحد؛ إنما أعطاهن شيئاً من المتاع، كما أعطى العبيد، وكما أعطى جعفر بن أبي طالب، ومن معه أيضاً من الغنائم. وفي بعض الروايات أن النبيّ ﷺ استأذن المسلمين في أن يقسم لهؤلاء الذين لم يشاركوا في الحرب من الغنائم؛ فأذنوا.

فيبدو أن من الممكن أن يكون هؤلاء مصرف هذا الخمس. . .

وإذا تبدلت وسائل الحرب، أمكن تقسيم الأربعة الأخماس بين المقاتلين، حسب تفاوت درجاتهم في القتال. . . كما وردت به السنة. .

بل إذا تغيرت أساليب الحرب، وأنظمة القتال، بحيث أصبح للمقاتلة والمجاهدين رواتب لمعاشهم، وهذا لم يكن معروفاً أيام تقسيم الغنائم، فإن المجاهدين يخوضون الحرب في أيامنا ولا مطمع لهم أبداً في المغانم مطلقاً، بل هم يقتصرون على الرواتب التي تصرف لهم ــ بقيت الغنائم كلها للدولة، ولا حق فيها للمقاتلين ــ فيما يبدو ــ .

وقد يدخل هذا ــ في رأي بعض الفقهاء ــ في باب الاستصلاح في الشؤون الإدارية العامة. وربما يرشحه أن الغنائم والعتاد ووسائل الدفاع في أيامنا لا يفيد منها المجاهدون، بل هم يفيدون من الرواتب المقدرة لهم؛ وإنما تفيد منها الدولة التي تعدها للحروب والقوة وصولة الجيش.

هذا حكم النبيّ ﷺ في المنقولات التي أصابها المسلمون في خيبر.

أما الأراضي والنخيل، فكان له حيالها موقف آخر؛ ذكرته السنة الصحيحة:

فقد روي في الصحيح عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ لما ظهر على خيبر، أراد خروج اليهود منها، وكانت الأراضي حين ظهر عليها لله ورسوله وللمسلمين، فأراد إخراج اليهود منها؛ فسألت اليهود رسول الله ﷺ أن يقرهم بها، على أن يكفوه عملها، ولهم نصف الثمر؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «نقركم بها على ذلك ما شئنا؛ فقروا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء»[1].

وقد عزل النبيّ ﷺ خمس الأرض وفي رواية نصفها للمسلمين وما ينوبهم، وقسم الباقي على المسلمين، وفيهم سهمه.

---

(١) رواه مسلم.

وبذلك أصبح اليهود عاملين في الأرض زارعين غير مالكين لها، ولهم نصف ما يخرج منها لقاء عملهم فيها. ولم يكن ذلك ملزماً للنبيّ ﷺ بل كان منوطاً بمشيئته واختياره؛ وهو لا يختار إلا ما يحقق مصلحة المسلمين.

وكان النبيّ ﷺ يقسم غلات الأرض ويوزعها توزيع الغنائم؛ النصف منها خمسة وأربعة الأخماس للغانمين؛ وكانوا يبلغون ألفاً وخمسمائة ــ في رواية البلاذري عن ابن عباس ــ من أهل بيعة الرضوان ومن التحق بهم من مجاهدي خيبر؛ والنصف الآخر يبقيه لمصالح المسلمين، للوفود وللنوائب.

وقد أقام النبيّ ﷺ عبد الله بن رواحة على حساب المقاسمة، فكان يأتي كل عام اليهود، فيقاسمهم بعدل، ويأخذ منهم الشطر؛ وقد شكوا من شدة حرصه، ودقته من حسابهم، ثم حاولوا أن يرشوه فقال لهم: يا أعداء الله! تطعمونني السحت؛ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليّ، ولأنتم أبغض إلي من عدَّتكم، من القردة والخنازير، ولا يحملني بغضي إياكم، وحبي إياه، على ألا أعدل إياكم.

وقد نفذ الصدّيق ــ رضي الله عنه ــ ما كان يفعله النبيّ ﷺ في خيبر، وكذلك فعل عمر، في صدر خلافته، ثم بدا له أن يخرج اليهود من خيبر، ويوزع الأرض على ذوي السهام... وذلك لاعتدائهم مرتين على المسلمين: فمرة قتلوا عبد الله بن سهل، وطرحوه في عين، فاتهمهم النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ وقرر أيمان القسامة فيهم... ومرة خلعوا يدي عبد الله بن عمر، بينما كان هو والزبير والمقداد يتفقدون الأراضي ويتعهدونها في خيبر، وذلك في عهد عمر؛ فقال هذا من عمل اليهود؛ ثم قام يخطب الناس فقال:

أيها الناس! إن رسول الله ﷺ كان قد عامل يهود خيبر، على أنا نخرجهم إذا شئنا؛ وقد عدوا على عبد الله بن عمر، فقدعوا يديه؛ كما قد بلغكم من عدْوهم

على الأنصاري قبله؛ لا شك أنهم أصحابه، ليس هناك عدو غيرهم؛ فمن كان له مال بخيبر، فليحلق به، فإني مخرج يهود.

ومما رشح لعمر إخراج اليهود من خيبر ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ علاوة علىٰ ما ارتكبوه من العدوان على أشخاص المسلمين؛ قول النبيّ ﷺ: «لا يبقين دينان بأرض العرب»[1].

وقد دعا اليهود إلى الجلاء، وقال لهم: من كان عنده عهد من رسول الله ﷺ فليأتني به أنفذه، ومن لم يكن عنده عهد فليتجهز للجلاء...

ولا بأس هنا من الإشارة إلى حكم الأراضي المفتوحة عنوة بالجيوش الإسلامية، في الفقه الإسلامي ومذاهبه؛ بعد الاتفاق، على أن أرض خيبر كانت مقسومة، كما ذكر ابن سيد الناس في عيون الأثر:

١ ـ فالحنفية يرون أن إمام المسلمين، مخير بين أن يعزل بعضها ـ الخمس أو أكثر منه ـ لبيت المال، ويقسم الباقي على الفاتحين؛ كما فعل النبيّ ﷺ في خيبر؛ وبين أن يتركها لأهلها، ويطرح عليها ضريبة الخراج، كما فعل عمر ـ رضي الله عنه ـ في سواد العراق وفي مصر، [وتبقى الأرض وقفاً للمسلمين].

٢ ـ والمالكية يخيّرون الإمام بين قسمة الأراضي، وبين رصدها لصالح المسلمين وقفاً، وبين قسمة بعضها ورصد بعضها الآخر.

٣ ـ والشافعية يرون أن أحكام الأراضي كأحكام المنقولات من الغنائم، تقسم بين الفاتحين بعد التخميس.

٤ ـ وترددت أقوال الحنبلية ورواياتهم، في هذا الصدد:

---

(١) رواه مالك في الموطأ والإمام أحمد.

(أ) فمرة أوجبوا القسمة كالشافعية.

(ب) ومرة حكموا بوقفيتها بمجرد الاستيلاء عليها.

(ج) والأولى من الروايات عندهم، تفويضها إلى رأي الإمام، الذي يخير بين القسمة، وبين الوقف، واختيار الإمام ـ كما ذكروا ـ اختيار مصلحة، لا اختيار شهوة؛ فيلزمه فعل ما يرى المصلحة فيه، ولا يجوز له العدول عنه.

٨ ـ همّ اليهود بالرسول أن يقتلوه، فعصمه الله منهم:

صدَّق اليهود هنا، ما وصفهم به القرآن الكريم غير مرة، من قتلهم الأنبياء بغير حق؛ فقد هموا في هذه الغزوة، وقد استسلموا وطلبوا الصلح، بعد أن دكت حصونهم، بقتل الرسول ﷺ بطريقة تنطق بالجبن والخسة، والحقد والضغينة، فقدمت إليهم امرأة منهم شاة مسمومة... وأطلع الله نبيه ﷺ على تلك المكيدة، فقال: إنها تخبرني أنها مسمومة... وصدق الله وعده الثابت: «والله يعصمك من الناس».

ويتجلى خلق النبوة في عفوه عنها لما اعترفت بجريمتها... وأعقب ذلك العفو الكريم إسلامها؛ وإن اقتص منها بعد ذلك، بسبب موت بشر، كما أسلفنا.

وليست هذه المحاولة الأولى في قتل نبيّ الله ﷺ، فقد بينا محاولتهم قبلاً قتله في غزوة بني النضير، بل رأينا تمالؤهم في غزوة الأحزاب مع المشركين، لإبادة النبيّ والمؤمنين به، وسحق الإسلام والمسلمين جملة...

هذه طبيعة اليهود، وتلك حيلهم: الكيد للإسلام، والمكر بالمسلمين، والتصدي للحق، ومواجهة الهدى، في كل جيل وزمان؛ لا يخضعون إلا للقوة، ولا يستسلمون إلا للسيف، فهل أدرك المسلمون ذلك؟.

٩ ــ الصحابة يؤثرون الرسول بالخير، ويتطوعون لحراسته من المفاجآت:

إن زواج النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ من صفية، كان من أمر الله، وقد أشارت إليه رؤياها، وهي عرس زوجها الأول، أن قمراً وقع في حجرها، ففسرها لها زوجها برغبتها في محمد، ولطمها لطمة أثرت في عينها...

وقد استكثرها الصحابة أن تكون لواحد منهم في قسمة السبي، ورأوا أنها لا تصلح إلا لرسول الله ﷺ؛ إنها سيدة بني قريظة وبني النضير... واستجاب رسول الله ﷺ لرغبة أصحابه، ورأى في ذلك تكريماً لهذه العزيزة الشريفة في قومها، فتزوجها تخفيفاً لمصابها، في قتل أبيها وزوجها وبعض قومها في تلك الغزوة.

أرأيت إلى الإيثار، وتكريم الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ، وتقديم الصحابة مرضاته ومسراته على أنفسهم... لقد صدّقوا كلمات الله، وطبقوا فيهم شرعته وحكمه: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1]... وارتقوا إلى الذروة في درجات كمال الإيمان، التي وصف ذووها بقوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[2].

ثم انظر بعد ذلك، كيف تطوع أبو أيوب الأنصاري، فبات ليلة الزفاف، يحرس الخيمة التي كان فيها العرس، متأهباً لكل مفاجأة، مستعداً لكل حادث... إنه يخاف على الرسول من امرأة قُتل أعزاؤها في هذه الغزوة، وفي طليعتهم زوجها وأبوها...

أوليس هذا من تطبيقات، قول النبيّ ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٦.

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه.

إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[1].

لقد صدق أبو أيوب، وصدق الصحابة، عندما كانوا يخاطبون النبيّ ﷺ في ثنايا الحديث بهذه الكلمة الفذة، يطلقها كل منهم قائلاً: «بأبي أنت وأمي يا رسول الله».

فلئن لم يكن الفداء لرسول الله ﷺ، فلمن يكون الفداء!.

١٠ ـ الحفاوة البالغة بالمهاجر القادم، إلزاماً وتقبيلاً وإشراكاً في المغانم:

كان فتح خيبر نصراً عظيماً، وفتحاً مبيناً، ومثار غبطة المسلمين، وفرحهم؛ وقد ساوى البيان النبوي بهذه الفرحة، فرحته بمقدم جعفر بن أبي طالب، وإخوانه الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة، فراراً بدينهم من فتن كفار قريش، ومكثوا هناك بضعة عشر عاماً.

ولا شك أنه طرأت أحداث على الدعوة الإسلامية، ونزل أكثر القرآن خلال هذه الفترة، وقامت حروب ومعارك دامية بين المسلمين وكفار مكة، وأصيب المسلمون بهزات عنيفة، وقُدمت تضحيات غالية، وبُذلت دماء وأموال... حتى ظن بعض الصحابة أنهم أفضل من هؤلاء المهاجرين الحبشيين. غير أن البيان النبوي، أشاد بموقف هؤلاء المهاجرين من الحبشة، ونوه بأفضليتهم في الهجرة على المهاجرين من مكة إلى المدينة...

ففي الصحيح عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان ناس من الناس يقولون لنا ـ يعني لأهل السفينة ـ سبقناكم بالهجرة؛ فدخلت أسماء بنت عميس على حفصة زوج النبيّ ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه؛ فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر: آلحبشية

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

هذه، آلبحرية هذه؟ فقالت أسماء: نعم، فقال عمر: سبقناكم للهجرة، فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم؛ فغضبت وقالت كلمة: يا عمر! كلا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم؛ وكنا في دار، أو في أرض البعداء البغضاء في الحبشة؛ وذلك في الله وفي رسوله؛ وايم الله، لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول الله، ونحن كنا نؤذَى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول الله ﷺ وأسأله، ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك. قال: فلما جاء النبيّ ﷺ قالت: يا نبيّ الله! إن عمر قال كذا وكذا، قال: فما قلت له؟ قالت: قلت له كذا وكذا. قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم ــ أهل السفينة ــ هجرتان. . .

قالت: فلقد رأيت أبا موسى، وأصحابَ السفينة، يأتونني أرسالاً، يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح، ولا أعظم في أنفسهم، مما قال لهم رسول الله ﷺ»[1].

وليس ذلك فحسب، فقد ثبت أن النبيّ ﷺ قبل جعفر بن أبي طالب مقدمه من الحبشة بين عينيه؛ وقام إلى زيد بن حارثة، لما زاره في بيته بعدما قدم المدينة، فاعتنقه وقبله.

هذا على أن الثابت النهي عن تقبيل الرجال والانحناء لهم، والتزامهم. . . فيبدو استثناء أصحاب السفينة ذوي الهجرتين من عموم النهي، اختصاصاً لهم، وتكريماً لجهادهم وهجرتهم.

١١ ــ طرحت غزوة خيبر خيراً كثيراً، في المغانم والتشريع:

أما المغانم فقد بينا ما يتصل بها. . .

وأما التشريع، فقد وردت أحكام تشريعية هامة، بمناسبة هذه الغزوة، ذكرها

(١) متفق عليه.

ابن إسحاق، نذكر منها هنا ما يأتي، غير متعرضين لشرحها، ولا لبيان اختلاف الفقهاء فيها، فمحلها كتب الفقه:

١ ــ عن عبد الله بن أبي سليط عن أبيه، قال: «أتانا نهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحُمر الإنسية، والقدور تفور بها، فكفأناها على وجوهها»[١].

٢ ــ وعن مكحول، أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أربع: عن إتيان الحبالى من السبايا، وعن أكل الحمار الأهلي، وعن أكل كل ذي ناب من السباع، وعن بيع المغانم حتى تقسم.

٣ ــ وعن جابر ــ ولم يشهد جابر خيبر كما ذكر ابن إسحاق ــ أن رسول الله ﷺ، حين نهى الناس عن أكل لحوم الحمر أذن لهم في أكل لحوم الخيل.

٤ ــ وعن حنش الصنعاني قال: غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصاري المغرب، فافتتح قرية من قرى المغرب، يقال لها (جِربة) فقام فينا خطيباً فقال:

يا أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت رسول الله ﷺ يقول فينا يوم خيبر، قام فينا رسول الله ﷺ فقال:

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يسقي ماؤه زرع غيره؛ يعني إتيان الحبالى من النساء.

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يصيب امرأة من السبي، حتى يستبرئها.

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يبيع مغنماً حتى يقسم.

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يركب دابة من فيء المسلمين، حتى إذا أعجفها ــ أضعفها ــ ردها فيه.

---

(١) رواه الإمام أحمد والنسائي.

لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر، أن يلبس ثوباً من فيء المسلمين، حتى إذا أخلقه رده فيه.

٥ ــ وروي عن عبادة بن الصامت، أنه قال: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر، عن أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين؛ وقال: ابتاعوا تبر الذهب بالورق العين، وتبر الفضة بالذهب العين.

والمراد من الحديث أن يباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والفضة بالفضلة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص؛ وعندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترط المماثلة، كما هو معلوم، وثابت في الصحاح.

٦ ــ وفي الصحاح أيضاً، أن رسول الله ﷺ حين قفل راجعاً من غزوة خيبر، سار ليلاً حتى إذا أدركه الكرى؛ عرّس، وقال لبلال: إكلأ لنا الليل، فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه؛ فلما تقارب الفجر واستند بلال إلى راحلته، مُوَاجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه، حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أولهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: أي بلال! فقال بلال: أخذ بنفْسي الذي أخذ بنفسك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم، ثم توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً، فأقام للصلاة، فصلى بهم الصبح؛ فلما قضى الصلاة، قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾.

والحديث يدل على شرعية قضاء المكتوبة في حال النسيان.

والعمد أولى، وهو إجماع. وعدم النص عليه، لأنه لم يحدث أن صحابياً ترك الصلاة عامداً... نعم تجب التوبة مع القضاء في العهد، ولا يكفر القضاء الإثم، بل التكفير بالتوبة أو الحج معه؛ كما نص عليه الفقهاء.

ولا عبرة بمن خالف الإجماع، فأنكر القضاء في العمد، محتجاً بالمموقوة، وذلك لأن كل الفرائض والأركان موقوة، وما قال أحد بسقوطها إذا خرج وقتها.

والنص على القضاء في النسيان، لأنه الذي عرض في السفر؛ فخصوصيته بالذكر، لا تنفي الحكم عما عداه، كما تقرر في الأصول.

ومن الأحكام التي وردت في خيبر النهي عن المتعة.

٧ ــ فقد روي «عن محمد بن الحنفية، أن علياً قال لابن عباس: إن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية»[(١)].

وقد اشتهر النهي عنه يوم خيبر، ورشح النهي، أن كثرة السبايا، تغني عنها؛ وقد ثبت في الصحاح النهي عنها يوم فتح مكة إلى يوم القيامة.

وقد صح رجوع ابن عباس عن فتواه بجوازها، وروى عنه الترمذي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾[(٢)] أنه قال: فكل فرج سواهما فهو حرام.

وقد نذكر تفصيلاً لها في فتح مكة إن شاء الله تعالى.

● ● ●

---

(١) رواه الجماعة إلا أبو داود.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٦.

عـمرة القضـاء

نصت معاهدة صلح الحديبية ــ كما قدمنا ــ على أن ينصرف المسلمون عن مكة هذا العام، كيلا يتحدث الناس أن محمداً دخلها رغماً؛ ولهم أن يدخلوها في العام المقبل معتمرين، من غير سلاح، ويمكثوا فيها ثلاثة أيام.

فلما استدار العام، وكان شهر ذي القعدة، من السنة السابعة، نادى رسول الله ﷺ في الناس كي يتجهزوا للخروج إلى العمرة التي منعوا منها في العام السابق، وسميت لذلك عمرة القضاء؛ كما سميت عمرة القصاص، لأنها جاءت قصاصاً من المشركين الذين منعوها المسلمين، حتى قيل إنه نزل فيها قوله تعالى: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾(١).

ولا تسل عن الفرحة التي غمرت المسلمين بالخروج لهذه العمرة: إنها التطواف بالبيت العتيق الذي منعوا منه بضع سنين، والإلمامة بالثرى المبارك المطهر الذي أنجب الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ ، والعودة إلى الوطن السليب، والديار الأثيرة، التي حيل بينهم وبينها أمداً غير قصير، إنها منازل الوحي، ومهابط التنزيل، ومشرق الإسلام، ومنار النبوة، ومهد الدين الحنيف.

لهذا سرعان ما استجاب المسلمون لهذا النداء الغالي، وكثر المستجيبون الملبون: كانوا في الحديبية ألفاً وأربعمائة، فإذا بهم اليوم ألفان من المعتمرين. . .

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٤.

ولم يتخلف عنها من أهل الحديبية ـ كما ذكر ابن سعد ـ إلا من مات أو استشهد في خيبر؛ وذلك لأن الذين أحرموا بالعمرة في الحديبية ولم يتموها، لزمتهم، ووجب قضاؤها.

خرج النبيّ ﷺ وصحابته معتمرين، واستاقوا الهدي، وأحرموا من الميقات، يلبون، فتردد الأرجاء أصداء تلبيتهم. . . ولما سمع أهل مكة بمقدمهم، أجلوا عن مكة، تطبيقاً لصلح الحديبية، وتفرقوا في الشعاب والتلال، يطلون منها على المسلمين يفدون على الحرم أفواجاً، خشّعا، تعلّقت أبصارهم بالبيت، وانطلقت ألسنتهم بالتلبية. . . يتقدمهم رسول الله ﷺ على ناقته القصواء ذاتها، وعبد الله بن رواحة آخذ بخطامها منشداً:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله ... أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

وإن كان ابن هشام ليرى البيتين الأخيرين لعمار بن ياسر، قالهما يوم صفين، حيث قتل.

اضطرب المشركون أمام مشهد المسلمين الملبين، الخاشعين المتنسكين، فاهتزت قلوبهم، واصفرت وجوههم، ولم يتحكموا في أعصابهم إلا بصعوبة بالغة؛ حتى أرجفوا أن محمداً وأصحابه في عسرة وشدة.

قال ابن إسحاق: فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد، اضطبع بردائه ـ أدخل بعضه تحت عضده اليمنى، وجعل طرفه على منكبه الأيسر ـ وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة؛ ثم استلم الركن، وخرج يهرول، ـ فوق المشي ودون الجري ـ ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت

منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود؛ ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف، ومشى سائرها.

فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنها ليست عليهم؛ وذلك أن رسول الله ﷺ إنما صنعها لهذا الحي من قريش، للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، مضت السنة بها.

وانتقل المسلمون بعد الطواف، إلى الصفا والمروة، حيث سعوا سبعاً، يتقدمهم رسول الله ﷺ راكباً؛ ثم نحر الهدي عند المروة، وحلق رأسه، فأتم بذلك فرائض العمرة.

وفي اليوم التالي دخل النبيّ ﷺ الكعبة، ومكث بها حتى صلاة الظهر، فأمر بلالاً أن يعلوها، ليؤذن للصلاة، فقام بلال، فأذن في الناس لصلاة الظهر، بين أصنام الكعبة، فصلى الفريضة ألفا مسلم مع النبيّ ﷺ صلاة خاشعة قانتة، لا صفير فيها ولا تصفيق، ولا عبث ولا شيء من كلام الناس؛ وهم بعد الصلاة وقبلها، متعاطفون متراحمون متطامنون متواضعون، لا يفسدهم غرور، ولا يلمون بمعصية، ولا يمسون إثماً... والمشركون يطلون عليهم من منازلهم فوق السفوح، فيدهشون مما يرون، ويصعقون مما يسمعون، وعلى التخصيص الأذان، هذا الذي اشرأبت له الأعناق، وصخت له الآذان، ووجفت له القلوب...

قال فيه عكرمة بن أبي جهل: لقد أكرم الله أبا الحكم حين لم يسمع هذا العبد ــ يعني بلالاً ــ يقول ما يقول.

وقال صفوان بن أمية: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا.

وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم بلال، ينهق فوق البيت.

وكانت ميمونة، أخت أم الفضل، زوجة العباس بن عبد المطلب، فتاة في السادسة والعشرين، هوت نفسها إلى الإسلام، لما عاينت من المسلمين في عمرة

القضاء، فجعلت أمر زواجها إلى أختها أم الفضل، فجعلته أم الفضل إلى زوجها العباس، فزوجها العباس من ابن أخيه النبيّ ﷺ، وأصدقها عنه أربعمائة درهم.

وكم كان فرح ميمونة بهذا الزواج، فيروى أنها لما انتهى إليها أمر الخطبة، وكانت راكبة جملاً، قالت: الجمل وما عليه لرسول الله ﷺ؛ ففيها نزل قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾[1].

ولما أن تقضت الثلاثة الأيام، التي نص عليها عهد الحديبية، أراد النبيّ ﷺ أن يتخذ من زواجه من ميمونة وسيلة لزيادة التفاهم بينه وبين قريش، فجاءه سهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، موفدين في نفر من قريش، فقالوا: إنه قد انقضى أجلك، فاخرج عنا، فقال النبيّ ﷺ كما ذكر ابن إسحاق: وما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، فاخرج عنا.

فخرج، وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها في شرف (موضع قرب التنعيم) فبنى فيها هناك وميمونة آخر أزواج النبيّ ﷺ عاشت بعده خمسين سنة، وأوصت أن تدفن حيث بنى بها النبيّ... ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة، راضياً، تاركاً أعمق الذكريات في نفوس قريش، ومتوقعاً أحسن الآثار لهذه العمرة المباركة.

قال ابن هشام: فأنزل الله عزّ وجلّ، فيما حدثني أبو عبيدة:

﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾[2].

• • •

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) سورة الفتح: الآية ٢٧.

الدروس والمبـادىء

من أهم ما اشتملت عليه هذه العمرة من المبادىء والدروس ما يلي:

١ ــ قد تحدث الدعوة بالأعمال، ما لا تحدثه الدعوة بالأقوال:

ربما كانت هذه العمرة المباركة فاتحة انتصار الإسلام، والبشرى بالفتح الأعظم... على أنها لم تكن غزوة، لكنها كانت نسكاً وطاعة... أحدثت صدى ضخماً في أوساط قريش، وأحدث تحولاً في القلوب، وتغييراً في أفكار المشركين، وجرت إلى الصف المسلم ثلاثة من كبار المشركين؛، هم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة حارس الكعبة نفسها... ومهدت السبيل أمام الآخرين من المشركين للدخول في الإسلام، متخذة من هؤلاء الثلاثة البارزين أسوة وقدوة.

ولا شك أن الرسول ﷺ لم يقم بأي نشاط إيجابي قولي في الدعوة أثناء عمرته هذه، فما نقلت إلينا كتب السيرة التي بين أيدينا شيئاً من ذلك... وكل ما فعله في تلك الثلاثة الأيام نسك صحيح، وعبادة مخلصة، وطاعة مثالية، وتلاوة خاشعة، وصلة بالله، وبر بالأصحاب، في شيء كثير من لين الجانب، وحسن الخلق، واللطف الحاني، والتودد الرحيب.

غير أن هذا السلوك المحمدي الأصيل الطبعي، هو الذي فتح أعين المشركين على حقائق هذا الدين، وتصوراته العملية، ومبادئه الواقعية، وقدم

نماذجها التطبيقية، مما أوحى إلى قريش أن تتوقف عن غيها السادر، وضلالها القديم، وتنظر في هذا الجديد الحي الماثل الذي يرد إلى العقول تفكيرها، وإلى النفوس صفاءها؛ وإلى الضمير يقظته. . .

وكذلك كان. . . فبهدوء العبادة، وصدق التعامل، وفطرة التحرك، اهتدى ثلاثة، كبار من قريش وأعلنوا إسلامهم في صراحة، وحرية، وتصميم، وربما بعث بعضهم بما يسد من عوز المسلمين، ويشد من عزيمتهم.

واسمع إلى هذه الرواية، التي تصور لك مبلغ ثبات خالد في إيمانه، على أنه حديث عهد به. . .

قالوا: إنه بعث إلى النبـيّ ﷺ بأفراس، وبعث إليه باعتناقه الإسلام، وعرفانه به، واطمئنانه إليه. . .

نعم، هذا خالد! خالد الذي انتزع النصر من المسلمين يوم أحد، خالد الذي رجع بالمشركين إلى الرماة فسحقهم بسنابك خيله، وانقض بمن معه على المسلمين المشغولين بالغنائم، وفتك بهم فتكاً ذريعاً، وأنزل بهم مر القتال. . . خالد، رأس أكبر معركة هزت المسلمين، ومنوا فيها بالفشل الغائر، والهزيمة المنكرة.

خالد هذا. . . يعلن بعد عمرة القضاء إسلامه، وشرفه بامتزاجه في الصف المسلم. . .

وبلغ أبا سفيان إسلام خالد، فبعث في طلبه وسأله: أحق ما بلغني عنك؟ أجاب خالد: نعم إنه لحق. قال أبو سفيان: وقد استشاط غضباً وغيظاً: «واللات والعزى! لو أعلم أن الذي تقول حق، لبدأت بك قبل محمد» قال خالد: «فوالله إنه لحق، على رغم من رغم» فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه، فحجزه عنه عكرمة، وكان حاضراً، وقال: «مهلاً يا أبا سفيان، فوالله لقد خفتُ للذي خفتَ أن أقول

مثل ما قال خالد، وأكون على دينه، أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه، وقريش كلها تبايعت عليه! والله لقد خفت أن لا يحول الحول، حتى يتبعه أهل مكة كلهم».

وخرج خالد من مكة، مهاجراً إلى المدينة، لينضم إلى صفوف المسلمين.

إنه بإسلام خالد، وذينك الكبيرين البارزين، وآخرين كثيرين بعد هذه العمرة، كان بمثابة التمهيد إلى ظهور الإسلام، والإعلام القاطع المبشر بالفتح القريب الأعظم، فتح مكة.

٢ ــ قد يبقى الحكم الشرعي، بعد انتفاء حكمته:

قد ذكرنا أن قريشاً أرجفت بالمسلمين، وقالت فيما بينها: إن محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدة، وإنهم أنهكتهم حمى يثرب... فاضجع النبيّ ﷺ بردائه، وأبرز عضده اليمنى... ليريهم ضخامة كراديسه... وقال: يرحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوة... وأنه هرول بعد استلام الركن... وهرول معه أصحابه، ليُرِيَهم قوتهم القوية، وعزيمتهم الماضية، ونشاطهم الثر... ومشَوا بين الركنين.

وكذلك كان... فلما رأت قريش تلك الأجسام الفتية، والهرولة المنطلقة، والتوثب الدائب، همس بعضهم يقول لبعض: أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟ هؤلاء أجلد من كذا وكذا...

وقد ثبت في السنة أن النبيّ ﷺ هرول في الطواف ثلاث مرات؛ فكانت الهرولة سنة مشروعة، في نصف الطواف الأول، مع أنه زالت الحكمة والباعث عليه، وهو الظهور بمظهر القوة أمام الأعداء... فبقي الحكم، وإن انتفت حكمته... تعبداً وتذكيراً بمبدأ المشروعية.

٣ ــ لا يخلف الله ما وعد النبيّ به أصحابه:

تعتبر عمرة القضاء تحقيقاً لوعد النبيّ ﷺ أصحابه بدخول مكة، وطوافهم

بالبيت. وقد رأينا كيف استبدت الدهشة بعمر ــ رضي الله عنه ــ بعد صلح الحديبية، وسأل الصديق، ثم سأل النبـيّ ﷺ، وعن وعده الصحابة بإتيان البيت، والطواف به، ثم موافقته على العودة بدون ذلك كله؟ وكيف أجابه النبـيّ ﷺ كما ذكر الرواة قائلاً: أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا؟ قال: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به.

فجاءت عمرة القضاء تنجيزاً لذلك الوعد، بفضل الله، ونوّه القرآن بذلك التصديق، وأشار إلى ما كان في طيها مما لم يعلمه الصحابة، وكان الله به عليماً... وما ضمته من الفتح القريب، والنصر الظاهر؛ فهذا قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[1].

هذا! وكم للنبـيّ ﷺ من إعلامات وإخبارات، حار فيها الصحابة، وجاءت الأحداث محققة مصدقة كل ما أنبأ به؛ فتلك من معجزاته.

٤ ــ لم ييأس النبـيّ ﷺ من هداية قريش:

لم يكن لليأس محل في قلب النبـيّ ﷺ الكبير؛ حتى في أكلح الظروف، وأحرج المواقف، وأكثر ما يكون من صلف قريش وحقدها وكبريائها وتحديها.

ففي العهد المكي، درسنا موقفه من قومه لما ردوه وهزئوا منه، فخنقوه مرة بالثوب، ومرة قذفوه بِسَلا الجزور، ومرة اضطروه إلى الخروج إلى الطائف... ولم يكن أهله بأقل رداً له من قريش وسخرية منه، وعبثاً به... ولقد رموه بالحجارة، وألجأوه إلى الهروب في الظهيرة حتى حرقت قدميه الحجارة، وأدمتهما الأشواك... ودعا دعاء ثقيف المعروف... فأرسل إليه ربه سبحانه وتعالى ملك

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٧.

الجبال. . . وقال له: إن أمرتني أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت. . . فقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله تعالى ولا يشرك به شيئاً.

الثقة بالله تملأ جوانب قلبه، وتشرق له الآمال، من خلال الظلمات المدلهمة.

وفي المدينة. . . . كابد في مأساة أحد، وعانى من المنافقين، ولقي الكثير المؤلم من خيانات اليهود. . . وفي الحديبية اضطره المشركون إلى العودة دونما أداء النسك. . فصبر واستمسك، حتى لات مستمسك. . . وها هم أولاء اليوم يتقيدون بحرفية المعاهدة، وبالثلاثة الأيام. . . ويخاطبونه بهذه الغلظة الجافة القاسية: انقضى أجلك فاخرج عنا. . . كأن لم تكن ولادته بمكة، ولا مكة موطنه، وبيت الله لهم وحدهم، ولا حق له فيه بعد ثلاث. . .

ومع ذلك، لم ييأس من انفتاح المغلقين، ولين المتحجرين. . . اسمع إلى قوله اللطيف الرقيق؛ بعد هذا كله، وفوق هذا كله، وعلاوة على أفاعيل الماضي السحيق الذي تناساه في ذات الله، وفي سبيل الدعوة إلى الله، ومن أجل هدايتهم، وطمعاً في تفاهم أولى وأكثر. . .

ألق سمعك الرهيف، إلى النبوة العظيمة المتطامنة الرفيقة الرقيقة، كيف تقول: «ما عليكم لو تركتموني، فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه»!.

هل يخسرون من تركه. . فيبني بفتاة منهم تزوجها، فأكرمهم وأكرمها، يبني بها في حماهم، ويصنع لهم طعاماً، فيحضرونه، ويتناولونه، كأن لم يكن بينهم ماض، ويعفو الله عما سلف. . . كل هذا تأليفاً للقلوب، وتقريباً بينها، وإدناءً لها. . . ورغبة في السلام الدائم.

هذا كلام الداعية الواثق الواله في دعوته، المشغول بها عن نفسه، وعن كل

شيء، كلام الداعية الآمل الراجي، الذي لم يعرف اليأس، ولم يجد اليأس إلى نفسه سبيلاً. . . . الداعية المطمئن إلى نجاح دعوته. . . بإذن ربه. . .

أفليس لنا في هذا الصمود المتفائل، درس وعبرة. . . !!.

أوليس لنا في استبعاد اليأس القاتل. . . أسوة وعظة!!.

بلى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾[1].

اللهم أعنا على أنفسنا بتنكيب اليأس عنها، وثبتنا على الحق قولاً وفعلاً مهما يكن من الأمر، واجعلنا من الصابرين الصامدين المحتسبين في الدعوة إليك، يا رب العالمين!.

٥ ــ يجوز عقد النكاح للمحرم:

هذه مسألة فقهية مشهورة بين الفقهاء، ومع ذلك كانت محل خلاف بينهم:

ومع اتفاقهم على تحريم الوطء ودواعيه، اختلفوا في النكاح:

ومذهب الحنفية جواز عقد النكاح والخطبة، استدلالاً بخطبة ميمونة وزواجها، وقد كان النبـيّ ﷺ معتمراً عمرة القضاء.

ومذهب الجمهور عدم الجواز. . . وصرح النووي من الشافعية وابن قدامة من الحنبلية بالبطلان؛ وصرح المالكية بفسخ النكاح بعد البناء وقبله. . . ولعلهم ذهبوا إلى أن نكاح ميمونة كان بعد التحلل. .

وبعض الذين كتبوا في فقه السيرة من الشافعية الملتزمين، أطلقوا القول بجواز عقد النكاح حال الإحرام بحج أو عمرة، استدلالاً بنكاح ميمونة أثناء إحرامه في مكة؛ وإنما المحرم مباشرة النساء أثناء ذلك. وهذا غير سليم عند الجمهور، إلا الحنفية؛ والكاتب من الشافعية الملتزمين.

● ● ●

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

مكاتبة الملوك والأمراء

روي في الصحيح «عن أنس ــ رضي الله عنه ــ كتب قبل مؤتة إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الإسلام»[1].

١ ــ كتابه إلى النجاشي:

ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم:

من محمد رسول الله، إلى النجاشي عظيم الحبشة.

أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن المهيمن؛ وأشهد أن عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة، الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده.

وإني أدعوك إلى الله، وحده لا شريك له، والموالاة والطاعة، وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني، فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ؛ وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وقد حمل الكتاب عمرو بن أمية الضمري إليه، فاحترمه النجاشي، وقال له: إني أعلم والله أن عيسى بَشَّر به، ولكن أعواني بالحبشة قليل، فأنظرني حتى أكثر الأعوان، وألين القلوب.

---

(١) رواه مسلم.

وقد عرض عمرو على مهاجري الحبشة الرجوع إلى المدينة.

كان فيهم أم حبيبة بنت أبـي سفيان، زوج عبيد الله بن جحش الذي أسلم وهاجر بها؛ لكنه تنصر في الحبشة... وكتب النبـيّ ﷺ مع كتابه السابق إلى النجاشي، كتاباً آخر يفوضه في تزويجه من أم حبيبة..

٢ ــ كتابه إلى هرقل ملك الروم:

حمله إليه دحية الكلبـي. وقد أمره النبـيّ ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليوصله هو إلى هرقل.

ونص الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبد الله، إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم.، يؤتك الله أجرك مرتين؛ فإن توليت فإنما عليك إثم اليريسيين (الفلاحين).

ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[١].

ولهذا الحديث قصة طويلة لطيفة، ذكرها الإمام البخاري في صحيحه بطولها.

فقد التمس هرقل من العرب من يسأله عن محمد؛ فوقع على أبـي سفيان الذي كان في تجارة في الشام، فدعي لمقابلة هرقل، مع جماعته.

وقد سأله هرقل، عن نسب النبـيّ ﷺ، وهل ادعى هذا القول أحد قبله؟ وهل كانوا يتهمونه بالكذب؟ وهل كان من آبائه من ملك؟ وهل يتبعه أشراف الناس

---

(١) هذه رواية البخاري.

أم ضعفاؤهم؟ وهل يزيدون أم ينقصون؟ وهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه؟ وهل يغدر إذا عاهد؟ وهل قاتلوه؟ وكيف كانت حربهم وحربه؟ وبم يأمرهم؟ وقد علق هرقل على إجابات أبي سفيان تعليقات تؤكد نبوة محمد ﷺ. . .

ثم قال: «فعلمت أنه نبيّ؛ وإن كان ما كلمتني به حقاً، فسيملك موضع قدمي هاتين؛ وقد كنت أعلم أنه خارج. لم أكن أظن أنه منكم؛ فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه»[1].

ثم اطلع على قومه قائلاً: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم؟ فاتبعوا هذا النبيّ. فحاصوا حيصة حمر الوحش، إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت. فلما رأى نفرتهم، وأيس من إيمانهم، قال: ردوهم علي، فقال: إني إنما قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت؛ فسجدوا له ورضوا عنه. . .

هكذا، عرف الحق، والتمعت له بيناته؛ لكن حب الملك والسلطان، صرفه عنه؛ ولم يكتف بذلك بل جهز الجيش لمقاومة الإسلام والمسلمين في مؤتة، وتبوك، ثم اليرموك. . فأضله الله على علم، وركب رأسه، وتصدى للمسلمين يتتبعهم ويقتلهم. . .

٣ ــ كتابه إلى كسرى ملك الفرس:

حمله إليه شجاع بن وهب.

ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله، ورسوله، إلى كسرى عظيم الفرس!.

سلام على من اتبع الهدى، وشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأدعوك بدعاء الله تعالى، فإني أنا رسول الله، إلى الناس

(١) رواية البخاري.

كافة، لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين؛ وإن تُسلم تَسلم، وإلا فإن عليك إثم المجوس».

لكن كسرى مزق الكتاب، فلما بلغ ذلك النبـيّ ﷺ قال: مزق الله ملكه.

وكتب كسرى إلى عامله (باذان) على اليمن، أن ابعث من عندك برجلين جلدين إلى هذا الرجل، فليأتياني به؛ فبعث إليه برجلين جلدين، وكتب معهما إليه كتاباً؛ فقدما المدينة، ودفعا كتاب باذان إلى النبـيّ ﷺ فتبسم وقال: ارجعا عني يومكما هذا، حتى تأتياني الغد، فأخبركما بما أريد.

فلما جاءاه من الغد قال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربـي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة، لسبع ساعات مضت منها. [قال ابن سعد في طبقاته: هي ليلة الثلاثاء، لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع]، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله». فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن.

ولما تولى الحكم بعده شيرويه، كتب إلى العامل في اليمن، ينهاه عما أمره به أبوه، وقال له: وانطلق إلى هذا الرجل الذي كان كسرى قد كتب إليه، فلا تهجه، حتى يأتيك أمري فيه.

٤ ــ كتابه إلى المقوقس أمير مصر، من قبل كسرى:

كان المقوقس عظيم القبط في مصر، وكانوا يرزحون تحت حكم الرومان، الذين كانوا يستضعفونهم، ويستذلونهم، ويضطهدونهم في دينهم.

وقد أرسل النبـيّ ﷺ إليه كتاباً، مع حاطب بن أبـي بلتعة، هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد بن عبد الله، إلى المقوقس عظيم القبط.

سلام على من اتبع الهدى،

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإنما عليك إثم القبط. ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

وقد حمله حاطب إلى المقوقس بالإسكندرية؛ فلما قرأه هذا، قال لحاطب: ما منعه أن كان نبياً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده؟ فقال حاطب: ألست تشهد أن عيسى رسول الله؟ فما له حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله، حتى رفعه الله إليه؟ قال: أحسنت؛ أنت حكيم جاء من عند حكيم.

ثم قال: إني نظرت في أمر هذا النبي، فوجدت أنه لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه؛ ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب؛ ووجدت معه آية النبوة: إخراج الغائب المستور، والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

ثم كتب رد كتاب النبيّ ﷺ بما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط.

سلام عليك. أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبياً قد بقي؛ وكنت أظن أنه يخرج بالشام؛ وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان عظيم في القبط، وبثياب؛ وأهديت إليك بغلة تركبها؛ والسلام.

وقد أعطى النبيّ ﷺ إحدى الجاريتين حسان بن ثابت، وتسرى بالأخرى، وهي مارية، فولدت له إبراهيم ــ عليه السلام ــ .

٥ ــ كتابه إلى المنذر بن ساوىٰ ملك البحرين:

وقد وجهه إليه مع العلاء بن الحضرمي، وكان نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد:

فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ذمة الله، وذمة الرسول؛ من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن عليه الجزية».

فأسلم المنذر، وكتب في جوابه:

أما بعد يا رسول الله! فإني قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضي مجوس ويهود، فأحدث إلي في ذلك أمرك.

وكتب إليه النبيّ ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله، إلى المنذر بن ساوىٰ.

سلام عليك. فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد:

فإني أذكرك الله عزّ وجلّ ــ فإنه من ينصح ينصح لنفسه؛ وإنه من يطع رسلي، ويتبع أمرهم، فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي؛ وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً؛ وإني شفعتك في قومك؛ فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم. وإنك مهما تصلح فلن نغيرك عن عملك؛ ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية».

٦ ـ كتابه إلى أمير بصرى :

ووجه النبيّ ﷺ كتاباً إلى عظيم بصرى الشام من قبل الروم، وكان شرحبيل بن عمرو الغساني، فأوثقه رباطاً، وأمر به وضربت عنقه.

ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

كما أرسل كتباً أخرى إلى ملوك عُمان، واليمامة، وآخرين، فمنهم من أسلم، ومنهم من كفر، ومنهم من تردد، وجامل، ومنهم من تحامل وكاد...

● ● ●

الدروس والمبادىء

١ ــ الإسلام دعوة إنسانية عامة، وليس خاصاً بالعرب:

قضت حكمة ربنا ــ تبارك وتعالى ــ أن تكون أم القرى مهد الإسلام، وأن يتحمل العرب المتخلفون المستضعفون المحكومون هذه الرسالة، ويحملوها إلى الناس كافة.. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[1]. ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[2]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[3]. ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[4]...

وقد صرح النبيّ ﷺ بأمر ربه، فبدأ بعشيرته الأقربين، وبأهل مكة، ثم انتقل بدعوته بعد الهجرة إلى المدينة؛ وبعد أن استقر به المقام، واستتب له الأمر، وثبتت دعائم هذا الدين؛ وأمن كفار مكة بعهد الحديبية، ونفى اليهود الغادرين من الأرض، وعاقد خيبر... اتجه بدعوته إلى ما وراء الجزيرة... فكاتب الملوك والجبابرة من الأعاجم، وكتب إلى أمراء العرب ــ كما قد رأينا ــ.

وقد جاءت هذه المكاتبات في وقتها المناسب تماماً، وكانت لها آثار وعظات بالغة، منها:

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٣) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٤) سورة القلم: الآية ٥٢.

١ ـ أن سمة هذه الدعوة: الإنسانية العامة، لا القومية ولا العنصرية ولا الإقليمية، فجاءت هذه المكاتبات تطبيقاً عملياً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(١).

٢ ـ لم تذهب هذه المكاتبات سدى، ولا صرخة في واد؛ بل آتت ثماراً طيبة، ونتائج ذات بال. . .

لقد أوصلت الدعوة إلى آذان أعظم الملوك في الأرض قاطبة، كسرى وهرقل. . وإلى عظماء أمراء العرب، فأسلم بعضهم، وهمَّ آخرون أن يسلموا، لولا العوائق، وعاند آخرون وكابروا، فكان ذلك نذيراً بانقضاء حكمهم، وتمزيق ملكهم. . . بل جهز النبـيّ ﷺ جيشاً لقتالهم، والقضاء على ملكهم. . .

وهكذا عرف الروم والفرس والعرب المنثورون في أطراف الجزيرة، دعوة الإسلام، واتخذوا حيالهم مواقف. . . كان أكثرها في مصلحة الدعوة نفسها، وكان قوة لها.

إن الإسلام دين الفطرة، فقد تأثر أكثر الذين كوتبوا بالدعوة بمجرد كتاب النبـيّ ﷺ ولولا حب السلطان، والشغف بالملك، لقد كانوا وقفوا موقفاً إيجابياً إزاء الإسلام، مع اختلاف الذين وجهت إليهم تلك الكتب، في الجنس واللغة والعنصر والعقيدة. . .

ذلك أن الإسلام دين الله ونوره، وإنه ما دخل قلباً إلا أشرقت له جنباته، وامحت ظلماته. . . فليعرف المسلمون الدعاة طريق هذا النور إلى القلوب، وليصححوا به الأفكار، وليقوّموا به السلوك والأفعال، وليتحينوا له الظروف المناسبة، وليتخيروا له الأساليب المقبولة. . . إنه لا بد أن تتبدد الظلمات إذا أشرقت الأنوار، ولا بد أن ترتد النفوس إلى الحق، والفطرة ﴿ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ

(١) سورة سبأ: الآية ٢٨.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[1].

روي أن هرقل لما جاءه كتاب النبيّ ﷺ عرضه على كبير أساقفته، فقرأه فقال: هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظره. قال هرقل: فما تأمرني؟ قال الأسقف: أما أنا فمصدقه ومتبعه. قال هرقل: إنه كذلك، ولكني لا أستطيع، إن فعلت ذهب ملكي، وقتلني الروم.

وحسب هذه الكتب النبوية من النجح هذه المواقف، وهذه الحقائق التي يصدع بها جبابرة الملوك؛ وتبقى الكلمة العليا للحق، ولهذا الدين، مهما تمالأت عليه قوى البغي، وهيمنة الملك، وأسلحة السلطان. . .

٢ ـ أقرب الناس من الإسلام النصارى:

كان من الكتب الموجهة إلى الملوك ـ كما قدمنا ـ كتاب النبيّ ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة، وهرقل عظيم الروم، والمقوقس عظيم مصر. . . وكلهم كانوا من النصارى. . . ولم يقفوا مواقف الكيد والعناد من الكتب التي وجهت إليهم، بل مواقف القبول والإذعان؛ فمنهم من أسلم كالنجاشي، ومنهم من تلطف في الرد كالمقوقس، ومنهم من حاول أن يسلم هو وقومه، عن طواعية واقتناع، لولا خوف ضياع الملك، وذهاب الحكم، كهرقل. . .

ففي الروايات أن النجاشي، ملك الحبشة، وكان اسمه أصحمة، ناقش عمرو بن أمية الضمري، الذي حمل إليه الكتاب، مناقشة طريفة عاقلة هادئة، وشهد فيها أنه النبيّ الذي بشر به موسى براكب الحمار، وبشر به عيسى براكب الجمل. . . وحمّل عَمْراً هذا الكتاب إلى النبيّ ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

إلى محمد رسول الله ﷺ، من النجاشي أصحمة:

---

(١) سورة الروم: الآية ٣٠.

سلام عليك يا نبي الله، من الله، ورحمة الله وبركاته، الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض، إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت، إنه كما ذكرت؛ وقد عرفنا ما بعثت به إلينا؛ وقد عرفنا ابن عمك، ـ يعني جعفر بن أبي طالب ـ وأصحابك؛ فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً؛ وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين..».

أما المقوقس عظيم مصر، القبطي، فقد اقتنع بالرسالة، والإسلام، لكنه تردد في القبول والدخول في الدين الجديد، وتلطف ـ كما رأينا ـ في الرد، وأرسل هداياه إلى النبيّ ﷺ؛ وقد احتفظ بكتابه، وأجابه عنه؛ وكان ظنه أن يكون النبيّ من الشام لا من جزيرة العرب، وأقر بأن النبيّ لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن مكروه، واعترف بأنه تثبت فيه من علامات النبوة، ووعد أن سينظر في أمره...

أما هرقل، فقد قام ببحث وتحقيق علميين فذين في أمر الرسول، باستفسار أقرب الناس إليه... وعلق تعليقات علمية على كل إجابة تلقاها منه، وسجل في آخر تحقيقه هذا الاعتراف التاريخي القيم: «... فإن كان حَقّاً ما تقول، فسيملك موضع قدميّ هاتين؛ ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشَّمْتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغلست عن قدميه»[1].

وقد دعا قومه إلى الإسلام، فاطلع عليهم قائلاً: هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت لكم ملككم، فاتبعوا هذا النبي، لكنهم نفروا عنه، وأعرضوا مستكبرين... فترضاهم قائلاً: «إني إنما قلت مقالتي آنفاً، أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت»...

---

(١) رواه البخاري.

فقد هم أن يسلم، لولا الملك والسلطان.

وهذه المواقف تفترق عن مواقف كسرى ــ مثلاً ــ وأمير بصرى. . .، وتذكر بموقف ورقة بن نوفل، في مبدأ الوحي، وتخالف مواقف اليهود في المدينة، الذين عاينوا الوحي والتنزيل، وشاهدوا النبوة وعاصروا الدعوة في مشرقها. . . فناهضوها، وكادوا لها، وهموا بالرسول والمؤمنين، واتفقوا مع المشركين عبدة الأوثان. . . على قتال المسلمين، وسحق الإسلام.

وصدق الله العظيم، وتمت كلمته: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾(١). . .

٣ ــ مسؤولية المسلمين عن الدعوة إلى الله في العالم كله:

إن توجيه النبيّ ﷺ هذه الكتب إلى الأقاليم المعروفة وقتئذ خارج الجزيرة، على اختلاف عناصرها ونزعاتها وعقائدها، ليدل على اضطلاعه بمسؤوليته عن الدعوة إلى الله، التي هي مهمته ورسالته الأولى، وتبليغها الناس أجمعين، عرباً وعجماً، مشركين ونصارى ويهوداً. . . وأدائها على وجهها الكامل، في حدود مكناته وقدراته، دونما تقصير.

والمهمة نفسها واقعة على خلفائه وأتباعه، في كل عصر. . . والتبليغ وحده لا يكفي، إذا لم تسنده الشواهد العملية التطبيقية، التي تقدم الإسلام للناس نموذجاً حياً واقعياً متحركاً: يثبت العقيدة، وينظم المجتمع، ويحل المشاكل في ضوء تعاليمه، ويقدم للإنسانية المنهاج السديد الفريد في الحكم والسياسة، والإدارة والاقتصاد، والسلوك الفردي والجماعي. . .

لكن هذا رهين بإصلاح المسلمين أنفسهم أولا، وتطبيق الدين في عالمهم،

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢.

في عباداته ومعاملاته وحدوده ونظامه العام؛ فإذا استقام لهم ذلك ــ وفق المنهج الإسلامي، كان لهم أن يطلوا على العالم المادي المستشرف للمنقذ، وأن ينقلوه إلى شاطىء السلام، والأمان، بالإسلام والإيمان.

أما وهم يتخوضون فيما يشبه الجاهلية الأولى في العلم والحكم، وليس فيهم ــ أفراداً ومجتمعات ــ من الإسلام إلا ملامح باهتة خافتة... فلا يصلحون للدعوة، ولا يستطيعون أن يقدموا للبشرية شيئاً من الخير، ولا أن يكونوا هداة البشرية...

لا بد من تطهير المجتمعات الإسلامية أولاً من رواسب الجاهلية، وإقامة الأوضاع والتشريعات الإسلامية التنفيذية في المجتمع الإسلامي، ثم الدعوة إليها في هذا العالم المادي، الذي يخنقه القلق، وتعبث به الشكوك، ويفسده الترف والانحلال...

٤ ــ أخذ الجزية من أهل الكتاب ومن المجوس وممن سواهم:

درسنا في كتاب النبيّ ﷺ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين، أن من صلى صلاة المسلمين، وأكل ذبيحتهم، كان آمناً وله ذمة الله، ومن أبى فعليه الجزية.

ولما أسلم المنذر وكتب يستفسر عمن لم يؤمن وكره الإسلام، من اليهود والمجوس، أجابه ــ عليه الصلاة والسلام ــ، بأن من أقام على يهوديته أو مجوسيته، فعليه الجزية.

والجزية هي الوظيفة المالية المأخوذة من الكفار في كل عام؛ وتقدر بدينار؛ وتؤخذ من الرجال البالغين العاقلين القادرين، إذا كانوا من أهل الكتاب، وتقبل من غيرهم كالمجوس عبدة النار، ومن عبدة الأوثان ــ من غير العرب ــ ومن عبدة النجوم وغيرهم...

وبالجزية تثبت الذمة، فيحق للكافرين الإقامة في دار الإسلام بأمان على

أنفسهم وأموالهم وشعائرهم وأنكحتهم وشؤون أسرتهم. وفيما سوى ذلك، يلتزمون أحكام الإسلام، فتطبق عليهم الحدود وعقوبات الجنايات كالسرقة والزنى، كما تطبق أحكام المعاملات، فلا يمكنون من المعاملات الربوية؛ ولا يخونون المسلمين، ولا يفتنونهم في دينهم، ولا يسبون شعائرهم، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم؛ يستثني الحنفية لهم شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير ونكاح بناتهم، فإنه مباح لهم صحيح، ما داموا يعتقدونه..

وقد سأل في هذا الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، الحسنَ البصري ــ رضي الله تعالى عنهما ــ وقال: ما بالنا تركنا أهل الذمة، يأكلون الخنزير، ويشربون الخمر، وينكحون بناتهم؟ فقال الحسن: «على هذا أخذنا الجزية، إنما أنت متبع لا مبتدع».

وبالجملة، إن عقد الذمة يلزم بدفع الجزية، وجريان الأحكام عليهم، ويلزمهم بالامتناع من كل ما فيه ضرر للمسلمين، أو فيه غضاضة عليهم، كإحداث البيع والكنائس، وإظهار المنكر، والضرب بالنواقيس، وما إلى ذلك.

٥ ــ كان أمراء العرب أحسن إجابة للدعوة من غيرهم:

دَلَّ كتاب النبيّ ﷺ إلى المنذر وغيره ــ كصاحب اليمامة وإن لم نذكره سابقاً ــ على أن أمراء العرب كانوا أحسن إجابة، وأكثر استعداداً للإسلام ممن سواهم، بدليل رد صاحب البحرين: معلناً إسلامه أولاً، ومستفسراً عن بعض أحكام من لم يؤمن من قومه.

وكذلك صاحب اليمامة هوذة بن علي، الذي قال في كتابه: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك..».

ويعلل ذلك بأن العرب فيهم الصفاء والاستعداد لتلقي الدين الجديد بفطرتهم، ولذلك جعل الله فيهم دعوته، وأنزل كتابه... وهم الذين حملوا فيما بعد هذه الرسالة إلى الناس في المشارق والمغارب.

٦ ــ التسمية وتعظيم المرسل إليه من أدب المراسلة:

جميع الكتب التي أصدرها النبيّ ﷺ إلى الملوك والأمراء، صدرت ببسم الله الرحمن الرحيم أولاً، ثم ذكرت الموجِّه والموجَّه إليه الكتاب... وصفته: كعظيم الروم، وعظيم الفرس، وعظيم القبط... وحددت الهدف المقصود من الرسالة باختصار ووضوح وتركيز.

وهذا من أدب الكتاب، وأمر يحسن التزامه في المراسلات؛ فالبداءة بالتسمية مشروعة في كل شيء، و «كل أمر ذي بال لا يبدأ به ببسم الله فهو أبتر» وفي رواية «بحمد الله»(١) وما أحسن الجمع بينهما.

وكذلك تعيين المخاطب بالكتاب ضروري؛ وكذا تحديد الغرض، وتوضيح الفكرة. وفي المسلمين ــ بحمد الله ــ من يلتزم ذلك، وما ألطف هذا الالتزام، وتطويق الرسائل به.

اللهم صل وسلم وبارك، على هذا النبيّ العظيم، المعلم المؤدب الذواقة، الذي علمنا كل خير، حتى أدب الكتابة، وأسلوب المكاتبة، ورقة الخطاب، واحترام المخاطبين، وهو في الأميين.

٧ ــ قبول الهدية، ولو من كافر، وإكرامها، وإحسان التصرف فيها:

لما أرسل المقوقس هداياه إلى النبيّ ﷺ: الجاريتين، والبغلة والحمار، قبلها النبيّ ﷺ ولو لم يسلم المقوقس؛ فعرفنا بذلك أن من أدب الإسلام قبول الهدايا، ولو كانت من غير أهل الملة.

وفي الروايات أن إحدى الجاريتين، وهي سيرين أهداها إلى حسان بن ثابت، إذ كان شاعر الدعوة، المشيد بها، والذائد عنها، والمدوي بقصائده في تمجيدها...

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقي.

أما الأخرى، وهي مارية القبطية، فأصح الروايات، أن النبيّ ﷺ اصطفاها لنفسه، فأعتقها لما أسلمت، وتزوجها، وولدت له إبراهيم عليه السلام!.

وأما البغلة فكانت نفيسة فريدة في بياضها، بين البغال في بلاد العرب، وقد سماها باسم خاص، هو: دُلْدُل. أما الحمار فسماه يعفورا.

ولا شك أن التسمية والإهداء والتزوج منها، كل ذلك يعتبر من الحفاوة بالهدية، وتكريم المهدي... ولعل النبيّ ﷺ بهذا السلوك الأدبي، كان يطمع في إسلام المقوقس، وإسلام قومه... فقد أعلن أنه اقتنع بالإسلام والقرآن، ولم يسلم خشية أن يسلبه الروم ملك مصر؛ ولولا ذلك لأعلن إسلامه.

● ● ●

غـزوة مؤتـة

كانت ــ كما ذكر ابن إسحاق وابن سيد الناس ــ في جمادى الأولى من سنة ثمان.

ولم يكن فيها رسول الله ﷺ، ولهذا سماها بعض الكاتبين في السيرة سرية مؤتة، أو قصة مؤتة ــ كما فعل الواقدي في مغازيه ــ .

غير أن ضخامة الجيش فيها، وكثرة عدده، أتاح إطلاق الغزوة عليها.

أما مؤتة فهي قرية من أرض البلقاء، على حدود الشام، وتسمى الكرك.

وسببها، أن عظيم بصرى من قبل هرقل، وهو شرحبيل بن عمرو الغساني، لما أرسل إليه النبيّ ﷺ كتابه، وحمله إليه الحارث بن عمير الأزدي، أوثق شرحبيلُ الحارثَ، وقتله.

فندب الناس للخروج إلى الشام، لتأديب هذا العامل العربي لحساب الروم النصارى، فتجهز للجيش ثلاثة آلاف مقاتل، فيهم كبار من الصحابة؛ وخرج أهل المدينة يودعون هذا الجيش الزاحف، ويدعون له، ويقولون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردكم إلينا سالمين.

وذكر ابن إسحاق، أن عبد الله بن رواحة، لما ودع من ودعه بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجلّ، يذكر فيها النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا

﴿وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾[1]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فلما دعا المسلمون له ولأصحابه بسلامة الإياب قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذاتَ فَرْغ تَقذف الزَّبَدا
أو طعنةً بيديْ حَرَّان مجهزةً ... بحربة تُنفذ الأحشاءَ والكبِدا
حتى يقالَ إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز، وقد رشَدا

وسمَّى لهم رسول الله ﷺ الأمراء في ذلك الجيش، بالترتيب، وقال: أمير الناس زيد بن حارثة، فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة. فإن أصيب عبد الله، فَلْيَرتضِ المسلمون رجلاً منهم، فليجعلوه عليهم.

وشهد هذه التسمية رجل من اليهود، فقال: يا أبا القاسم! إن كنتَ نبياً يصاب جميع من ذكرت؛ لأن الأنبياء من بني إسرائيل كان الواحد منهم إذا استعمل رجلاً على القوم، وقال: إن أصيب فلان، فإنه يصاب.

ثم قال اليهود لزيد: اعهدْ، فلن ترجع إلى محمد أبداً، إن كان نبياً؛ فيقول زيد: أشهد أنه نبي.

وعقد الرسول ﷺ رايته البيضاء، إلى نصل رمح، ودفعه إلى زيد بن حارثة؛ واستمر يشيع جيشه حتى وصل إلى ثنية الوداع، فألقى إلى الجيش في الأمراء الثلاثة، بهذه التوصيات:

«أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم، بالشام؛ وستجدون رجالاً في الصوامع، معتزلين، فلا تتعرضوا لهم؛ ولا تقتلوا امرأة، ولا صغيراً، ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجرة، ولا تهدموا بناء».

علم شرحبيل بخروج المسلمين للثأر من غدره المنكر، فاستغاث بجيرانه

---

(١) سورة مريم: الآية ٧١.

العرب، فجمع مائة ألف مقاتل: من لخم، وجذام، وبلّى، وبهراء؛ واستنجد بهرقل، فأغاثه بمثلهم، ممن كان يحتل الشام، وأمَّر عليهم أخاه تيودور.

وسمع المسلمون بهذا الجيش الجرار، وهم في مَعان، فأقاموا فيها ـ كما ذكر ابن إسحاق ـ ليلتين يفكرون في أمرهم؛ وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له.

قال: فشجع الناسَ عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم! والله إن التي تكرهون، لَلَّتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعددٍ ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين، الذي أكرمنا الله به؛ فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور، وإما شهادة... فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة...

فمضى المسلمون غير مكترثين بعدوهم، ولا وجلين من لقائه؛ والتقى الجيشان بمؤتة، وهي قرية صغيرة تقع شمال قلعة كرك؛ فانقض المسلمون على عدوهم كالليوث الضارية، وأعملوا فيهم سيوفهم ورماحهم، وقتلوا زعيمهم.

لكن الكفار تكاثروا على زيد، قائد الجيش، وحامل اللواء، حتى قتلوه برماحهم، ويداه ما تزالان تقبضان عليه وهو ميت، فأخذ اللواء من يديه جعفر بن أبي طالب، وقد أبلى بلاء عظيماً، وهو يمتطي صهوة جواده الأشقر؛ فلما اشتد البأس، وحمي الوطيس، ترجل عنه وعقره ـ كيلا ينتفع به العدو ـ، وقاتل راجلاً بسيفه البتَّار، حتى دقت يده اليمنى التي كانت تحمل اللواء، فرفعه بيسراه، فلما دقت احتضنه بذراعيه الداميتين كيلا يقع... وانطلق يشتد مع ذلك على العدو، حتى قتل... ضربه رجل من الروم، فقدّه نصفين؛ فوجد في جسمه ـ كما روى البخاري ـ خمسون طعنة، ليس منها شيء في ظهره. وكان ابن ثلاث وثلاثين.

وكان ينشد وهو يشتد في القتال:

يا حبذا الجنة واقترابها　　　طيبةً وبارداً شرابها

والــروم روم، قــد دنــا عــذابهــا كــافــرةٌ، بعيــدةٌ أنســابهــا
علــي إذ لاقيتهــا ضــرابهــا

وأخذ اللواء من بعده عبد الله بن رواحة، فانطلق يرتجز في بسالة:

أقسمــتُ يــا نفــسُ لتَنْــزِلِنَّــهْ لتنــزِلــنَّ، أو لتُكــرهِنَّــهْ
إن أجلــب النــاس وشــدوا الــرَّنَّــهْ مــا لــي أراك تكــرهيــن الجنــهْ
قــد طــال مــا قــد كنــت مطمئنــهْ هــل أنــت إلا نطفــة فــي شَنَّــهْ

(والشنة: السقاء البالي)...

وقال أيضاً يغري نفسه بالشهادة:

يــا نفــسُ إلا تُقتلــي تمــوتــي هــذا حمــام المــوت قــد صَلِيــت
ومــا تمنيــت فقــد أعطيــت إن تفعلــي فعلهمــا هُــديــت

فلما تقدم، جاءه ابن عم له بقطعة لحم، وقال له: شد بها صلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما قد لقيت: فما إن اقتطع منها مضغة حتى سمع جلبة وصياحاً في ناحية من الجبهة، اشتعلت فيها الحرب، فخاطب نفسه قائلاً: وأنتِ في الدنيا؟ فألقى اللحم من يده، وأخذ سيفه، فتقدم، فقاتل حتى قتل، وعيناه تذرفان ـ رضي الله عنه وعن صاحبيه ـ .

فأخذ اللواء من بعده ثابت بن أقرم، فقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت؛ قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.

وقاتل خالد بمن معه، واحتال ليخيف عدوه، وينقذ جيشه الخفيف... فجعل مقدمته ساقه، وساقه مقدمة، وميمنته ميسرة، وميسرته ميمنة؛ فظن الكفار أن المسلمين أتاهم المدد، فاستولى عليهم الرعب، وولى بعضهم مهزوماً، وأصيب آخرون بخسائر فادحة، حتى روى البخاري عن خالد بن الوليد ـ رضي الله

عنه قوله ـ اندقت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، وما ثبت في يدي إلا صفيحة يمانية. . .

وقد جاء في الأخبار، أن الله تعالى أطلع رسوله في ذلك اليوم بما لاقى جيشه، وأن النبـيّ ﷺ نادى في الناس بالصلاة الجامعة؛ ثم صعد المنبر، وعيناه مغرورقتان بالدموع، وقال: «أيها الناس! باب خير، باب خير؛ أخبركم عن جيشكم هذا الغازي، إنهم انطلقوا فلقوا العدو؟ فقتل زيد شهيداً، فاستغفروا له؛ ثم أخذ الراية جعفر، فشد على القوم، حتى قتل شهيداً؛ فاستغفروا له؛ ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وأثبت قدميه، حتى قتل شهيداً؛ فاستغفروا له؛ ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد، ولم يكن من الأمراء، وهو أمر نفسه، ولكنه سيف من سيوف الله، فآب بنصره».

وروى ابن سيد الناس أن النبـيّ ﷺ قال: إن الله رفع لي الأرض، حتى رأيت معتركهم.

واتجه النبـيّ ﷺ بنفسه إلى بيت جعفر؛ وكانت زوجته أسماء قد قامت بشؤون البيت، فعجنت، وغسلت بنيها، ونظفتهم ودهنتهم؛ فقال لها: ائتني ببني جعفر؛ فلما أتته بهم شمهم، وذرفت عيناه، فاضطربت أسماء وقالت: يا رسول الله! بأبـي أنت وأمي، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم! أصيبوا هذا اليوم، فأجهشت تبكي، واجتمع إليها النساء، يبكين معها. . . ودعا النبـيّ ﷺ لجعفر أن يخلفه الله في ذريته، فأحسن ما خلف أحداً من عباده في ذريته.

فروى السهيلي، أن النبـيّ ﷺ رفع رأسه فجاءة إلى السماء قائلاً: وعليكم السلام، ورحمة الله؛ فقال الناس: على من تسلم يا رسول الله؟ قال: «رأيت جعفر بن أبـي طالب، يطير مع الملائكة في السماء، مرفوعاً إلى الجنة بجناحين من ياقوت، عوضه الله تعالى بهما عن يديه».

وذكر ابن سيد الناس أن رسول الله ﷺ قال في جعفر: إن الله أبدله بيديه جناحين، يطير بهما في الجنة حيث يشاء. . . فلعل وصفهما بأنهما من الياقوت في رواية السهيلي، أنهما جناحان مضرجان بالدم.

ولم ينسَ النبـي الرؤوف الرحيم، أن يستوصي ببني جعفر، فقال: «لا تغفلوا عن آل جعفر، أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم».

وخرجت المدينة تستقبل الجيش المنسحب، وخرج الأطفال، وأتي بعبد الله بن جعفر، فحمله على دابته بين يديه؛ ولم يعجبهم أن يعود الجيش منسحباً، كأن هذا أمر لم يعتادوه. . . فحثا الصبيان التراب في وجوه الجند، وهم يقولون: يا فرارون! فررتم من سبيل الله. لكن النبـيّ ﷺ لم يرتض وَصْفَهم بذلك، فصحح قولتهم هذه، وقال: ليسوا بالفرارين، إنهم الكرارون ـ إن شاء الله ـ .

عنى أنهم ما فروا، بل انسحبوا بأعجوبة وحيلة، وسيكرّون ـ بمشيئة الله ـ على عدوهم هذا، وسيغلبونه.

وصدق النبـيّ ﷺ، فما هي إلا بضع سنين، حتى دالت في عهد الشيخين ـ رضي الله عنهما ـ دولتا الفرس والروم، بالفتوح الإسلامية.

• • •

الدروس والمبـادىء

تعتبر غزوة مؤتة أول مواجهات المسلمين للكفار خارج الجزيرة، وأول حروبهم مع الروم؛ وكانت نصراً للمسلمين، وفتحاً للإسلام بتسمية النبيّ ﷺ قيادة خالد كذلك. ولقد استاق المسلمون غنائم كثيرة، وقتلوا من الكفار كثيراً، ولم يقتل من المسلمين ــ مع ذلك ــ إلا اثنا عشر فقط، كما ذكر ذلك ابن كثير، الذي يقول في تاريخه:

«هذا عظيم جداً، أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين، أحدهما وهو القلة التي تقاتل في سبيل الله، وعدتها ثلاثة آلاف؛ وأخرى كافرة، وعدتها مائتا ألف مقاتل من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف؛ يتبارزون ويتناصلون؛ ثم مع هذا كله، لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر؛ وقد قتل من المشركين خلق كثير. هذا خالد وحده يقول: لقد اندقت في يدي تسعة أسياف، وما بقيت في يدي إلا صفحة يمانية، فماذا ترى قد قتل بهذه الأسياف كلها؟ دع غيره من الأبطال الشجعان، من حملة القرآن، وقد تحكموا في عبدة الصلبان...».

كانت بدر أول انتصار الإسلام على مشركي العرب في جزيرة العرب، وكانت مؤتة أول انتصار على نصارى العرب، ونصارى الروم، خارج جزيرة العرب.

وقد اشتملت هذه الغزوة على دروس وأحكام، نذكرها باختصار:

١ ــ المؤمن عزيز كريم، لا بد أن يثأر لعزته وكرامته، كلما مُست بسوء،

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1]؛ وليس من خصال المؤمن الرضا بالذل والهوان.

٢ ـ توديع الجيوش المقاتلة سنة متبعة، والدعاء لها بالنصر المؤزر، وسلامة العودة، مشروع.

٣ ـ تسمية الأمراء، والعهد إليهم ولو مرتبين، في رئاسة الجيش، كذا في قيادة الأمة، مشروع. . .

٤ ـ في بعض الأحوال كان النبيّ ﷺ يعلم نتائج غزواته التي يبعثها، قبل زحفها، بتعليم الله تعالى إياه. . . وكذلك كان الأمر في مؤتة، فقد رتب الأمراء، يقول: فإن أصيب فلان فالإمرة لفلان. . . وقد شهد اليهودي بذلك.

٥ ـ ينبغي أن يكون للمسلمين راية تميزهم عن كل أمة. . . يحترمونها ويكبرونها، لأنها رمز عقيدتهم. . ولا أدل على ذلك من تنقيل جعفر الراية من يمناه إلى يسراه ثم إلى ذراعيه. . . إثر كل طعنة.

٦ ـ المسلمون دعاة سلم حتى في حروبهم، فهم لا يقاتلون إلا من قاتلهم، ويكفون عن الرهبان والصبيان والنساء، ولا يفسدون الزروع، ولا يخربون البيوت، ولا يجتثون الشجر. . . وصدق الذين قالوا من المستشرقين: ما عرف التاريخ فاتحاً مثلهم.

٧ ـ إنما يقاتل المسلم للشهادة في سبيل الدين؛ لا يقاتل سمعة ولا طمعاً في غنيمة، ولا حباً للرتبة، ولا لتحصيل الحطام والألقاب.

٨ ـ المؤمن يعرف قدره، وقدر غيره، فلا يتخطاه إذا كان هذا أولى وأقدر منه. . . فقد اعتذر عن تسلم الراية وقال: اصطلحوا، ما أنا بفاعل.

---

(١) سورة المنافقون: الآية ٨.

والمسلمون شغلوا بالتجاوز، وفتنوا بالتعدي، فلم يعرفوا أقدارهم، ولا أقدار الآخرين... لكل منهم كل شيء، وليس لغيره شيء... مات الحق فيهم، وهم يعلمون، فكيف بالإيثار؟.

٩ ــ الانسحاب من المعركة بانتظام وشرف وحيلة كسب ونصر؛ وإنقاذ المسلمين من مخاطر الحرب المعروفة النتائج، صون سمعتهم وشرفهم...

١٠ ــ عندما تدق المواقف، وتشتد الهزائز، يتجرد المسلم عن كل صلاته بالدنيا...: ذلك البدري عمير بن الحمام يلقي التمرات، ليقذف بنفسه في ساحة الموت؛ وهذا المؤتوي يلقي قطعة اللحم، ليتعجل الشهادة في سبيل الله...

١١ ــ وإن تقدم ما يقيم أود المحاربين، ويشد من قوتهم، ويدفعهم إلى القتال والصمود مطلوب في الإسلام.

١٢ ــ الحرب خدعة ــ كما رأينا ــ من قبل وتغيير صف الجيش من حيل خالد التاريخية، التي أكسبته ــ بإذن الله ــ جولته...

١٣ ــ يسن للحاكم العام أن ينعى الشهداء، ويستغفر لهم، كما يسن له أن يبرهم، ويأمر بإسعافهم ومواساتهم في نكبتهم... ومن ذلك طهو الطعام لهم... ويفعله الناس في أيامنا للموتى عامة، ولله الحمد... ونرجو أن يكون بتجرد، ولا يكون في الوصية.

١٤ ــ يعجل الله تعالى ــ فضلاً منه وتكرماً ــ مثوبة الشهداء، ويخلفه عما بذلوه في سبيله: فقد أبدل الله جعفراً بيديه اللتين دقتا في مؤتة، بيدين من الياقوت، طار بهما في الجنة.

١٥ ــ إن الله لا يظلم مثقال ذرة، ولا يضيع أجر المحسنين... لقد أرى نبيَّه كيف رفع الثلاثة الأمراء على أسرة من الذهب، وكيف قُدم سريرا زيد وجعفر، وازورَّ عنهما قليلاً سرير ابن رواحة، الذي عراه شيء من التردد لما تسلم الراية، فحث نفسه في أبياته التي رأيناها على التأسي بصاحبيه...

١٦ ــ إن شجاعة المسلمين، وبطولات هؤلاء الأمراء، بلغت القمة، التي لا تتطاول إليها أمة. . .

١٧ ــ إن التربية المحمدية، صنعت من الأطفال الصغار، رجالاً وأبطالاً، يرون العودة من المعركة دون شهادة في سبيل الله، فراراً من سبيل الله، لا يكافأون عليه إلا بحثو التراب في وجوههم. . .

فأين أطفالنا المستهترون المتسكعون في الشوارع، من هذه النماذج الرفيعة من الرجولة الفذة المبكرة؟ وأنى لنا أفراداً وجماعات، ومعاهد وحكومات، أن نرتفع بهم إلى هذه الأهداف النبيلة والقمم الشوامخ؟

إن ذلك لن يكون إلا بالتربية الإسلامية الجادة، القائمة على أساس الإيمان والقرآن.

١٨ ــ البر باليتامى، وعولهم وكفالتهم من سنن الإسلام وسيد المرسلين ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

روي في السنَّة والآثار، عن عبد الله بن جعفر (ابن الشهيد الثاني في مؤتة) قال: جاءنا النبيّ ﷺ بعد ثلاث من موت جعفر؛ فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم، وادعوا لي بني أخي (أولاد جعفر ابن عمه، وسماه أخاه تكريماً وتعظيماً للرحم وهو أخوه في الدين).

قال عبد الله، فجيء بنا كأننا أفراخ (صغار جداً كزغب الطير) فقال: ادعوا إلي الحلاق؛ فجيء بالحلاق، فحلق رؤوسنا، ثم قال (بعد الحلق للتودد والتلطف) أما محمد ــ ابن جعفر الشهيد ــ فشبيه عمنا أبـي طالب (يعني أنه شبيه جده في الخلقة؛ وأما عبد الله فشبيه خَلقي وخُلقي. ثم أخذ بيدي (يد عبد الله راوي الحديث) فأشالها (رفعها) وقال: اللهم اخلف جعفراً في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه (في كل ما يعمله ويعقده من بياعات). . . قالها ثلاث مرات.

قال عبد الله: وجاءت أمنا، فذكرت له يُتْمَنَا، وجعلت تحزنه... فقال لها النبـيّ ﷺ:

«العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟»[1].

صلى الله عليكَ، يا يتيما، وهو ملاذ اليتامى، وملجأ الأرامل، وركن المستضعفين، وسلم تسليماً كثيراً؛ فهذا من تنفيذ قولك: «من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك كلاًّ أو ضَياعاً فإليّ»[2].

● ● ●

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) متفق عليه، ورواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

فتـح مـكـة

كان في رمضان سنة ثمان من الهجرة.

سبب هذا الفتح المبين:

أن قريشاً نقضت فقرة من فقرات صلح الحديبية، فكأنها نقضته كلها، لما أن الصلح كان عهداً، والعهد كل لا يتجزأ.

وقد نص في عقد الصلح ــ كما سلف ــ على أن من أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل، ومن أراد أن يدخل في عهد محمد وأصحابه دخل. . .

فدخلت خزاعة في عقد محمد وعهده؛ ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم.

فذكر ابن إسحاق وابن سعد والواقدي وآخرون؛ أن بني بكر استعانوا بقريش على خزاعة، فأعانتهم بالرجال والسلاح. وكان في المدد القرشي صفوان وحويطب ومكرز. فهاجموا خزاعة ليلاً وهم آمنون مطمئنون؛ عند ماء، يقال له: (الوتير) وهو قريب من مكة، فقتلوا فيهم عشرين رجلاً.

ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهزة للقتال، لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل! إنا قد دخلنا الحرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم.

عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم.

وذكر ابن إسحاق أن عمرو بن سالم، وقف على رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يـا رب إنـي نـاشـد محمـداً ... حِلـف أبينـا وأبيـه الأتلـدا
قـد كنتُـم وُلـداً، وكنـا والـداً ... ثُمـتَ أسلمنـا فلـم ننـزع يـدا[1]
فـانصـر هـداك الله نصـراً أعتـدا ... وادع عبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهـم رسـول الله قـد تجـردا ... إن سيـم خسفـاً وجهـه تـربـدا
فـي فيلـق كـالبحـر يجـري مُـزبـدا ... إن قـريشـاً أخلفـوك المـوعـدا
ونقضـوا ميثـاقـك المـؤكـدا ... وجعلـوا لـي فـي (كَـدَاءٍ) رُصَّـدا
وزعمـوا أن لسـت أدعـو أحـدا ... وهـم أذل وأقـل عـددا
هـم بيَّتـونـا بـالـوتيـر هجَّـدا ... وقتلـونـا ركَّعـا وسجـدا

فقال النبيّ ﷺ: نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب. ولما عرض سحاب من السماء، قال: إن هذه السحابة، لتستهل بنصر بني كعب.

أبو سفيان يتلافى حماقة قريش:

رهبت قريش ما صنعت، وأدركت أنها تردت في خطأ كبير، وحماقة بالغة؛ فندمت، وأرسلت أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ ليشد في العقد، ويزيد في المدة، وليصلح ما أفسدته قريش بحماقتها ونزقتها وغضبتها النابية.

---

(١) يريد أن أم عبد مناف وأم قصي خزاعيتان.

قال ابن إسحاق وابن سيد الناس: فدخل على ابنته أم حبيبة ـ أم المؤمنين ـ ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه؛ فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

قال: ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً؛ ثم ذهب إلى أبي بكر، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب، فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد إلا الذر، لجاهدتكم به.

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وعنده فاطمة وعندها الحسن بن علي، غلام يدب بين يديها؛ فقال: يا علي! إنك أمس القوم بي رحماً، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائباً، فاشفع بي إلى رسول الله. فقال: ويحك يا أبا سفيان! والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر، ما نستطيع أن نكلمه فيه.

فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا بنت محمد! هل لك أن تأمري بنيَّك هذا، فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بني ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

قال أبو سفيان: يا أبا الحسن! إني أرى الأمور قد اشتدت علي فانصحني! قال: والله ما أعلم لك شيئاً، يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أوترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد. فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس؛ ثم ركَّب بعيره فانطلق. . . .

فشل أبو سفيان في مهمته، ولم يرجع بشيء، بل لم يستطع أن يضع لقومه

شيئاً. فحدثهم بالذي وقع له؛ فاتهموه بأنه خانهم، واتبع الإسلام، فهرع إلى الأوثان، يتنسَّك عندها، نفياً للتهمة.

ولما حدث امرأته هند بحديث الرحلة، قالت له: قبحك الله من وافد قوم، فما جئت بخير...

التـأهب لغـزو مكـة:

كان هذا الموقف الصامد الصامت أمام أبـي سفيان يعني أن قريشاً ستلقى جزاء غدرها بعهدها، ونقضها عقدها... أفصح عن هذا رسول الله ﷺ بقوله: والله لأغزون قريشاً... قالها ثلاثاً.

ثم أذن في الناس بالغزو، وأمرهم بالتأهب والتهيؤ، واستنفر الأعراب الذين هم حول المدينة، وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان في المدينة.

وأخفى أمره إخفاء... حتى عن أهله؛ ودعا فقال: اللهم خذ على أبصار قريش فلا يروني إلا بغتة.

دخل الصديق على ابنته عائشة، وعندها حنطة، تنسف وتنقى، فقال لها: يا بنية! لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت. فقال: أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت، فقال: يريد بني الأصفر؟ فصمتت. قال: فلعله يريد أهل نجد؟ فصمتت. قال: فلعله يريد قريشاً؟ فصمتت!.

فلما دخل عليهما رسول الله ﷺ قال له: يا رسول الله! أتريد أن تخرج مخرجاً؟ قال: نعم. قال: فلعلك تريد بني الأصفر؟ قال: لا. قال: أتريد أهل نجد؟ قال: لا. قال: فلعلك تريد قريشاً؟ قال: نعم. فقال أبو بكر: يا رسول الله! أليس بينك وبينهم عهد ومدة؟ قال: ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟.

إخبار قريش بالغزو:

كتب صحابي بدري ـ هو حاطب بن أبي بلتعة خطّأً ـ كتاباً إلى قريش، يخبرهم بتجهيز المسلمين لغزوهم، وطير هذا الكتاب مع امرأة إلى مكة... وأخبر الله نبيه ﷺ بذلك، فأرسل ثلاثة من فرسانه، في طلب المرأة.

فقد روى أصحاب السنن عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال:

«بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (بين مكة والمدينة، وإلى المدينة أقرب)، فإن بها ظعينة (امرأة مسافرة) معها كتاب، فخذوه منها، فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا، حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا: أخرجي الكتاب! قالت: ما معي من كتاب. فقلنا: لتخرجنِ الكتاب، أو لنلقين الثياب. فأخرجته من عقاصها، (ضفائر شعرها وقرونه).

قال: فأتينا به النبيّ ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ فقال: يا رسول الله! لا تعجل علي، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش (مقيماً فيهم بلا نسب)، ولم أكن من أنفسهم؛ فكان من معك من المهاجرين لهم قرابة يحمون بها أموالهم وأهليهم بمكة؛ فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن اتخذ فيهم يداً، يحمون بها قرابتي؛ وما فعلت كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: إنه قد صدقكم، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: إنه قد شهد بدراً؛ وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم؟ قال: فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ »(١).

(١) أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه.

الخروج إلى مكة:

خرج النبيّ ﷺ بجيشه العظيم من المدينة بعد أن استخلف عليها ابن أم مكتوم، وقيل كلثوم بن حصين، يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان، بعد العصر؛ وقد كان استنفر ـ كما رأينا ـ الأعراب حول المدينة، من قبائل أسلم، وغفار وجهينة ومزينة؛ وساروا وهم صائمون؛ فلما بلغوا (الكديد) أجهدهم الصوم، وتحرجوا من الفطر، فدعا رسول الله ﷺ بماء، فشرب نهاراً وهو على ناقته، والناس ينظرون، يعلمهم بذلك أنه قد أفطر؛ فأفطر المسلمون.

ولما كانوا بالظهران (بين مكة والمدينة) التقوا بأعراب قبائل المدينة، فأربى الجيش على العشرة آلاف؛ بل بلغوا اثني عشر ألف ـ في بعض الروايات ـ . . . ولم تبلغ أنباؤه قريشاً، لكنها كانت تتوقع أن يحدث أمر. . . فأرسلت تتحسس أنباء المسلمين، ثلاثة من قريش: أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء؛ لعلهم يظفرون بخبر.

إسلام أبي سفيان:

وخرج العباس بن عبد المطلب، عم النبيّ ﷺ يبحث عن وسيلة تمنع القتال بين المسلمين والمشركين، ولا تجتاح مكة في أعقابه. . .

وروى ابن إسحاق قصة تدخل العباس في السلم، فقال:

قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش، إلى آخر الدهر.

قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها، قال: حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطَّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه، فيستأمنوه، قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبـي سفيان، وبُديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً! قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حمشتها الحرب؛ قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها؛ قال: فعرفت صوته؛ فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قال: قلت: نعم، قال: مالك؟ فداك أبـي وأمي! قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة؟ فداك أبـي وأمي؛ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فقال: من هذا؟ وقام إلي؛ فلما رأى أبا سفيان، على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد؛ ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضْتُ البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء.

قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه؛ قال: قلت: يا رسول الله! إني قد أجرته.

ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل؛ فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلت: مهلاً يا عمر! فوالله لو كان من بني عدي بن كعب، ما قلت هذا، ولكنك عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلاً يا عباس! فوالله لإسلامك يوم أسلمت، كان أحب إلي من إسلام

الخطاب لو أسلم؛ وما بـي إلا أني قد عرفت أن إسلامك، كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ فقال رسول الله ﷺ اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به، قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح، غدوت به إلى رسول الله ﷺ؛ فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. فقال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبـي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً. فقال له العباس: ويحك، أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، قبل أن تضرب عنقك. قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً؛ قال: نعم؛ من دخل دار أبـي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فلما ذهب لينصرف، قال رسول الله ﷺ: يا عباس! احبسه بمضيق الوادي، عند خطم الجبل (أنفه) حتى تمر به جنود الله فيراها؛ قال: فخرجت به حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

قال: ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة، قال: يا عباس! من هذه؟ فأقول: سُليم، فيقول: ما لي ولسليم؛ ثم تمر القبيلة، فيقول: يا عباس! من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: ما لي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء ــ لكثرة الحديد فيها ــ . . . فيها المهاجرون والأنصار ــ رضي الله عنهم ــ ، لا يرى منها إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس! من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما

لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة؛ والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. قال: قلت: يا أبا سفيان! إنها النبوة! قال: فنعم إذن.

أبو سفيان يسرع إلى قومه ويحذرهم:

هكذا تم إسلام أبـي سفيان، الرأس المدبر في المشركين بعد أبـي جهل؛ وقد أمره العباس الذي توسط لجواره، ومهّد لإسلامه، وتعهده بعد الإسلام قائلاً ـ كما ذكر ابن إسحاق وغيره ـ: النَّجاءَ إلى قومك (أي أسرع إليهم)؛ حتى إذا جاءهم، صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبـي سفيان فهو آمن.

فقامت إليه هند بنت عتبة (زوجته)، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا هذا الحَميت الدسم الأحمس (الزق الكثير السمن الشديد اللحم) قُبح من طليعة قوم. قال: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبـي سفيان، فهو آمن؛ قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن؛ فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

على أبواب مكة، أو دخول مكة:

أشرف النبـيّ العظيم ﷺ على مكة، لما بلغ (ذي طوى)، وألقى نظرة على البلد الآمن الأمين، وهو هادىء مستسلم، فوقف، كما قال ابن إسحاق، على راحلته، معتجراً بشُقة بُردِ حِبَرَة (أي معتماً بلا ذؤابة بنصف ثوب يمني) حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن عثنونه (لحيته) ليكاد يمس واسطة الرحل.

يا لله! يا لتواضع النبـيّ العظيم...

أم القرى مسقط رأسه، ومهبط وحيه، ومنزَّل كتابه... أم القرى التي أخرج

منها قبل بضع سنين، وحرمت عليه، تستسلم له اليوم، وادعة مطمئنة... ترحب به وبالحق الذي جاء به، والنور الذي معه، والشرع الذي اتبعه؛ فما يبعث ذلك في نفسه الفخار ولا يزيده استسلامها إلا تواضعاً وانحناءً للعلي القدير، الذي رجعه إلى كعبة الإسلام، وقبلة الأنام، عزيزاً منصوراً، بلا قعقعة سلاح، ولا صليل سيوف، ولا هجوم ولا قتال، ولا مقارعة أبطال.

إنه ما بعث فاتحاً ليزهو ويفخر، لكنه بعث داعياً وهادياً ورسولاً، فانحنى شاكراً لله ــ تعالى ــ أن وفقه لتبليغ رسالته، وهداية أمته، وردّ بلده الأمين، إلى حظيرة الدين، في أمن وسلم وهدوء.

ومع ذلك، واستعداداً للطوارىء، وأخذاً بالحيطة والحذر، قسم جيشه المسلم، إلى أربع فرق، دخلت كل فرقة مكة من جهة، فطوقها الجيش المسلم من أطرافها: الزبير بن العوام من أعلى مكة من شمالها؛ وخالد بن الوليد من جنوبها؛ وأبو عبيدة على المهاجرين من طريق الشرق، وسعد بن عبادة على الأنصار من الغرب من مضيق كدىً.

ودخل القواد مكة من حيث أمروا، فلم يواجههم مقاوم. واحتلوها، كلٌّ منطقته، في سلم وطوع واستسلام، إلا خالد بن الوليد، فقد دبرت له مكيدة في ضواحي مكة، تولى كبرها ثلاثة من رؤوس الشرك؛ عكرمة بن أبـي جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو؛ فما تقدم منها حتى صبوا فوق جنده وابلاً من السهام؛ فاضطر لقمع تحركهم، فشن عليهم غارة، سحقت ثلاثة عشر منهم، وشتت جمعهم، وتعقبهم فارين إلى الحرم أو البحر.

فيذكر ابن إسحاق في هذا، أن أحد بني بكر، وهو حِماس بن قيس، رأته امرأته وهو يصلح من سلاحه، فقالت: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه؛ فقالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء؛ قال: والله إني لأرجو أن أخدمِك بعضهم؛ ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فما لي عِلَّةْ هذا سلاح كامل وإلَّه
وذو غرارين سريع السَّلّه

(الإلَّه: الحربة ذات السنان الطويل؛ والغراران: الحدَّان).

وانهزم هذا فيمن انهزم، حتى دخل بيته يقول لامرأته تلك: أغلقي علي بابي. قالت: فأين ما كنت تقول: فقال ـ واصفاً جيش المسلمين وقوته وبأسه ـ:

إنك لو شهدت يوم الخَنْدَمه إذ فر صفوان وفر عكرمه
وأبو يزيد قائم كالمُوتِمه واستقبلتْهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمه ضرباً، فلا يُسمع إلا غمغمةْ
لهم نَهيتٌ خلْفنا وهمهمه لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه

[أبو يزيد هو: سهيل بن عمرو. والموتمة: الأرملة تقوم على اليتامى. الغمغمة: صوت مختلط غير مفهوم. والنَّهيت: صوت الأسد وصوت في الصدر، وكذا الهمهمة صوت في الصدر].

ولما رأى النبيّ ﷺ التماع السيوف، وقعقعة السلاح، قال: ألم أنه عن القتال؟ قيل: يا رسول الله! إن خالداً قوتل فقاتل؛ فقال: قضاء الله خير...

لم يشأ النبيّ ﷺ أن يكون فتح مكة قتالاً ولا مواجهات، بل شاء أن يكون فتح مكة فتحاً للقلوب، وتفتيحاً للأبصار، وتنويراً للعقول...

وقد أبلغه عمر أن سعد بن عبادة، حامل لواء الأنصار، وزعيم الأوس، لما دخل مدخله المرسوم، أحس بنشوة الظفر، وشعر بزمام القوة، والسيطرة على قريش ذات الفعال السود في مواجهاتها القديمة للرسول ﷺ، فصاح يقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً؛ فلم يعجبه هذا القول، ورده قائلاً: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعزّ الله فيه قريشاً. وأمر

فنزعت الراية من سعد، كيلا يصول أو يحدث حدثاً، وسلمها في رواية علياً، وفي أخرى ابنه كيلا يثور غضبه.

ورواية البخاري أن النبـيّ ﷺ دخل مكة، من أعلاها، من كداء؛ راكباً ناقته المباركة المعروفة (القصواء). وكان يردف خلفه أسامة بن زيد، ويحمل رايته البيضاء الزبير بن العوام.

وكان ذلك صبح يوم الجمعة، لعشرين خلت من شهر رمضان.

ولما دخل مكة نزل في أعلاها، مقابل جبل (هند) وهناك ضربت له قبة، على مقربة من قبري أبـي طالب وخديجة ــ رضي الله عنها ــ؛ ولما سئل: هل يريد أن يستريح في بيته؟ أجاب قائلاً: وهل تركوا لي بمكة بيتاً؟ لكنه دخل قبته، فاستراح قليلاً.

دخـول البيـت:

ثم قام بعد أن اطمأنَّ الناس فاتجه إلى البيت العتيق ومعه المهاجرون والأنصار، وأبو بكر بجانبه، وهو يقرأ سورة الفتح يرجِّع فيها.. فدخله، فاستلم الحجر، ثم طاف بالبيت، راكباً راحلته، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً، كما في الصحيحين، فجعل يطعنها الواحدة تلو الأخرى، بعود في يده وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ۝٨١﴾[1]. ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ۝٤٩﴾[2].

وكان في جوف الكعبة آلهة، فأبـى أن يدخل، وفيه الآلهة، وأمر بها فأخرجت، وكسرت؛ وأخرجت تماثيل لإبراهيم وإسماعيل، في أيديهما الأزلام؛ فقال النبـيّ ﷺ: قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قط.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٢) سورة سبأ: الآية ٤٩.

ثم دخلها، وقد طهرت من الأوثان وصور الملائكة جميعاً، فصلى فيها...

فلما خرج وقف بباب الكعبة، وخطب فقال ـ كما يقول ابن هشام وغيره ـ :

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده؛ ألا كل مأثرة (خصلة حميدة) أو دم، أو مال يُدَّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانةَ البيت (خدمتَه) وسقاية الحاج؛ ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا؛ ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها، في بطونها أولادها. يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب. ثم تلا هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[1].

ثم قال: يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم، كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم؛ اذهبوا فأنتم الطلقاء.

إهدار دم أفراد مُسَمَّيْنَ:

لما دخل النبيّ ﷺ أمر ـ كما رأينا ـ ألا يقاتل المسلمون إلا من قاتلهم؛ ثم أصدر هذا العفو العام؛ واستثنى منه أناساً، أمر بأن يقتلوا، ولو تعلقوا بأستار الكعبة، لكيدهم الشديد، وكفرهم التليد، منهم:

١ ـ عبد الله بن سعد، وكان قد أسلم ثم ارتد، واستأمن له عثمان. ثم أسلم بعد ذلك.

٢ ـ وعبد الله بن خطل، وقد أسلم، وبُعث مصَّدِّق، فقتل مولاه، وارتد مشركاً؛ وقد قتل معلقاً بأستاء الكعبة.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

٣و٤ـ فرتَنى وقرنية، جاريتا ابن خطل، وكانتا تغنيان بهجاء النبـيّ ﷺ قتلت إحداهما واستؤمن للأخرى.

٥ ـ الحويرث بن نُقَيْدٍ، وكان يؤذي النبـيّ ﷺ وعدا على ابنتيه لما هاجرتا.

٦ ـ ومِقْيس بن حبابة، قتل أنصارياً قتل أخاه خطأً، ورجع إلى قريش مشركاً، بعد أخذه الدية، وقتله رجل من قومه.

٧ ـ وسارة، مولاة بعض بني عبد المطلب، وكانت تؤذيه في مكة، ويقال: أنهما حملت كتاب حاطب.

٨ ـ وهبَّار بن الأسود، وقد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ وهي مهاجرة، فنخس راحلتها، فسقطت وكانت حاملا، فأجهضت.

٩ ـ عكرمة بن أبـي جهل؛ وورث عداوة أبيه، فلما أهدر دمه، هرب إلى اليمن؛ واستأمنت له زوجه، وتبعته... فلما عاد، نذر لئن نجا في السفينة من الغرق ليأتين محمداً فيسلم...

فلما عاد، قال النبـيّ ﷺ لأصحابه: لقد جاءكم عكرمة مسلماً، فلا تسبوا أباه، لأن ذلك يؤذي الحي، ولا يصيب الميت.

١٠ ـ وهند بنت عتبة، زوجة أبـي سفيان، التي مثلت بجثة حمزة... ثم أسلمت وطلبت العفو، واعترفت أنها كانت في غرور...

البـرّ والوفـاء:

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن أبـي طلحة، قبل أن يسلم؛ فأراد علي ـ رضي الله عنه ـ أن يكون المفتاح له مع السقاية؛ لكن النبـيّ ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلاً: اليوم يوم بر و وفاء.

وذكر ابن سعد عن عثمان بن طلحة، أنه قال:

كنا نفتح الكعبة في الجاهلية، يوم الاثنين والخميس، فأقبل رسول الله ﷺ يوماً ــ في مكة قبل الهجرة ــ يريد أن يدخل الكعبة، مع الناس، فأغلظت له، فنلت منه، فحلم عني، ثم قال: يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت. فقال عثمان: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت. فقال له رسول الله ﷺ: بل عمرت وذلت يومئذ. . .

ويقول عثمان: فوقعت كلمته مني موقعاً. . .

فلما كان الفتح، قال لي النبـيّ ﷺ: يا عثمان! ائتني بالمفتاح، فأتيته به؛ فأخذه، ثم دفعه إلي، وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم. يا عثمان! إن الله ــ تعالى ــ استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

قال: فلما وليت ناداني، فرجعت إليه، فقال: ألم يكن الذي قلت لك؟ قال: فذكرت قوله ﷺ قبل الهجرة: سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت؟ قلت: بلى! أشهد أنك رسول الله.

الأذان فوق الكعبة:

أمر النبـيّ ﷺ بلالاً أن يصعد فوق ظهر الكعبة، فيؤذن للصلاة، وكان أبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام، جلوساً بفناء الكعبة.

فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً ــ أباه ــ ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته؛ فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى.

قال ابن هشام: فخرج عليهم النبـيّ ﷺ، فقال: قد علمت الذي قلتم؛ ثم ذكر لهم ذلك؛ فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك.

إجارة بعض المشركين وتأمينهم:

ذكر الرواة، ومنهم ابن إسحاق أن ممن أهدر النبيّ ﷺ دمهم يوم الفتح: الحارث بن هشام، وزهير بن أمية.

وتحدثت أم هانىء أخت علي بن أبي طالب، لأمه، وقالت:

لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة، فر إلي رجلان من أحمائي من بني مخزوم، فدخل عليَّ عليٌّ بن أبي طالب أخي، فقال: والله لأقتلنهما ــ لأنهما خرجا ولم يغلقا دونهما أبوابهما ــ ؛ قالت: فأغلقت عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ، وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة، إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه؛ فلما اغتسل أخذ ثوبه، فتوشح به، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إلي: فقال: مرحباً وأهلاً يا أم هانىء! ما جاء بك؟

قالت: قلت: يا رسول الله! إني أجرت الحارث بن هشام وزهير بن أمية؛ فزعم ابن أمي عليٌّ أنه قاتلهما! فقال ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء، فلا يقتلهما.

وأسلم بعد ذلك الحارث بن هشام، وقابله النبيّ ﷺ مسلماً، وقال له: الحمد لله الذي هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام؛ وكان من نزلاء مصر بعد ذلك، ومن فضلاء الصحابة.

وممن أمنهم النبيّ ﷺ صفوان بن أمية؛ وكان من ألد أعداء الإسلام، وخصومة الأشداء. . . فلما أهدر النبيّ ﷺ دمه، اختفى، ثم أراد أن يذهب فيلقي نفسه في البحر.

فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحي إلى النبيّ ﷺ، وقال: يا نبيّ الله! إن صفوان سيد قومه، وقد هرب خوفاً منك ليقذف نفسه في البحر؛ فأمِّنه، فإنك قد

أمّنت الأحمر والأسود. فقال النبـيّ ﷺ: أدرك ابن عمك، فهو آمن. فقال: أعطني علامة! فأعطاه عمامته التي دخل فيها مكة.

فلحقه عمير، وهو يهم بركوب البحر، ليقذف بنفسه فيه، فقال: يا صفوان! فداك أبـي وأمي، الله الله في نفسك، أن تهلكها، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به. جئتك من عند أفضل الناس، وأبرّ الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وهو ابن عمك؛ وعزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك. قال صفوان: إني أخافه على نفسي. قال: هو أحلم من ذلك وأكرم؛ فرجعا إلى النبـيّ ﷺ فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمّنتني؛ قال: صدق. قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين؛ قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر.

همَّ بالقتل فآمن وحسن إيمانه:

ذكر ابن هشام، أن فضالة بن عمير، أراد أن يقتل النبـيّ ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم! فضالة يا رسول الله؛ قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله؛ قال: فضحك النبـيّ ﷺ، ثم قال: استغفر الله؛ ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه؛ فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا؛ وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث؛ فقلت: لا ... يــأبـــى عليـــكِ الله والإســـلام
لـــو مـــا رأيـــتِ محمـــداً وقبيلـــه ... بـــالفتـــح يـــوم تكسَّـــرُ الأصنـــام
لـــرأيـــتِ ديـــن الله أضحـــى بيِّنـــاً ... والشـــرك يغشـــىٰ وجهـــه الإظـــلام

البيعة لرسول الله ﷺ:

غادر النبيّ ﷺ المدينة صائماً، وأفطر هو وصحبه في الطريق؛ ومكث في مكة بضعة عشر يوماً؛ أو تسعة عشر يوماً، يقصر ويفطر، ويفقه الناس في دينهم. ويبين لهم الأحكام، ويرسل سراياه إلى القبائل المجاورة يدعوها إلى الإسلام، وأرسل رسله لهدم ما تبقّى من الأوثان: كالعزى، وسواع، ومناة...

واجتمع إليه الناس، من كل صوب، فبايعوه على السمع والطاعة، لله ورسوله. فلما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء.

ويقول الرواة: إنه اجتمع إليه نساء من نساء قريش، فيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة وجلة، لما كان من صنيعها بحمزة ــ رضي الله تعالى عنه ــ؛ كما قدمنا في غزوة الفتح.

فلما دنونَ منه يبايعنَه، قال لهن رسول الله ﷺ: تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً؟ فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال، وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن؟ قالت: والله! إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان، الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلاًّ لي أم لا؟ فقال أبو سفيان ــ وكان شاهداً لما تقول ــ: أما ما أصبت فيما مضى، فأنت منه حل؛ فقال النبيّ ﷺ: وإنك لهند بنت عتبة؟ فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

قال: ولا تزنين؟ قالت: وهل تزني الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن؟ قالت: ربيناهم صغاراً، وقتلتهم يوم بدر كباراً؛ فأنت وهم أعلم؛ فضحك عمر من قولها، حتى استغرب، وبدت نواجذه.

قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن؟ فقالت: إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعضُ التجاوز أمثل.

قال: ولا تعصينني؟ فقالت: في معروف.

فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن، واستغفر لهن الله! فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لا يمس امرأة ولا تمسه، إلا امرأة أحلها الله.

لا هجرة بعد الفتح:

بعد أن تم فتح مكة، واستتب الأمر فيها للمسلمين، وفقه النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الناس في دينهم، وعلمهم ما لا بد لهم من خلال الأيام القليلة التي مكثها في مكة، لم يبق حكم الهجرة من مكة إلى المدينة سارياً، وأصبح المسلمون يتنقلون من مكة إلى المدينة، ومن المدينة إلى مكة، بكل حرية، وبلا وصف الهجرة. فهذا قول النبيّ ﷺ بعد أن تم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية».

• • •

الدروس والمبادىء

تخلل الفتح الأعظم كثير من المبادىء والدروس، واعتوره فعلاً كثير من الأحكام، وكان فتح مكة ميداناً لكثير من الأحداث الهامة... ونشير هنا إلى ذلك بشيء من الاختصار والتركيز.

١ ـ إن الباطل كان زهوقاً:

إن الفتح الأعظم، عفى على الوثنية في مكة وما حولها؛ وكانت موئل الشرك فأصبحت مهد الإسلام، وأمن المسلمين؛ ومنار التوحيد، ومشعل الإيمان، الذي أضاء الجزيرة العربية، وأشرف على شطر الدنيا قروناً طويلة.

إن فتح مكة، قضى على الشرك والمشركين، وجعلهم في التاريخ أثراً بعد عين... الشرك الذي تقاوى وتغطرس، واستذل المؤمنين، وألجأهم إلى الهجرة... وقاوم الحق، ونازعه السلطان.. فر أمامه بعد الفتح مستخذياً مستخذلاً... وسلم لأمره، وخضع لحكمه.

كان قوياً فضعف، وكان كثيراً فقل، وكان عزيزاً فذلّ... وكذلك الباطل... مهما قوي، ومهما كثر، ومهما عزّ... فمسيره إلى الزوال... والحق مهما ضعف... ومهما قل، فالعاقبة له، والبقاء له، والغلبة له.

ألم تر كيف كان رسول الله ﷺ يشير بعصاه إلى الأوثان المنصوبة حول الكعبة، فتتهاوى على الرؤوس والأذقان، حطاماً وأنقاضاً.. وهو يقول: «جاء الحق وزهق الباطل... إن الباطل كان زهوقاً».

إن الفتح الأعظم علمنا أن النصر لأهل الحق؛ وأن الحق مهما اختفى فلا بد أن يظهر، وأن الباطل إن غلب، فلا بد أن يتقهقر أمام سلطان الحق، وقوته الغلابة. . .

أنت على ذكر من هجرة النبيّ ﷺ من مكة مستخفياً، ليس معه إلا الصديق. . . وما تزال تذكر قولته عندما توجه إلى الكعبة قائلاً: والله!! إنك لأحب بلاد الله إلي؛ ولولا أن قومي أخرجوني منك لما خرجت. . .

وأنت تذكر هجرة المسلمين الأولى والأخرى إلى الحبشة. . . وتذكر كيف هاجر المسلمون إلى المدينة فارين بدينهم. إذ كانوا في مكة مستضعفين. . وتذكر كيف كان المسلمون يعذبون في مكة، وكيف عذب بلال الحبشي وغيره من الرقيق السابقين إلى الإسلام.

ها هو النبيّ ﷺ نفسه، وها هم أولاد المستضعفون المعذبون بالأمس، يعودون اليوم إلى مكة منصورين، أقوياء بنصر الله.

وهذا هو بلال الذي كان يعذب في حر الظهيرة، مطروحاً بين الرمل والحجارة وهو يقول: أحد أحد. . . هذا هو اليوم يقف بأمر النبيّ ﷺ على ظهر الكعبة، يرفع صوته المدوي، يملأ به الآفاق: الله أكبر. . . الله أكبر. . .

أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله.

فهل آمنت بأن العاقبة للمتقين، والعدوان على الظالمين. . .

وهل آمنت بأن الحق ــ دائماً ــ ومهما يكن من شغب وتضليل ــ هو الأقوى والأغلب والأثبت والأعز. . . ولو بعد حين. . .

إذاً فالزم الحق. . . واتبعه وأحبه، ودافع عنه، والتزمه. . . فيه النصر والعزة. . . في التاريخ، والقضاء، والعدل، وفي الدنيا ويوم الدين.

٢ ــ الإسلام أولى من الأهل والوطن:

لقننا الفتح المبين، بنتائجه الباهرة، التي أسفر عنها، أن العقيدة الإسلامية الدينية فوق كل اعتبار... وكل شيء دونها سهل، وكل شيء خادم لها... وهي المخدومة.. فالمال يبذل في سبيلها، والأهل يضحى بهم من أجلها، والوطن يهاجر منه لمرضاتها... وكل شيء يمكن أن يستغنى عنه، إلا العقيدة، إلا الدين، إلا الإسلام...

وكل شيء يمكن أن يخفف ويعوض... إلا الدين.

إن المهاجرين من مكة وجدوا في المدينة وطناً... ووجدوا فيها أهلاً... وكونوا ثروات وأموالاً... وأسسوا مجتمعاً، وبنوا دولة... وكانوا فيها أعزة... وكانوا في مكة أذلة...

إنهم تخلوا عن كل شيء لهم في مكة، في سبيل الدين والإسلام.

وكانوا في ذلك صادقين... صادقين في توحيدهم، صادقين في عبادتهم، صادقين في التزام الدين وأحكامه... واستصغار كل شيء في إعظامه...

إن تعظيم الدين، وترسيخه لا يفوت على المسلم شيئاً من أمر الدنيا: لا من الأهل ولا من الوطن ولا من المال... لكن الاستخفاف بالدين خسارة الدنيا بما فيها، وخسارة الآخرة... وذلك هو الخسران المبين.

إن الفتح المبين، رد على المسلمين المهاجرين كل ما فقدوه من مال وأهل ووطن... إنهم استمسكوا بالدين، واستصغروا في جانبه كل ألوان المادة... فحفظ الله لهم دينهم، ورد عليهم المادة التي تركوها من أجله... فكسبوا الدنيا والدين.

ألا إن المادة غادية رائحة... والبقاء كله للعقيدة والدين... وصدق

النبـيّ ﷺ إذ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»[1].

٣ ـــ الفتح الأعظم من بركات صلح الحديبية:

قد ذكرنا في الحديث عن صلح الحديبية، أن بعض الصحابة أو كثيراً منهم، حتى عمر، ذهلوا منه، واستكثروا شروطه، وأشفقوا منه على الإسلام والمسلمين؛ وأن النبـيّ ﷺ، نزل عليه وهو منصرف من الحديبية إلى المدينة، قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ . . .﴾[2].

فكان صلح الحديبية، فتحاً جديداً في حياة الإسلام، بالنظر إلى عواقب التسامح البعيد الذي سجله النبـيّ ﷺ فيه، وبركاته التي تجلت للمسلمين فيما بعد:

ذلك أن قريشاً تحمل لواء التصدي والمعارضة للإسلام، فلما وقعت هذا الصلح ضعف شأن الوثنية في الجزيرة، وحبط عمل المنافقين، وتزعزع مركز اليهود باستقرار المسلمين. . . الذين انطلقوا في الدعوة للإسلام بين القبائل، في أمن واطمئنان. . فكثر المسلمون، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

فلهذا عد الزهري الصلح فتحاً؛ وانتصر لهذا الرأي ابن هشام، بأن عدد مسلمي الحديبية ألف وأربعمئة، وعدد المسلمين الذين خرجوا للفتح عشرة آلاف. . .

فكانت معاهدة الحديبية فتحاً في ذاتها، وأدت إلى هذا الفتح الأعظم. . . الذي قضى على خرافة عبادة الأوثان، ومسح لوثات الشرك من أم القرى وما حولها إلى الأبد. . . ومكن فيها للإسلام الدين الجديد، الذي أضاء العالم قروناً طويلة. . .

---

(١) رواه النسائي وابن ماجه والإمام أحمد.

(٢) سورة الفتح: الآية ١.

أرأيت كيف كان التزام المسلمين بعقد الصلح، وإخلال المشركين بالتزامهم خيراً ونصراً للمسلمين؟

أرأيت التفسير الواقعي لقول النبيّ ﷺ لعمر لما تساءل واستفهم وهو مذهول من أمر صلح الحديبية: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني؟».

نعم! كانت معاهدة الحديبية بهذا النص من أمر الله، وكانت بأمر الله... وقد أثبت الفتح المبين أنها كانت رحمة، وكانت فتحاً، وتمهيداً للفتح الأعظم.

وصدق الله العظيم، إذ أنزل فيها قوله المبشر به: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾[(١)].

ومن يدري؟ فلعل هذا الفتح الذي عنته هذه الآية، بحيث يشمل كل ما ولي صلح الحديبية من فتوح وانحصار للإسلام من فتح مكة، وفتح خيبر! فكان هو نفسه فتحاً، وكان بشيراً بفتوح أعقبته.

٤ ــ نقض العهد جريمة يقاتل عليها في الإسلام بلا إنذار:

من شعار المسلمين الوفاء بالعهد، مهما يكن ثقيلاً حراً؛ وقد رأيت كيف وفَّى المسلمون بعهد صلح الحديبية فوراً، وسلموا أبا بصير المؤمن إلى الكفار، راجين أن يكون له ولمن معه فرج قريب... وهذا من أعظم المشاهد والصور على التزام المسلمين بعهودهم...

غير أن كفار مكة، ما كانوا متمسكين بعهدهم كما ينبغي، فبدلاً من أن يمنعوا بني بكر من الاعتداء على خزاعة، أعانوهم عليها، وشاركوا في القتل، مع قيام العهد بينهم وبين محمد على وضع الحرب عشر سنين؛ والاعتداء على من كان في عهد محمد وعقده، هو اعتداء على محمد نفسه.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٧.

فلهذا لم يتردد النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ في نقض عهد قريش بسبب تلك المشاركة العادية الآثمة، وقال للخزاعي الذي استنصره: نصرت يا عمرو بن سالم؛ لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب؛ وجمع جموع الصحابة، واستثار القبائل.

هذا عهد المسلمين، وعهد العرب المشركين.

عهد المسلمين التزام، وعهد العرب في الميزان.

ومقابلة نقض العهد بمثله، والمبادرة إلى القتال بعده، مما يوحي به قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ١٢﴾[1].

وليس الأمر كذلك فحسب، بل إن القتال الذي يلي نقض العهد، قتال مباغت، لا إنذار فيه ولا دعوة إلى الإسلام، لذلك لم يلتفت النبيّ ﷺ ولا صحابته إلى توسلات أبي سفيان، ولا إلى استئماناته، ولم يردوا عليه بشيء، لأنه لا إيمان ولا ائتمان ولا عهد لمن نقض العهد.

وقد روى الثقات في السيرة أن النبيّ ﷺ لما أراد الخروج إلى مكة، دعا ربه قائلاً: «اللهم خذ على أبصار قريش، فلا يروني إلا بغتة»، وقد كتم أمره، كما رأيت، حتى عن أهله، ولم يبح به أولاً إلا إلى الصديق، وأرسل من يأخذ كتاب حاطب الذي أعلم فيه قريشاً بخروج المسلمين إليها، كي تتم المباغتة.

٥ ــ العفو والمغفرة لا تحولان دون العتب والنصح والتوجيه:

كانت فعلة حاطب غلطة كبيرة، ومعصية أخلت بتخطيط المسلمين، وعرضت سياستهم للفشل الذريع... ولذلك هم عمر بن الخطاب ــ رضي الله

(١) سورة التوبة: الآية ١٢.

عنه ـ أن يضرب عنقه. لكن النبيّ ﷺ كفه عن ذلك، وقرر له، أن الله ـ تعالى ـ رضي عمن شهد غزوة بدر، وأطل عليهم قائلا: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم. . .

وبهذه المناسبة ومعها، نزل القرآن الكريم ليقرر مبدأ عاماً، بعد هذا الفعل الخاص، وهو تحريم اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، وصدق المودة معهم، ويبين أن فعل ذلك ضلال عن الطريق السوي المستقيم. .

فإذا نجا حاطبٌ من ذلك لبدريَّته، فإن غيره ممن قد يقدم على هذا العمل المشين الخطير، يعرض نفسه للعقاب، زجراً له وتربية وتسوية.

٦ ـ جواز تعذيب المتهم بالحبس وغيره إذا ثبتت تهمته:

أثارت كلمة علي ـ رضي الله عنه ـ في تهديد المرأة بخلع الثياب إخراجاً للكتاب، مشكلة فقهية معروفة وهي: هل يجوز تعذيب المتهم بمجرد الادعاء؟

وللفقهاء ـ باختصار ـ حيال هذه المسألة تفصيل جيد، نذكره هنا لأهميته: والمسألة عندهم لا تخلو من هذه الأوجه:

الأول: أن يكون المتهم بريئاً، بحيث لا تكون هناك حجة تثبت إدانته، وهو معروف بين الناس بالسلامة، والعزوف عن مثل ما اتهم به. فهذا النوع لا تسمع فيه الدعوى، ولا يحبس المتهم، ولا يعاقب؛ بل إن من اتهمه بهذه التهمة الباطلة، هو الذي يعزر، صيانة لأعراض البرءاء، من تسلط السفهاء، بالادعاءات المشينة.

وتعرف هذه المسألة في الأعراف الحقوقية اليوم؛ بالبلاغ الكاذب.

ومن الفقهاء المالكيين كأشهب، من لا يعزر عليها إلا إذا كان قصد المدعي أذية المتهم.

ومنهم، كأصبغ، من يؤدب عليها مطلقاً.

الثاني: أن يكون المتهم مجهول الحال، غير معروف البراءة، ولا معروف الإجرام. وحكمه أنه يحبس بمجرد الادعاء، ويبحث عنه، حتى تنكشف حاله.

وفي هذا ثبت في سنن أبـي داود ومسند أحمد، من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، أن النبـيّ ﷺ حبس في تهمة. وفي حديث أبـي هريرة أنه حبس في تهمة يوماً وليلة.

ومن الفقه أن يحبس المتهم في هذه الحال، إذ قد يكون القاضي مشغولاً بالفصل في قضايا أخرى سابقة، فيُحجز حتى يتفرغ له القاضي.

وبعض الفقهاء يرون الحبس في هذه الحال بمجرد الادعاء، ومنهم مالك؛ ويرى الحنفية أن لا يحبس المتهم حتى يتبين أن للدعوى أصلاً.

ويحدد بعض الفقهاء أقصى مدة الحبس بشهر، قطعاً ومنعاً للتعسف؛ ويطلقه آخرون، ولا يصح معه تهديد ولا تهذيب.

الثالث: أن يكون المتهم معروفاً بالإجرام، والاجتراء على أسباب الحدود والتعازير؛ فللقاضي حبسه بمجرد الدعوى، كفاً لأذاه، ومساعدة على إثبات التهمة.

وقد أخطأ من ذهب من أهل الفقه إلى تحليف المتهم وإطلاقه، وخالف النصوص السابقة، وجانب المصلحة التي ما جاء الشرع إلا لتحقيقها؛ فالنصوص إذا شملت الحال الثانية، شملت هذه بالأولى.

بل نص الفقهاء على جواز الاستعانة بالضرب في هذه الحال، لكشف التهمة؛ وإن يكن الإقرار الناتج عن الضرب لا يبنى عليه حكم في الدعوى، بسبب الضرب والتهديد والإكراه.

ونص ابن القيم في الطرق الحكمية على أن للحاكم حبس المجرمين لمنع فسادهم في الأرض، وقمع شرهم وعدوانهم؛ وكذلك قال مالك بجواز حبس أهل

البدع المكفرة، حتى يتوبوا أو يموتوا؛ وأبو حنيفة ــ رحمه الله ــ الذي لا يرى جواز الحجر على المسلم، حفاظاً على حريته وكرامته؛ فإنه يستثني من ذلك جواز حبس الطبيب الجاهل، والمفتي الماجن، والمكاري المفلس، قطعاً لدابر فسادهم في الأرض، وإضرارهم بعامة الناس، وخطرهم على المجتمع.

ومما يستدل لهذا ما قدمناه من قبل في غزوة بني قريظة، من أن النبيّ ﷺ أمر أن يمس ابن أبي الحقيق، بعذاب، لما كتم كنز حُيي بن أخطب، وقال: الكنز أفنته الحروب، وقال النبيّ ﷺ في رد قولته: العهد قريب، والمال أكثر.

ويستدل أيضاً هنا، بتهديد علي ــ رضي الله عنه ــ المرأة بتجريد الثياب، لأن التهمة ثبتت وحياً قطعاً بإطلاع الله تعالى نبيه ﷺ على خبرها، فساغ لذلك التخويف والترهيب، والتهديد بالتجريد.

٧ ــ الولاية لله الحق، ولهذا الدين، لا لسواهما:

أشارت قصة حاطب، والآيات الكريمة التي نزلت في مناسبتها، إلى تخطئة حاطب في موالاته الكفار من قريش، واتخاذه يداً عندهم بخيانة الله ورسوله، وعلى حساب مصلحة المسلمين، ومصلحة هذا الدين، طمعاً في الحفاظ على ماله وأهله ومتاعه، إذ كان مولى وحليفاً لعثمان، وليس من قريش نسباً... وبينت أن ولاء المسلم وحبه ووده وهواه ينبغي أن يكون لله رب العالمين، ويحرم أن يتخذ من الكفار أولياء وأنصاراً وأحباباً، لانعدام الصلة والقرابة بين المسلم والكافر.

إن العلاقات والصلات بين الناس ينبغي أن تكون على أساس هذا الدين، وولائه وحبه والإخلاص له؛ وإن إقامة الصلات على أساس المصلحة الفردية والغرض القريب، أو الشهوة العارمة، إضعاف لمركز الدين، وإبعاد له عن أن يكون هو الحاكم المهيمن على تصرفات المسلمين جميعاً.

إن هذا مذكر بصنيع المنافقين، الذين هم يوادون أهل الكفر، وهواهم

معهم، وقلوبهم مشدودة إليهم، موثوقة بهم؛ ثم هم يتسترون للمسلمين بهذا الطلاء الرقيق من المظاهر الدينية...

وكثير من المسلمين، الحكام والمحكومين، استبعدوا الدين عن منهاج الحياة، وواقع الحياة، وقصروه على شكليات وظواهر، لا أثر لها في سلوكهم، ولا في تصرفاتهم، التي ترعى مصالحهم أيما رعاية، ومآربهم المادية، وأهواءهم الشخصية، في معزل عن الدين، وحكم الشرع...

المنافقون يوادّون أعداء الله، والمسلمون يوادّون أنفسهم وأموالهم ودنياهم التافهة؛ وربما والوا الكفرة والملحدين، وسكتوا عن كلمة الحق، وشايعوا الباطل؛ ورضوا بالمنكر، ودافعوا عنه، وسفهوا المعروف وأعرضوا عنه في سبيل إرضاء أهوائهم، وكسب مصالحهم.

فأين موقع الدين من سلوك هؤلاء المسلمين، وما أثره في حياتهم؟ إنهم ذوبوه، وميعوه، وشوهوا حقيقته.

إنهم والوا الهوى والشيطان، وليسا بأقل عداوة للدين من الكفار.

إنما الولاية لله، والإخلاص لله، والحب والود له وحده، في تجرد وانقطاع، كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

وكيف يكون مخلصاً من آثر هواه على شرع الله، ودنياه على الدين؟

وقد ذيل القرآن لذلك معاتبة حاطب الذي وقع في هذا في ساعة ضعف نفسي، بأن من يفعل فعله، فقد ضل سواء السبيل، وانحرف عن خط الدين.

٨ ــ المسلمون دعاة حق، ورواد سلام:

كان لموقف العباس بن عبد المطلب يوم الفتح، ومحاولته دخول المسلمين

(١) سورة البينة: الآية ٥.

في سلم لا حرب ولا قتال، ومراوضته أبا سفيان زعيم قريش، وبطل الشرك وعدو الإسلام اللدود الأول، ثم إدخاله في جواره، ومنع المسلمين، وعلى التخصيص عمر، من إيذائه، ثم إحضاره أمام الرسول ﷺ وإعلان جواره للمسلمين... كان لهذا الموقف التاريخي الفذ، أثر كبير في استبعاد شبح الحرب ودخول مكة في أمن وسلم، لا في عنوة وقهر.

أرأيت إلى إشفاق العباس من اندلاع الحرب، وقوله: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

أرأيت كيف التمس للمسلم والأمن الوسيلة المناسبة، والسعي الموفق، فالتمس بغلة النبيّ ﷺ البيضاء، فانطلق بها ليفعل شيئاً، ويحدث في صفوف المشركين أحداث السلم، والأمن والاستقرار؟

ثم أرأيت إلى تدخل القضاء العجيب في هذا الاتجاه الحميد، فأوقع العباس على ضالته المنشودة، على أبي سفيان نفسه، وهو حائر في هذه القوى القوية، والحشود المداهمة المتجهة إلى مكة، وظنونه في أصولها ومخارجها، ومخاوفه من أهدافها؟

ثم أرأيت كيف حذر العباس أبا سفيان من هذه الحشود المسلمة، وفيها الرسول ﷺ، خوفه منها على قريش، وخوفه من الرسول ﷺ على نفسه، وقال له: لئن ظفر بك ليضربن عنقك... إنه إذاً الموت، يسعى إلى أبي سفيان، إن لم يلتمس النجاة منه في حيلة العباس.

أرأيت كيف ابتكر الحيلة العباس، في إركاب أبي سفيان خلفه، ثم في إدخاله في جواره، ثم في انطلاقه به إلى رسول الله ﷺ، سابقاً به عمر، الذي كان يهم بقتله...

إن هذا لمن الأدلة والشواهد التي لا تحصر على أن الإسلام دعوة عامة إلى السلم ـ كما هو مشتق من المادة نفسها ـ ، وأن الحرب ليست من مقاصده، ولا تصلح لأن تكون من مقاصده مطلقاً، وأن الأمة المسلمة في أفرادها وجماعتها أمة دعوة، أمة رسالة، أمة سلم وإيمان وأمن، لا أمة سلطان واستعلاء، وتسلط وكيد، ومراوغة وحقد.. وصدق الله تعالى في قوله: ﴿ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1].

٩ ـ حتمية الإسلام، له المستقبل وله النهاية:

من خلال ما قرأنا ودرسنا في الغزوات ومواقف النبوة في الحروب، ومواجهات أبـي سفيان الحق بالباطل، والسلم بالحرب، والرفق بالشدة، والخير بالشر، ثم إذعانه للإسلام أخيراً، بعد نحو عشرين عاماً من النبوة، يتقرر لنا أن النصر للإسلام، وأن المستقبل للإسلام، وأن اليقين للإسلام، بل هو الإسلام.

ولعل أبا سفيان، كان في ثلة المشركين المعادين للإسلام، والمناوئين له في مكة قبل الهجرة... والذين رأينا مصارعهم في بدر: كعتبة، والوليد، وشيبة، وأمية بن خلف، وحنظلة بن أبـي سفيان، وأبـي جهل؛ هذا الذي تولى كبر هذه الغزوة؛ وكان رأس الشرك المدبر؛ فلما طحنته بدر، ظهر على المسرح من بعده أبو سفيان.

ورأينا كيف استجاب أبو سفيان للتحريض على الثأر من بدر، وكيف تجهز وجهز لأحد، ورأينا بلاءه في هذه الغزوة العجيبة العظيمة؛ وكيف روى حقده وحقد زوجه بالتنكيل بحمزة ـ سيد الشهداء، وعم النبـيّ ﷺ ـ والتمثيل به بعد موته... في موقف مخزٍ استحيا هو نفسه منه وخجل من إعلانه، واعتذر منه للحليس سيد الأحابيش.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

ورأينا أبا سفيان يقود المشركين في غزوة الأحزاب، ويتحالف مع يهود بني قريظة، ويمضي إلى المدينة، مثوى الإسلام، ومأوى المسلمين، ليسحق الإسلام والمسلمين فيها... لكن الله تدارك المسلمين برحمته، فقدر لابن مسعود الأشجعي أن يحدث الفرقة بين المشركين واليهود؛ فانخذلت قريظة عن المشركين، وعصفت الريح بالمشركين، فأكفأت قدورهم، وخلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم؛ مما اضطر أبا سفيان إلى إقناع قومه بالرحيل، إذ لم يصبحوا بدار مقام.

وهكذا، وجدنا أبا سفيان وراء كل مواجهة واصطدام بين المسلمين وبين المشركين، وكاد يكون في غزوة الفتح سبب اندلاع الحرب، وإشراع القتال؛ لولا أن بصّره وحذره العباس ــ رضي الله عنه ــ ببالغ حكمته، وبعيد نظره..

وفي نهاية المطاف، وبعد هذه الإثارات والمواجهات الحاقدة الدامية، أبقى أبو سفيان على نفسه وعلى قومه، فألقى عصا الحرب، وأعلن إسلامه، وخضع لأحكام الإسلام.

ومن قبل أبي سفيان، ومن بعد أبي سفيان أفراد وجماعات، وشعوب وأمم، تصدت للإسلام، ولحضارته فأذاقتها ألوان التدمير والتخريب؛ ثم دخلت في دين الله أفواجاً. وهل كان العرب أنفسهم والتتار، والبربر، والفرس، والروم وتلك الأمم المبثوثة في الشرق والغرب، إلا الأمثال الواقعية الصحيحة عبر القرون، على صدق هذا الذي نقول؟

وما ذلك إلا لأن الإسلام جماع العقيدة السلمة، والشريعة السمحة، والأحكام العادلة، وخصال الإنسانية الكاملة.

والإشكال الذي يثور حول إسلام أبي سفيان ــ بناء على ما ذكرنا في قصة إسلامه ــ هو: أنه أسلم خوفاً من القتل، إذ قال له العباس: لئن ظفر بك ليضربن

عنقك؛ أسلم قبل أم تضرب عنقك! فأسلم عندئذ؛ فهل هذا الإسلام معتبر شرعاً، ويعتد به، وتنفذ فيمن أسلم في ظروفه أحكام الإسلام؟

ولا شك أن هذا الإسلام معتبر، وكاف؛ إذ إن معنى الإسلام الانقياد والخضوع لأحكام هذا الدين، وذلك بالنطق بكلمة الحق، التي تعني الاعتقاد بربوبية الله ووحدانيته، ونبوة الرسول ﷺ؛ فبالنطق بها يدخل الناطق في حظيرة المسلمين.

وقد رأينا كيف أن الإسلام يعامل المنافقين الناطقين بكلمة الإسلام، معاملة المسلمين، اكتفاء منهم بالظاهر؛ أما الإيمان فلا يستقر إلا بعد التصديق بخصال الإيمان الغيبية، ويتلو ذلك تطبيق أركان الإسلام، وإقامة شعائر الدين، والتزام أحكام الشرع؛ وبهذا يتفاضل أهل الإيمان.

وقد روى ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1] أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها أسامة بن زيد إلى بني ضمرة، فلقوا رجلاً منهم يدعى: مرداس بن نهيك، معه غنيمة له، وجمل أحمر؛ فلما رآهم آوى إلى كهف جبل، واتبعه أسامة؛ فلما بلغ مرداس الكهف، وضع فيه غنمه، ثم أقبل إليهم؛ فقال: السلام عليكم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فشد عليه أسامة فقتله، من أجل جمله وغنيمته. وكان النبيّ ﷺ إذا بعث أسامة أحب أن يُثنى عليه خير، ويَسأل عنه أصحابَه؛ فلما رجعوا لم يسألهم عنه؛ فجعل القوم يحدثون النبيّ ﷺ ويقولون: يا رسول الله! لو رأيت أسامة، ولقيه رجل، فقال الرجل: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فشد عليه فقتله، وهو معرض عنهم؛ فلما أكثروا عليه، رفع رأسه إلى أسامة، فقال: كيف أنت ولا إله إلا الله؟ قال: يا رسول الله! إنما قالها متعوذاً،

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٤.

تعوذ بها؛ فقال له رسول الله ﷺ: هلا شققت عن قلبه، فنظرت إليه؟ قال: يا رسول الله! إنما قلبه بضعة من جسده؛ فأنزل الله عزّ وجلّ خبر هذا، وأخبره أنه إنما قتله من أجل جمله وغنمه. . . فحلف أسامة أن لا يقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله، بعد ذلك الرجل، وما لقيه من رسول الله ﷺ فيه.

ويبدو أنه إذا كان النبيّ ﷺ يعتبر إسلام من كان مهدداً بالقتل فعلاً، كما في قصة قتيل أسامة؛ فمن الأولى أن يعتبر إسلام أبي سفيان، وما كان مهدداً بالقتل فعلاً، بل أسلم لتخويف العباس إياه بالقتل.

وقد لحظ النبيّ ﷺ ما في هذا الضرب من الإسلام المقبول من ضعف، فعمد إلى ترسخيه وشده بالآتي:

١ ــ أنه أمر العباس بأن يحبسه بحيث يمرر به الجيوش المسلمة، فوجاً فوجاً فلعله يستيقن بالإسلام، وقوة بأس المسلمين، فيقوى يقينه؛ وكذلك كان، حتى قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك بالغداةَ عظيماً؛ فقال له العباس: إنها النبوة (يعني لا الملك)، قال: فنعم إذن.

٢ ــ مسه النبيّ ﷺ بشيء من الفضل، فجعل من دخل داره آمناً، كما جعل من دخل الحرم آمناً. . . وبذلك أصبح أبو سفيان في عداد المسلمين، ولقيت هذه المكرمة مكانها عند أبي سفيان، محب العظمة والفخر، فترسخ يقينه، وتأصل إيمانه.

أرأيت كيف رعى النبيّ ﷺ إسلام أبي سفيان الغض الطري، وأحاطه بسياج من العناية، وأضفى عليه الكثير من الرفق والسماحة والفضل، حتى استوى واستقام واستقر الإيمان في نفسه؟

وإن في ذلك لعبرة ودرساً عظيماً، ينبغي أن يلاحظه وينتفع به الدعاة إلى الله، من رعاية غراس الإسلام، وشجيراته الناشئة، أيما رعاية وعناية، فهل هم فاعلون؟

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن أبا سفيان ـ مع ذلك ـ كان يتمتع بقدر وافر من الصراحة وحرية الفكر حتى في أحرج المواقف.

ففي قصة إسلامه، رأينا أنه لما ذهب به العباس إلى النبيّ ﷺ قال له رسول الله ﷺ: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

فقد أعلن في إجاباته هذه أمام رسول الله ﷺ أنه عاد مؤمناً بالله وحده، وأنه كفر بالأوثان، التي لو صحت ألوهيتها، لأغنت عنه شيئاً، أو قدمت إليه شيئاً، أو منعته من شيء، في ظروفه هذه الخانقة.

وأعلن أيضاً في صراحته تلك، أنه ما يزال يحيك في نفسه شيء من نبوة محمد، وما يزال في ريب من رسالته؛ ولعله كان على عقيدة الأشياخ الأولين، الذين كانوا يتصورون النبوة في بيت عريق، أو شخص نابه، أو رجلٍ من القريتين عظيم.

وهكذا! آمن بشطر كلمة الحق، وتردد في الشطر الآخر؛ فلما أصبح الطريق أمامه ممهداً إلى الإسلام جملة، وقال له العباس: ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك، بادر فشهد شهادة الحق.

ومن صراحة أبي سفيان، أنه لما أسلم، وقدم له الإسلام ما ملأ عينه وقلبه، إيماناً بواقعية الإسلام وحتميته، وما كفاه من رغبته في الفخر؛ سارع إلى قومه فصارحهم بأن محمداً جاءهم بما لا يستطيعون أن يقاوموه، ولا أن يحولوا به بينه وبين دخول مكة؛ غير عابىء بكلام زوجه، ولا بغطرستها الجاهلية... وأصر

على مصارحتهم بأن محمداً جاءهم بما لا قبل لهم به، فليطلبوا منه الأمان، وليدخلوا في السلم، بدخول داره أو دورهم أو المسجد الحرام. . .

إن عرض الرئيس على قومه الاستسلام والاستئمان، هو أول ثني للمواجهة، وقطع لدابر التفكير في العناد المستمر، والحرب المستعرة. . .

كان إسلام أبي سفيان انتصار الإسلام، واندحار الشرك، وانكسار شوكة الباطل، وكان أول بوادر الفتح الأعظم، فتح مكة.

١٠ ــ الرسول داع إلى الله، لا يستخفه النصر، ولا يزيده إلا تواضعاً لله:

لما أشرف النبيّ العظيم ﷺ على البلد الأمين، الذي أخرج منه قبل سنين، وقد استسلم له هو وأهله، لم يزهه النصر، ولم يستخفه ذلك الفتح، فلم تنصب له أقواس النصر، ولم تفجر الدماء للفرح، ولم تضرب الطبول، ولم تعزف الموسيقى، ولم تزغرد النساء. . . ولم تنثر الزهور، ولم تطلق الطيور، ولم تلبس مكة شيئاً من حلل الفخر والنصر، كالتي تلبسها المدن في العادة للفاتحين.

كل ذلك لم يكن، ولا بعضه قد كان؛ فلم يكن الزمن في هذا الفتح المبين حيال فاتح عظيم، يؤسس لنفسه ملكاً، أو يشيد عظمة؛ إنما كان حيال رسول داع إلى الله، مبلغ رسالته قوماً قاوموه، واشتدوا عليه، وآذوه وأخرجوه من بلده، فأرجعه الله إليها، عزيزاً منصوراً، ذل عدوه، واستسلم، وأغمد سيفه، وكسر مقاومته، ولاذَ ببيته وبالبيت الحرام، طالباً الأمان. . .

لقد أيد الله رسوله، وأتم له رسالته، ومكن له من أم القرى تمكيناً، ــ فضلاً منه تعالى ونعمة ــ فاستحق الشكر الجزيل، والحمد المطلق، والتجمل بحال العبودية المثلىٰ لرب العالمين؛ وكذلك كان:

١ ــ فدخل النبيّ ﷺ أم القرى معتماً بعمامة حمراء بسيطة، لفها نصف ثوب يمني؛ وأردف خلفه أسامة، على ناقته القصواء. . .

٢ ــ حنى رأسه تواضعاً لله تعالى الذي أتم عليه نعمته، وبالغ في الانحناء، حتى إن لحيته لتكاد تمس واسطة رحله.

٣ ــ امتزج بسورة الفتح، قراءة وترتيلاً وترجيعاً؛ استشعاراً لنعمة الله بالفتح المبين، وغفران الذنب كله، وإفاضة النصر العزيز عليه.

٤ ــ نهى عن القتال، ولو لهؤلاء الذين قاتلوه سنين طوالاً؛ ولما علم أن خالداً قاتل لما قوتل، لم يزد على قولته؛ قضاء الله خير.

٥ ــ أنكر على سعد بن عبادة سيد الأوس لما استخفه الظفر؛ فقال: اليوم يوم الملحمة، اليوم أذل الله قريشاً؛ فأمر فنزعت منه الراية، وقال: بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً.

فالنصر في شريعة محمد ﷺ ليس الانتصار على العدو، ولا الاستحواذ على نواصيه، لكن أن يعز دين الله، ويؤمن به الناس، وتدين به البشرية... النصر الحق لهذا الدين، والعزة الحق لله ولرسوله ولأهل الإيمان... النصر للمبدأ وهو الدين، لا للشخص... فالدين هو الباقي ببقاء الديان؛ والشخص ميت كما يموت كل شخص.

وقريش لم تنكسر، ولم تذل، بل عزت باستسلامها لدين هذا النبيّ العربي القرشي.

٦ ــ كسر الأوثان خارج الكعبة وداخلها، وهو يقول: جاء الحق وزهق الباطل، فطهر الحرم من رجس الأوثان.

٧ ــ رفع بلالاً ليؤذن فوق الكعبة... وطاف وصلى حامداً.

٨ ــ خطب خطبة حافلة بالأحكام والمآثر، استهلها بقوله: «لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».

مواقف ومشاهد، كلها تنضح بالعبودية لله، والإخلاص المطلق له، ليس فيها

لهذا النبيّ الرسول ﷺ من نصيب سوى شرف العبودية، يجمله التواضع والتجرد.

١١ ــ من التدابير الحربية تشتيت قوة العدو، بتعديد جهات القتال:

أمر النبيّ ﷺ قواده، فدخلوا مكة، من جهات أربع، لكيلا تتجمع قوى الكفر، فتتاح لها فرصة المقاومة.

وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي يلجأ إليها القادة، كلما أحسوا أنهم في مركز القوة في العدد والعتاد.

ونجحت هذه الخطة المحمدية، فلم يقو الكفر على الصمود أمام هذه القوى الزاحفة إلى أم القرى؛ فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد، فقد قام عكرمة ومن معه بشن غارة خالد؛ وصوبوا إليها مطراً من النبل والسهام؛ لكن خالداً، صد تلك الغارة، وقتل منها بضعة عشر نفراً، واضطر الباقين إلى أن يفروا طالبين النجاة، فبعضهم لاذ بالحرم، وآخرون انطلقوا صوب البحر.

١٢ ــ من الحزم اتخاذ الشدة حيال الأشقياء المجرمين المتمردين على الله ورسوله:

أهدر النبيّ ﷺ يوم الفتح الأعظم، بعد أن دخل مكة سلماً، دماء أقوام، كادوا للإسلام كيداً شديداً، وعبثوا بشرع الله، وأجرموا في حق بعض خلقه، فكان من حسن التدبير النبوي إهدار دمائهم، ولو كانوا داخل الحرم، ولو تعلقوا بأستار الكعبة...

ونفذ هذا الحكم في بعضهم، وكان متعلقاً في أستار الكعبة، كعبد الله بن خطل، الذي أسلم، ثم ارتد وقتل مولاه؛ كما نفذ في جاريته التي كانت تغني بهجاء الرسول ﷺ؛ كما نفذ في آخرين.

وأوقف هذا الحكم في بعض آخر، أدخلهم بعض المسلمين في أمانه وجواره، كعبد الله بن سعد، الذي استأمن له عثمان؛ وهند بنت عتبة زوجة أبـي سفيان صاحبة الجريمة البشعة في التاريخ، جريمة التمثيل بجثة حمزة، ولوك كبده بفكيها. لكنها أسلمت، واعتذرت، وطلبت العفو، ووسعها النبـيّ العظيم ﷺ برأفته ورحمته...

وكان الذي نفذ هذا الحكم فيمن نفذ فيهم إصرارهم على كفرهم وعنادهم، واستمرارهم في الإجرام؛ وكان الذي أوقفه فيمن أوقف فيهم، استئمان المسلمين بعضهم، واعتذار بعضهم الآخر، بعد أن دخل في الإسلام، لأن الإسلام يجب ما قبله، كما تقرر.

١٣ ــ نبـيّ الرحمة يعفو عن الذين عادوه في كيدٍ وعناد طيلة سني البعثة:

ليس من اليسير تصور هذا العفو العام الشامل، عن جميع الذين واجهوا الرسالة، وقاوموا الشريعة، وناصبوا صاحبها العداء، وحاربوه فرادى وجماعات، وأخرجوه من بلده، وهموا به ليقتلوه.

ليس من اليسير تصور هذا العفو العظيم، عمن عاداه بضعةً وعشرين عاماً، ونغصوا عليه حياته، ووقفوا في سبيل دعوته، وألحقوا به متاعب وخسائر في المال والأرواح، وألحقوا بشخصه ألواناً من الأذى، وضروباً من النكال والكيد...

لكنه يَيْسُرُ تصوره، إذا تذكرنا أنفسنا أننا لسنا حيال واحد من الناس كأحدنا، من العظام أو الصغار، بل حيال سيد الأنبياء، وخاتم الرسل، وإمام المتقين، ومعنى الإنسانية، ومثلها الكامل...

إن قولته ــ عليه الصلاة والسلام ــ لقريش، ومن معها بعد أن مكنه الله منهم، يوم الفتح... لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء... من

الأدلة الواقعية العملية على صدق نبوته. . . فما يقول مثل هذا في هذا المقام، ولا يفعل فعله أحد فيه، إلا نبـي.

وتمت صفة النبـيّ ﷺ في حديث هند بن أبـي هالة الطويل المعروف بأنه: «لا يجزي السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح»[1].

إن هذا من خلق النبوة، وإنه لنا لهو الأسوة؛ وسواء علينا أثقل علينا أم لم يثقل، فإنه تنبغي المحاولة، وكبح عناد النفس وكظم غيظها، وحملها على التخلق بهذا السلوك الإنساني الرفيع، فإنه سلوك النبوة، وسلوك القرآن، ثم هو من مكارم الأخلاق، ومن خلق الإسلام.

١٤ ـــ من فضل الأنصار أن يعلن النبـيّ ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أن حياته فيهم دعوته فيهم:

أشفق الأنصار من قولة النبـيّ ﷺ: من دخل دار أبـي سفيان فهو آمن، أن تكون قد شدته الرأفة إلى أقاربه في مكة، ونازعته الرحم حنينه إلى أم القرى، فأصبحوا هم في الدرجة الدنيا، بالنسبة إلى المهاجرين، وقالوا في ذلك قولاً.

ففي الصحيح عن أبـي هريرة ـــ رضي الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ لما قال: من دخل دار أبـي سفيان فهو آمن؛ قال الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؛ قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا؛ فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي؛ فقال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار! قالوا: لبيك يا رسول الله! قال: قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، قالوا: قد كان ذاك؛ قال: كلا! إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم؛ فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا، إلا ضَنّاً بالله

(١) رواه الترمذي وغيره.

ورسوله»[1].

فتقرأ في هذه المحادثة مبلغ حرص الأنصار على شرف مقام رسول الله ﷺ فيهم؛ وتقرأ أيضاً مبلغ الصدق في خلق الأنصار، ومصارحتهم الرسول ﷺ بأنهم قالوا قولتهم تلك؛ كما تقرأ ـ بعد ذلك ـ صورة أخرى واقعية، من المعجزات النبوية، في اطلاعه ﷺ على ما تناجى به الأنصار من الصحابة، بغير أية وسيلة مادية، إلا أن تكون الوحي من عند رب العالمين.

١٥ ـ النبيّ ﷺ يصف يوم الفتح بأنه يوم بر ووفاء:

وأشرنا من قبل إلى أن المسلمين أصحاب دعوة، ورواد سلم؛ فليسوا من الزعامة وحب السلطة والسلطان في شيء... ولو فكر بينهم ﷺ في شيء من ذلك يوم الفتح لاحتكر لنفسه أمر الكعبة، وسدانتها، واستبد بمفتاحها، أو جعله في بيته. لكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، مع أنه أحق به ممن سواه، ولم يفكر فيه مطلقاً.

روي عن عثمان بن طلحة، وكان مفتاح الكعبة في يده في الجاهلية، أنهم كانوا يفتحون الكعبة في الجاهلية أيام الاثنين والخميس، وأن النبيّ ﷺ في أوائل دعوته أراد أن يدخل الكعبة مع الناس، فمنعه منه عثمان، وأغلظ له القول: لكن النبيّ ﷺ حلم عنه، وترفق به قائلاً: لعلك يا عثمان، ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت! فقال عثمان متطاولاً متغطرساً: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت؛ فقال له النبيّ ﷺ: بل عمرت وعزت يومئذ.

فوقعت كلمته هذه من عثمان موقعاً، وظن أن الأمر والمفتاح صائر إليه. فلما كان يوم الفتح، قال: يا عثمان! ائتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني، ثم دفعه إلي، وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان!إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف.

---

(١) رواه مسلم وغيره.

فلما ولي عثمان، ناداه رسول الله ﷺ فقال ــ مذكراً إياه ــ : ألم يكن الذي قلت لك؟ فذكر عثمان قوله ﷺ له قبل الهجرة: «سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت» فقال عثمان: بلى! أشهد أنك رسول الله!.

وهكذا لم يشأ النبيّ ﷺ أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في أحد من بني هاشم، وقد تطاول لأخذه رجال منهم، لما في ذلك من الإثارة أولاً، ولما فيه من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة، بإطلاق؛ ومهمتها الأولى والأخيرة التمكين للإسلام في الأرض... وقد حدث.

وفي بعض الروايات أن علياً ــ كرّم الله وجهه ــ هو الذي أراد المفتاح والسقاية لنفسه، لمكانته من الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ ، ولأنه من بني هاشم، الأسرة البارزة العريقة في قريش؛ غير أن النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ أعاد المفتاح إلى عثمان بن طلحة، واستصحب بقاءه في يده، وقال: اليوم يوم بر ووفاء.

هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ، البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا وقاتلوا...، وذلك لأن الإسلام دين السلام، لا التسلط والقهر، والعلو والطغيان... وهو سلام حتى في الحرب، وفي الفتح، وفي النصر.

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾[1] فلم يسلبوا الأملاك، ولم يستلبوا الأشياء، ولم يختصوا بالحزرات والنفائس، ولم يستأثروا بكرائم المال.

---

(١) سورة الحج: الآية ٤١.

١٦ ــ أهم الأحكام الشرعية التي تؤخذ من غزوة الفتح :

(أولاً) :

من أهم هذه الأحكام؛ هل فتحت مكة عنوة أم صلحاً؟

(أ) **ومذهب الحنفية والمالكية، أنها فتحت عنوة**، وذلك لأمور:

١ ــ أن الصحابة تجهزوا للفتح، واستعدوا للقتال، وباشره خالد فعلاً، وقتل بعض المشركين وقتل بعض المسلمين.

٢ ــ أن النبيّ ﷺ أصدر أماناً عاماً وأماناً خاصاً، وأهدر دماء معينة؛ فيستلزم هذا أن الأصل في أهل مكة وقتئذ الحرب، فالغلبة عليهم بالقوة، فهي قد فتحت عنوة.

٣ ــ لم يعقد النبيّ ﷺ صلحاً لأهل مكة، فيكون الأمان الذي أعلنه من لوازمه، ولا صالحهم على جزية يدفعونها.

هذا، ومقتضى الفتح عنوة أن تكون الأراضي خراجية؛ لكن النبيّ ﷺ مَنَّ على أهلها، فعفا عن الغنائم، ومنَّ على السبي، وذلك ثابت له، ولكل إمام بعده، أن يعفو وأن يمن؛ فلهذا المعنى لم تكن خراجية.

(ب) **ومذهب الشافعية أنها فتحت صلحاً**، وذلك:

١ ــ باعتبار تأمين من دخل دار أبي سفيان، أو المسجد، تأميناً عاماً؛ فكان ذلك بمثابة عقد صلح لأبي سفيان.

٢ ــ باستثناء الذين أهدرت دماؤهم ولو تعلقوا بأستار الكعبة، يعتبر ذلك

التأمين عقد صلح عام، لأن الاستثناء من لوازم العموم؛ ومن أجل عقد الصلح هذا، لم يغنم ولم يسبِ. فلهذا كانت أرض مكة عشرية.

٣ ــ لأن أهل مكة سلموا أنفسهم من غير قتال، ولا قعقعة سلاح، ولا ضرب سيف، ولا إيجاب خيل، وليس هذا إلا للصلح.

ثانياً: هل يجوز بيع دور مكة وإجارتها؟

(أ) منع الحنفية بيع دور مكة، كما منعوا إجارة بيوتها أيام الحج، وأجازوا الإجارة في غير أيام الحج، وذلك أنها لما كانت متعبد الخلق، ومتنزل الحق، وموطن النسك، اعتبرت بمثابة وقف من الله تعالى على الناس أجمعين؛ ومن أحكام الوقف أنه لا يباع، وأنه تجوز إجارته، والمنع منها أيام الحج على التخصيص بالنظر إلى حاجة الحجاج المتنسكين للسكن.

وقد استدل لذلك بحديث مرسل معروف، عن الأعمش عن مجاهد، أن النبيّ ﷺ قال: «مكة حرام، لا يحل بيع رباعها (أي دورها) ولا أجور بيوتها». والحديث وإن كان مرسلاً، لكن المرسل يحتج به عند الحنفية كما تقرر في أصولهم.

(ب) وأجاز الشافعية بيع دورها وإجارتها، لأن النبيّ ﷺ أقر يد أهلها عليها، فلم ينازعهم ملكيتها؛ والإجارة من حقوق الملك. ولم يزل الناس حتى يومنا هذا يتبادلون ملكية أرضها؛ فمعاوية اشترى دار الندوة، واتخذها داراً للإمارة، كما اشترى عمر وعثمان ما زاداه في المسجد الحرام من دور مكة، بلا إنكار، وتملك أهل الدور أثمانها؛ وكان يحدث ذلك في كل توسيع للمسجد الحرام؛ وجرى به العمل، فكان إجماعاً متبوعاً.

ثالثاً: أهم الأحكام التي اختصت بها مكة والحرم المكي:

ثبت في الصحيح قول النبيّ ﷺ: «إن الله حرم مكة، يوم خلق السموات الأرض، فهي حرام بتحريم الله تعالى، لم تحل لأحد قبلها، ولا تحل لأحد بعدي، ولم تحل إلا ساعة من الدهر، (أو من نهار): لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاؤها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد: فقال العباس: إلا الإذخر، يا رسول الله! فإنا نجعله في بيوتنا وقبورنا؛ فقال النبيّ ﷺ: إلا الإذخر»[1].

ومن هذا الحديث تؤخذ الأحكام الآتية:

أولاً ــ لا يحل صيد الحرم مطلقاً، لا للمحرم ولا للمحل: ولو صاد حيواناً ضمنه جزاء كما يضمن المحرم، كما في النص الكريم: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾[2].

أما لو صِيد حيوان في الحل، ثم دخل به في الحرم، ففيه خلاف بين الفقهاء: قال الحنفية بالتحريم، وقال الشافعية بالحل.

ثانياً: لا يحارب أهل مكة، لأنها بلد حرام:

فإن بغىٰ أهلها، وخرجوا على الحاكم العادل:

١ ــ فمذهب بعض الفقهاء أنه يضيق عليهم حتى يرجعوا عن بغيهم.

٢ ــ ومذهب آخرين أنه إذا لم يمكن ردهم إلا بقتالهم، قوتلوا في الحرم،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سورة المائدة: الآية ٩٥.

لأن قتال البغاة من حق الله، فلا يضيع حقه في البلد الحرام، بل حفظ حقه فيه أولى.

ثالثاً ـــ هل يقام الحد فيه؟

ثبت في المأثور: أن الحرم لا يعيذ عاصياً ولا فاراً بدم، ولا فاراً بجزية[1].

وعنه قال الفقهاء، كالشافعي وغيره: إن الحرم لا يمنع من إقامة الحد فيه، مطلقاً.

وفرق أبو حنيفة، بين من جنى في الحرم، فيقام عليه الحد فيه؛ وبين من لجأ إليه بعد الجناية، فأوجب التضييق عليه، وإلجاءه إلى الخروج، فإذا خرج أقيم عليه الحد.

رابعاً: لا يجوز قطع شجرها، ولا يعضد شوكها:

وذلك ليخفف الشجر من حرارة جوها. ولا يحتجز خلاؤها وقفرها، ولا يقطع لأحد؛ لأنا ذكرنا أن أرضها بمثابة وقف؛ فينتفع بها الناس ويرتفقون دونما تملك؛ وكذلك اللقطة لا تحل للملتقط إلا بعد التعريف، ثم يتصدق بها.

وهذا حكم عام ــ كما هو معروف ــ لا تختص به مكة، وتخصيصها بذكره مع عمومه، لمزيد الاهتمام، وفرط العناية باللقطة، في موئل الأمن، ورحاب الحرم.

واستثناء النبيّ ﷺ الإذخر من تحريم قطع الشجر، لم يكن اتباعاً لقولة

(١) رواه البخاري وغيره.

العباس، بل اتباعاً للوحي الذي نزل به، بدليل ما روي أنه سكت، ثم قال: إلا الإذخر، فلعله سكت هنيهة ليتلقى أمر الله وإشارة الوحي الذي استثناه، لعدم إمكان الاستغناء عنه.

وهذا حكم الشجر الذي ينبته الله سبحانه وتعالى.

فأما ما يغرسه الناس ويستنبتونه، فلا يحرم قطعه ورعيه؛ كما لا يحرم ذبح الأنيس من الحيوان؛ كما لا يحرم ما يرعاه الحيوان من الكلأ؛ وإنما يحرم ما يقتطعه الإنسان من الشجر المحظور، ويضمنه إن قطعه: فيضمن الشجرة الكبيرة ببقرة، والشجرة الصغيرة بشاة، ويضمن الغصن بحسابه من ضمان الشجرة كلها.

خامساً: واستكمالاً لأحكام الحرم، نذكر هذين الحكمين الهامين:

الأول: لا يحل دخول مكة أو الحرم، إلا مهللاً بحج أو عمرة، ثم يتحلل من إحرامه.

واستثنى الفقهاء من يكثر دخوله إليها لمنافع أهلها، كالحطابين والسقائين، وكل من يخرج منها غدوة، ويروح إليها عشية، فيجوز لهم دخولها بغير إحرام، رفعاً للحرج عنهم.

وقال الحنفية، بجواز دخولها لمن لا يريد حجاً أو عمرة.

وحديث: «وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم لا تحل لأحد من بعدي» المتقدم يشهد للجمهور؛ وتستثنى منه مواطن الضرورة عندهم، ومواطن الحاجة عند الحنفية قد تلتحق بها.

الآخر: أكثر الفقهاء يمنعون دخول الكفار الحرم، لا للإقامة ولا

للمرور، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[1].

ومن دخله بغير إذن، عُزِّر بغير القتل؛ ومن دخله بإذن عزر الآذن له، ويُخرج منه آمناً؛ ولو مات لم يدفن فيه بل في الحل. ولو دفن فيه نقل منه؛ إلا أن ترم عظامه، كما ترك موتى الجاهليين فيه.

أما سائر المساجد فيجوز أن يؤذن لهم بدخولها، على أن لا يبتذلوها بنوم أو طعام.

ومالك لا يسمح بدخولهم مطلقاً.

وجوز أبو حنيفة دخولهم الحرم لغير الاستيطان.

رابعاً: إذا عاد المسافر إلى وطنه الأصلي فلم يجد فيه بيته الذي كان يقيم فيه، يبقى على وصف السفر:

وهذا لأن النبيّ ﷺ عندما دخل مكة، لم يجد بيته الذي كان يقيم فيه قبل الهجرة، وقال ــ كما قدمنا ــ: «وهل أبقى لنا عقيل من دار»؟

ولهذا أفطر في رمضان، مع أنه عاد إلى وطنه الأصلي، وقصر الصلاة، لما أنه لم يشعر بالراحة التي يشعر بها المقيم في بيته، فبقي على وصف السفر، ورخصه.

خامساً: تقطع يد السارق بغض النظر عن مكانته وحسبه وشرفه في قومه:

في غزوة الفتح هذه، كانت قصة المخزومية التي سرقت، وشفع فيها أسامة،

(١) سورة التوبة: الآية ٢٨.

فقال النبيّ ﷺ: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1].

وأشار بهذا إلى أن قوام الأمة بالعدل، وانقراضها بالظلم؛ وأنه لا اعتبار للأحساب والأنساب، ولا للشرف والثراء، والعزة والرفعة، في حكم الشرع، وحياله. وكفى بهذا هدماً للعصبية الجاهلية، والنعرة القرشية.

ولقد نفذ حكم القطع في المخزومية الشريفة، وحسن إسلامها بعد القطع، وكانت تتردد على بيت النبوة، وتفضي بذات نفسها إلى بعض أمهات المؤمنين؛ إذ كانت مستيقنة بطهارتها من جريمتها، بل ورد في بعض الروايات أن يدها سبقتها إلى الجنة.

سادساً: حرمت المتعة نهائياً في غزوة الفتح:

المتعة اتفاق بشهود بين الرجل والمرأة، على المعاشرة مدة معلومة لقاء أجر معلوم. فهي بمثابة استئجار لبضع المرأة، كاستئجارها للرضاع.

وهي بهذا الاعتبار لا تعدو أن تكون من المخادنة المنهي عنها بنص القرآن الكريم، الذي لم يقر أي اتصال بين الجنسين فيما سوى الزواج وملك اليمين، واعتبره تجاوزاً محرماً، وذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾[2]، وعلى هذا يكون اتخاذ المتعة من العدوان الآثم، والاتصال المحظور، والتخادن المقطوع بتحريمه، في قوله سبحانه: ﴿... مُحْصِنِينَ غَيْرَ

---

(١) متفق عليه ورواه الإمام أحمد وأصحاب السنن.

(٢) سورة المؤمنون: الآيات ٥ ــ ٧.

مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍۗ﴾[1] وقوله: ﴿مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَ ٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾[2].

ويبدو من النصوص، أنها كانت عادة متأصلة في الجاهلية، وترفق النبيّ ﷺ في تحريمها مرة بعد مرة، ثم حرمها قطعاً إلى يوم القيامة.

والفقهاء مجمعون على التحريم، وليس فيهم من يقول بحلها للضرورة؛ ولا متمسك للشيعة بحلها بعد أن ثبت أن علياً نفسه ــ كرّم الله وجهه ــ حاج فيها ابن عباس، وقال له: إنك امرؤ تائه: لقد نسخها النبيّ ﷺ، ووالله لا أوتى بمستمتعين إلا رجمتهما.

وروي في الصحيح أن عبد الله بن الزبير، قام بمكة، فقال: إن ناساً أعمى الله قلوبهم، كما أعمى أبصارهم، يفتون بالمتعة ــ يعرض بابن عباس ــ: فناداه، فقال: إنك لجلف جاف، فلعمري لقد كانت تفعل على عهد إمام المتقين، يريد به رسول الله ﷺ: فقال له ابن الزبير: فجرب نفسك، والله لئن فعلتها لأرجمنك بأحجارك[3].

بل إن عبد الله بن جعفر الصادق قال في المتعة، لما سئل عنها: إنها الزنى.

وقال الزهري: ما مات ابن عباس حتى رجع عن هذه الفتيا.

وقد أجمع أئمة المسلمين على نسخ الإذن بها.

ولا شك أن العقل السليم لا يقرها، لأنها امتهان للمرأة، واستئجار العبث

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٢٥.

(٣) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

في شرفها. والإسلام الذي كرمها، وحررها لا يتأتى له إقرار إذلالها بالتخوض في أثمن ما لديها. في مقابل دريهمات، وسوقها إلى مهاوي الرذيلة باسمه وعلى حسابه، وحاشاه من ذلك.

وفي الصحاح، تحدث الربيع بن سبْرة قال: أحل رسول الله ﷺ المتعة عام الفتح ثلاثة أيام، فجئت مع ابن عم لي إلى باب امرأة، ومع كل واحد منا بردة، وكانت بردة عمي أحسن من بردتي.

فخرجت امرأة كأنها دمية عيطاء (طويلة العنق في اعتدال)، فجعلت تنظر إلى شبابي، وإلى بردته. فقالت: هلَّا شباباً كشباب هذا، أو بردة كبردة هذا؟ ثم آثرت شبابي على بردته.

قال: فبت عندها ثلاثاً: فلما برزت إذا منادي رسول الله ﷺ يقول: إن الله ورسوله ينهيانكم عن المتعة، فانتهى عنها الناس.

سابعاً: النسوة يبايعن على الطاعة والإسلام كما يبايع الرجال:

تقدمت هذه المبايعة، بصورتها الفذة، وتعليقات هند زوجة أبي سفيان، عليها ودلت هذه البيعة على ما يأتي:

١ ــ النسوة شقائق الرجال في الأحكام الشرعية ــ كما قال تعالى ــ: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾[١] إلا ما استثناه الشرع.

٢ ــ أن مبايعتهن لا تفرق عن مبايعة الرجال في الجوهر والهدف، سوى أنه لا مصافحة فيها، فإن مصافحة الأجنبيات محرمة بالإجماع، لحديث: «إني لا أصافح النساء»[٢].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والطبراني.

٣ ـ حق المرأة في تعلم شؤون دينها ثابت مشروع، بل هو واجب مفروض.

٤ ـ ليس صوتها بعورة، وللرجال أن يحدثوها. وأن تحدثهم في جدية، بلا تكسر ولا تثن ولا إغواء.

● ● ●

غـزوة حنـين

وتسمى غزوة أوطاس، وغزوة هوازن. وحنين وأوطاس موضعان بين مكة والطائف. وهوازن هي القبيلة التي بدأت القتال.

كانت في شوال سنة ثمان من الهجرة.

ويذكر ابن إسحاق، أن قبيلة (هوازن)، لما سمعت برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه من مكة، ودخول العرب في دين الله أفواجاً، وسقوط دولة الأوثان الجاهلية، وخضوع قريش لهذا الدين بعد عنادها الطويل، مشت إلى (ثقيف) تسوقها الحمية الجاهلية، ويرأسها مالك بن عوف النضري؛ وكانت الطائف قصبة ثقيف، وهي أكبر المدن بعد مكة والمدينة.

وانضم إلى هاتين القبيلتين قبائل أخرى: من جُشم، ونصر، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال. واجتمع رؤساء هذه القبائل، على رئاسة مالك بن عوف، وأجمعوا على قتال المسلمين؛ وقالوا: «قد فرغ محمد من قتال قومه، ولا ناهية له عنا، فلنغزه قبل أن يغزونا».

وكان في القوم دريد بن الصمة، المشهور بأصالة الرأي، وشدة البأس في الحرب، لكنّ تقدم سنه لم يبق له في هذه الحرب إلا الرأي.

وأمر مالك بن عوف الناسَ، أن يصحبوا معهم نساءهم وأموالهم وذراريهم، حتى نزلوا بأوطاس (مكان بين مكة والطائف)؛ فقال دريد: بأي واد أنتم؟ قالوا:

بأوطاس؛ قال: نعم مجال الخيل! لا حزْن ضرس (فيه حجارة مجددة) ولا سهل دهس (لين كثير التراب). ما لي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟ (صوتها).

قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم. قال: أين مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعي له؛ فقال: يا مالك! إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، ما لي أسمع رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويُعار الشاء؟

قال: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. قال: ولم ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله ليقاتل عنهم. فزجره دريد ثم قال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه؛ وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك.

وقال مالك لدريد، وهو يحاوره، إنك قد كبِرت، وكبر عقلك. والله لتطيعنني يا معشر هوازن؛ أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري؛ فقالوا: أطعناك. فجعل النساء صفوفاً وراء المقاتلة، و وراءهم الإبل، ثم الغنم، كيلا يفر أحد من المقاتلين.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أن هوازن وثقيفاً يستعدون لحربه، أجمع رأيه على المسير إليهم؛ فخرج ومعه اثنا عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكة، وعشرة آلاف من أهل المدينة ـ كما يقول ابن سعد ـ . واستعار أدرعاً وسلاحاً من صفوان بن أمية، وهو يومئذ مشرك، كما يقول ابن إسحاق.

وصف النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ الغزاة، وعقد الألوية: فأعطى لواء المهاجرين علي بن أبي طالب؛ ولواء الخزرج الحبابَ بن المنذر، ولواء الأوس أسيدَ بن حضير، وركب هو بغلته، ولبس درعين والبيضة والمغفر.

وساروا واثقين بالنصر، فهذه الكثرة لن تغلب، وقد كسبوا بدراً وهم قلة، فكيف وهم اليوم كثرة كاثرة! حتى قال الصديق ـ فيما يروى ـ : لن نغلب اليوم من قلة.

وأرسل النبيّ ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي؛ ليدخل في صفوف المشركين ويقيم فيهم، ويعود إليه بأخبارهم؛ وكذلك فعل.

ولما علم مالك بن عوف بمقدم الرسول ومن معه، نثر كتائبه في منعطفات الوادي، وأوحى إليهم أن يكمنوا في شعابه وأحنائه ومضايقه، فإذا ما بصروا بالمسلمين انقضوا عليهم في حملة واحدة.

فلما دخل المسلمون إلى وادي حنين، انحدروا في غبش الصبح، في واد من أودية تهامة، متسع منحدر، فما راعهم، وهم ينحطون إلا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل وحد، من المضايق والشعب؛ فانكشفت الخيول، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحد على أحد.

وانحاز رسول الله ﷺ ـ كما قال ابن إسحاق ـ ذات اليمين، ثم قال، وهو على بغلته: أين أيها الناس؟ هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، أنا النبيّ لَا كذب، أنا ابن عبد المطلب. ودعا وهو يقول: اللهم أنزل نصرك. وأمر العباس أن ينادي بالناس: يا معشر الأنصار، يا أصحاب البيعة يوم الحديبية... ولباه كثيرون، فاستأنف بهم القتال، وكرّ على المشركين، والتحم الفريقان في قتال شديد... فقال الرسول ﷺ: الآن حمي الوطيس؛ ثم أخذ حصيات من الأرض، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا وربّ محمد.

والتفت فرأى أم سُليم بنت ملحان، وكانت مع زوجها أبي طلحة، وهي حازمة وسطها ببرد لها، وهي حامل بولدها عبد الله؛ فقال لها: أم سليم؟ قالت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل

الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل. فقال لها رسول الله ﷺ: إن الله قد كفى وأحسن.

وفعلاً انهزم المشركون، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فولوا لا يلوي بعضهم على بعض؛ واتبعهم المسلمون، فريقاً يقتلون، وفريقاً يأسرون؛ حتى وصل المشركون إلى الطائف، ولاذوا بحصنها، تاركين الغنائم من خلفهم للمسلمين: آلافاً من السبـي، وآلافاً من الإبل، والغنم، وآلاف أوقيات من الفضة.

وسار النبـيّ ﷺ بمن معه إلى الطائف، ليجهز على ثقيف وهوازن؛ وجعل على مقدمة الجيش خالد بن الوليد.

وفي الطريق مر النبـيّ ﷺ بحصن لعوف بن مالك النضري، فأمر بهدمه، ومر ببستان لرجل من ثقيف، قد تمنع فيه، فأرسل إليه أن اخرج وإلا حرقنا عليك بستانك؛ فامتنع الرجل من الخروج، فأمر بحرقه.

وحاصر النبـيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ المشركين، وهم متحصنون في حصن الطائف ثمانية عشر يوماً، ومعهم قوت سنة، ورموا المسلمين وهم من عل بالنبال، وتحداهم خالد بالبراز فلم يجبه أحد؛ بل قالوا: «لا ينزل إليك منا أحد؛ ولكن نقيم في حصننا، فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً، حتى نموت عن آخرنا».

وكان الحصار شديداً، والقتال عنيفاً، وتراشق الفريقان بالنبال.

قال ابن هشام: ورماهم رسول الله ﷺ بالمنجنيق.

وقال ابن إسحاق: دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبابة، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، وقتلت منهم رجالاً. فأمر النبـيّ ﷺ أن تقطع أعنابهم ونخيلهم؛ فوقع المسلمون، يقطعون ويستأصلون. فناداه أهل الحصن: أن دعها لله وللرحم؛ فقال: أدعها لله وللرحم.

ثم أمر من ينادي بأن كل من ترك الحصن ونزل، فهو آمن، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً فقط.

ولما رأى النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن ثقيفاً في مناعة وتحصن، وأن الفتح لم يؤذن فيه، استشار نوفل بن معاوية في الذهاب أو المقام؛ فقال: يا رسول الله! ثعلب في جحر، إن أقمت أخذته، وإن تركته لم يضرك؛ فأمر بالرحيل.

ولما طلب منه بعض الصحابة أن يدعو على ثقيف قال: اللهم اهدِ ثقيفاً، وائت بهم مسلمين.

• • •

الدروس والمبـادىء

من أهم الدروس التي تجلت في هذه الغزوة العجيبة، ما يلي:

١ ــ النصر منعقد بالإيمان، لا بكثرة الرجال، ووفرة السلاح:

ربما كانت غزوة حنين، أكبر الغزوات التي خاضها المسلمون، من حيث العدد، إذ كانت بعد فتح مكة، ودخول الناس أفواجاً في دين الله.

وكانت جماهير المقاتلة، من الطلقاء من أهل مكة الحديثي العهد بالإسلام، ممن لم ترسخ العقيدة في قلوبهم، ولم تخالط بشاشة الإسلام حنايا ضلوعهم، فانضموا إلى المسلمين الأولين من المهاجرين والأنصار، في هذه الغزوة، وهم لا يقدرون الجهاد حق قدره، ولا يحسبون له حسابه من التضحية السخية، بالنفس والمال. وربما كان الذي يأملونه من وراء القتال، مغانم وفيرة، وعرضاً قريباً.

فلما فوجئوا بالكمائن تنثال عليهم من ثنايا الوادي، وتمطرهم بالنبال والسهام، لم يلبثوا أن ولوا على أعقابهم مدبرين، يطلبون النجاة لأنفسهم، غير حافلين بالثبات لقوى البغي والشرك، ولا سائلين عن الرسول القائد، ولا عن الدفاع عن الدعوة في شخص الداعي؛ وربما سرت الهزيمة المنكرة إلى كثير من المؤمنين الأولين. . .

ولولا ثبات النبوة، ونداؤها الإيمان المستكن في أعماق السابقين من

المهاجرين والأنصار، الذين التفوا حول الرسول الصامد، يقاتلون بعقيدة ورباطة جأش، لتمت الهزيمة، واحتجب النصر عن المسلمين. . .

إن العقيدة هي السلاح المكتسح الماضي الذي يقاتل به المسلمون؛ لا العدة الكثيرة، ولا العدد الكثير، ولا العتاد الثقيل. . . لقد نصرهم الله ببدر وهم قلة، وفشلوا في حنين وهم كثير؛ لكنهم في بدر قاتلوا بإيمان، وإخلاص وتجرد؛ فكانوا أهلاً للنصر، وفي حنين غرتهم الكثرة، وكان فيهم من يقاتل ولما يدخل الإيمان بعد في قلبه، من طلقاء الفتح، الحديثي العهد بالجاهلية. ومن أسرى الأهواء، وأبناء الدنيا، فمنوا بهزيمة منكرة، وفشل كان ذريعاً، لولا أن مسهم الله بجناح من رحمته، وأنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الصادقين، الذين لم يبلغوا عشر الجيش، فأيدهم الله بملائكة من عنده، وعذب الكافرين.

فهذا قول الله تعالى، في كتابه المبين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾[1].

٢ ــ جواز استعانة المسلمين بأسلحة الكفار لقتال أعداء الله:

قدمنا أن النبيّ ــ عليه الصلاة والسلام ــ استعار في هذه الغزوة، أدرعاً وسلاحاً، من صفوان بن أمية، وهو يومئذ مشرك، كما قال ابن إسحاق.

فهذا يشير إلى جواز استعانة المسلمين، في قتالهم المشروع لأعداء الله، بأسلحة الكفار.

وتعرض الفقهاء لمسألة الاستعانة بالكفار أثناء القتال؛ وقرروا أن ذلك جائز

(١) سورة التوبة: الآيات ٢٥ ــ ٢٧.

عند الحاجة، بشرط أن تؤمن خيانتهم أما بدون الحاجة، فلا يجوز ــ كما صرح به الحنفية ــ لأنه لا يؤمن غدرهم.

بل إن الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ استعان في غزوة خيبر بيهود بني قينقاع، كما استعان هنا في حنين بأسلحة صفوان بن أمية، وهو مشرك.

فإذا روى مسلم في صحيح، حديث: «... ارجع فلن أستعين بمشرك...» مع استعانته بصفوان، فقد أجاب عنه الفقهاء، بهذين الجوابين:

١ ــ أنه كان مخيراً بين الاستعانة بالمشركين، وبين عدمها، فلا مخالفة بين الحديثين.

٢ ــ أنه إذا كان النهي عن الاستعانة بالمشركين لشركهم، فقد نسخه ما بعده، كما قرره ابن عابدين.

٣ ــ رئيس الدولة المسلمة يشرف بنفسه على الحرب، ويشارك فيها:

كما كان الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ داعياً إلى الله، مرسياً قواعد الحق، وأسس الشريعة، كان مجاهداً، بصيراً بالحرب، يلبس لها لبوسها، ويعد لها عدتها، وينظم صفوفها، ويعقد لها ألويتها، ويتخير لكل لواء أنسب رجاله.

وفي هذه الغزوة، تجلت عبقرية المصطفى ﷺ الحربية، فيما يأتي:

١ ــ جهَّز لهوازن وثقيف أكثف جيش جهزه في غزواته كلها، حتى قال هو، أو قيل: لما فصل من مكة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: «لن نغلب اليوم من قلة».

٢ ــ قسَّم جيشه، وتولى صف الغزاة المجاهدين، وحدد الألوية، وعقد لكل لواء رئيسه: فجعل على لواء المهاجرين، ابن عمه علي بن أبي طالب؛ وعلى

لواء الخزرجيين من الأنصار الحباب بن المنذر، وعلى لواء الأوسيين من الأنصار أسيد بن حضير.

وهؤلاء الثلاثة معروفون بالبطولة، والشجاعة، والسيادة في قومهم، لا يختلفون عليهم، ولهم مواقف مشهودة في الهجرة والنصرة. فكان إسناد الألوية لهم، من الحكمة النبوية البالغة، التي ينبغي احتذاؤها.

٣ ــ اشترك النبيّ ﷺ بنفسه في هذه الغزوة، ولم يكتف بالإشراف عليها، وصف مجاهديها، ولم يعتمد فقط على الألوية، والرؤساء الذين أسلمهم قيادة الجيش... بل لبس هو أيضاً ــ كما قال أهل السيرة ــ درعين اثنين ومغفرته وبيضته، وركب بغلته، وانطلق مع الجيش لقتال الكفار المعتدين.

كان معهم في غبش الصبح في مضايق وادي حنين، وفي منعطفاته الملتوية، ومنحدراته الهاوية حينما فوجىء المسلمون بالكتائب تنبثق لهم من فروع الوادي وجوانبه، كأنها الجان، تمطرهم بوابل من السهام والنبال؛ كان معهم حينما تكسرت صفوفهم، وتراكبت إبلهم، وانكشفت خيولهم، وفروا راجعين لكنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ لم يفر، وثبت كالجبل الراسي، يدعو الله، ويستنزل النصر من عنده، ويجمع جيشه المتبعثر، بصيحات مدوية، مليئة بالإيمان، مذكرة بمواقف الصدق والعهود والبطولات...

٤ ــ رباطة جأش النبيّ ﷺ في الحرب، وسيطرته على الموقف:

أثبتت غزوة حنين، كغيرها، أن النبيّ ﷺ كان يتمتع بشجاعة نادرة، وبطولة فذة؛ وأنه كان رابط الجأش، في الحرب وغيرها، لا تزعزعه الشدائد، ولا تؤثر فيه النوازل والكوارث.

ففي هذه الغزوة، لما تفرق المسلمون مذعورين، وهاموا على وجوههم في كل اتجاه، يطلبون النجاة... ثبت المصطفى ﷺ في مكانه، كالطود الراسخ، لم

يستخفه الرعب، ولم يستبد بحزمه فرار جيشه عنه، بخيوله وجماله؛ فلم تستصعب عليه الوسيلة الحميدة، لإنقاذ الموقف.

إنه لم يحفل بالحشود الحديثة العهد بالدين، التي لم تخالط الإيمان بعد قلوبها. . . بل استحث أولئك المؤمنين السابقين، من المهاجرين والأنصار، فكسر عليهم إغراقهم في الفرار، وارتجعهم إلى كتفه القوي، وحماه الآمن، وملاذه الرحيب.

وكان أن أمر العباس، بأن ينادي أهل بيعة الرضوان، أولئك المؤمنين الصادقين، الذين بايعوا رسول الله ﷺ على الموت؛ فناداهم يستنجزهم عهدهم، الذي رضي الله به عنهم. . . فهم الذين بهم تثبت الأقدام، ويتنزل النصر. . .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق، عن العباس بن عبد المطلب، قال:

«إني لمع رسول الله ﷺ آخذ بحَكَمَة بغلته البيضاء. . . قال: وكنت امرأً جسيماً، شديد الصوت. قال: ورسول الله ﷺ يقول ــ حين رأى ما رأى من الناس ــ أين أيها الناس؟ فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال: يا عباس! اصرخ، يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة! (الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان).

قال: فأجابوا: لبيك، لبيك!.

قال: فيذهب الرجل ليثني بعيره، فلا يقدر على ذلك، فيأخذ درعه، فيقذفها في عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلي سبيله، فيؤم الصوت، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلوا الناس، فاقتتلوا.

وكانت الدعوى أول ما كانت للأنصار: يا للأنصار، ثم خَلَصت أخيراً: يا للخزرج؛ وكانوا صُبُراً عند الحرب؛ فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى

مُجْتَلَد القوم (حيث تكون المعركة والتجالد بالسيوف) وهم يجتلدون؛ فقال: الآن حمي الوطيس».

قال جابر عبد الله ــ فيما رواه ابن إسحاق ــ: «واجتلد الناس، فوالله ما رجعتْ راجعةُ الناس من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله ﷺ».

وبهذا الثبات الفريد، استرد النبيّ ﷺ صحابته الفارين، واستجمع جيشه المتبعثر، وقواته المتناثرة في جنبات الوادي ومنعطفاته..

وبهذا النداء المثير للنفوس المرهفة، والقلوب المؤمنة، والمذكر بعهود أهل الصدق والوفاء، قلب الواقعة المريرة رأساً على عقب، فحوَّل الهزيمة إلى دفاع، والفرار إلى صمود، والانكسار إلى انتصار.

٥ ــ النصر معقود بالصبر وبذل كل ما في الوسع:

في الهزيمة درس، وفي النصر درس.

أما درس الهزيمة، فقد علَّم المسلمين أن لا يعتمدوا على كثرة العدد، وقوة العدة: كما قال تعالى: ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾[١].

وأما درس النصر، فقد علَّم المسلمين أنه لا بد من بذل كل ما في طوقهم، من تضحية وجهاد في سبيل الله، فلولا الاستجابة لنداء النبيّ ﷺ والتجمع للقتال من حوله ومعه، ما أنزل الله جنوده من الملائكة لتقاتل مع المسلمين، ولما تبدل وجه المعركة، وانقلب من الهزيمة إلى النصر الساحق.

إن الله تعالى قادر على نصرة رسوله والمؤمنين، بدون حركة قتال، ولا

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٥.

قعقعة سلاح، ولا جهاد بالنفس والمال؛ ولكن سنَّته في النصر، في بدر وحنين وغيرهما، أن يصابر المسلمين ويرابطوا ويجاهدوا ويبذلوا كل ما في طوقهم، وعندئذ يتنزل النصر من عند الله العزيز الحكيم كما قال تعالى في بدر: ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[1].

وكما قال في حنين: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ ﴾[2].

وفي الحديث: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب»[3].

إن الذين ينتظرون نصر الله، وهم لاهون أو قاعدون، هم أبعد ما يكونون عن نصر الله، والنصر أبعد ما يكون عنهم، ولو نصر الله القاعدين، لعطل سنته، وغير حكمه؛ ولو أنه انتصر أحد بغير جهاد ومصابرة، لكان رسول الله ﷺ وصحابته أولى ذلك.

وها هم أولاء يتلقون في الانتصار الانكسار، درساً بعد درس، حتى عرفوا حكمة الله، وعلموا حكمه وسنته، وآمنوا بأن الجنة تحت ظلال السيوف، وأن الجهاد ماضٍ فرضه وحكمه أبداً، وأن ثمن النصر دم مهراق، ومال براق، وأرواح زكية، وشهداء صادقون، و ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ . . . ﴾[4].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٢٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٦.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) سورة التوبة: الآية ١١١.

٦ ــ كان رسول الله ﷺ أشجع الناس:

وتجلّت شجاعته في حنين، وفي أحد، وفي غيرهما من الغزوات، والمواقف الحرجة، يقول القاضي عياض ــ من المالكية ــ في شفائه:

«وكان ﷺ بالمكان الذي لا يجهل، وقد حضر المواقف الصعبة، وفر الكماة والأبطال عنه غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح؛ وما شجاع وقد أُحصيت له فرة، وحفظت عنه جولة، سواه.

عن أبـي إسحاق (السبعي الهمداني الكوفي) سمع البراء، وسأله رجل: أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء، وأبو سفيان آخذ بلجامها، والنبـيّ ﷺ يقول: أنا النبـيّ لا كذب، وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب.

قيل: فما رُئي يومئذ أحد كان أشد منه.

وقال غيره: نزل النبـيّ ﷺ عن بغلته.

وذكر مسلم عن العباس ــ رضي الله عنهما ــ قال: فلما التقى المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا آخذ بلجامها، أكفها، إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان آخذ بركابه...

وقال ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ.

وقال علي ــ رضي الله عنه ــ: إنا كنا إذا حمي البأس، ويروى اشتد البأس، واحمرَّت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه. ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبـيّ ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً...

وقيل: كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ إذا دنا العدو، لقربه منه.

وعن أنس ــ رضي الله عنه ــ كان النبـيّ ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس. لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبر (كشفه وعرف حقيقته) على فرس لأبـي طلحة عريّ، والسيف في عنقه، وهو يقول: «لن تراعوا».

وقال عمران بن حصين: «ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة، إلا كان أول من يضرب...».

٧ ــ من خبرة النبـيّ ﷺ بالحرب إرساله العيون في جيوش الكافرين:

إن إرسال العيون في الأعداء عند الحرب، وقبلها، للتعرف على أحوالهم، والوقوف على حقائق أخبارهم، من المهام التي تتوقف عليها نتائج الحروب إلى حد كبير.

وتقدم أن النبـيّ ﷺ بعث في غزوة حنين عبد الله بن أبـي حَدْرَد الأسلمي، عيناً على هوازن، وأمره أن يدخل في صفوفهم، ويقيم فيهم، حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، وكذلك فعل.

كما بعث يوم بدر، علياً والزبير يتعرفان أخبار قريش، وإنهما وقعا على شابين، فاصطحباهما، وتوقعا أن يخبراهما عن عير أبـي سفيان؛ لكنهما زعما أنهما سقاة لقريش؛ فلما ضرباهما، قالا: إنهما لأبـي سفيان، وذلك يشير إلى مهارة النبـيّ ﷺ الحربية، وتمرسه بها.

ولهذا لم يختلف الفقهاء، في جواز التجسس على أعداء المسلمين.

بل من طريف ما نص عليه الآبـي من المالكية، وهو يتحدث في مصارف الزكاة، أنه يجوز التجسس على أرض المحاربين، وإرسال العيون، للاطلاع على

عورات العدو، وإعلامنا بها، وإنه يجوز أن يعطى المتجسس أجراً من الزكاة ولو كان المتجسس كافراً[1].

فكأنه اعتبر دفع الزكاة لمن يتجسس على المسلمين، مما يتصل بالجهاد في سبيل الله، كدفعها للغزاة، وتجهيز الجيش، وفي عدة المجاهدين.

٨ ــ الملائكة تنزَّل من السماء لنصرة المسلمين في حنين:

من المعجزات التي أكرم الله بها نبيّه ﷺ إنزال الملائكة لتقاتل معه، حتى رآهم العدو جهرة كما يقول ابن القيم، ورآهم بعض المسلمين.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبـي إسحاق بن يسار، أنه حُدث عن جبير بن مطعم، قال: لقد رأيت ــ قبل هزيمة القوم، والناس يقتتلون ــ مثل البجاء (الكساء) الأسود، أقبل من السماء، حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت، فإذا نمل أسود مبثوث، قد ملأ الوادي، لم أشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم.

فهذا تأويل قول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

وكما تنزلت الملائكة في حنين، تنزلت أيضاً ــ كما ذكرنا من قبل ــ في بدر.

وسجل القرآن الكريم إمداد المسلمين بالملائكة، يوم بدر، بقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾[3].

---

(١) انظر جواهر الإكليل للآبـي (١/ ١٣٩).

(٢) سورة التوبة: الآية ٢٦.

(٣) سورة الأنفال: الآية ١٢.

٩ ــ الرسول ﷺ يستنزل النصر بالدعاء والتحريض ويرمي وجوه الكفار بالحصى:

لم يكتفِ النبيّ ﷺ بتجميع جيشه الذي يبعثره الغزاة، ولم يعتمد على هذه المائة التي عادت إليه بعد شرودها، بل كان:

١ ــ يشجع أصحابه على القتال، قائلاً ــ كما تقدم ــ وهو في صحيح مسلم: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

٢ ــ وكان يدعو الله مستغثياً قائلاً، كما في الصحيح: اللهم نزل نصرك.

٣ ــ وكان من تحريضه على القتال قوله الذي تفرد به، وهو من جوامع كلمه: «هذا حينَ حمي الوطيس».

٤ ــ وكان من إغرائه أصحابه بالقتال، أنه يبشرهم بالنصر، وهو يستحثهم على ضرب الكفار. وفي صحيح مسلم: «ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال: انهزموا ورب محمد»... ثم قال الراوي: «فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حَدَّهم كليلاً، وأمرهم مدبراً».

وهذا من معجزات النبيّ ﷺ إذ رمى بقبضة من الحصى إلى عيون أعدائه، وهم عنه بعيدون، وبارك الله له في قبضته، حتى ملأت أعين القوم؛ وفي رواية لمسلم: «أنه نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب الأرض ثم استقبل بها وجوههم، وقال: «شاهت الوجوه» فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين».

ولا يخفى ما لهذه الدعوات والتحريضات، والرمي بالحصيات، وبشريات انهزام الكفار، المؤكدة بالقسم النبوي المعهود منه ــ عليه الصلاة والسلام ــ من أثر في إلهاب نفوس كبار الصحابة، المستميتين بالقتال، المستشهدين في سبيل

الله، الملتفين حول رسولهم، الملازمين له، لا يفارقونه ولا ينفكون عنه.

١٠ ــ المرأة المسلمة تجاهد أيضاً في سبيل الله:

روى ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر، أن رسول الله ﷺ التفت (يوم حنين) فرأى أم سُليم بنت ملحان؛ [واسمها مليكة، أو رميلة، أو سهيلة] وكانت مع زوجها أبي طلحة [زيد بن سهل بن الأسود بن حرام] وهي حازمة وسطها ببرد لها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة، ومعها جَمَل أبي طلحة، وقد خشيت أن يَعُزَّها (يغلبها) الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خزامته مع الخطام؛ فقال لها رسول الله ﷺ: أُمّ سُلَيم؟ قلت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله. اقتلْ هؤلاء الذين ينهزمون عنك، كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل. فقال رسول الله ﷺ: أو يكفي الله يا أم سليم؟

قال: ومعها خنجر؛ فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته به. قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سُليم الرُّميصاء؟

فهذا النص يشير إلى أن أم سليم كانت في جملة الجيش المسلم الذي خرج مجاهداً غازياً، يقاتل المعتدين على المسلمين؛ وإن كان كلام أم سليم لا يفيد أنها قاتلت المشركين، غير أنها حملت خنجرها لتدفع به عن نفسها إن داهمها أحد من المشركين؛ لكنها ــ على أية حال ــ كانت منخرطة في الجيش؛ وإنها كانت متأهبة متهيئة لقتال كل من يدنو منها من أهل الشرك.

والشريعة لا توجب على المرأة الجهاد، لفرط أنوثتها، وضعف بنيتها، فليست من أهل القتال، كما ورد: «ما كانت هذه لتقاتل». وفي هذا المعنى يقول الفقهاء: «ولعجزها عن الجهاد لم يلحقها فرضه». ولأنها: «عورة مستورة»، كما نقل في الأثر.

وفي جهاد الرجال غناء عن تكليف المرأة به؛ سواء أكانت متزوجة أم عزباء. لكن إن هجم العدو على بلاد الإسلام، ودخلها بغتة، وهذه بتعبير الفقهاء، هي: حال النفير العام، يخرج للقتال، كل مستطيع، من الرجال والنساء والولدان الذين لا يطيقون القتال، ولو لم يأذن للنسوة أزواجهن، ولا للأولاد آباؤهم وأمهاتهم؛ إذ يصبح القتال حينئذ فرض عين على الذين فوجئوا بالعدو؛ فإن عجزوا عن صد غارة العدو، كان فرضاً على من بقربهم إعانتهم.

وبهذا التقرير الفقهي، يعلم حكم جهاد اليهود المغتصبين في فلسطين، وأنه فرض عين على الفلسطينيين جميعاً، وعلى من جاورهم من العرب، ثم المسلمين، في المشارق والمغارب.

ويلاحظ أن خروج المرأة للقتال مشروط بمحافظتها على عفافها، والتزامها الستر؛ كما أنه منوط بالحاجة المتحققة إلى جهادها، بحيث لا يسد مسدها الرجال، فإن لم تكن الحاجة داعية إلى جهادها، لم يجز خروجها للقتال، تحرزاً من الفتن والإغراء في الجيش المسلم.

أما خروج المرأة مع الجيش، لسقي الماء، وتطبيب الجرحى، وإعداد الطعام للغزاة، وما يتصل بذلك مما لا بد منه للمجاهدين، فإنه جائز. والأولى ــ عند الفقهاء ــ أن تخرج العجائز للطب والمداواة والسقي، دون الشواب؛ ويبدو أن ذلك لأنه أضمن للسلامة، وأنفى للفتنة، مع تحقق المقصود.

وقد قدمنا في دروس أحد، أن أم عمارة نسيبة الأنصارية النجارية، خرجت في أحد، تسقي العطشىٰ وتحرض المسلمين على القتال، فلما تغير وجه المعركة، وانعطف المشركون على المسلمين، هرعت تقاتل مع المسلمين، وتدافع مع الملتفين حول الرسول ﷺ حتى أثنى عليها قائلاً: ما التفت يميناً وشمالاً إلا رأيتها تقاتل دوني.

١١ ــ الرسول ﷺ يعفو عن شيبة بن عثمان الذي همّ بقتله في حنين، ويمسح صدره ويدعو له، فيسلم ويحسن إسلامه، ويخبره النبيّ عما في نفسه:

وهذه من المعجزات الكبرى، التي ظهرت في هذه الغزوة، وأكرم الله بها رسوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ . ففي كتب التراجم وطبقات ابن سعد، عن شيبة بن عثمان الحَجَبي، قال:

لما كان عام الفتح، دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة؛ قلت: أسيرُ مع قريش إلى هوازن بحنين، فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غِرَّة (غفلة) فأثأر منه، فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها، وأقول: لو لم يكن من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً، ما تبعته أبداً.

قال شيبة: وكنت مرصداً لما خرجت له، لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة.

فلما اختلط الناس، اقتحم رسول الله ﷺ عن بغلته، فأصلتَ السيف، فدنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي، حتى كدت أشعره إياه. فرفع لي شواظ من نار كالبرق، كاد يمحشني (يقشر جلدي من اللحم، أو يحرقني)، فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه. فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فناداني: «يا شيبُ! ادن مني» فدنوت منه، فمسح صدري، ثم قال: «اللهم أعذه من الشيطان». قال: فوالله، لهو كان ساعتئذ أحب إليّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب الله ما كان في نفسي، ثم قال: «ادن فقاتل»، فتقدمت أمامه أضرب بسيفي؛ الله يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء، ولو لقيت تلك الساعة أبي، لو كان حياً، لأوقعت به السيف.

قال: فجعلت ألزمه فيمن لزمه، حتى تراجع المسلمون، فكرّوا كرّة رجل واحد، وقُربتْ بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها، وخرج في إثرهم حتى تفرقوا في كل وجه، ورجع إلى معسكره، فدخل خِباءه، فدخلت عليه، ما دخل عليه أحد

غيري، حباً لرؤية وجهه، وسروراً به؛ فقال: «يا شيبُ! الذي أراد الله بك، خير مما أردت لنفسك». ثم حدثني بكل ما أضمرتُ في نفسي، ما لم أكن أذكره لأحد قط. فقلت: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم قلت: استغفر لي، فقال: «غفر الله لك».

أرأيت مثل هذا العفو العظيم، إلا في شخص الرسول ﷺ الذي أحال العدوَّ الصائل إلىٰ وليٍّ حميم.

١٢ ــ كانت حنين تدبيراً إلهياً، لنصرة دينه، وإعزاز رسوله، ولتكون غنائمها مكافأة للذين فتحوا مكة:

إن ملابسات هذه الغزوة، ومراحلها تشير إلى أنها تدبير إلهي عظيم، وحكمة بالغة من لدنه: فما في مقدور أحد، أن يتصور بعد فتح مكة اصطداماً آخر بين المسلمين وآخرين من العرب؛ ولا كانت بوادر أحد لتؤدي إلى نصر بعد أن تفرق المسلمون شذر مَذَر؛ بل ما كان المسلمون ليقدروا وهم في كثرتهم ــ اثني عشر ألفاً ــ أن يغلبوا من قلة، كما صُرح بذلك.

لكن أراد ربك أن يدك آخر قلاع الشرك في بلاد العرب، وأن يأتي بهم راكعين خاضعين للإسلام، فأمسك قلوب هوازن ومن معها عن الإسلام، وأغراها بمحاربة المسلمين، كيما يكسر شوكتها؛ وألقى في قلب رئيسها مالك بن عوف أن يأمر الناس باصطحاب نسائهم وأموالهم وذراريهم، كيما تكون غنيمة للمسلمين، أولئك الذين فتحوا مكة بعد جهود مضنية وسنين طويلة، من دونما مغنم.

وهكذا قدر الله للمسلمين النصر المؤزر في هذه الغزوة، بعد أن أذاقهم في أولها مرارة الهزيمة، ليقتنعوا بأن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً؛ وكسر لهم شوكة هوازن العظيمة التي لم يلاقوا مثلها، تلك التي استنكفت عن الإسلام يوم فتح

مكة؛ وقدم لهم أموالها وذراريها لتكون لهم غنيمة، بعد الفتح الأعظم، الذي لم ينالوا به حظاً مالياً لأنفسهم، فكانت حنين في نهايتها ثروة للمسلمين، وغناء فياضاً، وغنيمة لا قبل لهم بمثلها، فذلك من فضل الله، وحكمته البالغة.

١٣ ـ تشابهت غزوتا بدر وحنين في أمور:

١ ـ تقترن الغزوتان بالذكر ـ كما يقول ابن القيم ـ ، فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين.

٢ ـ قاتلت الملائكة بأنفسها فيهما مع المسلمين، ورأى بعض المسلمين الملائكة وهي تقاتل مع المسلمين.

٣ ـ رمى النبيّ ﷺ في هاتين الغزاتين وجوه المشركين بالحصباء، في قبضة من تراب الأرض حتى امتلأت أعينهم بتراب تلك القبضة، وهو يقول: شاهت الوجوه.

٤ ـ كسرت شوكة الشرك في هاتين الغزوتين: ففي بدر قتل صناديد المشركين، أبو جهل وعتبة وشيبة؛ وفي حنين قضي على آخر معاقلهم في هذيل وما جاورها من أهل الشرك، فهانوا من بعد عزّ، وقهروا من بعد نصر، واستكانوا من بعد قوة، حتى استؤصلت عقيدة الشرك من جذورها وجذوعها، ولم تقم لها قائمة من بعد حنين. بل إن هوازن قدمت على النبيّ ﷺ وبعثت وفدها إليه ـ كما سنرى ـ تعلن إسلامها، وتستشفع به وبالمؤمنين، ليستردوا سبيهم من الأبناء والنساء.

ومن ثم اعتبرت هاتان الغزوتان، مذلتين للشرك والمشركين، ماحقتين كل قوة لهما، قاهرتين جموعهما، التي لم تجد بداً بعد ذلك من الدخول في الإسلام.

١٤ ـ جواز عقر أفراس الأعداء، وإتلاف أموالهم، إذا تعينت سبيلاً للغلبة عليهم في القتال:

قالوا: إن علياً ـ رضي الله تعالى عنه ـ أبلى في هذه الغزوة ـ كما أبلى في غيرها ـ بلاءً حسناً، إذ كان فيمن بقي مع النبيّ ﷺ ثابتاً، من المهاجرين والأنصار وأهل بيته: كأبـي بكر وعمر، وعلي والعباس.

فتصدى عليّ ـ كرَّم الله وجهه ـ إلى صاحب الراية من هوازن؛ وكان على جمل له أحمر، بيده راية سوداء، في رأسه رمح طويل، يتقدم هوازن، وهوازن خلفه: فإذا أدرك طَعن برمح؛ وإذا فاته الناس، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه.

فبينا هو كذلك، إذ أهوى عليه علي بن أبـي طالب، ورجل من الأنصار يريدانه. قال الراوي: فأتى علي من خلفه، فضرب عرقوبـي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل، فضربه ضربة أطنَّ قدمه بنصف ساقه (أطارها وسمع لها دوي) فانجعف عن رحله (سقط عنه صريعاً) واجتلد الناس...

فضرب سيدنا علي الجمل حتى وقع على عرقوبه، يدل على جواز عقر حيوان العدو، ما دام فيه عون على قتله، وليس هذا من تعذيب الحيوان المنهي عنه؛ كما صرح به ابن القيم.

فنص الفقهاء على أن الأصل في النصوص الشرعية هو كراهة أو تحريم قطع شجر العدو، وإفساد زرعه، وإتلاف ماله وحيوانه، وإهلاك أولاده ونسائه، لورود النصوص الناهية عنه، وهو إفساد في غير محل الحاجة؛ ولا يباح ذلك إلا للحاجة؛ وهذا لأن المقصود ـ كما يقول ابن عابدين رحمه الله ـ هو كسر شوكتهم، وإلحاق الغيظ بهم، فإذا غلب الظن بحصول ذلك بدون إتلاف، وإنه يصير غنيمة للمسلمين، لا نتلفه عليهم.

وكذلك الشأن في نساء الكفار، وأطفالهم، عدم جواز قتلهم، للنهي عنه، ما

لم يشتركوا فعلاً بقتال المسلمين، فيُقاتلون عندئذ مقبلين لا مدبرين، كما يقاتل الرجال، لأن المسلمين يقاتلون من قاتلهم، لتحقق العلة وهي المقاتلة، بحديث المرأة التي قتلها المسلمون، ورآها النبيّ ﷺ فأنكر قتلها، وقال: «ما كانت هذه لتقاتل» كما رواه أحمد وغيره.

١٥ ــ الرسول الكريم الحليم يمنّ على هوازن ويرد عليها سباياها:

حدثت الأسانيد الصحيحة، في البخاري ومسلم وأحمد وفي سيرة ابن هشام وغيرها، أن وفداً من هوازن، كانوا أربعة عشر رجلاً، قدموا على رسول الله ﷺ وهو بالجَعْرانة وقد أسلموا، وفيهم عمه من الرضاعة: أبو بُرقان، فقالوا له:

يا رسول الله! إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منَّ الله عليك. وقال له أبو صُرد زهير: يا رسول الله! إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك... وأنت خير المكفولين.

فقال رسول الله ﷺ: إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إليّ أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين إما السبـي وإما المال؛ وقد كنت أنتظركم حتى ظننت أنكم لا تقدمون. فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً، اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهو أحب ألينا، ولا نتكلم في شاة ولا بعير.

فقال لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم؛ وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين؛ ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يردوا علينا سبينا؛ فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم.

فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس.

فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا.

وقال العباس بن مِرداس: أما أنا وبنو سُلَيم فلا.

فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباس بن مرداس: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: «إن هؤلاء القوم قد جاؤوا تائبين مسلمين، وقد كنت استأنيت سبيهم (أخرت تقسيمه رجاء أن يأتوا مسلمين)، وقد رأيت أن أرد عليهم سبيهم، وخيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً. فمن كان عنده منهن شيء، فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك؛ ومن أحب أن يستمسك بحقه، فليردَّ عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض، من أول ما يفيء الله علينا».

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ السبي ممن أبى، قرضاً، وسلمه إلى هوازن.

١٦ ـ الرسول الحليم يكرم أسرة عدوه مالك بن عوف، ويرد عليه أهله وماله ويزيده:

وتحدث الرواة عن رأفة النبيّ ﷺ بعدوه مالك وأسرته، مع أنه هو الذي أثار القبائل، وهاجم بهم المسلمين، وتولى كبر تلك الحرب الصاخبة التي لا طعم لها ولا معنى.

قالوا: إن رسول الله ﷺ أمر بأن تحبس أسرة مالك بن عوف عند عمتهم أم عبد الله بن أمية، بمكة المكرمة. فقال له وفد هوازن: أولئك سادتنا؛ فقال ﷺ: إنما أريد بهم الخير.

ثم سأل عن مالك، فقالوا: هرب مع ثقيف. فقال: أخبروه أنه إن جاءني مسلماً رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل.

وخاف مالك ــ لما بلغه ذلك ــ أن يحبسه قومه، ليمنعوه من القدوم على الرسول ﷺ، ففر إليه خفية، ولحق برسول الله ﷺ فأدركه وهو بالجعرانة أو بمكة، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه ــ فقال في ذلك مالك، كما في رواية ابن هشام:

مـا إن رأيـت ولا سمعـتُ بمثلـه ... فـي النـاس كلهـم بمثـل محمـد

أوفَـى وأعطـى للجـزيـل إذا اجتُـدي ... ومتـى تشـأ يخبـرك عمـا فـي غـد

وإذا الكتيبـة عـرَّدتْ أنيـابُهـا ... بـالسمهـري وضـرب كـل مهنَّـد

فكـأنـه ليـث علـى أشبـالـه ... وسـط الهبـاءة خـادرٌ فـي مـرصـد

[عرَّدت: قويت. والسمهري: الرمح. والمهند: السيف. والهباءة: الغبار إذا اشتدت الحرب. والخادر: الأسد في العرين. يصفه بالقوة واليقظة].

وأمام هذا الرفق الرفيق في معاملة العدو اللدود، تخجل أعلام الكفار، في المشارق والمغارب، وفي قلب العالم الإسلامي، مما يلقاه المسلمون في أيامنا من ضروب التنكيل والتعذيب [اللاإنسانية، واللاأخلاقية]، لا لشيء إلا لأنهم خالفوهم في الدين، وارتضوا الإسلام عقيدة، وآمنوا به شريعة، ونشدوا حرية الفكر والقول في ظلاله الوارفة الحانية، وفي نظمه الإلهية العادلة، التي حملت للإنسانية الرحمة والمساواة، وسعادة الدارين.

١٧ ــ الصحابة يتسابقون إلى رد السبي على هوازن، ويتواصون به تأسياً:

وفي السيرة النبوية، مواقف لطيفة، ومشاهد نموذجية، آثر فيها الصحابة، الأسوة بالنبيّ ﷺ في رد سبي هوازن؛ حتى إن بعض الذين تمسكوا بأنصبتهم

منها، وعلقوا عليها آمالاً، ما عتّموا أن منوا تلقائياً في التأسي، أو رضاً بالقرض المضاعف، بوعد الرسول الكريم ﷺ.

كانت جارية علي بن أبـي طالب التي ردها اسمها ريطة بنت هلال بن حيان؛ وجارية عثمان اسمها زينب بنت حيان؛ وجارية عمر وهبها ابنه عبد الله بن عمر.

فحدّث نافع مولى عبد الله، عن عبد الله بن عمر، أنه قال:

بعثت بها إلى أخوالي من بني جُمح، ليصلحوا لي منها، ويهيئوها، حتى أطوف بالبيت، ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها. قال: فخرجت من المسجد حين فرغتُ. فإذا الناس يشتدون؛ فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: رد علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا؛ فقلت: تلك صاحبتكم، في بني جُمح فاذهبوا فخذوها؛ فذهبوا إليها فأخذوها.

قال ابن إسحاق: وأما عُيينة بن حصن، فأخذ عجوزاً من هوازن؛ وقال حين أخذها: أرى عجوزاً، إني لأحسِب لها في الحي نسباً، وعسى أن يعظم فداؤها.

فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض، أبـى أن يردها، فقال له زهير أبو صُرَد: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد (حزين عليها لأنها عجوز) ولا درُّها بماكد (لا تدر لبناً غزيراً). فردها بست فرائض حين قال له زهير ما قال.

فزعموا أن عيينة لقي الأقرع بن حابس، فشكا إليه ذلك، فقال: إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة (متوسطة السن) ولا نصفا وتيرة (سمينة لينة).

أفرأيت إلى هذه المبادرة المنطلقة في القدوة بالنبـيّ ﷺ والاستجابة له في الدعوة إلى المن على هوازن، ورد السبايا بعد امتلاكهن، ابتغاء لمرضاة الله؛ أو توقعاً لعوض مضاعف... والممنون به نسوة مُلكن مجاناً، فحررن مجاناً، أو في تعويض قد يكون بعيداً.

لكن الدعوة إلى الله، ومصلحة الإسلام الكبرى، أسمى بكثير من حظوظ النفوس، ورغبات الأفراد. فأين من هذه المواقف النبيلة، إسفاف كثيرين من الشباب وأولي الأمر، في تقديم رغباتهم الخاصة على كل المصالح، وتفضيل شهواتهم على كل اعتبار، بل تناسي الأمة والأمجاد والمقدسات، كلما تعارضت الأنانية البغضية، والأثرة المسرفة؟

ألا إن مناهج التربية، في حاجة إلى كثير من التعديل، والتوجيه التاريخي الرائد، لينتفع النشء بسلفه الماجد، فيخفف من هبوطه المادي الذريع، وسرفه المسرف في حب الذات.

١٨ ـــ الرسول الأمين يحفظ فيء المجاهدين في أمانة مثالية:

ربما كانت غنائم غزوة هوازن، أعظم ما أصابه المسلمون من غنائم في غزواتهم كلها. فلا عجب أن تتجه الحكمة النبوية السامية، في استغلال هذه الغنائم للمصلحة الإسلامية العليا، وجمع الأمة على هذا الدين القويم، والتنكيب عن مرضاة الجمهرة المسلمة مهما كان تشبثها بالغنائم، لكن بأسلوب النبوة الحكيم.

ففي السيرة، أن النبيّ ﷺ لما فرغ من رد سبايا هوازن إلى أهلها، ركب، واتبعه الناس، يستحثونه قسمة الفيء والغنائم، إذ كانت قد وُجهت إلى الجعرانة، واستأنى ماكثاً بضع عشرة ليلة، لم يقسمها، رجاء أن يقدموا عليه مسلمين.

وكانت من الكثرة بحيث تأخذ بالألباب:

كان السبي ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، والفضة أربعة آلاف أوقية.

فقالوا: يا رسول الله! اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، حتى ألجئوه إلى شجرة، فاختطفت عنه رداءه، فقال: أدوا علي ردائي أيها الناس، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.

ثم قام إلى جنب بعير، فأخذ وَبَرة من سنامه، فجعلها بين أصبعيه، ثم رفعها، ثم قال: أيها الناس! والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم. فأدوا الخِياط والمِخْيط (يعني الخيط والإبرة من المغانم) فإن الغلول (الأخذ من الغنائم قبل قسمتها) يكون على أهله عاراً وناراً وشناراً، يوم القيامة.

فجاء رجل من الأنصار بُكَبَّةٍ من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله! أخذت هذه الكُبة أعمل بها برذعة بعير لي دَبِر؛ أما نصيبي منها، فلك. قال: أما إذا بلغتْ هذا فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده. فهل عرفت الدنيا مثل هذا السمو في الحفاظ على أموال المسلمين؟ وما أجدر أولي الأمر باتخاذ العبرة منه.

وذكر ابن هشام أن عقيل بن أبي طالب، دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة، وسيفه متلطخ دماً، فقال: إني قد عرفت أنك قد قاتلت، فماذا أصبت من غنائم المشركين؟

فقال: دونكِ هذه الإبرة، تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها.

فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئاً فليرده، حتى الخِياط والمِخْيَط. فرجع عقيل، فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت؛ فأخذها، فألقاها في الغنائم.

وهكذا، كان كل رجل يرد ما أخذ من الغنائم قبل القسمة، مهما كان زهيداً.

فهل قدمت المذاهب والنظم الحديثة للناس، أروع من هذا المثال، في المحافظة على الأموال العامة، ورعاية الحاكم والمحكوم لها؟.

١٩ ــ الرسول الحكيم، يتألف القلوب في قسم الغنائم:

اتخذ النبيّ العظيم ــ صلاة الله وسلامه عليه ــ من غنائم حنين، سبيلاً فريدة، لتقوية إيمان من أسلم وفي إسلامه بعض الضعف، ولتحبيب الإسلام إلى

من لم يسلم، يتألف بذلك قلوب أهل الفريقين. ناسياً ماضيهم الذي لا ينسى، في سبيل الدعوة إلى هذا الدين، بحكمة ولطف، وبدون قصاص ولا عنف.

وبدأ بأبـي سفيان بن حرب ــ هذا الذي كان إلى عهد قريب من ألد خصوم الإسلام، ولم يسلم إلا يوم الفتح، حيث يئس من الإشراك، ونفض يده من الزعامة ــ ، فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابني يزيد؟

فقال: أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل. فقال: ابني معاوية؟ قال: أعطوه أربعين أوقية، ومائة من الإبل؛ فقال له أبو سفيان: بأبـي أنت وأمي، لأنت كريم في السلم والحرب.

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، كأبـي سفيان؛ ثم استزاده فأعطاه مثلها، ثم استزاده فأعطاه مثلها: ثم قال له: يا حكيم! إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس، بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس (أي بتطلع وجشع)، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى. فأخذ حكيم المائة الأولى من الإبل، وترك ما عداها. ثم قال: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. قالوا: فكان الخلفاء بعد الرسول ﷺ يعرضون عليه العطاء الذي يستحقه من بيت المال فلا يأخذه.

وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير؛ وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطىٰ العلاء بن جارية الثقفي مئة بعير، وأعطىٰ عُيَيْنة بن حصن مئة بعير، وأعطىٰ الأقرع بن حابس مئة بعير، وأعطىٰ سهيل بن عبد العزى مائة بعير، وأعطىٰ مالك بن عوف مائة بعير.

وأعطى صفوان بن أمية شعباً مملوءاً نعماً وشاءً، وكان رآه يرمقه، فقال له: هل يعجبك هذا؟ فقال: نعم. قال: هو لك. فقال صفوان: ما طابت بمثل هذا نفس أحد؛ وكان ذلك سبب إسلامه، وألجأه إلى أن يقول ــ كما في الصحيح ــ :

«ما زال رسول الله ﷺ يعطيني من غنائم حنين، وهو أبغض الخلق إلي، حتى ما خلق اللَّهُ شيئاً أحب إلي منه».

وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي، وآخرين من قريش، خمسين.

قال ابن إسحاق: وأعطى عباس بن مرداس أباعر، فقال أبياتاً يعاتب فيها رسول الله ﷺ:

كانت نهاباً تلافيتُها	بكريّ على المُهر في الأجرع
وإيقاظي القوم أن يهجعوا	إذا هجع الناس لم أهجع
فأصبح نَهْبِي ونهب العُبَيـ	ـد، بين عيينة، والأقرع
وقد كنتُ في الحرب ذا تُدْرأٍ	فلم أُعط شيئاً ولم أُمنع
إلا أفائل أعطيتها	عديدَ قوائمها الأربع
وما كان حصنٌ ولا حابس	يفوقان شيخيَ في المجمع
وما كنت دون امرىء منهما	ومن تضع اليوم لا يُرفع

[الأجرع: السهل. والعبيد: اسم فرسه. والأفائل: صغار الإبل. شيخي: يريد به أباه ويروى: مرداس].

فقال رسول الله ﷺ: اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه، فأعطوه حتى رضي.

وقد قصد النبيّ ﷺ من هذه العطايا، تألف القلوب، وجمعها على هذا الدين القويم. وأفاد الإسلام من ذلك فائدة جلّى، إذ إن كثيراً ممن أعطوا في هذه الغزوة، ممن لم يثبت الإيمان في قلوبهم، أصبحوا بعد ذلك من أعظم المسلمين نفعاً، وأكبرهم أثراً في نشره والدفاع عنه، كصفوان بن أمية، ومعاوية بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وغيرهم.

وقد فرض الإسلام في آية الصدقات سهماً خاصاً للمؤلفة قلوبهم كيما يؤمن من لم يكن آمن، وكيما يترسخ الإيمان في قلوب من آمن، ولم يكن إيمانه قوياً؛

فكان فعل النبيّ ﷺ تطبيقاً صحيحاً وسليماً لما جاء في القرآن الكريم: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ. . . ﴾[1].

٢٠ ــ اعتراضات على تقسيم الغنائم، وإعطاء بعض وحرمان آخرين:

في سيرة ابن هشام، أن قائلاً قال لرسول الله ﷺ وهو من أصحابه:

يا رسول الله! أعطيت عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، مائة مائة، وتركت جُعيل بن سُراقة الضمْري؟ فقال رسول الله ﷺ:

«أما والذي نفس محمد بيده، لجُعيل بن سراقة خير من طِلاعِ الأرض (ملئها)، كُلُّهم مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس؛ ولكني تألفتهما ليسلما، ووكلت جُعيل بن سراقة إلى إسلامه».

وروى ابن إسحاق بسنده إلى مولى عبد الله بن الحارث، قال:

خرجتُ أنا وتليد بن كلاب الليثي، حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص، وهو يطوف بالبيت، معلقاً نعله بيده، فقلنا له: هل حضرتَ رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم. جاء رجل من بني تميم، يقال له: ذو الخويصرة، فوقف عليه وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد! قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: أجل، فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت؛ قال: فغضب النبيّ ﷺ، ثم قال: ويحك! إذا لم يكن العدل عندي، فعند من يكون؟ فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله! ألا أقتله؟ فقال: لا، دعه، فإنه سيكون له شيعة، يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه، كما يخرج السهم من الرمية، يُنظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القِدح (السهم) فلا يوجد شيء، ثم في الفُوق (طرف السهم الذي يباشر الوتر) فلا يوجد شيء، سبقَ الفرثَ والدم.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٦٠.

٢١ ــ الرسول الرؤوف يترضى الأنصار الذين وجدوا لحرمانهم من غنائم حنين:

بعد أن أنفذ النبيّ ﷺ سهم المؤلفة قلوبهم ــ على ما رأيت ــ أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم، وتوزيعها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة؛ ولكل فارس اثنا عشر بعيراً، وعشرون ومائة شاة.

فلما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجدوا في أنفسهم، وكثرت القالة فيهم؛ حتى قال حسان من قصيدة له مطلعها:

زادت هموم، فماء العين منحدر ... سحّاً، إذا حفلتْه عَبْرة دِرَرُ

قال فيها:

وأْت الرسول، فقل: يا خير مؤتمن ... للمؤمنين، إذا ما عُدِّد البشر

علامَ تُدعى سُليم وهْي نازحة ... قدام قومٍ هُمُ آووا وهمْ نصروا

سماهم الله أنصاراً بنصرهم ... دين الهدى، وعوان الحرب تَستعر

بل، حتى قال قائلهم: لقد لقي ــ واللَّهِ ــ رسول الله ﷺ قومه.

وفي سيرة ابن هشام والمسند وغيره، وفي الصحيح: فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمتَ في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله! ما أنا إلا من قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة.

قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة. قال: فجاء رجل من

المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردهم. فلما اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا معشر الأنصار! ما قالةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً (فقراء) فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل. ثم قال: ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل.

قال ﷺ: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقتم ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك (جعلناك كأحدنا).

أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم، في لُعاعة (بقلة خضراء) من الدنيا، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار، أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذي نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة، لكنت امرأً من الأنصار؛ ولو سلك الناس شِعباً وادياً (طريقاً بين جبلين) وسلكت الأنصار شعباً ووادياً، لسلكت شعب الأنصار وواديها. [الأنصار شعار، والناس دثار]، وإنكم ستلقون أثرة من بعدي، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناءَ أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم (بلوها بالدموع) وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظاً.

ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا.

٢٢ ــ المال لعاعة، والأنصار شعار، والناس دثار:

هكذا تتسرب المادة لتتخذ سبيلها إلى القلوب؛ لكن هيهات أن يكون لها محل من الإعراب في قلوب المؤمنين الصادقين. . .

وهكذا يصارح الرسول الأمين صحابته من الأنصار، فيعرفهم بفضله عليهم، في الإيمان، وتوحيد الصف، وتأليف القلوب؛ ويذكر لهم تصديقهم برسالته، وإيواءه في الهجرة، ومواساته أصحابه من المهاجرين في أموالهم. . .

لكن ما الذي حدث؟ كل هذا الذي أُعطي قريشاً والقبائل، ما هو في ميزان الإسلام إلا كبقلة خضراء، تقدم إلى حيوان يراد استئناسه. . . والذي عند الله خير وأبقى للأبرار؛ وهو ما أُعطي لهم إلا للتألف، ورجاء أن يكونوا مثلهم مسلمين؛ إنها ليست قومية ولا عصبية، إنها لله ولدينه وشرعه، وليس للرسول نفسه ولا لأهله منها شيء، لقد رجع صفر اليدين من كل الغنائم، لم يتخذ لنفسه منها نقيراً، كما رجع الأنصار، فهل عرفت الدنيا نظيراً لهذا السمو والترفع؟

إنهم ذهبوا بالشياه والبعران، وحظي الأنصار، بسيد الخلق الحبيب المحبوب، ومن يسوّي الشياه والبعران بسيد الوجود؟. . . لو كان للرسول العظيم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أن ينتسب، لانتسب إلى الأنصار، ولو افترق الناس لكان هو في صف الأنصار، إنهم الخيرة المختارة، والصفوة المصطفاة من الناس أجمعين. . .

إنهم جسم الأمة، والناس ثياب؛ إنهم أصل الإسلام، وعدته وهيولاه وجوهره، والناس لونه وزينته ومظهره.

ولن تجد بين حاكم ومحكوم، صراحة صادقة، أبرز من هذه المصارحة. ولن تجد في دنيا الناس تجرداً عن المادة، وإخلاصاً للعقيدة والمبدأ، كهذا التجرد والإخلاص.

أفلم يأن لأهل العقائد، والفلسفات المادية، والمذاهب البراقة الخادعة، أن ينكبوا عما شغلوا به أنفسهم وشغلوا به الناس وفتنوهم عما يسعدهم إلى ما يشقيهم ويغويهم، وأن يلتفتوا إلى هذا الدين، ويتلقفوا هذه المبادىء السامية، في العدل والمساواة، في الحرية والتَّأسي، في التجرد للواحد الأحد، وتسخير هذا الوجود كله لخالقه ومالكه؟.

• • •

غـزوة تبـوك

ربما كانت هذه آخر غزوات الرسول ﷺ إذ كانت ـ كما يقول الرواة ـ في رجب سنة تسع.

وفي منصرفه من غزوة حنين والطائف، اعتمر في ذي القعدة ـ كما يقول ابن إسحاق ـ وقدم المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة ـ كما روى ابن هشام ـ وأقام فيها من ذي الحجة إلى رجب، حيث تأهب لغزوة تبوك.

وسبب هذه الغزوة ـ كما ذكر ابن سعد، وأقره ابن القيم ـ أن رسول الله ﷺ والمسلمين، بلغهم من الأنباط، الذين كانوا يتنقلون بين الشام وبين المدينة للتجارة ـ أن الروم جمعت جموعاً كثيرة في الشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة؛ وأجلبت الروم إلى جانبها قبائل من نصارى العرب، الذين كانوا تحت إمرتها، أمثال: لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، ووصلت طلائع هذه الجموع الماكرة الكائدة للمسلمين، إلى أرض البلقاء. وأن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل.

لهذا أمر النبـيّ ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم.

وكان ذلك في زمان من عُسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد؛ وحين طابت الثمار؛ والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على تلك الحال من الزمان الذين هم عليه.

قال ابن إسحاق في روايته: وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنّى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمِد له (أي يقصده)، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة (المسير) وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته؛ فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم بأنه يريد الروم.

وسنحت الفرصة للمنافقين، ليتخلفوا عن الغزو، ويرجفوا في المدينة، ويفتوا في عضد المسلمين، ويفتِّروهم عن الخروج لجهاد النصارى.

فانطلق زعيمهم التقليدي عبد الله بن أبيّ يقول لشرذمته تثبيطاً للقتال، وترهيباً للمؤمنين: يغزو محمد بني الأصفر، مع جهد الحال، والحر الشديد، والبلد البعيد: أيحسب محمد أن جلاد بني الأصفر (الروم)، كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مقرَّنين في الجبال.

وجاء منهم الجد بن قيس إلى النبيّ ﷺ فقال له: يا جد! هل لك العامَ في جلاد بني الأصفر؟ فقال معتذراً بأقبح عذر: يا رسول الله! أوَ تأذن لي، ولا تفتنِّي؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنتُ لك. ففي هذا الاعتذار الوقح نزل قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾(١) أي إن خشي الفتنة من نسوة الروم، فقد سقط فيما هو أشد، بتخلفه عن الجهاد؛ وجهنم من ورائه.

بل إن فريقاً من المنافقين، تواصوا بصراحة، بعدم الخروج، وقالوا لبعضهم: لا تنفروا في الحر، زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، وإرجافاً

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤٩.

بالرسول والمؤمنين؛ فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿... وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾[1].

وتحدث ابن هشام، قائلاً: بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ فبعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله، في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم؛ ففعل طلحة.

واستأذن المعذرون من الأعراب، وهم أصحاب الأعذار، من ضعف أو قلة، فأذن لهم الرسول ﷺ.

وكذلك استأذن كثير من المنافقين، فأذن لهم؛ وقد عتب الله عليه في ذلك الإذن بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾[2]. وقال فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[3]، ثم كذبهم في عذرهم وقال: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾[4].

وكيلا يأسى المسلمون على قعود المنافقين، وتخلفهم عن الجهاد معهم، أنزل الله ــ عزّ وجلّ ــ قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[5].

ولم تثن تلك الأراجيف والتثبيطات، المسلمين عن عزمهم، بل جدّ

---

(١) نفسها: الآية ٨١.
(٢) سورة التوبة: الآية ٤٣.
(٣) نفسها: الآية ٤٥.
(٤) نفسها: الآية ٤٦.
(٥) نفسها: الآية ٤٧.

النبـيّ ﷺ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحض أهل الغنى على النفقة في سبيل الله؛ وتسابق الصحابة في هذا المضمار: فأخرج أهل اليسار الكثير من أموالهم حسبة عند الله؛ وأنفق عثمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ في ذلك نفقة عظيمة؛ لم ينفق أحد مثلها: إذ جاء بثلاثمائة بعير، بأحلاسها وأقتابها، وبألف دينار، وصبَّها في حجر النبـيّ ﷺ، فجعل يقلبها بيده ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[1].

وروي «عن زيد بن أسلم عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطاب، يقول: أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق؛ ووافق ذلك عندي مالاً، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً؛ قال: فجئت بنصف مالي؛ فقال رسول الله ﷺ ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر! ما أبقيت لأهلك؟ فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسبقه إلى شيء أبداً»[2].

وجاء رجال من المسلمين، من ذوي الحاجة، كانوا سبعة نفر ـ في رواية ابن إسحاق ـ وطلبوا من النبـيّ ﷺ ظهراً يحملهم عليه، ليجاهدوا معه؛ فقال: لا أجد ما أحملكم عليه؛ فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون».

ولما استتب برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السير، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، واستخلف على أهله عليّ بن أبـي طالب، خرج من المدينة بجيشه الذي كان يبلغ ثلاثين ألف صحابـي مجاهد، وضرب به على ثُنَيَّة الوداع؛ وضرب عبد الله بن أبـي أسفل منه؛ ولم يكن من الكثرة بأقل العسكرين.

ولما سار رسول الله ﷺ تخلف عنه عبد الله بن أبـيّ، فيمن تخلف من المنافقين وأهل الرَّيب.

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي.

(٢) رواه الترمذي.

وتخلف عنه نفر من المسلمين، أبطأت بهم النية، فتخلفوا عن غير شك ولا ريبة، وكانوا ــ كما يقول الكاتبون في السيرة ــ نفر صدق، لا يتهمون في إسلامهم؛ وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خيثمة. لكن هذا سرعان ما استيقظ فيه وازع الحب النبوي، فلحق برسول الله ﷺ فأدركه وهو في تبوك؛ وأما الثلاثة الآخرون، فكان لهم مع رسول الله ﷺ بعد عودته شأن أيما شأن؛ ونزلت فيهم آيات من القرآن الكريم.

وكابد المسلمون في هذه الغزوة جهوداً مضنية، وتحملوا من الحر والجوع والعطش، ما لا قبل لأحد باحتمال مثله؛ ثم مسهم الله ــ جلّ وعلا ــ بجناح من رحمته. ببركة دعوة المصطفى ﷺ.

ثم وصلوا تبوك، ومكثوا فيها أياماً، فلم يلقوا جيوشاً ولا مقاومة، بل أتى النبيّ ﷺ ــ كما ذكر ابن إسحاق ــ يُحَنَّةُ بن رؤبة، صاحب أيلة، فصالحَ رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية؛ وأتاه أهل جَرباء، وأَذرُح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتاباً، فهو عندهم.

وهذا كتاب صاحب أيلة، كما ذكره ابن إسحاق وابن القيم:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا أمنة من الله، ومحمد النبيّ رسول الله، ليُحَنَّةَ وأهل أيلة: سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبيّ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر؛ فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله، دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر».

وكتب لأهل أذرح وجرباء كتاباً، هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبيّ، لأهل أذرح وجرباء: إنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد؛ وإن عليهم مائة دينار، في كل رجب، وافية طيبة. والله كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين».

وصالح أيضاً أهل ميناء على ربع ثمارهم.

وقد استشار النبيّ ﷺ أصحابه، في مجاوزة تبوك إلى ما هو أبعد منها، من ديار الشام؛ فقال له عمر: إن كنت أمرت بالسير فسر! فقال: لو أمرت بالسير لم أستشر.

فقال عمر: يا رسول الله! إن للروم جموعاً كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوك؛ فلو رجعنا في هذه السنة حتى نرى، أو يحدث الله أمراً.

فتبع النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ شورته، وأمر بالقفول، فرجع المسلمون إلى المدينة في شهر رمضان سالمين منصورين.

فلما كانوا بذي أوان (بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار)، وكان المنافقون بنوا فيه مسجداً ليتآمروا فيه على الإسلام، ويخططوا لتمزيق المسلمين، متسترين بالدين وبالصلاة في بيت الله؛ وكانوا قد جاؤوا إلى النبيّ ﷺ كما قال ابن إسحاق، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله! إنا قد بنينا مسجداً، لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية؛ وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه؛ فقال: إني على جناح سفر، وحال شغل؛ ولو قد قدمنا ـ إن شاء الله ـ لأتيناكم، فصلينا لكم فيه.

فلما نزل بذي أوان، أتاه خبر المسجد، وقد انكشف مكر المنافقين في تبوك، وافتضح أمرهم، دعا النبيّ ﷺ اثنين من أصحابه، وقال لهما: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه؛ وكذلك فعلا، وتفرق عنه المنافقون، ففيهم نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠٧ و١٠٨.

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الناس لتلقيه ـ كما ذكر ابن القيم ـ ، وخرج النساء والصبيان والولائد، ينشدن:

طلـــع البـــدر علينـــا ... مـــن ثنيـــات الـــوداعِ
وجـــب الشكـــر علينـــا ... مـــا دعـــا للّـــه داع

فلمـا أشـرف علـى المـدينـة، قـال: «هـذه طـابـة، وهـذا أحـد، جبـل يحبنـا ونحبه»[1].

ولما دخلها، بدأ بالمسجد ـ كعادته كلما قدم من سفر ـ ، فصلى فيه ركعتين تحية المسجد؛ ثم جلس إلى صحابته، وإلى الناس. وجاءه المخلفون يعتذرون عن تخلفهم؛ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً؛ فقبل منهم علانيتهم، واستغفر لهم؛ ونزل في ذلك القرآن.

أما كعب بن مالك وصاحباه، فقد أرجأ أمرهما في قبول توبتهما، حتى نزلت آيات القرآن بعد ذلك في قبول توبتهم ـ كما سيأتي ـ .

● ● ●

(١) متفق عليه.

الدروس والمبــادىء

مع ما تخلل هذه الغزوة من متاعب مضنية وشدائد خانقة، كانت في نهايتها نصراً مؤزراً للمسلمين، وأثرت بدروس قيمة وعبر كثيرة، وأحكام هامة، من أبرزها:

١ ــ تشابهت غزوتا الأحزاب وتبوك في الأسباب والنتائج:

١ ــ ففي غـزوة الأحـزاب، لمـا استيقـن الكفـار أنهـم لـن يستـطيعـوا أن يـواجهـوا الإسلام فـرادى، انقـدح في ذهنهم أنهم قـد يوقفون مِن مدّه، أو يئـدونه في مهـده، إذا تكتلـوا ضـده. . . فألبت اليهـود في الجـزيرة مشـركي مكة، وقبائل العـرب النـاقمة على الـدين، على محاصرة المسلمين في المدينة، وحـالفتهم على أن تحـاصر معهم المـدينة، حتى تستـأصل الإسلام مـن جذوره؛ وقد تقبلت قريش هـذا التحـالف الجديـد، بين تـوحيد التـوراة وبين وثنيـة العـرب المشـركين، لأن الهدف واحـد، وهو هدم الإسلام الذي يهدد وجود اليهود، وزعامة العـرب، على السواء.

وفي غزوة تبوك، ذعرت الروم الصليبية، من انتصارات الإسلام الحاسمة، في بدر ومكة، والتي يوشك استمرارها أن يغالب آذانها للصلاة، قرع أجراس الكنائس فيها؛ ومن قبل تحرشت في غزوة مؤتة بحدودها التي تتاخم نصارى الشام؛ فما كان منها إلا أن حشدت جيشاً في أربعين ألف مقاتل، واستنهضت

نصارى الشام، الذين كانوا في رعايتها، ويدينون بالولاء لها، للقضاء على هذا الدين، الذي يهدد الوجود النصراني في الشام.

ما أشبه الليلة بالبارحة!! نصارى الروم ونصارى العرب، يعقدون اليوم العزم على اكتساح الإسلام؛ كما تحالف يهود الجزيرة ومشركو العرب بالأمس في معركة الأحزاب على استئصال الإسلام..

٢ ـ ووقع المسلمون في كرب عظيم يوم الأحزاب، فالجموع الغفيرة التي احتشدت حول المدينة، لا قبل لهم بردها؛ وهم فيما يشبه المصيدة وفكي الرحى؛ لولا أن الله هداهم إلى حفر الخندق، وحطم لهم النبيّ ﷺ الصخرة، بضربات فأسه، وهو يقوي من معنوياتهم، يبشرهم في كل ضربة بفتح مبين في بصرى الشام، ومدائن كسرى، وقصور صنعاء، وإخبار جبريل بأن أمته ظاهرة عليها. فاستبشر القوم؛ لكن بني قريظة، من اليهود، نقضت عهدها. وقطعت الغذاء عن المسلمين، فاشتد البلاء على المسلمين، وتوقعوا الموت جوعاً.

ففي تصور هذا المأزق الحرج يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾[1].

وفي تبوك... كان الجو يشتعل حراً، وقد نضب الماء، حتى كان بعض المسلمين المقاتلين، ينحر جمله لينفض كرشه، ويشرب ماءه، ـ كما يقول ابن سعد ـ وكان جيش العدو كثيفاً، والسفر بعيداً، والمفازة مترامية تلهب نيرانها الأقدام والمناسم؛ وكل ما يحيط بالمسلمين، ينذر بالابتلاء، وسوء المصير.

٣ ـ وكانت النتيجة ـ في غزوة الأحزاب ـ فوق وغير ما كان يتصوره المسلمون، وعلى غير الأسباب الظاهرة التي هيئت لها؛ نصراً مبيناً لهم، واندحاراً

---

(١) سورة الأحزاب: الآيتان ١٠ و١١.

خاسئاً لعدوهم. كما قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ . . . ﴾[1].

وفي غزوة تبوك، لم يتقدم الروم الصليبيون لقتال المسلمين، ويئس العرب النصارى الذين تولاهم الروم، من نصرهم وتوليهم إذ كانوا في الخط الأول من جبهة الكفار المقاتلة للمسلمين، فأقبلوا إلى النبيّ ﷺ يعاهدونه ويصالحونه راضين بالجزية. . . ورجع المسلمون إلى المدينة ظاهرين على نصارى العرب في شمال الجزيرة، وعلى مشارف الشام، مرهبين ـ لأول مرة في التاريخ ـ للروم الذين عبثوا بالنصرانية، واتخذوها وسيلة للسيطرة على من حولهم، وتوسيع نطاق القياصرة، أمام دولة الأكاسرة، المناوئة لها، على الصعيد الدولي العالمي.

٢ ـ حقيقة الجهاد تتلخص في بذل أعز المحبوبات، وتحمل أعظم المشقات ولو بالنية تقرباً إلى الله تعالى:

هذه خلاصة الجهاد في الإسلام، وهذه الحقيقة الشرعية مبتنية على حقيقة الجهاد في اللغة، وهي: بذل الطاقة والوسع.

ولهذا عرفه بعض الفقهاء بأنه: بذل الوسع في القتال في سبيل الله مباشرة، أو معاونة، بمال أو رأي أو تكثير سواد أو رباط أو غير ذلك؛ كمداواة الجرحى، وسقي العطاش، وتهيئة الطعامِ للمجاهدين؛ وكذا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، وكل ما فيه تطهير الأرض من الفسق كإقامة الحدود، ودفع شر الشرك والإلحاد والكفر.

كما عرف أيضاً بأنه الدعاء إلى الدين الحق، وقتال من لم يقبله.

وإن أعز ما لدى الإنسان، نفسه التي بين جنبيه، ثم ماله؛ ولهذا كانا محور جهاد المسلم، ومحل تقربه إلى المولى جلّ وعلا. . . فكثر في الكتاب والسنّة

---

(١) نفسها: الآية ٢٥ وما بعدها.

طلب الجهاد فيهما، وكانا ثمن جنات عدن، ونعيم خالد فيها؛ كما كانت الجنة ثمناً لهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾(١).

وعلى ذلك فهم السلف وأهل العلم، أن الجهاد في سبيل الله بمعناه الواسع، بذل كل الطاقات المادية والفكرية والنفسية، وتسخيرها كلها للدعوة إلى الله: فكان التعلم والتعليم، ونشر العلم والتأليف، وإصلاح المجتمعات، وبر الآباء والأمهات، ونشر الوعي الديني، وتثقيف الجاهل، وتنبيه الغافل، وإنصاف المظلوم، والانتصاف من الظالم، وإقامة الحق، ودحر الباطل، كل ذلك من الجهاد في سبيل الله، إذا ابتغيت به مرضاة الله، واتجهت به القلوب إلى علام الغيوب.

فرأينا في هذه الغزوة، كيف استنفر النبيّ ﷺ صحابته للجهاد، فنفروا مستجيبين، إلا المنافقين، وبعض المعذّرين من الأعراب. ولما حثهم على النفقة في سبيل الله تسابقوا لتجهيز الجيش بالمال والجمال ـ كما رأينا ـ . . . وبكى الضعفاء الذين لا يجدون الظهر ليحملهم في السفر الطويل، ولا النفقة على أنفسهم فيه؛ لبثوا في المدينة متعلقين بإخوانهم المجاهدين، متصلين بهم قلبياً، يدعون لهم، ويذكرون جهادهم وبلاءهم، وصبرهم وجلادهم، كأنهم معهم، كلما هبطوا الوديان، أو صعّدوا في التلال، أو ساحوا في المفازات. . . يحسون بجوعهم كلما جاعوا، ويظمأون لظمئهم كلما ظمئوا؛ إنهم مع المجاهدين في النزول والترحال، وفي الصيال والقتال، بل إنهم مجاهدون بحالهم تلك، ما منعهم من الامتزاج بالمجاهدين إلا الفاقة، ولم يقعدوا مع القاعدين، ولم يتلبثهم مال ينمى، ولا بستان مُثَمَّر، ولا نخل ثقلت عراجينه، ولا عنب حلت عناقيده. . .

فلذلك قال فيهم النبيّ ﷺ ـ لما دنا من المدينة، عائداً من تبوك ـ : «إن

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

في المدينة أقواماً، ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، فقالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[1].

فهؤلاء مجاهدون بنياتهم؛ ولولا أنهم حبسهم العذر، وتخلفوا راغمين «تفيض أعينهم من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون» لكانوا في طليعة الصف المقاتل. وفي مثلهم يصدق فيهم هذا الحديث: «... ومن هم بحسنة، فلم يعملها، كتبت له حسنة كاملة»[2].

وعلى هذا، فالمتخلف عن الجهاد لعذر، كالمجاهد، في المثوبة.

ومن هنا نص الفقهاء على أن من تخلف عن صلاة الجماعة، لعذر من أعذارها المبيحة للتخلف، وكانت نيته حضورها، يحصل له ثوابها.

اللهم فاجعل نيتنا خيراً من علانيتنا، واجعل اللهم علانيتنا صالحة.

٣ ــ تجهيز الجيوش من بيت المال، أو من أموال المسلمين، أو تبرعاً أو بإيجاب الحاكم:

الأصل أن إعداد الجيش المسلم موكول إلى حاكم المسلمين، بما يكون في بيت المال.

فإذا خلا بيت المال، أو عجز عن إمداد الجيش بالمال الكافي، ندب الحاكم المسلمين للتصدق تطوعاً بأموالهم، لما يسد العوز، ويكفي حاجة الجيش.

وهذا ما فعله الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ كما رأينا في هذه الغزوة، فقد خصهم النبيّ ﷺ على النفقة لتجهيز الجيش المعسر، بما يتيسر لديهم، من مال وجمال؛ فقدم الأغنياء الكثير مما يملكون، من صامت وناطق؛ وقدم عثمان

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والدارمي.

ـ رضي الله عنه ـ ثلاثمائة بعير بأكسيتها؛ ومعها ألف دينار من الذهب. وتطوع عمر بنصف ماله، وأخرج الصديق ماله كله صدقة في سبيل الله؛ وكفى ذلك تجهيز الجيش المقاتل.

فلو فرض أن بيت المال كان خاوياً؛ أو ليس فيه ما يكفي لإعداد العدة؛ ولم تكف التطوعات، أو لم يتطوع الناس بما يكفي؛ فهل للحاكم أن يفرض على الناس ما يجهز به الجيش.

المقرر في الفقه أن بيت المال هو الجهة المختصة لإمداد الجيش المسلم بالزاد والعتاد، والقوة اللازمة للدفاع عن البلاد؛ وأن أموال الناس مصونة، ليس للحاكم أن يأخذ منها شيئاً إلا بحق ثابت معروف، وليس له أن يفرض عليهم شيئاً في أموالهم، وفي بيت المال غناء، أو فيه ما ينفق في شؤون تكميلية أو تحسينية، أو مكروهة أو غير مشروعة. وإنما يقتصر أخذ المال من الرعية فيما نحن فيه، وهو تجهيز الجيش، على قدر الضرورة، وتتمثل في الآتي من الشروط:

١ ـ أن لا يكون في بيت مال المسلمين، ما يكفي لإعداد الجيش اللازم.

٢ ـ أن لا يكون في بيت المال ما ينفق في الفضول والنوافل وغير المشروع.

٣ ـ أن يكون المفروض خاصاً بالأغنياء الواجدين، لا أهل الفاقة الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم.

٤ ـ أن يكون المفروض من مال الأغنياء نسبة معينة لا تزيد على نصف ما يملكون.

ففي هذا يقول الشاطبي ـ رحمه الله ـ في موافقاته؛ ما نصه:

«إذا قررنا إماماً مطاعاً، مفتقراً إلى تكثير الجند، وسد الثغور، وحماية الملك المتسع الأقطار، وخلا بيت المال، وارتفعت حاجات الجند إلى ما لا يكفيهم؛ فللإمام إذا كان عدلاً أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في

الحال، إلى أن يظهر بيت المال. ثم إليه النظر في توظيف ذلك على الغلات والثمرات وغير ذلك.

وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين، لاتساع بيت المال في زمانهم، بخلاف زماننا؛ فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك النظام، بطلت شوكة الإسلام، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار».

وكلام الشاطبي هذا يتأسس على القاعدة الفقهية التي يقول بها جميع الفقهاء المذهبيين، وهي أنه: «يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام»؛ وعلى القاعدة الفقهية الأخرى، وهي أنه: «إذا تعارضت مفسدتان، روعي أعظمها ضرراً، بارتكاب أخفهما».

وكذلك ينص حجة الإسلام الإمام الغزالي ــ رحمه الله تعالى ــ في سياق حديثه في مستصفاه عن المصلحة المرسلة، على أنه:

«إذا خلت أيدي الجنود من الأموال، ولم يكن من مال المصالح ما يفي بنفقات العسكر، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الإسلام، أو ثوران فتنة من قبل أهل الشر ــ جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند؛ لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران، قصد الشرع دفع أشد الضررين، وأعظم الشرين».

فتبين من هذا العرض أن الأصل في إعداد القوة المقاتلة إناطته ببيت المال؛ ولا تطالب الأمة بالإعداد إلا عند عجز بيت المال، فإن أعدت طائعة، فبها، وإلا كان للحاكم أن يفرضه عليها ــ كما رأينا ــ .

ويروى عن الإمام أحمد ــ رضي الله تعالى عنه ــ أن وجوب الجهادِ بالمال، كوجوب الجهاد بالنفس، فقد قرن بالجهاد في النفس في كل موضع إلا موضعاً واحداً؛ مما يدل على أن الجهاد به آكد، فإن لم يقدر على الجهاد بالنفس بذل المال؛ ولا يتم الجهاد إلا بهما.

٤ ـ لا شيء مثل الجهاد بالمال والنفس يفضح النفاق، ويهتك ستر المنافقين:

يعتبر الجهاد هو المحك الذي يتجلى به صدق المؤمن، وكذب المنافق؛ لأنه يرتكز أساساً على بذل النفس والمال في سبيل الله؛ ولا يسخو بهما إلا أهل الإيمان، فإنهم يبذلونهما طيبة بهما أنفسهم، راجين الثواب المذخور، والأجور عند رب العالمين.

أما المنافقون، فأشد الناس ضناً بمالهم وبأنفسهم؛ وأنى لهم أن يبذلوهما فيما لا يؤمنون به، ولا يذعنون له، ولا يجدون له مكاناً في قلوبهم؛ بل فيما ينكرونه، ويتربصون به الدوائر!!.

لهذا رأينا المسلمين يتسابقون إلى التطوع في الجيش المسلم المقاتل، وفي بذل المال لإعداده، ويبكي فريق منهم بدموع سحاء، لأنه لا يجد ما ينفق، ولا ما يحمله إلى تبوك...

ورأينا المنافقين يعتذرون عن الخروج للجهاد مع المسلمين، بأعذار، بعضها مقبول ـ في الظاهر ـ وبعضها قبيح، وبعضها فاضح نفاقهم، كالذي كان من ابن أبي بن سلول، ذلك الذي رجع بجماعته الكثيفة، قافلاً إلى المدينة، ولما يجاوزها إلا قليلاً.

وذلك طبعي من أهل النفاق، فكيف يجاهد من لا يؤمن بقضية الجهاد، ولا يفكر بهدف المجاهدين، بل يعمل على محو تلك الأهداف، ويستهدف ما يناقضها.

لذلك كانت غزوة تبوك الفيصل الذي ميز المؤمنين المجاهدين، من المنافقين القاعدين، ونزلت الآيات القرآنية الكثيرة في سورة التوبة ـ وهي من أواخر ما نزل ـ تميط الأستار، وتكشف الأسرار، وتشير إلى أمارات النفاق،

وتحذر المؤمنين من المنافقين، الذي لا يقصرون في إفساد أمر المسلمين، وإلقاء بذور الفتنة فيهم، والله عليهم بما يحيكون من مؤامرات لنسف الإسلام واستئصال المسلمين، بل لقتل الرسول نفسه. فقد ذكر ابن إسحاق ونقل ابن القيم ــ رحمه الله ــ عن مغازي أبـي الأسود، وعن ابن إسحاق، أن اثني عشر نفراً من المنافقين، هموا بقتل الرسول ﷺ في منصرفه من تبوك، حتى إذا اطلع في العقبة طرحوه منها. وقد أخبره الله سبحانه بأسمائهم، وأخبر هو حذيفة وعماراً بهم، وسماهم لهما، وقال: اكتماهم. وقد ماتوا محاربين لله ورسوله، وهذا قوله تعالى في كتابه: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾(١).

واستمع إلى هذه الآيات الكريمة، لترى كيف فضح القرآن أكاذيبهم، وكشف عن نواياهم الخبيثة، ومكرهم السيِّىء، وكيف كانت التوصيات الربانية حيالهم:

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٢).

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾(٣).

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾(٤).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾(٥).

---

(١) سورة التوبة: الآية ٧٤.

(٢) نفسها: الآيتان ٤٥ و٤٦.

(٣) نفسها: الآية ٥٠.

(٤) نفسها: الآية ٥٤.

(٥) نفسها: الآية ٥٦.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾(١).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾(٢).

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ . . . ﴾(٣).

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾(٤).

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾(٥).

﴿ ۞ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾(٦).

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ

---

(١) نفسها: الآية ٦١.
(٢) نفسها: الآية ٦٥.
(٣) نفسها: الآيات ٧٥ ــ ٧٧.
(٤) سورة التوبة: الآية ٨١.
(٥) نفسها: الآيات ٨٣ ــ ٨٥.
(٦) نفسها: الآية ٩٤.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾[1].

وهكذا، ينبش الإسلام خبايا المنافقين، ويتوعدهم، وينبه المسلمين ويوجههم إلى ما ينبغي أن يتخذوه من المواقف بالنسبة إلى تحركاتهم وتخطيطاتهم، ليأخذوا منهم حذرهم، فلا يطمئنوا إلى مظاهرهم، ولا يركنوا إلى ما يقولونه بألسنتهم: ومع ذلك لا يُكَفِّرونهم ما داموا ينطقون بكلمة الإسلام، ويصلون مع المسلمين، عملاً بظاهرهم، لأن أمر البواطن موكول إلى علام الغيوب، الذي قال فيهم: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾[2].

وهذا هدي الإسلام، أن يعامل الناس وفق ظواهرهم، ولا يؤخذوا بالظن والريبة، ولا يكفروا بالاجتهاد، استدلالاً بالمواقف والمعاصي على ما تخفيه الصدور؛ لأن في ذلك إشاعة للفوضى الدينية، وبذراً للشر والفساد وتفتيتاً لوحدة الصف في المجتمع المسلم؛ وإنما يكون التكفير باعتقاد خلاف المشروع، والمروق من الدين، وإعلان الردة والكفر الصريح.

ولهذا أيضاً لم يقتل النبيّ ﷺ المنافقين، إذ كان حريصاً على تأليف القلوب، وجمع الكلمة عند النصر؛ وفي قتلهم تنفير من الإسلام، وتصديع بنائه. وفي المسلمين سماعون لهم.

٥ ـ من أعظم المعاصي التخلف عن الجهاد مع المسلمين:

نص الفقهاء على أن إمام المسلمين إذا استنفر الجيش، لزم المسلمين النفير، ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه ـ كما حدث هنا في تبوك ـ وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنهما ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ

(١) نفسها: الآية ٩٥.

(٢) نفسها: الآية ٧٨.

﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾[1] أنه قال: «كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ فلما حضر رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد؛ وكان يمر النبيّ ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم؛ فلما رآهم قال: «من هؤلاء الموثقون أنفسه بالسواري»؟ قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له، تخلفوا عنك يا رسول الله! أوثقوا أنفسهم حتى يطلقهم النبيّ ﷺ ويعذرهم. قال: «وأنا أقسم بالله، لا أطلقهم ولا أعذرهم، حتى يكون الله هو الذي يطلقهم، رغبوا عني، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين»؛ فلما بلغهم ذلك، قالوا: ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا. فأنزل الله ــ عزّ وجلّ ــ : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ﴾[2] فأرسل إليهم النبيّ ﷺ فأطلقهم وأعذرهم.

فجاؤوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله! هذه أموالنا، فتصدق بها عنا، واستغفر لنا، فقال: «ما أُمرت أن آخذ من أموالكم» فأنزل الله تعالىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[3]. فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم»[4].

ومن هذا يتضح مبلغ معصية التخلف عن الغزو المشروع، والجهاد في سبيل الله. ولما استيقن هؤلاء الصحابة الذين تخلفوا ضخامة الإثم الذي ارتكبوه، هُرعوا يعاقبون أنفسهم، فأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد، وحبسوها؛ حتى كانت زوجاتهم وأهلوهم يأتون إليهم بالطعام، وهم على هذه الحال؛ ولا يطلقون أنفسهم من الوثاق إلا للصلاة.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٢.

(٢) نفسها: الآية ١٠٢.

(٣) نفسها: الآية ١٠٣.

(٤) رواه الدارمي.

فأين المسلمون اليوم من هذا التصور البعيد، والتقويم الصحيح، لمنزلة الجهاد في الشريعة؛ إن معظمهم لا يفكر في الجهاد، ولو فكر لا يعزم عليه، ولو عزم لما لبث أن ألقى المعاذير، وأخلد إلى الأرض، وآثر القعود، ودفع النقود، ليُعفىٰ من الجهاد.

فمن هنا ضربوا بالذلة، وغزاهم عدوهم في ديارهم، واحتل مقدساتهم، ونفاهم من: «عقر ديار المؤمنين»[1]، التي رواها أولئك الصحابة الأمجاد بدمائهم الزكية، فاستعمرها واستوطنها، وشرد أهلها في الآفاق، في أقبح وأشنع جريمة سجلها التاريخ...

وصدق سيدنا عليّ ــ كرّم الله وجهه ــ في قوله: وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فما ترك قوم الجهاد إلا غزوا في عقر دارهم.

٦ ــ استخلاف سيدنا علي في المدينة في غزوة تبوك لمهمة خاصة لا تدل على استخلافه في الحكم:

يجب على الإمام إذا سافر أو غزا، أن يستخلف على الرعية من يقوم بها في غيبته.

وفي كل غزوة غزاها رسول الله ﷺ كان يستخلف على المدينة أحد صحابته؛ وقد استخلف ابن أم مكتوم بضع عشرة مرة.

وفي غزوة تبوك استخلف اثنين من الصحابة:

استخلف سيدنا علياً ــ كرّم الله وجهه ــ في أهله، باعتبار قرابته ومصاهرته؛ فكان استخلافه في أمر خاص؛ وهو القيام بشأن أهله.

وقد روي عن سعد بن أبـي وقاص، أنه قال: خلّف رسول الله ﷺ علياً

(١) رواه الإمام أحمد بلفظ: «إن عقر ــ أصل ــ ديار المؤمنين الشام».

ـ رضي الله عنه ـ في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله! تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبـيّ بعدي»[1].

واستخلف محمد بن مسلمة الأنصاري، في الغزوة نفسها، استخلافاً عاماً.

فتعلق بعض الناس بأن استخلاف علي يشير إلى خلافته من بعده؛ ولا صحة لهذا التشبث، لأن خلافته كانت في أهله خاصة، ولو صح ذلك لكان ابن أم مكتوم، ومحمد بن مسلمة أحق بالخلافة، ولا قائل به.

كما أرجف المنافقون باستخلاف علي هذا، وقالوا: إنما خلفه استثقالاً؛ فأخذ سلاحه، ثم لحق بالنبـيّ ﷺ وأخبره بذلك، فقال: «كذبوا، ولكن خلّفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك»[2].

إنه لا يصح في شرع الله، تحميل نصوص هذا الدين أكثر من مدلولاتها العربية عند أهل الفصاحة واللسن. وإنه لا يثقل هذه النصوص بما ليس منها بسبب، إلا مغرض أو مبطل: ذاك يطوعها ليفسرها على هواه؛ وهذا يفسدها بتجريدها من مقاصدها الشرعية، وأهدافها السامية.

٧ ــ من جوامع كَلِمِ النبـيّ ﷺ خطبته في تبوك:

روى الرواة، عن عقبة بن عامر، أنه قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك؛ فاسترقد رسول الله ﷺ ليلة، لمّا كان منها على ليلة؛ فلم يستيقظ فيها، حتى كانت الشمس قِيد رمح. قال: ألم أقل لك يا بلال اكلأْ لنا الفجر؟ فقال: يا رسول الله! ذهب بـي من النوم الذي ذهب بك. فانتقل رسول الله ﷺ من ذلك المنزل غيرَ بعيد، ثم صلى؛ ثم ذهب بقية يومه

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي.

وليلته، فأصبح بتبوك؛ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن؛ وخير الأمور عوازمُها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما ينفع، وخير الهُدى ما اتُّبع، وشر العمى عمى القلب؛ واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قل وكفى خيرٌ مما كثر وألهى؛ وشر المعذرة حين يحضر الموت، وشر الندامة يوم القيامة. ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دُبُراً، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجراً. ومن أعظم الخطايا اللسان الكذاب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكم مخافة الله ــ عزّ وجلّ ــ ، وخير ما وقر في القلوب اليقين، والارتيابُ من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من جُثا جهنم، والسُّكر كيٌّ من النار، والشِّعر من إبليس؛ والخمر جماع الإثم؛ وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه. وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى الآخرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الرَّوايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه؛ ومن يتألَّ على الله يكذِّبه، ومن يَغفر يُغفر له، ومن يعف يعف الله عنه؛ ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوّضه الله؛ ومن يبتغِ السُّمعة يسمِّع الله به، ومن يتصبر يُضعِف الله له، ومن يعص الله يعذبه الله» ثم استغفر ثلاثاً[١].

والحديث في جملته: جواهر مرصوفة من البلاغة النبوية، وحكم راسخة، وأحكام متأصلة؛ وأكثر ما جاء فيه ورد نظيره في الكتاب وصحيح الحديث:

(١) أخرجه البيهقي.

والذين حكموا بضعف الحديث، قصروا نظرهم على السند، وينبغي أن يكون الحكم بعد النظر في المتن أيضاً؛ على أنه لا يلزم من ضعف السند ضعف المتن، كما يقول أهل العلم.

٨ ـ يعامل أهل الذمة بمقتضى العقد، ما لم يحدثوا ما يضر بالإسلام:

ورد ـ كما تقدم ـ في عقد الصلح أهل أيلة «فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ماله دون نفسه».

ومعنى هذا أنه يجب الوفاء بعقد الذمة، ما لم يحدثوا ما يضر بالمسلمين، فإنه عندئذ ينتقض عهدهم، في المال والنفس، وللإمام أن يهدر عندئذ مالهم وأنفسهم؛ كما فعل النبـيّ ﷺ بعقد اليهود، من بني قريظة، وبني النضير، ومن قبلهما بني قينقاع، حيث إنهم نقضوا عهد الذمة، بتحرش هؤلاء بحجاب المرأة المسلمة، وهم الآخرين بقتل النبـيّ ﷺ وتمالؤ بني قريظة مع قريش والأعراب في غزوة الأحزاب على حرب المسلمين.

فكان أن نقض النبـيّ ﷺ عهودهم، فأجلى بني قينقاع عن المدينة، فذهبوا إلى أذرعات؛ وحاصر بني النضير حتى اضطرهم إلى الجلاء، فخربوا بيوتهم بأيديهم، ونقلوا أخشابها إلى خيبر وأذرعات في الشام. وبعد غزوة الأحزاب ـ حيث انتصر المسلمون، وارتد الأحزاب على الأدبار ـ رضي بنو قريظة بحكم سعد بن معاذ، فحكم بتقتيل رجالهم، وسبـي نسائهم وذراريهم؛ ونفذ النبـيّ ﷺ الحكم فيهم، وأعلن أن هذا حكم الله من فوق سبع سموات.

وهذه عواقب الغدر الطائش؛ الذي ينقض العهد، ويكسر المواثيق: إهدار الدماء، واستباحة الأموال، والترحيل عن الأوطان. ذلك لأن الذمي ـ كما يقول ابن القيم رحمه الله ـ : «بالإحداث صار محارباً، حكمه حكم أهل الحرب».

٩ ــ يجوز للحاكم تهديم أماكن المعاصي، وتحريقها:

يؤخذ ذلك من تحريق النبيّ ﷺ مسجد الضرار، وأمره اثنين من الصحابة بهدمه؛ مع أنه مسجد، تقام فيه الصلاة، ويذكر فيه اسم الله؛ لكنه بني للتفريق بين المؤمنين، والضرر بالمسلمين، وليكون مجمَّع المنافقين.

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ : وكل مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيله، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته، وإخراجه عما وُضع له.

وإذا كان هذا شأن مسجد الضرار، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتُها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله، أحق بالهدم وأوجب.

وكذلك محال المعاصي والفسوق، كالحانات، وبيوت الخمارين، وأرباب المنكرات..

وقد حرق عمر بن الخطاب قرية بكمالها يباع فيها الخمر؛ وحرق حانوت رويشد الثقفي، وسماه فويسقا؛ وحرق قصر سعد بن أبي وقاص عليه، لما احتجب فيه عن الرعية، وهم رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمع:

ففي الحديث «عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال: والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً يؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال، فأحرق عليهم بيوتهم»[(١)].

لكنه هم ولم يفعل ما همّ به، لما في البيوت من الذرية والصغار والنساء، وذوي الأعذار، ممن لا تجب عليهم الجمعة؛ كما جاء في بعض الروايات؛ ولهذا قالوا: إن الحديث لبيان تأكد طلب الجماعة وتحصيل سنيتها، لا لتبيان فرضيتها.

---

(١) متفق عليه.

١٠ ــ الرسول الخلوق المتواضع الرؤوف الرحيم بالمؤمنين يوسد بيديه الشريفتين أحد المجاهدين في قبره:

صدق الله ــ عزّ وجلّ ــ إذ وصف نبيه الكريم ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾(١). وقد أدبه ربه سبحان بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾(٢). فكان لطيفاً رفيقاً بأصحابه، لا يتعالى على أحد، ويُرْدِفُ بعضهم خلفه، ويشرب مما يشربون منه، ويقول: «اسقوني مما يشرب الناس»(٣). ويلتمس الدعاء من سيدنا عمر ويقول له: «لا تنسني من دعائك» وفي رواية: «يا أخي، يا عمر! أشركني بدعائك»(٤) واختار العبودية على الملكية وقال: «بل نبياً عبداً» وفي رواية: «لا، بل عبداً رسولاً»(٥). وكان يقول: «آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

ومن خلقه وتواضعه، ورأفته بأصحابه هذا الحادث العظيم، الذي يصور رأفته وتواضعه وتسويته نفسه بأصحابه أصدق تصوير؛ والذي يرويه ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن مسعود ــ رضي الله تعالى عنه ــ قال:

«قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر؛ قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر؛ وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إلي أخاكما؛ فدلياه إليه، فلما هيأه يشقُّه، قال: اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) سورة الحجر: الآية ٨٨.

(٣) رواه الإمام أحمد.

(٤) رواه أبو داود والترمذي.

(٥) رواه الإمام أحمد والطبراني وابن حبان.

عنه. قال (الراوي عن ابن مسعود): يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة».

وقال ابن هشام: وإنما سمي ذا البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد، ليس عليه غيره (والبجاد: الكساء الغليظ الجافي) فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه، شق بجاده باثنين، فاتزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين، لذلك.

أرأيت يا أخي، إلى بر النبيّ ﷺ بصحابته؟ أرأيت تكريمه لهم في حياتهم، وبعد مماتهم؟ إنها صورة فريدة يتيمة، فلن تجد في تاريخ الملوك والحكام، من يبرُّ ويتواضع إلى هذا المستوى، إلى حيث يوسد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير؛ ثم يلتمس له المرضاة من رب العالمين؛ أما هو فقد أعلن أنه أمسى راضياً عنه.

لكنه رسول الله، ومعلم الناس الخير، وسيد ولد آدم، وإمام المتقين، وعميد المربين. فصلى الله تعالى وسلم عليه تسليماً كثيراً، وجزاه خير ما يجزي نبياً عن أمته وصحابته وإخوانه.

١١ ـــ دلائل النبوة والمعجزات تساير النبيّ ﷺ في تبوك:

نضحت تبوك بمعجزات، أكرم الله بها نبيه ﷺ زادت المؤمنين إيماناً، واستكبر عنها المنافقون، فزادتهم جحوداً وعتواً.

الأولى: الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه بالسقيا:

لما جاوز النبيّ ﷺ حِجر ثمود، أصبح الناس ولا ماء لهم؛ فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ سحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

فتحدث ابن إسحاق عمن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمه، وفي عشيرته: ثم يلبس بعضهم بعضاً على ذلك.

ثم قال محمود: لقد أخبرني رجال من قومي، عن رجل من المنافقين معروف نفاقه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار؛ فلما كان من أمر الناس بالحِجر ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، قالوا: أقبلنا عليه ونقول: يحك! هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة.

الثانية: النبـيّ يخبر عن ناقته الضالة، في شعب، حبستها شجرة بزمامها:

لما كان رسول الله ﷺ سائراً في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته؛ فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم، وكان عقبيّاً بدرياً، وهو عم بني عمر بن حزم؛ وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال ابن إسحاق، بسنده: فقال زيد بن اللصيت، وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبـيّ؟ ويخبركم عن السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده: إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبـيّ، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله؛ وقد دلني الله عليها؛ وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاؤوا بها.

فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حَدَّثَناه رسول الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن

اللصيت. فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسولَ الله ﷺ: زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي. فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليّ عباد الله، إن في رحلي لداهية، وما أشعر؛ اخرج، أَيْ عدو الله من رحلي، فلا تصحبني.

هكذا يطلع الله نبيه على الغيب، وينكشف بذلك بعض أهل النفاق، المندسين في المسلمين، كما يندس الزُّوان في القمح.

فقال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك؛ وقال بعض الناس: لم يزل مُتَّهَماً بشرٍّ حتى هلك.

الثالثة: إخباره عن قادم أنه أبو ذر، وقوله: رحم الله أبا ذر: يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده:

لما مضى الرسول ﷺ في طريقه إلى تبوك، في تلك الظروف الجوية القاسية: من حر مشتعل، إلى لهب يشوي الوجوه. إلى عطش مميت... جعل يتخلف عنه بعض الرجال، فتقول الصحابة: يا رسول الله! تخلف فلان، فيقول: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه؛ حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلف أبو ذر. وأبطأ به بعيره، فقال له: دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

وتلوم أبو ذر (تمهل) على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً.

ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين؛ فقال: يا رسول الله! إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر (أي أرجو الله أن يكون أبا ذر). فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذر؛ فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.

فروى ابن إسحاق بسنده إلى عبد الله بن مسعود، قال:

لما نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة (موضع قرب المدينة)، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه؛ فأوصاهما أن اغسلاني وكفّناني، ثم ضَعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمر بكم فقولوا: هذا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

فلما مات، فعلا به ذلك، ثم وضعاه على قارعة الطريق؛ وأقبل عبد الله بن مسعود، في رهط من أهل العراق، عُمَّار (أي معتمرون) فلم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤها؛ وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه. قال: فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك.

ثم نزل هو وأصحابه، فواروه. ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه، وما قاله له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك.

الرابعة: الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ يبعث خالد بن الوليد في سرية إلى أكيدر حاكم دومة الجندل، النصراني، ويقول له: إنك ستجده يصيد البقر:

كان من بركات غزوة تبوك، أن نصارى العرب في شمال الجزيرة، الذين كانوا يعملون للروم، ويعتزون بهم، ضعفت ثقتهم بهم، لما جَبُن الروم عن ملاقاة المسلمين، وانصرفوا عن القتال.

واضطر هؤلاء الأمراء إلى مصالحة الرسول ﷺ: فصالحه صاحب أَيْلة، وأعطاه الجزية؛ وأتاه أهل جرباء وأذرح، وأعطوه الجزية، وكتب لهم بذلك كتاباً.

وتخلف حاكم دومة الجندل، وهو أُكيدر، فأرسل إليه النبيّ ﷺ خالد بن الوليد، في سرية فيها عشرون وأربعمائة فارس، ويقول البيهقي: كان الجيش مكوناً من المهاجرين، على رأسهم أبو بكر الصديق، وكان خالد على رأس الأعراب.

ولما أرسل رسول الله ﷺ هذه السرية، قال لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر» وهذا يعني أنه من الحاكمين المترفين الذين شغلهم اللهو عن الجد، ومقارعة الأبطال.

فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته؛ فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر؛ فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا (الصيد) قط؟ قال: لا والله! قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد.

فنزل فأمر بفرسه، فأُسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ يقال له: حسّان، فركب، وخرجوا معه بمطاردهم. فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته، وقتلوا أخاه، لأنه قاومهم، وكان على أُكيدر قباء من ديباج، مُخَوَّص بالذهب؛ فاستلمه خالد، فبعثه سريعاً إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه (مشيراً إلى ظفره بأكيدر).

وتحدث الرواة عن أنس قال: رأيت قباء أكيدر، حين قُدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم، ويتعجبون منه؛ فقال رسول الله ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا.

قال ابن إسحاق: ثم إن خالداً قدم بأُكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه (حفظ له نفسه) وصالحه على الجزية، ثم خلّى سبيله، فرجع إلى قريته؛ وكان ــ كما قال الواقدي ــ وهو ومن معه على الذمة.

وسجل بُجَير بن بُجَيرة الطائي هذه المعجزة بقوله:

تبارك سائق البقرات إني ... رأيت الله يهدي كل هاد
فمن يَكُ حائداً عن ذي تبوك ... فإنا قد أُمرنا بالجهاد

الخامسة: الرسول يخبر عن راكب بعيد مقبل قائلاً: كن أبا خيثمة:

وكان أبو خيثمة ممن تخلف أول الأمر عن مسيرة الغزاة أياماً؛ فحدث أنه رجع إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له، في عريشين لهما في حائطه (بستانه) قد رشت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاماً.

فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضِّح (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف!.

ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناضحه (جمله) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

وكان قد أدرك أبا خيثمة، عُمير بن وهب الجُمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب:

إن لي ذنباً، فلا عليك أن تخلّف عني، حتى آتي رسول الله ﷺ؛ ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ كن أبا خيثمة؛ فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة.

فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة! (يعني كدت تهلك). ثم أخبر هو رسول الله ﷺ الخبر؛ فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير.

ففي هذا يقول أبو خيثمة:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيتُ التي كانت أعفّ وأكرما
وبايعتُ باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثماً ولم أَغْشَ مَحْرَما

تركتُ خضيباً في العريش وصِرمة صفـايـا كـرامـاً بُسْـرهـا قـد تَحَمَّمـا

(يريد أنه ترك في العريش نخلاً كثيرة الحمل، وتمراً أخذ يحلو ويسود):

وكنـت إذا شـك المنـافـق أَسْمحـتْ إلى الدين نفسي شطرَه حيث يَمَّما

السادسة: الله تعالى يفجر لنبيه من الماء القليل المنحدر من صخر مرتفع، بعد أن وضع فيه يديه الشريفتين، ما له حس كالصواعق:

لما عاد النبيّ ﷺ من تبوك، بعد بضع عشرة ليلة، أقامها فيها، لم يجاوزها ــ كما قال الرواة ــ شكا إليه أصحابه العطش، وقلة الماء؛ وهم يمشون في وادي المشقَّق، وسط صحراء مرملة، والشمس ترسل أشعتها كاللهب المشتعل، وما في الوادي من الماء إلا وَشَل (ماء قليل من جبل مرتفع) يروي الراكب والراكبين والثلاثة.

فقال رسول الله ﷺ من سبقنا إلى ذلك الوادي، فلا يستقينَّ منه شيئاً حتى نأتيه.

قال ابن إسحاق: فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه؛ فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه، فلم ير فيه شيئاً، فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: يا رسول الله! فلان وفلان؛ فقال: أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئاً، حتى آتيه؟ ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم.

ثم نزل، فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به، ومسحه بيده، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعوه به؛ فانخرق من الماء ــ كما يقول من سمعه ــ : ما إن له حساً كحس الصواعق؛ فشرب الناس، واستقوا حاجتهم منه. فقال رسول الله ﷺ: لئن بقيتم لتسمعن ــ أو قال: من بقي منكم ليسمعَنَّ ــ بهذا الوادي، وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه.

وفي رواية أنه قال لمعاذ: يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة، أن ترى ما هنا قد مليء جناناً.

هذا! وإن تفجير الماء، ببركة دعاء النبيّ ﷺ وابتعاثه له بمسه ونضحه،

تكرر في غير غزوة تبوك، كما في غزوة الحديبية، وكان الصحابة أربع عشر مائة، وبئرها لا تروي خمسين شاة فجاشت مياهها، فشربوا حتى رووا؛ وبذي المجاز، حين ضرب الأرض بقدمه لعمه أبـي طالب، فنبع الماء، فقال: اشرب، وفي غيرها، وهو كثير ـ كما يقول القاضي عياض ـ .

ألا إن نبع الماء، فجره الله تعالى لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ بعصاه، وفجره لنبينا سيدنا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيده؛ وإنه لمن نبع النبوة، أكرم الله به رسوله، ورسَّخ به الإيمان في قلوب المؤمنين، وفتن به ـ وبغيره من المعجزات ـ مرضى القلوب والمنافقين.

١٢ ـ ينبغي أن لا يغفل المسلمون عن مواطن العبرة في الأمم السالفة، كيلا يصيبهم ما أصابهم:

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري، أنه قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحِجر ـ ديار ثمود الطامسة ـ سجّى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا، إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وفي رواية أنه قال: «لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين، فلا تدخلوا عليهم، لا يصيبكم مثل ما أصابهم»(١).

بل وصّى النبـيّ ﷺ أصحابه أيضاً، حين مر بديار ثمود، قائلاً: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤوا منه للصلاة؛ وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً. . . «وستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم منكم أحد، ولا يخرجنَّ أحد منكم إلا ومعه صاحبه؛ فمن كان له بعير فليشد عقاله»(٢).

ففعل الناس ـ كما يروي ابن القيم ـ إلا أن رجلين من بني ساعدة، خرج

---

(١) هذه رواية البخاري ومسلم.

(٢) هذه رواية مسلم.

أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره: فأما الذي خرج لحاجته، فصرع في موضعه؛ والآخر فاحتملته الريح حتى طرحته بجبل طيِّء.

وأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: «ألم أنهكم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه؟ ثم دعا ـ كما ذكر ابن هشام ـ للذي صرع فشفي؛ وأما الآخر فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة».

وهكذا أراد النبـيّ ﷺ أن يوجه صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود، وأن يتذكروا بها غضب الله على الذين كذبوا رسوله، وأن لا يغفلوا عن مواطن العظة برسومها الدارسة، وأطلالها الطامسة؛ ونهاهم عن الانتفاع بشيء مما في ربوعها، حتى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة، وتخف الموعظة، بل أمرهم بالبكاء، وبالتباكي، تحقيقاً للتأثر بعذاب الله؛ ولو أنهم مروا بها كما نمر نحن بآثار السابقين، لتعرضوا لسخط الله؛ فإن الغابرين شهدوا المعجزات، ودلائل النبوات، وعاينوا العجائب، لكن قست قلوبهم، فاستهانوا بها، وحق عليهم العذاب، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، من نقمة الله وغضبه.

ألا إن الله ـ جلّ وعلا ـ ما قص علينا من أنباء الأمم الخالية، إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار؛ فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم التي نزل فيها سخط المولى، وعذابه الأليم، وجب أن تكون الموعظة أشد، والاعتبار أعمق، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغ. ولهذا تسجى النبـيّ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بثوبه لما مر بالديار الملعونة المسخوطة، واستحث خطا راحلته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم، إلا وأنتم باكون، خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم»(١).

اللهم اجعلنا من أهل الاعتبار، ولا تجعلنا من القساة الأشرار، ولا تجعلنا من الغافلين، ولا من المستهترين، ولا من المستهزئين، يا رب العالمين.

---

(١) رواه الإمام أحمد وهو كذلك في ابن هشام.

١٣ ــ يعفو الله عن بعض المنافقين إذا تاب من نفاقه وحسنت توبته:

كان رهط من المنافقين، يشير إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، يقول بعضهم لبعض: أتحسبون أن جلاد بني الأصفر (يعني قتال الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرَّنين في الجبال؛ وذلك إرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

وكان من هؤلاء الرهط وديعة بن ثابت، ومُخَشِّن بن حُمَيِّر؛ ويقال له أيضاً: مَخْشِيٌّ؛ لكن هذا قال للرهط نادماً: والله لوددتُ أني أُقاضى على أن يُضرب كل منا مائة جلدة؛ وإنا ننفلتُ أن ينزل فينا قرآن، لمقالتكم هذه.

وعرف رسول الله ﷺ ذلك الإرجاف والتثبيط منهم، فقال لعمار بن يسار: أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا (أي هلكوا بسبب مقالتهم) فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قلتم: كذا وكذا.

فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك؛ فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه.

فقال وديعة: كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾[1].

وقال مخشي: يا رسول الله! قعد بي اسمي واسم أبي؛ قال ابن هشام وابن القيم: فكان الذي عفي عنه في هذه الآية (أي في قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾[2]). وتسمى بعد ذلك: بعبد الرحمن، وسأل الله ــ تعالى ــ أن يقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه؛ فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر.

• • •

(١) سورة التوبة: الآية ٦٥.

(٢) سورة التوبة: الآية ٦٦.

حديث المخلَّفين في تبوك

كان هؤلاء ثلاثة رهط من المسلمين، تخلفوا عن غزوة تبوك، من غير شك ولا نفاق. وهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية؛ فلما قدم النبـيّ ﷺ عائداً من تبوك، قال لأصحابه: لا تُكَلِّمُنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة.

وقصَّ كعب بن مالك حديث تخلفه هو وصاحبيه في قصة شيقة طريفة، تعتبر في حد ذاتها ــ على أنها صحيحة رواها الثقات من المحدثين والمؤرخين ــ من روائع البيان وفن القصة، في الأدب العربـي.

قال كعب بن مالك: ــ كما روى ابن إسحاق حديثه بسنده إليه ــ :

«ما تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط؛ غير أني كنت قد تخلفت عنه في غزوة بدر؛ وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً تخلف عنها؛ وذلك أن رسول الله ﷺ إنما خرج يريد عير قريش، حتى جمع الله بينه وبين عدوه على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ العقبة، وحين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هي أذكر في الناس منها.

قال: كان من خبري، حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة؛ ووالله ما اجتمعت لي راحلتان قط حتى اجتمعتا في تلك الغزوة.

وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، واستقل غزو عدد كثير؛ فجلّى للناس أمرهم، ليتأهبوا لذلك أهبته، وأخبرهم خبره بوجهه الذي يريد؛ والمسلمون مَن تبع رسول الله ﷺ كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ، يعني بذلك الديوان؛ يقول: لا يجمعهم ديوان مكتوب؛ قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب، إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحي من الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار، وأُحِبَّت الظلال، فالناس إليها صُعْرٌ (مائلون)؛ فتجهز رسول الله ﷺ وتجهز المسلمون معه؛ وجعلت أغدو لأتجهز معهم، فأرجع ولم أقض حاجة، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بـي حتى شمّر الناس بالجد، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً، والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً؛ فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحق بهم؛ فغدوتُ بعد أن فصلوا (ذهبوا) لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئاً؛ ثم غدوت فرجعت ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل ذلك يتمادى بـي حتى أسرعوا. وتفرّط (فات) الغزو؛ فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم أفعل؛ وجعلت إذا خرجت في الناس، بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، يحزنني أنني لا أرى إلا رجلاً مفحوصاً (مطعوناً) عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال ــ وهو جالس في القوم بتبوك ــ : ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله! حبسُه برداه، والنظر في عِطفيه (جانبيه)؛ فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا منه إلا خيراً؛ فسكت رسول الله ﷺ.

فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجّه قافلاً من تبوك، حضرني بثّي (حزني) فجعلت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سَخطة رسول الله ﷺ غداً؟

وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي؛ فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أطل (أشرف) قادماً، زاح عني الباطل، وعرفت أني لا أنجو منه إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه.

وصبَّح رسول الله ﷺ المدينة؛ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس. فلما فعل ذلك، جاءه المخلَّفون، فجعلوا يحلفون له ويعتذرون؛ وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وأيمانهم، ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى.

حتى جئت فسلمت عليه، فتبسم تبسم المغضَب، ثم قال لي: تعاله، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلَّفك؟ ألم تكن ابتعتَ ظهرك؟ قال: قلت: إني ــ يا رسول الله ﷺ ــ واللَّهِ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً؛ ولكن والله، لقد علمت، لئن حدثتك اليوم حديثاً كذباً، لترضينَّ عني، وليوشكنَّ الله أن يسخطك علي؛ ولئن حدثتك حديثاً صدقاً تجدُ علي فيه (تحزن) إني لأرجو عُقباي من الله فيه؛ ولا والله ما كان لي من عذر؛ والله ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسر منِّي حين تخلفت عنك.

فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى يقضي الله فيك.

فقمتُ، وثار معي رجال من بني سَلِمة، فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنَبت ذنباً قبل هذا؛ ولقد عجزتَ أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذَر به المخلَّفون، قد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا بي حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي؛ ثم قلت لهم: هل لقي هذا أحد غيري؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك؛ قلت: من هما؟ قالوا: مُرارة بن الربيع العَمْري، من بني عمرو بن عوف، وهلال بن أمية الواقفي؛ فذكروا لي رجلين صالحين، فيهما أسوة؛ فصمتُّ حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، أيها الثلاثة، من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرتْ لي نفسي والأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة؛ فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما؛ وأما أنا فكنت أَشَبَّ القوم وأجلدهم؛ فكنت أخرج، وأشهد الصلوات مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، ولا يكلمني أحد؛ وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام عليَّ أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر؛ فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني.

حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسورتُ (علوت) جدار حائط أبـي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فسكت عني، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم؛ ففاضت عيناي، ووثبت فتسورت الحائط، ثم غدوت إلى السوق؛ فبينا أنا أمشي بالسوق، إذا نبطي (فلاح) يسأل عني من نبط الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فجعل الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني، فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان، وكتب كتاباً في سَرَقة (قطعة) من حرير، فإذا فيه: «أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ولا مَضْيعة، فالحقْ بنا نُواسِك».

قال: قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ بـي ما وقعتُ فيه، أن طمع فيّ رجل من أهل الشرك. قال: فعمدت بها إلى تنّور، فسجرته (ألهبته) بها.

فأقمنا على ذلك، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك. قال: قلت: أطلّقها أم ماذا؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها؛ وأرسل إلى صاحبـي بمثل

ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض.

قال: وجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ؛ فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع، لا خادم له، أفتكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك؛ قالت: والله يا رسول الله! ما به من حركة إليّ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا؛ ولقد تخوفت على بصره.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؛ قال: فقلت: والله لا أستأذنه فيها، ما أدري ما يقول رسول الله ﷺ لي في ذلك، إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب.

قال: فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا.

ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، على الحال التي ذكر الله منا: قد ضاقت عليّ الأرض بما رحبت، وضاقت عليَّ نفسي؛ وقد كنت ابتنيتُ خيمة في ظهر سَلْع (جبل) فكنت أكون فيها، إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر؛ قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء الفَرَج.

قال: وآذن رسول الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا، حين صلى الفجر؛ فذهب الناس يبشروننا، وذهب نحو صاحبيّ مبشرون، وركض رجل إليّ فرساً، وسعى ساع من أسلم، حتى أوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس؛ فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت ثوبيّ، فكسوتهما إياه بشارة، والله ما أملك يومئذ غيرهما؛ واستعرت ثوبين فلبستهما.

ثم انطلقت أتيمم (أقصد) رسول الله ﷺ، وتلقاني الناس يبشرونني بالتوبة،

يقولون: لِيَهنِكَ توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، ورسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله، فحيَّاني وهنأني، ووالله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره؛ قال: فكان كعب بن مالك لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمتُ على رسول الله ﷺ قال لي: ووجهه يبرق من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك؛ قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: بل من عند الله؛ قال: وكان رسول الله ﷺ إذا استبشر، كأن وجهه قطعة تمر؛ قال: وكنا نعرف ذلك منه.

قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله! إن من توبتي إلى الله ــ عزّ وجلّ ــ أن أنخلع من مالي، صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قال: قلت: إني مُمْسك سهميَ الذي بخيبر؛ وقلت: يا رسول الله! إن الله قد نجّاني بالصدق، وإن من توبتي إلى الله أن لا أحدّث إلا صدقاً ما حييت. واللّهِ ما أعلم أحداً من الناس أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرت لرسول الله ﷺ ذلك أفضلَ مما أبلاني الله؛ واللّهِ ما تعمّدت من كَذبة منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله ــ تعالى ــ فيما بقي.

وأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[1].

قال كعب: فوالله ما أنعم الله عليّ نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، كانت

(١) سورة التوبة: الآيات ١١٧ ــ ١١٩.

أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا؛ فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال في الذين كذبوه، حين أنزل الوحي، شرّ ما قال لأحد، قال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

قال كعب: وكُنا خُلِّفنا أيها الثلاثة، عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ، حين حلفوا له فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا، حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾[2].

وليس الذي ذكر الله من تخليفنا، لتخلفنا عن الغزوة، ولكن لتخليفه إيانا، وإرجائه أمرنا، عمن حلف له، واعتذر إليه، فقبل منه»[3].

في حديث كعب بن مالك هذا، دروس ومبادىء كثيرة متنوعة نذكر من أهمها.

١ ـ النجاة في الصدق:

لم يشأ كعب بن مالك أن يسلك مسلك المنافقين، الذين انتحلوا الأعذار للنبيّ ﷺ في تخلفهم عن الغزو، مع أن النبيّ ﷺ قبل اعتذارهم، ووَكَلَ سرائرهم إلى الله. . . وكان ـ كما تحدث عن نفسه ـ قد أوتي جدلاً وحظاً كبيراً من البيان. لقد آثر الصدق، وأنه تخلف من غير عذر، وتحمل تبعات صدقه، وكم كانت شاقة؛ ولم يأسف لذلك؛ بل فرح بتوبة الله سبحانه وتعالى عليه بعد ذلك فرحاً، وصفه له النبيّ ﷺ بأنه خير يوم مر عليه منذ ولدته أمه؛ وردَّ ذلك كعب إلي أنه

---

(١) نفسها: الآيتان ٩٥ و ٩٦.

(٢) نفسها: الآية ١١٨.

(٣) حديث كعب هذا بطوله متفق عليه رواه البخاري ومسلم وغيرهما. وهذا نص رواية محمد بن إسحاق.

صدق رسول الله ﷺ، بل صرح بأن صدقه حينئذ كان أعظم ما أنعم الله عليه بعد الإسلام؛ فهو الذي كانت به نجاته، وهو الذي كان سبب توبة الله تعالى عليه، وهو الذي تنزل من أجله في شأنه قرآن يُتلى؛ ولهذا اتخذه سبيل الحياة.

فأين هذا من كذب المنافقين، الذين تنزل القرآن بسببه ينعتهم بأقبح ما تنعت به الأفعال، ويقرر مصيرهم بالاستقرار في جهنم، ويعلن سخط الله عليهم.

ألا إن الصدق من خير خصال المسلم؛ وإن الكذب من أبرز خلال المنافق.

لا جرم لذلك قال النبيّ ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»[1].

وما أجمل ختم رب العالمين توبته على كعب ومن معه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[2].

٢ ـ مشروعية هجر المتخلفين عن الجهاد، والعاصين له:

رأينا كيف أن النبيّ ﷺ نهى الصحابة عن تكليم الثلاثة، كعب وزميليه، بل السلام عليهم، حتى كان كعب يتشكك في أن النبيّ ﷺ رد السلام عليه، ويقول: هل حرك شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟

وكان ذلك الهجر المجمع عليه من المجتمع المسلم الصالح، وهو مجتمع خير القرون، عقوبة على التخلف عن الجهاد في سبيل الله، بغير عذر، وإنها لمعصية كبيرة في نظام الإسلام، بل عدها النبيّ ﷺ من الكبائر المهلكات الموبقات، بقوله: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والمتولي يوم الزحف ـ (أي يوم ازدحام الطائفتين) ـ وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3].

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١٩.

(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

وهذا لأن الإعراض عن الجهاد، وقت التقاء الصفين، المسلمين والكفار، هو نكوث عن إعلاء كلمة الله، وتخذيل للمسلمين، وتقليل لعددهم، وتقصير في عونهم، بل هو بمثابة عدم الاكتراث بموقفهم المجيد السامي، الذي اعتبره الإسلام القمة في الشعائر؛ فقال النبيّ ﷺ: «... رأس الأمر كله الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[1].

لهذا جعل الإسلام من عقوبة من نكص عن الجهاد، هذا الهجر المطبق من المجتمع كله، لأن الناكص انفرد بنفسه عن جماعة المسلمين المقاتلة، واستأثر بحياته أن يبذلها كما بذلها الآخرون، فكانت عقوبته هذا العزل الرهيب، والمقاطعة الإجماعية، التي تعدت الأمة وجاوزتها إلى الأسرة، في أخص خصال الزوجية.

وآتت هذه العقوبة التربوية النبوية ثمرتها، بعد أن طبقت أحزم وأحسن تطبيق، حين تاب الله على كعب ومن معه؛ وكانت نموذجاً يحتذى في التحذير من التخلف عن الغزو، ومن القعود عند النفير العام.

/ وليس الأمر في الهجر، عند أهل العلم، مقصوراً على التخلف عن الجهاد، بل هو بحيث يعم كل معصية تتعدى بضررها الشخص العاصي، إلى المجتمع، وتمسه بأذاها: فالمبتدع والظالم والمتجسس والخائن والكذوب والمنافق والمرابي ونحوهم، ممن تتجاوز معاصيهم أنفسهم إلى المجتمع المسلم، لا يختلف العلماء من أهل السلف، في إعلان هجرهم، وإظهار بغضهم، في ذات الله.

فأما البغض والهجر للمصالح الدنيوية ــ كما هو أكثر الشأن في المسلمين اليوم ــ فهو حرام بالنص: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث...»[2].

وكان من اجتهاد بعض السلف، هجر العصاة بإطلاق، ورأى آخرون الرحمة

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه الإمام مالك والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي.

بهم، والعطف عليهم؛ وللإمام أحمد ــ رضي الله عنه ــ موقف خاص في هجر بعض أهل العلم الأكابر، في بعض الهفوات؛ فقد نقل عنه الإمام حجة الإسلام الغزالي ــ رحمه الله تعالى ــ في الإحياء، هذه الصور من الهجر:

١ ــ أنه هجر يحيى بن معين وهو من أئمة الحديث والجرح والتعديل ــ لأنه قال: إني لا أسأل أحداً شيئاً، ولو حمل السلطان إليّ شيئاً لأخذته.

٢ ــ وأنه هجر الحارث المحاسبي ــ لأنه صنف في الرد على المعتزلة، وقال: إنك لا بد أن تورد أولاً شبههم، وتحمل الناس على التفكير فيها، ثم ترد عليهم.

٣ ــ وهجر أبا ثور ــ الفقيه الإمام المعروف ــ في تأويله قوله ﷺ: «إن الله تعالى خلق آدم على صورته»[1].

ومن رأي الغزالي رحمه الله ــ أن الهجر في الله، يختلف باختلاف النوايا والأحوال، والصحابة ــ رضي الله تعالى عنهم ــ ما كانوا يهجرون العصاة بالكلية، بل فيهم من يغلظ القول ويظهر البغض؛ وفيهم من يعرض ولا يتعرض؛ وفيهم من ينظر بعين الرحمة، ولا يؤثر المقاطعة؛ ويقول:

«فهذه دقائق دينية، تختلف فيها طرق السالكين لطريق الآخرة، ويكون عمل كل واحد على ما يقتضيه حاله ووقته. ومقتضى الأحوال في هذه الأمور: إما مكروهة أو مندوبة، فتكون في رتبة الفضائل، ولا تنتهي إلى التحريم والإيجاب»[2].

وقد أطلنا بعض الشيء في بحث الهجر، لتعلق كثير من الناس له في أيامنا، تشديداً وتسهيلاً؛ وكلام حجة الإسلام فيه نفيس، وقوله فيه فصل، وتحسن مراجعته للمستزيد وللمستفيد.

---

(١) انظر: إحياء العلوم الدين ج ٢ ص ١٦٦.

(٢) نفس المصدر السابق.

٣ ـ أحباب الله يؤدبهم ربهم في الدنيا، ويعجل عقوبتهم، وأعداؤه يرجئهم إلى عذاب السعير:

أدب النبيّ ﷺ الثلاثة المتخلفين بهجر طويل، ليطهرهم من إثمهم، وليتوب عليهم؛ وقبل عذر المنافقين، وعاملهم بظاهر قولهم، وهم كاذبون في اعتذاراتهم، لهوانهم على الله، فلم يعاتبهم، ولم يعاقبهم بالهجر ونحوه، لأنهم ليسوا في مستوى من يتأثر بالهجر، أو يتطهر بمثل هذا التأديب، وإثمهم في النفاق في قلوبهم لا يكفره إلا الاصطلاء بنار الجحيم، فلذلك تُعجل تطهير كعب وزميليه، وأرجئت عقوبة المنافقين: أولئك أحباب الله، كرماء عنده، فلتغسل عن قريب هفواتهم؛ وهؤلاء أعداء الله، فَلْيَنْسَأْ لهم في العقوبة، وليعجل لهم استمتاعهم في الحياة الدنيا، لكيلا يبقى لهم عند الله يوم القيامة إلا عذاب الهون.

وفي هذا يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده، في عقوبات جرائمهم، فيؤدب عبده المؤمن الذي يحبه، وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظاً حذراً.

وأما من سقط من عينه، وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه؛ وكلما أحدث ذنباً أحدث له نعمة. والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، لا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد، والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «إذا أراد الله بعبد خيراً، عجل له عقوبته في الدنيا؛ وإذا أراد بعبد شراً، أمسك عنه عقوبته في الدنيا، فيرِدُ يوم القيامة بذنوبه»[1].

٤ ـ تشرع العبادة بأنواعها شكراً لله تعالى عند النعمة:

كانت فرحة كعب بن مالك بتوبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه، لا تحدها

---

(١) رواه الترمذي والحاكم.

حدود، ولا تصورها مثل؛ وقد تفنن هو ــ رضي الله تعالى عنه ــ في التعبير عنها بجملة من العبادات منها:

أولاً: أنه خرّ ساجداً لله، لما قال له القائل: أبشر، إذ عرف أنه جاء الفرج.

وكان من عادة الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ أن يسجدوا شكراً لله تعالى، كلما تجددت لهم نعمة، أو انصرفت عنهم نقمة، تعلموا ذلك من رسول الله ﷺ.

يقول أبو بكرة: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خرَّ لله ساجداً»[1].

وسجد أبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لما جاءه خبر قتل مسيلمة الكذاب. وسجد علي ــ كرم الله وجهه ــ لما وجد ذا الثُّدِيَّة مقتولاً في الخوارج.

ثانياً: أنه نزع ثوبيه اللذين كان يلبسهما، فكساهما الذي سمع صوته بالبشرى، وما كان يملك وقتئذ غيرهما؛ ثم استعار ثوبين، فلبسهما؛ ولا شك أن هذا ضرب من الهبة المشروعة؛ فإن كان المبشِّر غنياً كان له هدية، وإن كان فقيراً كان له صدقة؛ وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى، على إنزاله الفرج.

ثالثاً: أنه جعل من توبته أن ينخلع من ماله صدقة لله تعالى ولرسوله ﷺ لكنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ، لم يتقبل منه التصدق بجميع ماله، وقال له: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك.

وكأنه يستشيره بذلك، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله.

كما أشار على أبـي لبابة لما جعل من توبته أن ينخلغ من ماله صدقة لله تعالى ولرسوله، فقال له النبـيّ ﷺ: «يجزىء عنك الثلث»[2] فأشار عليه بإبقاء بعض ماله، وحدده له بالثلث:

وقبل من الصِّديق إخراج ماله كله، وقال له: «ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) رواه الإمام أحمد والدارمي.

لهم الله ورسوله»[1]. وأقر سيدنا عمر على التصدق بشطر ماله.

وأنكر على الذي أصاب مثل بيضة من ذهب، فجاءه بها، وقال: يا رسول الله! أصبت هذه من معدن، فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها، وكرر ذلك. فأخذها فحذفه بها، وقال: «يأتي أحدكم بما يملك، فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول»[2].

فيبدو أن الشريعة لا تستحب أن يخرج المسلم ماله كله صدقة، وأن إبقاء ما يسد الحاجة خير وأوجب. وإن الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ عامل ــ كما يقول ابن القيم رحمه الله ــ كل واحد ممن أراد الصدقة بماله، بما يعلم من حاله، ولا تناقض بين هذه الأخبار.

وإنما ثار الخلاف الفقهي فيمن نذر التصدق بجميع ماله؛ والصدقة مستحبة، والنذر واجب الوفاء، وليس النذر ــ مع ذلك ــ مما نحن فيه، وليس هو مما اتجه إليه كعب ولا أبو لبابة وحكمه ما يلي:

١ ــ فالحنفية قالوا: يخرج جنس مال الزكاة، ولو لم يبلغ نصاباً، ولو كان عليه دين؛ ولو لم يكن له مال سواه أمسك منه قدر قوته، فإذا ملك غيره تصدق بقدر ما أمسك، كما نص عليه ابن عابدين.

٢ ــ وقال مالك وأحمد: يجزئه إخراج الثلث؛ وكأن هذا حمل لحديث كعب على حديث أبي لبابة.

٣ ــ وقال الشافعي: يلزمه التصدق بماله كله؛ لوجوب الوفاء بالنذر في النصيبات.

٤ ــ ووجد من قال: تلزمه كفارة يمين؛ وروي هذا عن الإمام أحمد.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والدارمي، والحاكم وصححه.

(٢) أخرجه أبو داود، وآخره: «خير الصدقة... إلخ» في البخاري.

٥ ــ ونقل ابن قدامة المقدسي عن ربيعة، يخرج منه مقدار الزكاة، حملاً للمطلق على المقيد، إذ لا يجب في المال إلا هذا.

٥ ــ وجوب تنفيذ أمر رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ بكل دقة وحذر:

كانت عقوبة الثلاثة المخلفين هي هجر المجتمع لهم، وعدم تكليمهم. ونفذ الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ هذه العقوبة تنفيذاً دقيقاً:

١ ــ فالرسول ﷺ يكاد يجيب كعباً إذا سلم، ويتشكك كعب في أنه حرك شفتيه في رد السلام؛ فلا يسمع كعب الرد؛ وعلى هذا لم يكن الرد مطلوباً ولا واجباً ــ مع الهجر ــ ، ولو كان واجباً لأسمعه الرد.

٢ ــ والصحابة ــ رضي الله عنهم ــ يلتزمون المقاطعة، فلا سلام، ولا كلام، ولا إجابة عن سؤال؛ حتى قال كعب: «فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها».

٣ ــ وجاء رجل من أنباط الشام، يسأل عن كعب، ليسلمه كتاب ملك غسان، فما قالوا له: هذا هو كعب، بل طفق الناس يشيرون إلى كعب ولا ينطقون باسمه.

٤ ــ ولما تسور كعب جدار ابن عمه، وكان أحب الناس إليه، سلَّم عليه، فما رد عليه ابن عمه هذا السلام؛ وكيف يرده عليه، وقد نُهوا عن تكليمه؟ فناشده الله قائلاً: أنشدك بالله! هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت ولم يجبه، فناشده الثانية فلم يجبه، وناشده الثالثة فلم يزد على قوله: الله ورسوله أعلم. ففاضت عينا كعب، ثم ولى...

٥ ــ وليس ذلك بحسب، فقد أمر الثلاثة باعتزال زوجاتهم، وأن لا يقربوهن، فامتثلوا، وامتثلت نساؤهم المؤمنات.

هكذا، وعلى هذا المنوال، تكون الطاعة لله وللرسول؛ وهذه الطاعة المثلى هي التي تجعل المسلم في رفقة المرضيين في جنات النعيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾[1].

اللهم اجعلنا من عبادك الطائعين، المخلصين لك في امتثال ما أمرت به، واجتناب ما نهيت عنه؛ المستجيبين لك كلما دعوتهم لما يحييهم، المستمعين لقولك، المتبعين لأحسنه، ابتغاء مرضاتك، والمتمسكين بسنة نبيك أفضل الخلق، ونور الوجود سيدنا ومولانا محمد، في الدعوة إليك، والجهاد في سبيلك، صلواتك وسلامك يا رب عليه، وعلى إخوانه من الأنبياء والرسل، وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته، وعلى جميع التابعين، والأئمة المجتهدين، ومن اقتدى بهم، واستضاء بنورهم، عددَ ما كان، وعددَ ما يكون، وعدد ما هو كائن إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكويت ــ الشويخ

الخميس: ٢٧ من شوال ١٤٠٤هـ.

٢٦/ ٧/ ١٩٨٤م.

وكتب

العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني

خادم العلم الشريف وطلابه الشرفاء

محمد فوزي فيض الله

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

وللمسلمين أجمعين.

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٩.

فهرس الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

● ● ●